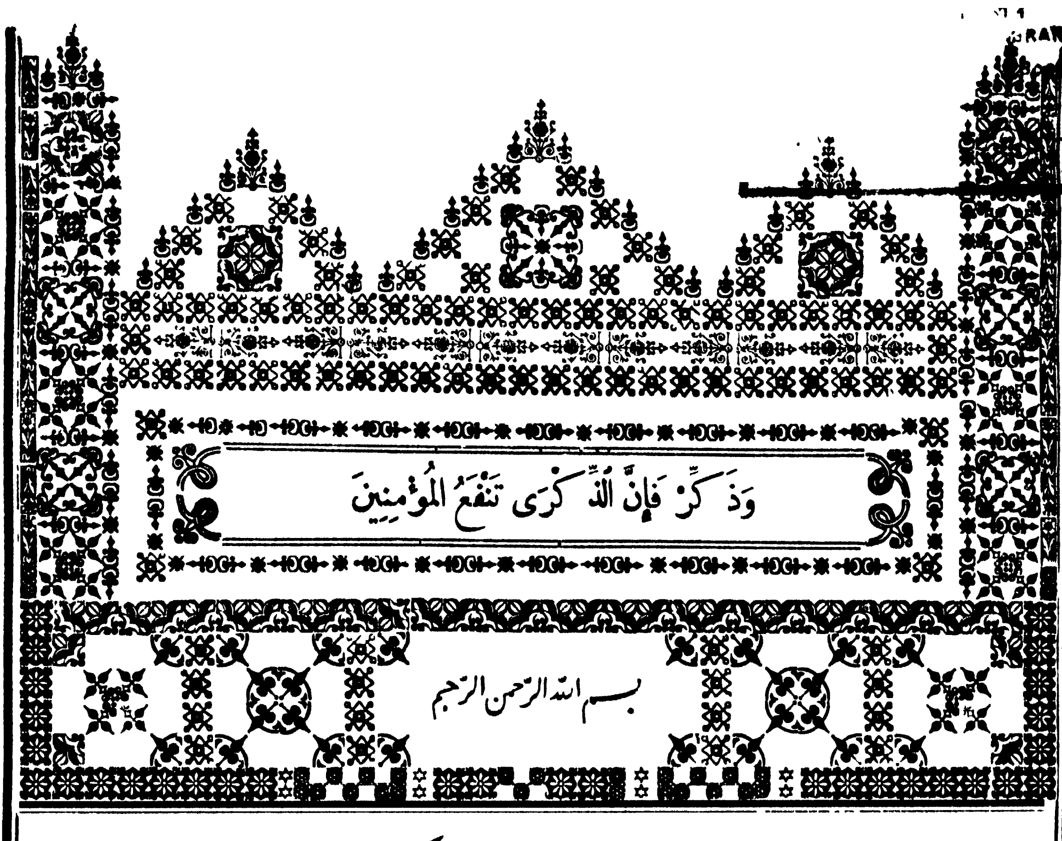


سورة القصص وهى مكية

(إلا من قوله ـ واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ـ الى قوله ـ إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهوأعلم بالمهتدين ـ فدنية ، وآية ـ وماكنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب إلارحمة من ربك فلاتكوننّ ظهيرا للكافرين ـ فبالجحفة أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل)

ولأقدّم قبل تفسير السورة مقدمات ثلاثا قد كنت كتبتها فى كتابى ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفى كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وقد كانت تدرج فى جريدة المؤيد وغيرها قبل وضعها فى الكتاب ، تلك المقدّمات ذات علاقة بالقصص القرآنية المذكورة فى هذه السورة وغيرها

﴿ المقدّمة الأولى . نموذج فى فهم كيفية قصص القرآن ﴾

(التربية والآداب فى قصص القرآن)

طال الأمر على أمّتنا فأهملت مافى غضون كتابها من أساس التربية والحكمة وكيف تنتقى الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال ، ياليت شعرى ما الذى أصابها حتى غضت النظرعن القصص التى قصها وأهملت أمرها وظنّ أهلها انها أمورتاريخية لاتفيد إلا المؤرخين ، القصص فى كل أمة عليها مدارارتقائها سواءاً كانت وضعية أم حقيقية على ألسنة الحيوان أوالانسان أوالجماد ، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها وناهيك بكتاب كليلة ودمنة وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الاسلام ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريرى وان حاد بعضها عن سواء الصراط والجادّة وطغى فخلط الجدّ بالهزل ككتاب (ألف ليلة وليلة) الذى استخلص زبدته الغربيون ، كل يعلم ما صنعت الروايات فى عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال وكيف يسمعون و يعقلون ، جاء القرآن بقصص الأنبياء وهى لاجرم أعلى منالا وأشرف

مزية كيف لا وقد جمعت حسن الأسلوب واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه والقدوة الحسنة بالكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم وتحققها فى أنفسها لوقوع مواردها وأن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الانسان لاسيما لمن يقتدى بهم ، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت فى سواها ككتاب كليلة ودمنة منتقى كتب الهند وترجمة الفرس والاسلام جاء على ألسنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده والروايات المنتشرة فى الغرب أكثرها ايهاما لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لأنفسهم لما تضمنته من النصائح فى بواطنها مع زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرّت كأمس الدابر ومالنا ولها إذن ؟ تالله ان هذا لهو البوار ، ومانحن إلا كما حكى فى هذه الأيام عن فلاح بو يرى فقير بنى منزله الحقير من حمأ مسنون مرصع بقطع من الماس الجيل المقدر بمئات الالوف من الجنيهات جهلها الرجل وعرفها سائح أوروبى فكان ذلك من أهم الاكتشاف فى تلك الأقطار. كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول فى نفسه تارة وعلى الملإ أخرى ياليت شعرى كيف توافق التاريخ وهل الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة فى الاهرام والبرابى والهيلوغريف تؤيده ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتا مندهشا وقد يعثر على قول فلان الفرنسى والانجليزى ممايؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحا ويظن أن هذا مستند للدين وفاته أنه ان وافقه كتاب فقد يخالفه كتب إذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهارير . لعمر العلم لم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها وانها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر ، أما الرجوع الى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم وماسطره الأقدمون على مبانيهم ومايقوله القاصون فى خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضلّ فيه الماهرون ، يرشدك لذلك ماتسمعه من نبأ فتية الكهف وكيف يقول ـ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدّتهم مايعلمهم إلا قليل ـ

فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل فان قال خمسة قالوا ستة وان قال أربعة قالوا سبعة فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص والمقصود منها وليكون عبرة . وبالاجمال فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها والعبر المبصرة للسامعين ـ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ـ ولسنا ممن يتبجح بالقول بلابيان فلا نعتمد إلا على البرهان ، تأمّل ياصاح هذا القصص تجده لايذكر إلا مايناسب الارشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها ولامعوّل عليها فلاترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، ولأقتصر من تلك القصص على ماحكاه عن النبى يوسف الصدّيق عليه السلام وكيف جاوز فيها كل مالاعلاقة له بالأخلاق من مدنية المصريين وأحوالهم الى الخلاصة والثمرة الخ اهـ

﴿ المقدّمة الثانية ﴾

لأذكر لك نموذجا آخر لذلك وهى محادثة جرت بينى وبين فتى فى حديقة الجيزة إذ قال انى اعتقدت أن القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناسا يقولون

(١) إن الدين لاعلاقة له بالكون وهؤلاء علماء أوروبا نراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون فاخبرنى رعاك الله أين أنت من قصة سليمان وماحكاه الله فى القرآن ولقد سئلت أسئلة فلم أقدر على الاجابة عليها فها أنا ذا أعرضها الآن

(٢) كيف سمع سليمان النملة وهى تتكلم ـ حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ـ وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات

(٣) وكيف يقول الرّب ـ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق وأوتينا من كل شئ ـ

وكلمه الهدهد فقال ـ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ـ الآية

(٤) وكيف يقول ـ قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوىّ أمين ـ وكيف يقول ـ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك

(٥) ومالك الأبنية العظيمة المسماة بالمحاريب التى كانوا يعملونها له ـ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ـ الآية

(٦) وماتلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان ، وما تلك القدور الراسيات العظيمات

(٧) وكيف تسيل المعادن من الأرض المرموز لها بقوله ـ وأسلنا له عين القطر ـ أى أسلنا له النحاس كالعين ينبع

(٨) وماهى دابة الأرض التى أكلت عصاه فى قوله ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنّ أن لوكانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ـ

(٩) وكيف سخرت له الريح حتى قال ـ ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ـ شهر أوّل النهار وشهر آخره

(١٠) ماهذه المحاورة التى بين بلقيس وقومها واستشارتهم فى الامور العامّة والسياسة عند وصول كتاب سليمان اليها ـ قالت ياأيها الملؤا أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوّة وأولوا بأس شديد ـ وهذا السؤال الأخير ليس فيه اشكال وانما سألتكم فيه تكميلا للمقام وانى أعتقد أن هذه لاعلاقة لها بالعلوم لبعد منالها عن الافهام ولا ينبغى أن يفهمها إلا العامّة ، أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتلوا الحقائق فالأجدر بهم أن يكفوا عن هذا وسكت . فقلت أيها الفتى إن لكل أمة وجهة توليها وتناسب حالها والأمم التى ذكرت لم يكن فى دياناتها علوم وانما هى مواعظ وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم فنحن على هذا نقرّ لهم بالعلم والحكمة وانما كان هذا شأنهم لأن عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد عما عداها ولم يلتفت قط فى خطابه الى غير ذلك وموسى قبله أخذ بالجسمانيات وأما القرآن فجمع بين الأمرين وتكلم على الجسمانيات والروحانيات وأشار الى العلوم اجمالا فاذا قلدناهم فى ذلك ساءت العقبى لأن المسلمين أمة عوّدها دينها أن يتكلم عن جميع شؤنها اجمالا حتى انه يعلمهم المواريث والأحكام ويفصل بينهم بالحق فاذا جاؤا الى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا فى شؤنهم ولم يجتمعوا على رأى واحد فالقرآن جامع بينهم . وأما مسألة نبىّ الله سليمان عليه السلام فانى أرى انك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدهد وخطابه والأرضة وأكلها العصا مع نبى الله سليمان ويلوح لى أنك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات ، ولقدّم لك مقدّمتين قبل الخوض فى الجواب عن أسئلتك العشر . فقال نعم هات . فقلت تعلم أيها الفتى أن الأمم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والانسان ، ألم تر الى كتاب ﴿ كليلة ودمنة ﴾ نخبة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله فى الاسلام وقد علمت هذا المقام فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلا أطيل بالاعادة

إن الحيوانات على ﴿ قسمين ﴾ حكيمة تعمل الأعمال العجيبة كالنمل فى بناء المساكن والادّخار والأرضة فى الهندسة والاتقان والنحل وغيرها ، فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتها ﴿ والقسم الثانى ﴾ حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس فلاقدرة لها على أعمال النمل ولاالنحل ولادود القز فهى حيوانات عاملة لاعالمة فأعطيت الضعيفة العلم والقوية العمل ، قسمة عادلة ، وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معلمة للانسان ـ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون

مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى .

اذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم أن قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الأنبياء وهم أشرف مايعلمه الانسان وهذه أوّل مزية واضحة الظاهر حقيقية وهى مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والأخلاق ، وهى مرتبة ثالثة خالصة مما لاعلاقة له بذلك وهى مرتبة رابعة ، وهذا نبىّ الله سليمان عليه السلام لم يذكر معه إلا النمل والهدهد والأرضة وهى دابة الأرض ، فظاهر هذه الألفاظ أمور سهلة بسيطة وكلام الهدهد وسمع النمل وأكلت الأرضة عصاه ، فأما الجاهل فتى سمع هذه اكتفى بها وقال كفى بهذه معجزة و يقف عند هذا الحدّ ويظنّ أن هذا غاية مافى القرآن وهذا فى الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ فى المدارس فانه يقرأ الحكاية و يقول مامغزاها وما المقصود منها ، ولما علم أهل أوروبا أن التاريخ جعل للعظة والاعتبار وجهوا اليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علما منهم أن المدار على ثمراته لاسرد حكاياته . ثم ان علماء الاسلام ماوضعوا علوم البلاغة إلا لخدمة القرآن ، ومن أجلّ تلك العلوم فنّ البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التى تشمل جميع الروايات والخيالات وماجاء على ألسنة الحيوان والنبات ومنه مقامات الحريرى واعترضوا عليه بأن هذا خيال يلتبس بالحقيقة ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة فى زماننا هذا ، فأما مثل ﴿ كايلة ودمنة ﴾ الذى جاء على ألسنة الحيوانات فقد قبله جميع علماء الغرب والشرق لظهور أن القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية وهناك نوع يسمى الكناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع ارادة المعنى الأصلى فيكون المعنى الأصلى صحيحا واللازم هو المقصود بالذات وعلى هذا جاء قصص القرآن فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ماوراء ذلك المعنى ، فالعامى يقف عند مجرّد الحكاية ، فاذا سمع مسألة الهدهد مع سليمان والنمل وحد الله وأخلص له وعبده وأخذ يسبح بكرة وأصيلا ، أما العالم فاذا سمع هذا قال ليس القصد من هذه القصة مجرّد الخطاب فان النمل ومسألته والهدهد وخبره والأرضة وأكلها أمور تشير الى ماهو أدق من ذلك وأرقى وكون نبىّ الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير صحيح فى نفسه ولكن الطير ليس عنده من العلم إلا مقادير محدّدة تناسب مأكله ومشربه . إذن هذه الامور تستلزم بطريق الكناية معانى أرقى من هذه مرادة ومقصودة ، واذا كان كل كلام عربى وأعجمى له مغزى فكيف يحرم من هذا كلام الله ولأجله دون فنّ البلاغة ، إن هذا لهو الخسران المبين ، ومن ادّعى أن المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من أن يكون تلميذا بل هو حيوان فالأولى أن يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامّة فليس له فى العلم من نصيب . فقال الفتى مامثال الكناية من كلام العرب ؟ فقلت أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء ، وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح فجيده عاطل من حلى البلاغة ، ولأذكر لك مثالا واحدا لتقيس عليه ماسواه ﴿ دخل صخر أخو الخنساء عليها يوما واستشارها فى أن تتزوّج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب فقالت فى أبيات لها

معاذ الله يرضعنى حبركى * قصير الشبر من جشم بن بكر

فالجاهل اذا سمع مثل هذا يقول أين المناسبة بين السؤال والجواب فهو يقول لها تزوّجى دريدا وهى تقول أعوذ بالله أن أرضع طفلا قصيرا شبره قصير ، أما العالم فانه يعرف اللازم والملزوم و يدرك سرا فهمه العربى فى البادية بدون تعلم بل بالفطرة والمنحة الإلهية وهو انها ان تزوّجت فلابد من الاقتراب والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالبا وأبوه قصير فيكون قصيرا والأعضاء على حسب الجسم ومنها الشبر فيكون قصيرا فاذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمها أن لاتتزوّج أباه المرتب على زواجه مابعده فهذه لوازم وملزومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الأقوام بفطرهم واذا كان هذا كلام اعرابية فى البادية وقد تضمن هذه الحكم وذكرت أمرا صحيحا وهو الامتناع من الارضاع ولكن أرادت ماهو أرقى من ذلك عند الفطن وهو عدم التزوّج بدريد بن الصمة وهو المقصود بالجواب وقد

عدّ هذا من أجل طبقات البلاغة فمابالك ياسيدى بالقرآن الذى هو سيد الكلام فكيف لا يكون فيه كنايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم وعجائب وغرائب ، ولو نظرت فى كلام العرب بامعان لرأيت فيه كثيرا من ذلك جدا فمابالك بكلام الله جلّ جلاله . الله أكبر كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر المدقق ، ومامثل الكلام السهل الممتنع إلا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفا عنده لشدّة وضوحه ، فاذا نظر العالم فيه و بحث عنه وقف على كنهه ، وهاهم العلماء قديما وحديثا يبحثون عن كنهه ولا يزالون مختلفين الى يوم الدين ، العلماء ﴿ثلاثة﴾ عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيرا بسيطا كل لفظة بما يراد منها وهذا فى طبقة العامّة لم يعتزعنهم والعامّة بمثل هذا مولعون وهو وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرّف فيه بالمجاز تارة والكناية أخرى والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه وهذا متوسط فى العلم وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل و يركب فى المعلومات وهذا هو العالم حقا وهو الحكيم الذى يأخذ بأمّته الى العلا وهو الذى أشار له الله فى قوله ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ـ فتأمّل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله فى الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه وعجائبه والى هذه الطبقات الاشارة بقوله ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم ـ اشارة الى الطبقة الأولى ـ والذين أوتوا العلم درجات ـ اشارة الى الطبقتين بعدها وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس « بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض اشارة الى تفاوتهم فى الفهم كما هو مشاهد محسوس فى كل فنّ من الفنون ، فاذا لم يمكنك أن تكون من الحكماء فاجتهد أن تكون من علماء البلاغة وهم أوساط الأمم الذين الذين يناط بهم التحرير والانشاء ومن سمع آية من القرآن فان كان من الفريق الأوّل وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم إلا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة فان ترقوا قليلا للبلاغة فياحبذا ، ولقد أصبحت الأمم جمعاء تنحو هذا النحو فى تعليم صغار تلامذة المدارس وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهود ، فمن ظنّ أن القرآن لايفهم فالأجل به أن يصمت و يعتزل العلماء . عجبا أن يكون لكل حكاية فى العالم مغزى يراد منها و يسلب هذه المكرمة أبلغ الكلام ، أين البلاغة إذن ؟ فقال الفتى كفى هذا وأرجو أن أسمع ماترمز اليه هذه القصة فأجلته الى الغد ، رجعنا الى الحديقة ، فقلت يابنىّ إن هذه القصص تشير الى مدنية كانت عند نبىّ الله سليمان فان مدار المدنية الآن على

(١) سرعة نقل الأخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلاسلك

(٢) وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية (البالون) الذى سيخلف السكك الحديدية الأرضية بواسطة تبخير الغازات التى هى أخف من الهواء

(٣) وانشاء المبانى العظيمة

(٤) وفنّ النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة

(٥) واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها

(٦) والتدبير والاحكام والهندسة

(٧) والسياسة بالتشاور وجعل الأمر بيد الأمّة وأن لايستبدّ الحاكم بالرأى

(٨) والاعتماد على النفس

(٩) والتحلى بالعلوم والمعارف

(١٠) والاقتداء بالصنعة الإلهية

فهل المدنية غيرماذكرت لك الآن ؟ فقال الفتى هذه أمورعامة داخل تحتها فروع كثيرة . قلت الهدهد اشارة الى أن النبي سليمان عليه السلام أعطى سهولة نقل الأخبار بأيّ طريقة من طرق النقل والهدهد رمز لذلك وقد أعطى حكمة ورثها عن آبائه وأيدها الوحي بها فنقل الأخبار بسرعة ليس خاصا بالهدهد بل به و بغيره ولعلّ عنده ماهوأرقى مما عندنا على سبيل الكناية . وتسخير الريح له اشارة الى أن وسائط النقل متوفرة عنده عليه السلام حتى وصل الى استخدام الريح الذى يبحث عنه الاورو بيون الآن بالطيارات المعروفة وان كان للنبي معجزة لايصل لها البشر ولغيره بالعمل وهوأقل وأضعف و يقال ان النقل فى مستقبل الأمر يكون بها لتخلوا الأرض للزراعة والمنافع الأخرى ويشارك الانسان الطير فى الطيران وهذا كان سرا لايعلمه إلا ذلك النبي معجزة له ، ذكره الله فى القرآن ليجدّ الناس فى العلوم لعلهم يصلون الى بعضه ، أما الوصول الى غايته فلن يصل أحد اليه ، وأشارالى المبانى العظيمة بقوله ـ يعملون له مايشاء من محاريب ـ . وأما فن النقش والتصوير ففى قوله ـ وتماثيل ـ وأما استخدام المعادن فهى قوله ـ وأسلنا له عين القطر ـ وهو النحاس فقط وهو رمز الى المعادن على اختلاف أنواعها من اطلاق اللفظ وارادة لازمة أوالجزء وارادة الكل إذ المدنية الهائلة العظيمة تستلزم الترقى فى استخراج المعادن ، وأما التدبير والاحكام فى الصناعات واتقانها فاليه الاشارة بفهم كلام النملة وسماعها ولذلك يقول ـ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ـ فأطلق وأريد به لازم معناه وهى الحكم والمعارف والعلوم والنظامات التى أودعت فى الطير والحيوان وليس القصد مجرد تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على أشياء لاتخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان من مأكل ومشرب لاتعنى نبيا من الأنبياء إلا للاعجاز والتحدى والا فهوأرقى وأوسع علما ، فنبى الله سليمان أوتى الحكمة والعلم أشارله بقوله بعد ذلك ـ وأوتينا من كل شئ ـ ثم أخذ يسرد حكايات النمل والهدهد ليدلك على الحكمة التى أعطيها حتى لم يذكر فى قصته إلا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقر فى قصته إذ هو عليه السلام نبيّ وحكيم ورث بعض العلم عن آبائه الذين ألقيت اليهم النبوّة والحكمة ، أماسيدنا ونبينا محمد ﷺ فلم يكن علمه ميراثا وانما جاء كله بطريق الوحى فهوأميّ لأمّة أمّية جاء فى جزيرة العرب لهم خاصة وللناس عامّة فأمرهم بالتوحيد والنظر فى الكون والأخذ بأحسنه ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له ـ فبهداهم اقتده ـ فأمره بأن يقتدى بهم ومنهم نبيّ الله سليمان وقد أوتى الحكمة والعلم فوجب إذن على أتباعه أن ينظروا فى قصته و يطلبوا العلم الذى يرقى مدنيتهم من الأمم حولهم فان بعض العلوم التى عند نبيّ الله سليمان ورثها عن آبائه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان ، وقد كان فيثاغورس تلميذا لنبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام كما قيل وقد انتشر علمه فى اليونان والهند كما فى كتاب ﴿ الملل والنحل ﴾ ومنهم الى الرومان فالعرب فأهل أوروبا فكان أدوارا شتى وطرقا مختلفة فقصة سليمان اشارة لمدنية قديمة معلوم عهدها مجهولة آثارها إذ سندهم متصل بقدماء المصريين وكان بيت بنى اسرائيل مجتمع الحكمة من الأمم الغابرة ودام ملكهم قرونا متطاولة ولذلك لما خرجوا من مصرأمرهم موسى بذبح البقرة لأن أذهانهم قريبة عهد بالعجل المسمى ابيس وعبادة المصريين له ولهذه الحادثة سميت بها أكبرسورة فى القرآن فقيل سورة البقرة وكان بنواسرائيل إذ ذاك غلاظا شدادا لايفقهون الحكم فأمروا بذبح البقرة التى على هيئة عجل (ابيس) معبود المصريين ولما كثر فيهم الأنبياء وتمادى الزمان رقت أذهانهم وجاء فيهم نبيّ الله سليمان عليه السلام وأوتى الملك والحكمة وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وذكر حديث النمل وغيره ، فتأمّل رعاك الله تجد الأمم المتأخرة الآن تبحث عن هذه الحيوانات وتتأملها حتى فى أصغر كتاب للتلامذة ، فيزان الأمة نظرها فى الكون ، فكلما دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الأشياء ترقوا فى المدنية والعكس بالعكس وهذا هوالمقصود بذكر هذه الحيوانات فى قصة ذلك النبي ، ومن العجيب أن السورة التى ذكر فيها النمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة

وانى لا أزال أيها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات فى قصة سليمان ولم يقل نخاطب البقرة والخيل والحكمة ماعلمت فقال الفتى كفى فى هذا السؤال . فقلت وأما التشاور فى الأمر فهو ظاهر من محاورة بلقيس لقومها واستشارتهم فى الأمر وآدابها وآدابهم وهذا ظاهر لايحتاج الى ايضاح . وأما الاعتماد على النفس فهو ماذكره من مسألة العفريت من الجن وادّعاء الجن انهم يعلمون الغيب فقال تعالى ـ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك ـ فبهذا هداية للانسان انه متى حاز النهاية فى العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات إذ هو خليفة فى الأرض وهو أقوى من الجنّ ، فهذه أوّل داع لذوى العقول أن يتقدّموا فى العلوم والمعارف وقال ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ـ فهذه كلها تريك أن الاتكال على الاخبار بالغيب عجز وجهل بل الاهتداء بالامور المعهودة والتأمّل فى أعمال الخليقة يهدى الانسان الى الطريق الأقوم فان كثيرا من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعوّل عليهم ماعدا المعصومين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والعفريت والجنّ فى هذه الآية يناسب ماانتشر فى أوروبا الآن من ظهور عالم الأرواح وتكليمهم إياهم بما هو شائع مستفيض والجنّ والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين فى أوروبا وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الانسان لايلتفت الى كل خبر منهم بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضح من هذه الآية ، ونتيجة ذلك أن الاعتماد على النفس والعقل فى كل شئ علوّ للهمة فى العلوم والمعارف وأن الانسان فى علمه فوق الجنّ مكانة كما فى مسألة دلالة دابة الأرض على موت سليمان وجهل الجنّ به والانسان أسمى قوّة كما فى نقل عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر . فقال الشاب وكيف انتقل سريعا وبين الشام واليمن شهر . فقلت ذلك اشارة الى أن فوق هذه المدنية الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى وان كان ذلك معجزة للنبى سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن يطلب الأخذ بالأسباب لكل مايسهل وسائل النقل والاسراع فيها . أما الاجتهاد فى العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله ـ قال الذى عنده علم من الكتاب ـ وأما الاهتداء بالكون والصنعة الإلهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمّل فى النمل وانظر . فقال الشاب مارأيت أعجب من هذا البيان ثم قال الفتى أخبرنى عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله فى القرآن ومالنا بهم من علم وفى أى زمن خروجهم ؟ فقلت أيها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه فى ﴿ مجلة الهلال ﴾ وهى فى نظام العالم والأمم وقد تقدّم فى سورة الكهف .

﴿ المقدّمة الثالثة ﴾

(أحوال الدول فى قصص فرعون وموسى عليه السلام)

الانسان فى حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أوعالم فاما مكبا على وجهه أوسويا على صراط مستقيم . كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أوالأقربون أوالاخوان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير أوالشرّ ، وبمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أوالشقاء ، والتاريخ مثل واضح يمثل به الانسان سيره فى نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الاصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولاجرم انه يسدّ عوز الحكيم اذا عقل فى سيرته الشخصية والمنزلية ، أماسيرة المدن وتقلبها فرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الأخلاق فى شكل بهيج جيل . لعمرك ليس كل تاريخ يغنى « وما كل مصقول الحديد يمانى » فقد يستسمن ذوالورم وينفخ فى غير ضرم ، يسرد المؤرخ حكايات الأوّلين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر إلا فى آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أوشرا فيخرج القارئ من بساتينها

مقتطفا من رياضـها أزهارا وجالبا من أشجارها أثمارا ، ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلافائدة وضياع وقت وحياة . نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين وقد كان فرعون يقول ـ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ـ ذلك تذكرة للكاتب والقارئ لأنا نعلم انه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارئ نفسه كما يشعر به قارئ رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو سبحانه وتعالى يقول ـ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ـ والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارئ التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفن الألفاظ الى الحقائق ويقول تعالى ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ ويقول جلّ وعزّ ـ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ـ ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام « ماتحت الشمس من جديد » ويقول علماء العصر « التاريخ يعيد نفسه » غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة . جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها ، فمن أجهل ممن جد على الألفاظ دون معناها والمعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام « شيبتنى هود وأخواتها » وترى كثيرا من الأدباء اذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيرا من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية واقداما أوخيفة واحجاما فزال المراء ورفع الغطاء ، إن الخبر فى مغزاه كالسهم فى مرماه فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الأمم فى قصص فرعون وموسى عليه السلام

أشرنا فيما تقدم الى أن تاريخ مصر أمسّ بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم إلا انهم كانوا فى ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبىّ الله ادريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيبا ومهندسا وإلهيا ، وورد انه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن فى النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا فى ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثارا لجلاله ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن وبقى التوحيد سرا مكتوما عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبى موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع فى الخاصة وهم القليل وآمن بنواسرائيل وبقى المصريون فى عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم ـ فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين ـ فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الاشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ماسدّد عليهم فأصماهم وأقصد القلب الابقوس من شعائر دينهم . عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرّة فوضعها قمبيز بين الجيشين فتحرّج المصرى عن قتلها فأصابها وأصابه قمبيز فملك وقتل وسبى وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين وكان ماكان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ماحرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوسمه بما وسم امام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى ، كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل ياعمرو فينا * ولكن جئت فى الزمن الأخير

فأكثرهم أبيد بيد الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى عن ادريس عليه السلام

﴿ يامصر ، يامصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحجارك ﴾ والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون ـ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين * ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ـ

العبرة فى هذا أن الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لابد لها من اصلاح فاما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين والافلامناص لها من السير على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة وأن الأمة اذا ظلت عاكفة على مجهول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد ، طفلة كل مرب ، زوجة كل بعل ، وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والاشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار ، فهكذا ياقوم فليكن حالنا اليوم فـادمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القانصين ولوساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا فى ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله انما ينزلها للمحسنين عملا ـ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ـ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ـ إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماسحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض ، فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما أهل مصر الحاضرون فـاغشيهم ماغشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها ، وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل فى الفلاحين وتضعف فى أهل الامصار والمدن الكبار إلا فى أناس أرجعها لهم التعليم إن صح فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولاأرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمرا زمرا زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وأن مافى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين ، كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم ، فاذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا ، كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى فى أقرب الأزمنة متى تعلموا ، وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهى جنين ، وكيف تشب وهى طفلة لعوب

﴿ انشاء الأمم ﴾

سبق القول انا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لامحيص عنها . للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالإنسان طفل فشاب فشيخ فميت ، وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الأفلاك أو بالولادة فى العناصر . الزوجان من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلامناص منه للجمهور شاؤا أم أبوا ، فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها . ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلاتلبث أن تمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور ـ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ـ وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وماكان من تمزق الرومان بأيدى

الفاتكين

الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزّقوها كل ممزّق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحقّ عليها القول ، هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى أعصر النبوّة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ

هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فللرقى أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدّمنا انها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصا ليتعظوا و يقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب و يعتبروا بالأمم السالفة ـ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم ـ وقد استخلصنا أسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ، ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ماعنده من الهبات والمنح

العشرة الاول أن تمنح الامة رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه فأخلصوا فى أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا رياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم هبة لهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام فى سقى الغنم إذ ـ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ـ فرفع الحجر عن البئر ـ فسقى لهما ثم تولى الى الظل ـ وكان ما كان من زواجه باحدى الابنتين ورعيه الغنم (١٠) سنين ، وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكية وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(١) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما فى الامكان واجتذابها اليها بما جل من العلم والمعرفة كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب ـ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى * اذهبا الى فرعون انه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ـ الى أن قال ـ فأرسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ـ فجمع بين الارشاد واللين فى القول أو الشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعا على كل من أوتى حكمة فى القول وجاها وعلما وقدرة أن يتذرّع بها الى الأمم المسيطرة على أمّته ليريهم وجه الصواب والخطأ و يسعى فى علوّ شأن أمّته ، لهذا نزل القرآن لاتغنيا أو اعرابا لحسب أو تاريخا ، ومن أعطاه الله حكمة أو جاها فانتبذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفا حكمة عامّة الأديان

(٢) القوّة العلمية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامّة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدإ واحد ، يشير الى الأوّل قوله تعالى فى موسى ـ قال فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ وقوله ـ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا * وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ـ فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والأنفس الراقية وهى تشير الى مايعقله العقلاء و يتباهى به الحكماء ثم تلقفت عصاه إفك السحرة وأخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٣) الأنفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف العار بازالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى ـ فوكزه موسى فقضى عليه ـ وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوّة والعلم انه سيضل به الوالدان ، فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح ، فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٤) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى أحسن كما احتال

الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها — وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا — وهكذا أم موسى وضعته فى التابوت لنجاته قال تعالى — فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنارادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين —

(٥) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر ، ألم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق — وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون — الخ هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له — اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال ربّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى — وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلنهم ولو وحدى وليس قصدنا من هذا إلا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمتى صحّ لديك البرهان فكن على مبدئك ولاتبال بعاذل أولائم

(٦) اشعار النفوس بالشهامة وعلوّ النفس وأن لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة — وانى فضلتكم على العالمين — تذكرة لهم فى زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى ، كيف وهذه الأمة عموما وجهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الأرض مدنوا العالم ، منا الأمويون والعباسيون والفاطميون ، وما الطولونيون والاخشيدون إلا موالى آبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوّخوا هذه البلاد إلا من موالى أسلافنا ، ولقد أدركت القوم فى القرى إبان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف وينشدون الأشعار الحماسية ، وماعهد اكتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد . ولعمرى لأن تمتلئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الأعلام مرتاعة الأفئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أوذرات الهباء خائرات القوى

(٧) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع لبنى اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة — قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلاتأس على القوم الفاسقين —

(٨) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ، ألم ترالى موسى عليه السلام كيف مرّ ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(٩و١٠) ازدواج اللين والشدّة وقد كان للاولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام

هذه العشرة متى ظهرت فى أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهى عشرة سنذكرها فى مقال آت إن شاء الله تعالى

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال « اخلاص العمل لأمتهم والحق والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم ، ومامن أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم أوالثواب الجميل والشوق الى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولوأذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام ، فلاأمة تفعل مافعلت الفراعنة فى بنى اسرائيل ومع هذا لم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة

والثبات

والثبات على المبدإ مهما عارضه الأقربون والأدنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها فلاينبغى أن تصغى الأمة الى من يصغرها فى عينها . ولقد قال ابن خلدون رحمه الله « إن هؤلاء الذين يسكنون الخيام فى البادية هم أبناء ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول اننا قبائل نزحنا الى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال قريبة العهد لاتقتضى بأن يضرب علينا الذل والمسكنة ولايقال فى مصر « هى لمن غلب » فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون - وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عندالحاجة مكانا أوصفات أوأخلاقا أوملكا الخ »

هذا ملخص ماذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التى قلنا انهاهبات من الله وهى تساوقها بلاترتيب ولاتعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الإلهام وذلك يكشف الغطاء عن القول فتظهر لهم وجوه المنافع ومساوى المضار فان النفوس اذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول الى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم واليه الاشارة بقوله تعالى - وأوحينا الى أم موسى - وهذا وان كان بلاكسب ففيه اشارة الى مانحن فيه

(٢) اجابة الدعاء والنصر - قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما -

(٣) شد الازر وتقوية الأفئدة بالاخوان والأنصار - قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلايصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون -

(٤) و (٥) النصر والنجاة من الضر - ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين -

(٦) الهداية الى الطريقة المثلى - وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم -

(٧) حسن السمعة والذكر والصيت - وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون * إنا كذلك نجزى المحسنين -

(٨) القربى من الله تعالى - وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا -

(٩) التمكن من الخلافة فى الأرض - ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون -

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين - ألم تر الى حديث رجل من آل فرعون - وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله - فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة أن قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك إن فى هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أوجاها أوحكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أوجاهه أوقلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادى مواليا وهذا يتم بصبر كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين - ولما جاهد بنواسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر فى التلاشى إذ ذاك ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين و بطالسة - وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون - انتهت المقدمات

﴿ تفسير السورة ﴾

(هى أربعة أقسام)

﴿ القسم الأول ﴾ فى قصص موسى عليه السلام من أول السورة الى قوله ـ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ من قوله ـ ولولا أن تصيبهم مصيبة ـ الى قوله ـ فعسى أن يكون من المفلحين ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ الى قوله ـ وضل عنهم ما كانوا يفترون ـ

﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله ـ إن قارون كان من قوم موسى ـ الى آخر السورة

(القِسْم الأَوَّلُ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا
أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ
مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ
تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى
يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ
إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ
إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ
آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ
رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) تقدم فى أول سورة آل عمران (تلك آيات الكتاب المبين) إن هذه السورة آيات القرآن المبين يقال بان الشئ وأبان بمعنى واحد . ويقال أبنته فأبان لازم ومتعدّ والمعنى مبين خيره و بركته أومبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد (نتلوا عليك) نقرأ عليك أى يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو قوله (من نبأموسى وفرعون) أى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال كوننا محقين (لقوم يؤمنون) لأنهم هم المنتفعون به ، وههنا ذكر ﴿فصلين﴾ فصلا يدل على علوّ فرعون فى الأرض وظلمه وفصلا يدل على أن المظلومين نصرهم الله ليفهم المسلمين انهم ان كانوا مظلومين والناس تؤذيهم كما كانوا فى مكة فان الله ينصرهم كما حصل بعد ذلك وهكذا اليوم هم أذلاء بظلم الأمم لهم وهوالآن يريد نصرهم لأنهم مستضعفون وأيضا يريد الله أن يفهم المسلمين أنهم ان ملكوا الأرض لا يطغون والا دالت دولتهم كما حصل سابقا لهم ولأمم بعدهم . إنهم أسرفوا فى الشهوات وهم فى الأندلس فأذلهم الأسبان فأخرجوهم أجمعين والأسبان طاردوا المسلمين فى أصقاع أفريقية ولكن الله يريد أن يمنّ على الذين استضعفوا فى أرض أفريقية من المغاربة المسلمين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، ولقد ابتدأ ذلك بقتال أهل الريف ورئيسهم عبد الكريم جنود

الأسبان ، ولقد قتلوا منهم مابين أربعة آلاف وعشرة آلاف فى الحقول والقفارحتى ان مكاتبا أفرنجيا وصف ذلك وصفا مريعا فقال انه عدّ فى عشرين دقيقة (٣٥٠) قتيـلا وأن القتلى فى طول الحقول والقفار وعرضها لاتجد من يدفنها ولامقابرلهـا إلا بطون الغربان والجوارح الحائمة والـكلاب العاوية وهذا من أسرار هـذه الآية ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ ولـكن بعد هذا نفى عبدالكريم ولم يتم الاستقلال اهـ

وهاك ذكر الفصلين ﴿ الفصل الأوّل ﴾

قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) وهذا تبيان لبعض نبأ موسى وفرعون والمراد بالأرض أرض مصر (وجعل أهلها شيعا) فرقا وقد استعمل كل صنف فى عمل وجعلهم أحزابا أغرى بعضهم ببعض كيلا يتفقوا عليه كما هى سياسة الأمة الانجليزية وعنوانها فرّق تسد (يستضعف طائفة منهم) وهم بنواسرائيل وأبدل من ـ يستضعف ـ قوله (يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين) ذلك لأن كاهنا أخبره أن مولودا يولد من بنى اسرائيل يذهب ملكك على يده فلذلك اجترأ على القتل ، فلخص هذا الفصل

(١) أنه علا فى الأرض

(٢) واستضعف حزبا من أحزاب مصر

(٣) وقتل الأبناء

(٤) واستبقى النساء

(٥) وانه مفسد

﴿ والفصل الثانى ﴾ ذكر فيه سبحانه انه قابل الخمسة الأولى بخمسة وهى

(١) يمنّ أى يتفضل ـ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ بانقاذهم من بأس فرعون

(٢) قال ـ ونجعلهم أئمة ـ مقدّمين فى أمر الدارين

(٣) ـ ونجعلهم الوارثين ـ لأرض الشأم

(٤) ـ ونمكن لهم فى الأرض ـ أرض الشأم فنسلطهم عليها

(٥) ـ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ـ من بنى اسرائيل ـ ماكانوا يحذرون ـ من ذهاب ملكهم وهلاكهم بالاغراق

هذان الفصلان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار قال تعالى ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ ولقد حصل هذا فى كل زمان ومكان ، أفلاترى كيف أحاطت أوروبا بالأمة التركية فقضت على ملكها ثم قام طائفة منهم بالأناضول فأزالوا الظلم وأرجعوا الملك وتمّ نظيره فى بلاد الفرس و بلاد الأفغان ، ولقد كانت الدولة الروسية قائمة بالقياصرة فاستبدّوا بنحو مائة وعشرة ملايين من الناس وكانت البلاد بأيدى أفراد من العظماء والثروة كلها فى أيديهم فقتل القيصر وبدد وشرد جيع الاغنياء واقتسم الناس تلك الثروة فى تلك الأصقاع وصارت الأمة باشفية ، فهذا هو ما قاله الله هنا ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ فهذا هو الحاصل الآن ، أصبح المساكين الصعاليك فى يدهم مقاليد الحكم فى تلك البلاد و يودّون أن يعمموه فى سائر الاقطار وهم لذلك ساعون

(رأى سقراط فى السياسة)

(١) يرى سقراط فى السياسة أن الحكم يكون بأيدى قوم يصطفون من الشعب يتعلمون تعليما أرقى من سائر الناس مع التعليم العسكرى

(٢) فاذا انقرض هؤلاء تولى الحكم قوّاد الجيوش وهم أقل ممن قبلهم رتبة

(٣) فاذا تمادى الزمان قام بالأمر أبناؤهم الذين لاهم حكماء ولاقوّاد ولكن ميزتهم انما هو المال

فكل عملهم لأجل المال

(٤) ويعقب هؤلاء أن الأمة تقوم فتقسم مالهم وتزيل ملكهم و يصير الحكم فوضى لارابط ولارادع

(٥) ثم يتولى فرد يقهرهم و يسخرهم ويذلهم

فالحكومات عنده ﴿ خمس درجات ﴾ أرقاها حكومة الحكماء والفلاسفة وأدنى منها الحكومة العسكرية و يليها حكومة ذوى المال والشهوات والترف ، ثم حكومة المجموع الذى هو أشبه بالفوضى ثم حكومة الفرد ، فالحكومة الرابعة لامناص منها اذا استبدّ الأغنياء وأرباب الشهوات بالأمر فأخذوا المال وحدهم وسخروا الأمة لمطالبهم ، وهذا هو الذى حصل فى بلاد الروسيا إذ قام الشعب فأزال القياصرة وأرباب الأموال وهذا من قوله تعالى ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ اللهم إن الشرق الآن ضعيف فليقم فيه قائمون ليرجع اليه مجده ويزيل الظالمين من أرضه

وهنا أذكر لك ﴿ حادثتين * الحادثة الأولى ﴾ وقعت أيام الفراعنة فقد جاء فى بعض المجلات فى بلادنا وهى مجلة «كل شئ» مانصه

(البولشفيه فى مصر قبل ٤٠٠٠ سنة)

كلما تفاقمت الشرور وتعاظم الناس أمرها شعروا كأن نهاية العالم قداقتربت وهذا ماشعر به المسلمون عند قدوم التتار عليهم وماشعر به الأقباط عند ما اضطهدهم (دقلديانوس) وهذا أيضا ماشعر به النبلاء فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٩١٧ عند نشوب الثورة ولعلّ فى هذا الشعور رحمة للمضطهدين لأنه يعزيهم عن فقدهم مجدهم و يوهمهم أن العالم كله سيذهب بعدهم بقليل

وقد حدث سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ثورة بولشفية فى مصر تغلبت فيها الكثرة من العامة على القلة من الخاصة وطردتهم من الأرض والمسكن واحتلت مكانهم وكان ذلك فى الأسرة العاشرة ، والغريب فى هذه الثورات القديم منها والحديث أن يسبقها على الدوام ثورة فكرية تهيئ الأذهان للانقلابات القادمة ، فأدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر طبخوا الثورة طبخا فى أذهانهم قبل وقوعها ، وأدباء روسيا هم الذين أحدثوا الشيوعية فى كتبهم قبل أن يقتل الثائرون القيصر وأسرته ، وكذلك الحال فى مصر فى الأسرة التاسعة كانت مشهورة بكثرة المفكرين حتى اذا جاءت الأسرة العاشرة كانت العقائد قد تزعزعت وزالت من النفوس تلك الكرامة التى كانت للحكام والأخلاق ، وكانت الاسرة العاشرة تحكم الوجه البحرى وجزأ من الوجه القبلى وكان فى طيبة أمام الاقصر أسرة فرعونية أخرى تحكم جزأ صغيرا من الصعيد ، وفى هذه الاسرة العاشرة انهزم سلطان فرعون وأخذ كبار القوّاد والاعيان يؤلفون الجيوش يقاتل بعضهم بعضا حتى ساءت ادارة البلاد وكثر اللصوص وعمّ القحط فقام العمال فجأة وهجموا على الاغنياء فقتلوهم واستولوا هم على الارض والمنازل

ونحن نعرف خبر هذه الثورة من كاتب مصرى يدعى (ابفور) رأى بعينيه هذه الثورة وكان أمينا لفرعون يواليه وكان فرعون قد فرّ من أعدائه الى مكان خارج مصر فأرسل اليه (ابفور) خطابا يستحثه على الرجوع لكي يعيد النظام الى نصابه ومما قاله فى خطابه هذا ﴿ إن الناس قد ثاروا على التاج وقامت منهم طائفة قليلة العدد لانظام لها تريد التخلص من الملوكية ، وقد ذهب النظام القديم وهدم البلاط فى لحظة وطرد العمال الملك وأصبحت خزانة الدولة ملكا لكل انسان ﴾

و بعد ذلك يصف أحوال الناس فى تلك الفوضى فيقول ﴿ إن من لم يكن يملك شيأ قد أصبح الآن غنيا فأثرى فقراء البلاد و بات الأغنياء لايملكون شيأ ، ومن كان قبلا خادما قد صار الآن مخدوما وكفّ الخدم عن تأدية المهام التى يكلفهم بها أسيادهم وصاروا لايخشون مخالفة أوامرهم وانطلق لسان الخادمات حتى صرن

لايطقن كلة من سيداتهن وهؤلاء الخادمات يزين نحورهن بالذهب والجواهر ومع أن البلاد لاتزال غنية فان ربات البيوت يقلن « ليتنا نجد شيأ نأكله » وذلك لأن الفقراء قد امتلكوا البلاد ﴾

ثم يقول ﴿ إن من كانوا يلبسون الملابس الفاخرة قد صاروا الآن يلبسون الاهدام البالية ، ومن لم يكن يجد الخبز قد صار له بيدر وامتلأت خزائنه بأموال الناس ، ومن لم تكن ترى وجهها إلا فى الماء قد صارت تقتنى المرآة ، فالأغنياء فى حزن ومن كانوا فى فقر يفرحون الآن ، ومن كان له أب عظيم صار لايعرف الآن أو يميز من لم يكن له أب مثله لأن عائلات النبلاء طردت من بيوتها الى الشوارع ، وقد جاع الأمراء والأميرات وصارت أجسامهن فى حال محزنة للخرق والاسمال التى يلبسونها ﴾

ثم يقول (ابفور) أيضا ﴿ لقد حدثت حوادث مدلهمة فحملت أطفال النبلاء وضربوا بالحائط ، وفتحت المحاكم و بعثر مافيها من الكتب وداس عليها الناس فى الأماكن العامة وسرقت مصالح الحكومة وذبح الموظفون وأخذت أوراقهم وكل شئ صار فى خراب وجميع البلاد تقول هلموا نذل الولاة والحكام وذوى السلطان بيننا ومع ان الناس ينادون بالحق بأفواههم فان مايفعلونه هو الباطل ﴾ ثم يصف بعد ذلك ثمرات الثورة يقول ﴿ إن وجوه الناس شاحبة لأن المجرمين مطلقون ولم يبق أحد من ذوى السلطان فاذا قصد الفلاح الى حقله حمل معه سلاحه و يقول الخدم هلموا نسرق شيأ ، والأب يقاتل ابنه و يعد أخاه عدوا له ، وقد قست قلوب الناس والدم يسفك فى كل مكان والموت يحصد الناس وليس بالبلاد صناع يعملون الآن ، وكف الناس عن حرث الأرض وصارت المواشى ترعى هاملة سائبة ليس لها راع ، والناس يأكلون العشب و يشربون عليه الماء وتؤخذ الأعمدة والبوابات والسياجات للحريق والصناديق المصنوعة من الأبنوس تحطم ﴾ انتهى

﴿ الحادثة الثانية ﴾

إن الأمة الانجليزية التى تحكم بلادنا قد انتصر العمال فيها ولكن هذا الانتصار مبنى على العقل وعلى الحكمة لاعلى الظلم والفتك كما فعل الروس والمصريون القدماء وهذا ماجاء بجريدة الاهرام يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ عند طبع تفسير هذه الآية (فى بريطانيا العظمى)

« انتخبت (مس بوند فيلد) وزيرة العمال وهى أول امرأة فى تاريخ الانجليز ذكية الفؤاد كفء تشترك مع الرجل فى تخطيط سياسة الامبراطورية ومصير بلادها ، فهى تفتخر كذلك بأنها كانت عاملة فى دكان كما يفتخر رئيسها المستر (ماكدونالد) بأنه لما وصل الى لندن لأول مرة فى حياته كان لايمتلك أكثر من شلنين ونصف وكان يستبدل الشاى بالماء الساخن فى شربه ولاتزيد مصاريف يومه عن ثمانية بنسات ، هذا هو المستر (ماكدونالد) مدير الأمبراطورية اليوم ، وهذه مس (بوند فيلد) يوضع اليوم فى يدها أهم مشكلة تعانيها الامبراطورية منذ ربع قرن ، ولم تكن (مس بوند فيلد) شديدة التأثر والانفعال بل كانت أشد من زملائها الوزراء من الرجال حينما ذهب أعضاء الوزارة الجديدة الى قصر وندسور لمقابلة جلالة ملك الانجليز فقد كانت تسير بين الجمهور بجنان ثابت وعزيمة قوية إذ ابتسمت وهزت رأسها حينما سئلت عما اذا كان المركز يثقلها وقالت لا ياعزيزى لست كذلك بعد مجهود أربعين عاما ، إنى مفتخرة بأن أكون أول امرأة تصل الى كرسى الحكم وأشعر بسعادة لأن الفرصة قد هيأتنى للعمل فى مسألة كانت ولاتزال موضع اهتمامى ، والواقع فان (مس بوند فيلد) كانت فى مجموع العموم المنحل كثيرة الاهتمام بمسألة العمال وعائلاتهم فقد قدمت فى دوره الماضى مشروعا لحماية أطفال العمال باعانة الحكومة لهم وشراء الأحذية اللازمة لهؤلاء الاطفال وهذا المشروع معروف بمشروع أحذية الأطفال » اهـ

﴿ اللطائف الإلهية والتدبير لانقاذ بنى اسرائيل من الذل ﴾

ولما أتم الله هذين الفصلين شرع يبين للناس لطائفه وتدبيره فى ابراز ماأراده لتستيقظ الأمة الاسلامية

اذا ضعفت ولتعلم أن الله ماأنزل القرآن إلا لاسعادهم ، علم الله أن أمة الاسلام سيحلّ بها ماحلّ بالأمم قبلها من عزّ وذل وقد أخذت حظها من الرفعة ثم سقطت الى الحضيض فأنزل هذه القصة ليبين انه يلهم أناسا اسعاد الأمة فينبغي ألاييأسوا وليعلموا أن الله الذى نجى بنى اسرائيل هونفسه حيٌّ ينجى المسلمين متى صحت العزائم والقلوب لاتزال قابلة للالهام والله لايخلف وعده فلنذكرلك الآن الحوادث المتتابعة التي انتهت بانقاذهم ثم نتبعها بما يناسبها من حوادث العصر الحاضر ثم نذكر المسلمين أن الله معهم ـ وان الله لمع المحسنين ـ وتلك الحوادث (١٣)

﴿ الحادثة الأولى ﴾

قال تعالى (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن أرضعيه) أى بأن أرضعيه ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بأن يعلموا به (فألقيه فى اليمّ) فى البحر وأراد به النيل (ولاتخافى) عليه من الغرق (ولاتحزنى) على فراقه (إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين) ❊ يروى انها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بنى اسرائيل فعالجتها فلما ولد موسى أحبته حبا جما فأرضعته أمه ثلاثة أشهر ولما أحست بالارصاد والعيون وضعته فى تابوت وألقته فى اليم ، هذه هى الحادثة الأولى

﴿ والحادثة الثانية ﴾ إلتقاط آل فرعون له ﴿ والثالثة ﴾ رضاع أمه له ﴿ والرابعة ﴾ نبوغه فى العلم ﴿ والخامسة ﴾ قتله القبطى ﴿ والسادسة ﴾ و ﴿ السابعة ﴾ و ﴿ الثامنة ﴾ فراره الى مدين ، وسقيه للبنتين ، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام ﴿ والتاسعة ﴾ نزول الوحى عليه ﴿ والعاشرة ﴾ ظهورالمعجزة ﴿ والحادية عشرة ﴾ كفرفرعون ﴿ والثانية عشرة ﴾ هلاك فرعون وجنوده أئمة الضلال ﴿ والثالثة عشرة ﴾ خطاب النبى ﷺ بذلك لاستيقاظ أمته

﴿ الحادثة الثانية ﴾

قال تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا) اللام للتعليل بحسب الأصل وجعلت هنا للعاقبة لأن آل فرعون لم يريدوا أن يكون عدوّا وحزنا بل هذه هى العاقبة (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) مذنبين يقتلون أبناء بنى اسرائيل و يستحيون نساءهم فلابدع اذا ربى موسى بين ظهرانيهم وصار عدوّا فاقتص منهم لأن هذا هوالعدل (وقالت امرأة فرعون) لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرّة عين لى ولك) لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه (لاتقتلوه) خطاب بلفظ الجمع للتعظيم (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ❊ يقال انه كان لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها وكان بها برص وقد وصف لها الأطباء ريق مخلوق يشبه الانسان يخرج من البحرفى ساعة كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم جلس فرعون على شفيرالنيل ومعه آسية امرأته وابنة فرعون معهما فظهرالتابوت فلم يقدر على فتحه إلا آسية لأنها هى التى رأت النورمشرقا منه فظهرمنه صبىّ صغير وجهه منير وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبنا فأحبه فرعون وآسية فأما ابنته فانها عمدت الى مايسيل من أشداقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها ، ولما قال له القوم اقتله قالت آسية لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أونتخذه ولدا وكانت لاتلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال لها أما أنا فلاحاجة لى فيه ❊ قال رسول الله ﷺ « لوقال يومئذ قرّة عين لى كماهولك لهداه الله كما هداها الله » فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لانا وجدناه فى الماء والشجرلأن «مو» هوالماء و « سا » هوالشجر . هذا قول بعض المفسرين وأقول لكن قال أساتذة علم قدماء المصريين الذين يقرؤن الخط الهيروغليفى ان « مو » هوالماء كما قال هؤلاء أما « سا » فمعناه ابن أى ابن الماء ، فهذا قوله تعالى ـ فالتقطه آل فرعون ـ الى قوله ـ عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا ـ أى نتبناه فانه أهل له (وهم لايشعرون) حال من الملتقطين

﴿ الحادثة الثالثة ﴾

(خوف أم موسى عليه وفزعها وارجاعه لها وارضاعها إياه)

قال تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون وهذا كقوله تعالى - وأفئدتهم هواء - أى خلاء لاعقول بها (ان كادت لتبدى به) أى لتصرح بأنه ابنها من شدة وجدها وتقول « وا ابناه » (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والتثبيت (لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعدالله إياها فلما ربط الله على قلبها وصدقت وعدالله أخذت فى الأسباب لحفظ ابنها (وقالت لأخته) لمريم أخت موسى (قصيه) اتبعى أثره وتتبعى خبره (فبصرت به عن جنب) عن بعد * وقرئ - عن جانب - وهو بمعناه (وهم لايشعرون) انها تقص أثره وانها أخته (وحرمنا عليه المراضع) أى حرمنا عليه أن يرتضع من المرضعات جمع مرضع (من قبل) من قبل قصها (فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) لأجلكم (وهم له ناصحون) لايقصرون فى ارضاعه وتربيته فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمها وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا اقبلنى فدفعه اليها وأجرى عليها فرجعت الى بيتها من يومها وهذا هوقوله (فرددناه الى أمه كى تقر عينها) بولدها (ولاتحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعدالله حق) علم مشاهدة (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن موعده حق فيرتابون فيه وقوله - ولتعلم أن وعد الله حق - فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون . انتهت الحادثة الثالثة

﴿ الحادثة الرابعة نبوغه فى العلم ﴾

قال تعالى (ولما بلغ أشده) مبلغه الذى لايكاد يزيد عليه نشؤه يقال انه فى نحوثلاث وثلاثين سنة (واستوى) أى بلغ أربعين سنة ويقال انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) عقلا وفهما فى الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) أى مثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه نجزى المحسنين على احسانهم

﴿ الحادثة الخامسة . قتله القبطى ﴾

قال تعالى (ودخل المدينة) ودخل مصرآتيا من عين شمس (على حين غفلة من أهلها) فى وقت لايعتاد دخولها ولايتوقعون فيه يقال انه وقت القيلولة (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنواسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط (فاستغاثه الذى من شيعته) وهو الاسرائيلى (على الذى من عدوه) أى القبطى فسأله أن يغيثه بالاعانة ولذلك عدى بعلى (فوكزه موسى) فضرب القبطى موسى بجمع كفه (فقضى عليه) أى فقتله وأصله فأنهى حياته (قال هذا من عمل الشيطان) لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ولأنه كان مؤمنا فيهم فلم يكن له اغتيالهم ولايقدح فى عصمته قتل الخطأ (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة (قال رب إنى ظلمت نفسى) بقتله (فاغفرلى) ذنبى (فغفر له) باستغفاره (إنه هو الغفور) لذنوب عباده (الرحيم) بهم وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفرمنه لأن المقربين يستعظمون كل مافرط منهم ولوخطأ (قال رب بما أنعمت على) أى أقسم بانعامك على بالمغفرة وغيرها لأتوبن (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فلن أكون معينا لمن أدت معاونته الى جرم * قال ابن عباس انه لما لم يستثن ابتلى به مرة أخرى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة (فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) يستغيثه مشتق من الصراخ (قال له موسى إنك لغوى مبين) مبين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما أراد أن يبطش بالذى هوعدو لهما) لموسى والاسرائيلى ، ومعلوم أن القبط أعداء بنى اسرائيل (قال)

الاسرائيلى (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) ولم يكن أحد يعلم من قوم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى عليه الاسرائيلى فسمعها القبطى فأتى فرعون فأخبره وانما قال الاسرائيلى ذلك لأنه ظن أن موسى بقتل القبطى عمد اليه هو لما سمع من قوله ـ إنك لغوىّ مبين ـ فقال ما تقدم وتمامه (إن تريد) أى ما تريد (إلا لما هم أن تكون جبارا فى الأرض) تطاول على الناس ولا تنظر العواقب (وما تريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا أن موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال له سمعان وهو قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) يسرع فى مشيه حتى سبق الى موسى فأخبره وأنذره بما سمع (قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك) يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج من المدينة (إنى لك من الناصحين) أى فى الأمر بالخروج (فخرج منها) موسى (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) ينتظر لحوق طالب فيأخذه ثم لجأ الى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا اليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم

﴿ الحادثة السادسة ، والحادثة السابعة ، والحادثة الثامنة ﴾

(أنه ورد ماء مدين وسقى لابنتى شعيب وتزوج باحداهما)

قال تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها والتوجه الاقبال على الشئ ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن ابراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه وانما توجه نحوها لأنه وقع فى نفسه أن بينهم و بينه قرابة لأن أهل مدين من ولد ابراهيم وموسى من ولد ابراهيم ومدين ابن ابراهيم ولما خرج لم يكن معه زاد ولا ظهر ولا طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه و بين مصر ومدين كما قيل ثمانية أيام * قال ابن عباس وهو أوّل ابتلاء ابتلاه الله لموسى (قال) موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) قصد الطريق الى مدين فهداه الله اليها (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) على الماء (أمة) جماعة (من الناس يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) سوى الجماعة (امرأتين تذودان) تمنعان أغنامهما من الماء لئلا تختلط بأغنامهم تحبسان غنمهما عن الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم (قال ما خطبكما) ما شأنكما تذودان غنمكما (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذرا من مزاحمة الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقى فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) لا يقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن الى سقى الغنم اضطرارا لذلك قيل أبوهما شعيب أو ابن أخى شعيب بعد ما مات شعيب أو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رقّ لهما ، فلما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده وسقى الغنم بالدلو كما سقى الرعاء وذلك قوله تعالى (فسقى لهما) مواشيهما رحمة ورأفة (ثم تولى الى الظل) (فقال رب إنى لما أنزلت الىّ من خير) قليل أو كثير والمراد به الطعام (فقير) محتاج * قال ابن عباس سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه ، فلما رجعتا الى أبيهما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه الىّ (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) مستحيية متخفرة واسمها صفوراء وهى التى تزوجها موسى (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك) ليكافئك (أجر ما سقيت لنا) جزاء سقيك لنا فأجابها تبركا برؤية الشيخ وليستظهر بمعرفته لا طمعا فى الأجر ، فلما قدّم له الطعام امتنع عنه وقال « إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا » فقال الشيخ هذا عادتنا مع كل من ينزل بنا (فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) كما دعا موسى ربه إذ قال ـ ربّ نجنى من القوم الظالمين ـ أى فرعون وقومه (قالت إحداهما) التى استدعته (يا أبت استأجره) لرعى الغنم (إن خير من استأجرت القوىّ الأمين) فقال الشيخ وما علمك بقوّته وأمانته فذكرت إقلال الحجر وانه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه

(قال)

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى) أى إنى أريد أن أزوّجك صفوراء التى طلبتك على أن تكون أجيرا لى (ثمانى حجج) أى ثمان سنين (فان أتممت عشرا فمن عندك) أى فان أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أى ألزمك تمام العشر فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة (قال ذلك بينى و بينك) أى ماشرطت علىّ فلك وماشرطت من تزوّج احداهما فلى والأمر بيننا على ذلك (أيما الأجلين قضيت) أى أىّ الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أوالعشرة (فلاعدوان علىّ) أى لاظلم علىّ بأن أطالب بأكثر منه (والله على مانقول وكيل) شهيد بينى و بينك * قال ابن عباس « قضى أكثر الأجلين لأن رسول الله اذا قال فعل » ويقال إن شعيبا بكى ثم عمى فردّ الله بصره وكرر ذلك ثلاث مرات يعمى و يرد الله بصره عليه فقال الله له ماهذا البكاء أشوقا الى الجنة أم خوفا من النار فقال لا يارب شوقا الى لقائك فأوحى الله اليه هنيئا لك لقائى ياشعيب لذلك أخدمتك كليمى موسى * و يقال ان العصا كانت عند شعيب ورثها عن الأنبياء فسلمها الى موسى

﴿ الحادثة التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة ، والثانية عشرة ﴾

(ارسال موسى وظهور المعجزات على يديه وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وانهم أئمة الضلال)

قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله) قاصدا مصر بامرأته بعد أن استأذن من شعيب (آنس) أبصر (من جانب الطور نارا) من الجهة التى تلى الطور (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) بخبر الطريق (أوجذوة) عود غليظ سواء أكانت فى رأسه نار أم لم تكن ولذلك بينه بقوله (من النار لعلكم تصطلون) تستدفئون (فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن) يعنى من جانب الوادى الذى عن يمين موسى (فى البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك و بعثه نبيا (من الشجرة) أى من ناحية الشجرة وكانت من العليق ومن الشجرة بدل اشتمال من شاطئ (أن ياموسى) أى ياموسى (إنى أنا الله رب العالمين) وقد خلق الله فى نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى (وأن ألق عصاك) فألقاها فصارت ثعبانا واهتزّت (فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ) أى حية صغيرة فى سرعة حركتها (ولى مدبرا) هاربا منها (ولم يعقب) ولم يرجع فنودى عند ذلك (ياموسى أقبل ولاتخف إنك من الآمنين) من المخاوف فانه لايخاف لدىّ المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أدخلها (تخرج بيضاء من غير سوء) عيب وبرص ، والمعنى انه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ، ولما اعترى موسى الخوف تارة من العصا وتارة من الدهشة بشعاع يده أمره الله أن يتجلد و يظهر الثبات والجراءة بقوله (واضمم اليك جناحك من الرهب) من أجل الرهب أى الخوف مأخوذ من حال الطائر فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه ، ويجوز أن يراد واضمم يدك الى صدرك يذهب مابك من فرق حتى قال ابن عباس رضى الله عنهما « كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه » ولاغضاضة فى ارادة المعنيين معا أى انه يتجلد بقلبه و يضع يده على صدره ليكون تأكيد الزوال الرعب (فذانك) أى العصا واليد (برهانان) حجتان (من ربك الى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) فكانوا أحقاء بأن يرسل اليهم (قال ربّ إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بها (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردا) معينا (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهات (إنى أخاف أن يكذبون) ولسانى لايطاوعنى عند المحاجة (قال سنشدّ عضدك بأخيك) سنقوّيك به وكان هرون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) حجة وبرهانا (فلايصلون اليكما) بقتل ولا سوء نسلط كما (بآياتنا) فهو متعلق بقوله سلطانا أوفلايصلون اليكما بسبب آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لفرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا

سحر مفترى) أى سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله وليس معجزة (وماسمعنا بهذا) الذى تدعونا اليه (فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) العاقبة المحمودة (إنه لايفلح الظالمون) أى ربى أعلم منكم بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبيا ووعده حسن العقبى يريد بذلك نفسه وهو لايرسل الكاذبين بل يخذلهم ولاينبئ الساحرين والمراد بالدار هى الدنيا والعاقبة المحمودة أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران (وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى) إن قدماء المصريين كانوا يجعلون الأمة ﴿ ثلاث طبقات ﴾ عليا وهم الكهنة ووسطى وهم الجيش وسفلى وهم بقية الطبقات وفرعون مصر من صف يشرف على الكهنة وكانت لهم قوانين يتبعها الملوك والرعية وكان الملك مطاعا سواء أكان عادلا أم جائرا ولكن اذا مات يحاكمونه فان كان عادلا دخل المقبرة التى له والا فلا وكان الملوك على كل حال مقدسين منزهين متصلين بالآباء و بالآلهة ، هذا كان اعتقادهم وليس يعتقد فرعون إنه هو الرب وحده وانما كانت الالوهية هنا كالربوبية فى قوله تعالى ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ وفسرها ﷺ بأنهم يشرعون لهم الشرائع كما تقدم ، فبهذا يقول فرعون تارة ـ أنا ربكم الأعلى ـ وتارة ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ ولقد كان الكهنة يحرمون على الشعب أن يعرف الحقائق وعلى تمادى الزمان قدسوا الأشخاص الانسانية و بعض أنواع الحيوان والفراعنة كانوا أكبر المقدسين عندهم فيكونون أكبر الآلهة لأنهم متصلون بالآلهة الذين فوقهم ، ولاتظن أن هذا بعيد غاية الأمر أن كثيرا من الناس غافلون . إن أمة اليابان لها ملك يزعمون أن أجداده منذ أربعة آلاف سنة جاؤا من نسل امرأة من السماء أى من الآلهة فهو عندهم كأنه نصف إله ، وعلى ذلك تجد أن القائد اليابانى الذى غلب دولة الروس فى الحرب بينهما ويسمى « توجى » لما مات الملك تقرب الى الله بالانتحار هو وزوجته العجوز وانما انتحرا ليدفنا مع الملك وذلك على حسب القاعدة الدينية من قتل نفسه عند موت الملك كان الله راضيا عنه مع أن هذا القائد يعرف جميع العلوم العصرية ، ولاتظن أن المسلمين والنصارى وسائر الأمم خلو من هذه الفكرة فان كثيرا من مشايخ الطرق يفهمون تلاميذهم انهم ينفعونهم ويضرونهم ، وهذه الفكرة عامة فى كل طبقة جاهلة من أى نحلة وأى دين على وجه الأرض ، وترى كثيرا من أتباع الشيوخ أحياء أوأمواتا متى سمعوا لهم أمرا التزموه كأنه منزل من الله بل بعض الصوفية فى عصرنا وفى غيره يقدسهم تلاميذهم ويلوون وجوههم عن كل مايقال فى الدين ، فاذا أعطوهم وردا انكبوا عليه وان كانوا جهلاء بهذه الدنيا وبنظام الكون ، ومنهم من يحرم عليهم النظر فى العلوم والمعارف ، ومنهم من يقول لهم إن الفقهاء قوم لايعرفون إلا القشور ويقولون دعوا علم الفقه واتبعوا الذكر وحده وهكذا تنوعت الطرق وتنوعت الاعتقادات فتفرق أهل الاسلام وأخذهم الفرنجة ، كل هذا لأن كل ذى طريقة أوفكرة يفهم أتباعه أنه لانجاة إلا بما عرفوه منه ويتركون بقية الدين ، وكل ذلك كقوله تعالى ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ فلافرق بين أتباع فرعون فى الجهالة و بين أتباع أى دين اذا جدوا على قول شيخهم وانما ديننا هو ما أوضحناه فى هذا التفسير بحيث يكون المؤمن عارفا بربه ناظرا فى الطبيعة من حيوان ونبات وانسان وفلك فان لم يعلم ذلك فليلم به وليأمر المتعلمون الجهال بالنظر على قدر الامكان ، ولعلك تقول إذن جميع الأمم وجميع أهل الطرق بل جميع المسلمين كافرون ، أقول لك . كلا . المسلمون جميعا ناجون لا أفرق بين جماعة وجماعة هذا اعتقادى الذى ألقى الله عليه ولكن الكلام فى النقص ، ففرق بين من ينجو وهو ناقص و بين من ينجو وهو كامل ، والتعاليم الاسلامية اليوم فى غاية النقص والجهالة ، فاذا لم يتعاضد جميع الشيوخ على تعليم الشعب النظر فى هذا الوجود فلافلاح لهم فى الدنيا وهم فى الآخرة ناقصون حقا ، إن من لم يفتح أبصار المسلمين من السنيين والشيعيين والزيديين وغيرهم الى ما نقوله فى هذا التفسير وقد اطلع عليه فان الله سبحانه يعاقبه لأنه علم وكتم ، إن الله يعاقب المسلمين اليوم

جميعا

جيعا فى الدنيا على جهلهم و يعاقب الرؤساء اذا لم يفتحوا عيون تلاميذهم الى ماأبدع الله فى السموات والأرض ليفتح المسلمون المدارس فى الأرض وليعلموهم العلوم تعليما اجباريا لينظروا صنعة ربهم . وحرام ثم حرام على كل أشيخ أن يأمر تلاميذه بالجهالة وحسبنا الله ونعم الوكيل . اذا عرفت هـذا فقد عرفت قول فرعون هنا ـ ماعلمت لـكم من إله غيرى ـ فله السلطة الدنيوية والقوة الروحانية فى نظر الشعب الجاهل والآلهة كلهم متى أشار باشارة أنفذوها فى الشعب . هذا هوالاعتقاد الذى كان سائدا وترى نظيره فى الأرض

﴿ حكاية ﴾

قد تقدم فى هذا التفسير لاسيما فى آخر (النساء) أن حكايات جرت لى مع الفلاحين وفيها أن المرحوم عمى الشيخ محمد شلبى سأل القائم بحديقتـه المسمى (أبا حوده) أن يحلف بالله على العنب خلف ولما قال له احلف على أبى مسلم قال لا إنى أخاف منه ، فانظر كيف جعـل الشيخ أبا مسلم الذى له ضريح يزوره الناس فى بلادنا بالشرقية قادرا أن يؤذيه فأما الله فانه رحيم ، وأى ألوهية أكثر من ذلك ، افلا يكون فرعون عند المصريين قديمـا كالشيخ أبى مسلم عند أبى حوده ، واذا قال ﷺ « إن تشريع الشرائع وتحليل الحلال وتحريم الحرام أوجب أن يسمى الأحبار والرهبان أربابا » فـكيف اذا انضم الى ذلك عقائد التصرّف فى أنفس الأحياء بالنفع والضرّ ، أفلا يحق لفرعون إذن أن يقول ـ أنا ربكم الأعلى ـ وأن يقول ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ يقول المؤلف وأنا أحمد الله على هـذه المعانى فى هذا المقام لأن هذا يوافق العلم المنتشر عن قدماء المصريين وسيزيد هذا العلم وضوحا وانتشارا بين المسلمين متى عرفوه وقرؤا هذا التفسير وجدوه مطابقا لما قرؤه فى الرسائل وعلى الأحجار وفى الأوراق البردية وفى القبور والبرابى والاهرام ، ولمـا كان هذا شأن فرعون وأنه سلط تسلطا ماديا وروحيا على الناس أخذ يتمم تعاليمه فطلب من وزيره أن يطبخ له الطين فيجعل اللبن آجرا أى طينا محرقا و يبنى له منارة عالية جدا ليرصد منها أوضاع الـكواكب و يحسب حركاتها و ينظر هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدّل حال الأمم وهـذا قوله تعالى (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اتخذ لى الآجر واطبخه (فاجعل لى صرحا) منارة (لعلى أطلع الى إله موسى) أى الى فعله هل فى الأفلاك الدائرات وحركات الأجرام التى خلقها دليل على انه اختار موسى للنبوّة أوهل هناك إله غير من نعرفهم من آلهة المصريين (وانى لأظنه من الـكاذبين) فى زعمه أنه نبىّ عن إله العالم الذى يغاير من نعرفهم فى أرض مصر ونحن نفعل كل شئ ونتصرّف بامدادهم (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا أنهم الينا لايرجعون) بالنشور (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) كما تقدم فى التفسير (فانظر) يامحمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك أن يكونوا مثلهم (وجعلناهم أئمة) قدوة للضـلال بالحمل على الاضلال (يدعون الى النار) الى موجباتها من الـكفر والمعاصى (و يوم القيامة لاينصرون) لايدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا من الرحمة (و يوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين أو ممن قبحت وجوههم

﴿ الحادثة الثالثة عشرة ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا موسى الـكتاب) التوراة (من بعد ما أهلـكنا القرون الأولى) أقوام نوح وهود وصالح ولوط (بصائر للناس) حال من الـكتاب والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة كما ان البصر نور العين الذى يبصر به الأجسام أى آتيناه التوراة أنوارا للقلوب لأنها كانت عميا لاتستبصر ولاتعرف الحقائق (وهدى) من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) لمن آمن (لعلهم يتذكرون) بمـا فيه من المواعظ أى ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر (وما كنت) يامحمد (بجانب) الجبل (الغربى) وهو المـكان الواقع فى شق الغرب منه وهو الذى وقع فيه ميقات موسى (إذ قضـينا الى موسى الأمر) أى كلمناه وقرّبناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحى اليه حتى تقف بالمشاهدة على ماجرى من أمر موسى فى ميقاته (ولـكنا

أنشأنا قرونا) بعد موسى (فتطاول عليهم العمر) أى طالت أعمارهم وفترت النبوّة فنسوا عهد الله واندرست العلوم ووقع التحريف والتخريف فى كثير منها فأرسلناك مجددا لتلك الأخبار مبينا ماوقع فيه التحريف فلذلك أعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، يقول الله أنت يامحمد ماكنت مشاهدا ماحصل لموسى من الوحى وطالت الفترة فكان ذلك سببا لارسالك فالاستدراك بين به سبب الوحى الذى يفهم من السياق ، ومثل ماقيل هنا يقال فى قوله (وما كنت ثاويا) مقيما (فى أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرؤها عليهم تعلما منهم أى لم تقرأ الآيات التى فيها قصة شعيب (ولكنا كنا مرسلين) أى ولكنا أرسلناك واخترناك بها وعلمنا كها بعد مامضت قرون اندرست فيها العلوم فأرسلناك لتبين للناس ما اندرس منها وتذكر الحقائق وتدحض المحرّف منها (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى لما أخذ الكتاب بقوّة (ولكن) أعلمناك وأرسلناك بعد ما اندرست العلوم وحرفت القصص (رحمة) للرحمة (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) فى زمان الفترة بينك و بين عيسى (لعلهم يتذكرون) يتعظون بما سمعوا من هذا القصص . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة

هاأنت ذا اطلعت على الحوادث التى عددناها (١٣) التى منها اثنتا عشرة حادثة حصلت لتمام أمر موسى ونجاة بنى اسرائيل وهلاك أعدائهم ، ابتدأت هذه الحوادث بفكرة خطرت لأم موسى أن ترضعه وألهمت أو رأت فى المنام انه محفوظ لها وسيرجع ، لم تكذب هذا الإلهام ولم تيأس من رحمة الله ، فكم فى أمة الاسلام من رجل ومن امرأة ومن شاب ومن شيخ ومن عالم ومن جاهل تخطر لهم خواطر تحثهم على خروجهم من مأزق الذلة والهوان ومن اقتناص براثن أورو بالهم ، تخطر لهم هذه الخواطر فلا يعيرونها التفاتا ، يقولون الأمر انقضى والاسلام انتهى والدنيا أدبرت والآخرة أقبلت والعالم سيزول والأرض ستذهب

هذه هى الأراجيف والأكاذيب والوساوس التى تقوم فى عقول المسلم الجاهل ، لماذا ؟ لأنه لم يعرف القرآن لماذا ؟ لأنه لم يعرف هذه القصة إلا كما يعرف الطفل جمال الزهرة وجمال الورق وجمال الشجر ولكن أباه يعلم أن الزهرة ذابلة والورق انما خلق للمساعدة على تغذية الشجرة والأغصان والقضبان والجذوع انما هى وسائل للثمرات والثمرات هى المقصودة ، أكثر المسلمين هكذا يقرؤن هذه الآيات و يمرّون عليها كما يمر الطفل بالزهر والورق فى الحقول والبساتين ولايفكر فى الثمر ، أما أبوه فان قلبه معلق بالثمر ، يظنّ المسلم أن المقصد من هذه القصة أن يفرح بزهراتها فيقول ماأعجب هذه القصة ، انظر أيها الأخ الى موسى كيف وضع فى التابوت وكيف حفظه الله ، وكيف تعلق بالشجرة فى البحر ، وكيف اتفق أن فرعون وزوجه و بنته كانوا يشاهدونه وقت طلوع الشمس ، وكيف شفى الله بنت فرعون بريقه ، وكيف ظهر نوره فأحبه فرعون وآسية ، فياعجبا لذلك ، وكيف رجع الى أمه ثانيا فأرضعته ، وكيف أيد الله أخته فدلتهم على أمه ، وكيف كتم الخبر ور بط الله على قلب أم موسى ، وكيف جاء رجل من شيعة موسى يقول له اخرج نصيحة له ، وكيف قدر أن يرفع الحجر الذى لايرفعه إلا عشرة وما أشبه ذلك . فهذه العجائب يقف عندها أكثر الناس وهم فى ذلك أشبه بالاطفال يفرحون بالزهرات أما العقلاء فانهم يقولون ياقوم لاتقفوا موقف الاطفال ، فكما ان الزهرات مقدّمات للثمرات هكذا هذه العجائب مقدّمات لما هو أهم منها ، إن جمال تلك القصص مسوق لما به السعادة ومابه السعادة اما حفظ الأخلاق للأفراد واما حفظ الأمم للجماعات . هذا هو المقصود . فاذا قرأ القارئ ان موسى كان عفيفا حين رأى بنت شعيب وانه كان أمينا عليها حتى أمرها أن تمشى خلفه وأن هذه العفة وهذه الأمانة رفعته فى عين شعيب وابنتيه تشوّق القارئ الذكى أن يكون كموسى أمانة وعفة وكذلك يقلده فى العطف على كل ضعيف و يقول إن هذه الأخلاق انتهت بالنبوّة ، فهكذا كل الأخلاق الفاضلة تنتهى بجلال المرء و بالفتوح الذى يفتحه الله عليه

نظرة ·

﴿ نظرة المسلمين فى هذا الزمان ﴾

واذا نظر المسلمون هذه القصة فى هذا الزمان علموا انها مسوقة لاسعادهم واعزازهم واخراجهم من المآزق والهلاك . إن المسلمين اليوم فى ذل وجهل مابعده جهل ولكن عقول المسلمين أشبه بأرض خصبة تحتاج الى البذر وانزال الماء فيخرج نبات حسن منها ، هكذا اذا عرف المسلمون مقاصد أمثال هذه الآيات خرجوا مما هم فيه من الذلة . علم الله أن المسلمين سينامون وسيمر عليهم مامرّ على الأمم قبلهم وسيذوقون السوء فأنزل لهم هذه القصة ، يقول أى عبادى إن نجاة بنى اسرائيل كان مبدؤها فكرة خطرت لأم موسى وإلهاما ألهمته لها فلم تنبذ الإلهام وتبع ذلك أمور وأمور أخذت هذه الصالحة تفكر ؟ ففيم فكرت ، فكرت فى نجاة ابنها ونجاة فرد من مجموع نافعة للمجموع فأرسلت ابنتها تدلهم على من يكفله وكتمت السر وظهرت لفرعون كأنها ليست أمه وهكذا ، كل ذلك بعد الفكرة الأولى لم تيأس من رحمة الله

أيها المسلمون أتدرون لم وقعتم فى الذل ، إنكم يئستم من رحمتى فى الدنيا ولم تيأسوا منها فى الآخرة وهذا خطأ محض ، أنا رحيم فى الدنيا ورحيم فى الآخرة ، إن يأسكم فى الدنيا من نصرى لكم أقعدكم عن التفكير فى الخروج من الذل وأنا لا أعطى إلا من فكر ، كم من رجل منكم خطر له أن ينفع أمته ، كم من شاب ، كم من امرأة ، كثيرجدا منكم يفكرون كل يوم فى الخروج من الذل ولكن اذا جاء لهم الفكر طردوه كأنه من كلام الأبالسة ، كأنه من كلام الشياطين ، أى عبادى إن الفكر الصالح موجود يمرّ بخواطركم ، أنا لم أمنعه ، أنا لم أقص عليكم هذا القصص لأقول لكم إن الإلهام خاص بمن مضى أو بأم موسى . كلا . إن إلهام الخير موجود مستفيض كما يستفيض ضياء الشمس على أرضكم وقد يحجبه ليل أوسحاب ولكنه لايزال موجودا ولكن خطباؤكم والجهال من شيوخكم قالوا لكم إن الزمان قد قرب والدنيا ستخرب فصدّقتموهم مع أنى لم أطلع أحدا على غيبى فكيف تحرمون من السعادة ، كلام هؤلاء الشيوخ هو السحب المانعة لضوء شمس العلم التى ألقيها على قلوبكم ، هو الليل البهيم الذى تنام فيه الناس وتقفل أبصارها لذلك حرمتم من النصر وحرمتم من السعادة . أى عبادى إن حرمانكم من الرق هذا هو سببه والا فان خطرات السعادة محيطة بكم . فاياكم أن تسمعوا لكلام هؤلاء الشيوخ المثبطين فاذا خطر لكم خاطر النصر وأن تقوموا باسعاد هذه الأمة أو باسعاد أنفسكم أو بحفظ بلادكم أو بطرد العدوّ منها . فلتعلموا أن هذا الخاطر بذر يجب أن يسقى بماء الفكر والسعى والجدّ والكتمان وحفظ السرّ كما فعلت أم موسى فان فكرتها نمت وترعرعت وكان من نتائجها أن موسى قوى وكبر وتعلم وابتلى بقتل القبطى وهذا الابتلاء كان سبب نعمة لانقمة لأنه به خرج الى أرض مدين وقابل شعيبا وتزوج ابنته ورجع فأوحى اليه فرجع الى فرعون فأخرج بنى اسرائيل . يقول الله لاتدعوا أيها المسلمون خواطر الاصلاح فليس انعامى محجوبا عن عبادى . أنا اليكم ناظر ومن خطر له خاطر الاصلاح فليعلم أنى معه لاسيما الاصلاح العام فانى مع المحسنين ودعاء من يدعو الى اصلاح الجميع مقبول نافع وكلما كان المرء ساعيا فى مصلحة العموم كنت معه مؤيدا وحافظا وناصرا . كم من المسلمين من أضاعوا حياتهم سدى يقرؤن هذه الآيات فلا يزيدون على التعجب ولايزيدون على أن فرعون ادّعى الالوهية و يذمّونه وليس لهم وراء ذلك مطلب بل المتعلم الذى قرأ علوم قدماء المصريين المنتشرة حين يقرأ هذه الآية يقول ﴿ كيف يقول فرعون ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ مع انهم كانوا يعبدون آلهة مثل (سيزوستريس) و (ايزيس) وما أشبه ذلك و يظنّ أن القرآن غاب عنه ماقرأه هو فى أوراق البردى أوتلقنه ممن قرأه و يقول مالى ولهذا القصص وهو غافل عما ذكرناه من معنى الالوهية والربوبية فيما تقدّم بأوضح مقال وذاهل عما سيق له الحديث الذى نحن بصدده حديث رقى الأمم وخروجها من الذل والاستعباد . هكذا فليخرج المسلمون اليوم أوغدا وهذا أمر محقق لاشك فيه عندى وسيقرأ هذا المسلمون بعدنا و يرون أنهم نالوا ماذكرناه . وستشيع أمثال هذه الآراء فى الاسلام

وسيكونون ـ خير أمة أخرجت للناس ـ وكيف لايصيرون كذلك وقد تقدم فى (سورة النمل) أن الله يقول ـ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ـ أليس هذا وعدا لنا بأننا سنعرف العلوم وعجائب الأرض والسموات وهل وعدالله يخلف ؟ أليس نبينا محمد ﷺ له المقام المحمود ويعطى لواء الحمد ؟ أوليس الحمد انما يكون على نعم ؟ أوليس أهمّ النعم هوالعلم ، أوليس حمد الأولين والآخرين له على العلم الذى ترقى به أمته ، فاذا كان مقامه محمودا وهو رافع لواء الحمد فنتيجة ذلك كله أن تكون أمته أعلم الأمم ، واذا كان شافعا لأمته فان الشفاعة على مقتضى الهداية ولاهداية إلا بعلم فالعلم سيعم الأمة الاسلامية وسيخرجون من الذل وسيفكرون فى اخراج أنفسهم من الهوان والجهل كما فعلت أم موسى إذ انبعث الالهام بأن ابنها سيرجع لها بالعمل وتسلسلت حوادث كانت نتيجتها خروج أمّتها من المذلة . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن الناس يعجبون من أمر أم موسى و يتعجبون من أمر موسى وكيف نجا وكيف خرج بنو اسرائيل وهم فى كل وقت يشاهدون أمثال هذا ولايتعجبون . أليس الانسان يأكل الفاكهة مع ان حصولها بين يديه عجيب كأم موسى وموسى وخروج بنى اسرائيل . أليست الفاكهة من البستان فهل كان الحدّاد الذى يصنع المحراث يقصد الشجرة التى منها فاكهتك وهل كانت البهائم التى خرج منها مابه تسمد الأرض تقصد أن تنال أنت الفاكهة . وهل كان الذى يستخرج الليف من النخل لصنع حبال البهائم التى تحرث الأرض يقصد فاكهتك . انظر حوادث كثيرة من بخار وسحاب ومطر وحديد وخشب تجمعت من أقطار شتى ونتيجتها وصول الفاكهة اليك . إن المفكرين يعجبون من الطبيعة وغرائبها كما تعجب أنت من قصص موسى وأمه وخروج بنى اسرائيل ولكن لما كان هذا القصص غائبا حلا فى السمع ، أما عجائب الطبيعة فان اللطائف الموجهة من الله اليها أعجب وأعجب والافأين دوران الشمس فى فلكها ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس بحساب بديع . أليس ذلك من أسباب هذه الفاكهة . ولوأن حساب الشمس والأرض اختل ماأمكن ظهور هذه الفاكهة لأنها تحتاج الى حرارة بمقدار فتى اختلت الشمس فى سيرها اختلت الحرارة فى نزولها على الأرض فذهبت المنافع ولكن هذه العجائب يجهلها أكثر الناس ـ ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ـ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

لعلك تقول من لى بأن اعتقد ما اعتقدته أم موسى ، ومن لى بذلك ، ومن أما ان ذلك فى زمان مضى وانقضى . فأين البرهان على ذلك فى هذا الزمان ؟ أقول على رسلك ، أليست الحرب العظمى قلبت الكرة الأرضية . أليس سببها أن عالما يسمى (ماركس) وهو ألمانى أخرج كتبا للناس قائلا يجب ازالة هذه النظامات الأرضية ومن هذه الفكرة تعلم الروسيون و بها وحدها انقلبت الدولة فصارت بلشفية . ألم تكن دولة الفرس مقسمة بين الانجليز والروس . أفليست الحرب العظمى جعلتها حرة مطلقة من كل قيد . انظر أين فكرة ماركس الألمانى وخلاص الفرس . أليس ذلك من قوله تعالى ـ إن ربى لطيف لما يشاء ـ وأى لطف أعجب من هذا . تلطف فى خلق الأفكار و بثها بين الناس حتى عمت الكرة الأرضية وانتهت باستقلال الروس وتبع ذلك بلاد الفرس . أليس هذا كمسألة أم موسى قصدت انقاذ ولدها فأنقذ بنو اسرائيل وكدوران الشمس بحساب بلاخطأ فى سيرها فكانت الحرارة منتظمة على قدر انضاج الفاكهة ولولا ذلك ليئس الفلاح ولم يزرع . أليس ذلك كما فعل الله فى ماء النيل . أنزله فى الأرض كل عام فيصل مابين (٤١) مليارا من الأمتار المربعة و بين (١٠٠) مليار . ونتيجة ذلك ظهور المزارع . ولاينزل ذلك الماء إلا بالبخار ولا بخار إلا بالحرارة ولا حرارة منتظمة إلا بانتظام سير الشمس فأين سير الشمس وأين الفاكهة . هناك سلسلة منتظمة انتهت بالفاكهة . وهناك سلسلة منتظمة انتهت باستقلال الفرس . وهناك سلسلة منتظمة انتهت بخروج بنى اسرائيل ومبدؤها إلهام أم موسى

وهناك

وهناك سلسلة منتظمة بها استقلت دولة الأفغان لما قام الأفغان لحاربوا الانجليز أيام الحرب العظمى واستقلت البلاد الى الآن . وهناك سلسلة منتظمة ستحصل بعد قراءة هذا الكتاب فينظر المسلمون ويقرؤن قوله تعالى هنا ــ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ــ الى قوله ــ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ــ فهذا الذى قرّرته هو الرحمة وهذا هو التذكير ، يتذكر المسلمون هذا القصص فيستخرجون منه خلاصة وثمرة هى أن يفكروا فى الخلاص و يستمروا فينجحوا ، يفكر المسلمون فيقولون نحن ــ خير أمة أخرجت للناس ــ فكيف كانت همتنا منحطة لنرجع الى القرآن وليعرف الناس أنه يأمرنا أن نعشق جمال الله فى العوالم العلوية والسفلية وهذا الجمال لاحدّ له والعمر كله مدّة دراسة والارتقاء لاحدّ له وهذه القصة وأمثالها انما هى كشجرة فلنأخذ ثمرها ولا نكتفى بظلالها والثمرات إما أخلاق كعفة موسى واما إيمان بالله خيفة الهلاك كما هلك قوم فرعون ، يقول المسلم أنا مسلم فكيف أهلك ؟ نقول له ولكنك ذليل بعيد عن العلم ، فانظر كما نظرت أم موسى وخلص أمتك من الذلة والهوان ، قل لها كونى منتظمة ، كونى مفكرة ، تعلمى ، اسعى للرقى والنجاح ، اجتهدى ، انشرى العلوم ، إن العلوم بها محبة الله ، إن الانسان لاخير فى حياته بدون النظر فى هذا الجمال . إن المقول اذا وقفت تقهقرت واذا تقهقرت انحطت واذا نزلت هلكت و بئس المصير

سيقول المسلمون بعد هذا التفسير وانتشاره ان شاء الله مالنا قد امتزنا فى جميع الكرة الأرضية بالجهالة ، فى بلاد الشرق والغرب أصبحنا عالة على الأمم ، لماذا نرى المسلم فى بلاد سيام كما يقول رجالها لايرتقى عن الفلاحة إلا قليلا فأما غيره فانه يمسك بعنان السعادة ويسافر للعلم ويحظى بالخير والعزّ ، مالنا نرى المسلم الصينى شاذا بعيدا عن العلم والوثنى هو القائم بالعلم و بالحكمة و بشؤن الدولة ، مالنا نرى المسلم أينما حللنا أوارتحلنا واقفا فى مكانه . ومتى قال من بعدنا هذا القول تجلت لهم الحقائق وأظهروا مكنون العلم وأيقظوا الأمّة ونشروا فيها ما كتبناه فى القرآن وما يكتبه غيرنا وانقلب الأمر فأصبح المسلم أقوى من غيره فى العلوم والمعارف لما يرى من عجائب القرآن التى شرحناها وشرحها المتقدمون والمتأخرون

هذا بعض مايقصد من هذا القصص ومن قول الله تعالى ــ ولكن رحمة من ربك ــ الى قوله ــ لعلهم يتذكرون ــ هذا هو القصد من انزال هذا القصص فالقصد الرحمة والتذكر أى ان الله يرحمنا بالتذكر فيما أنزل على رسول الله ﷺ وذلك هو المذكور فى الحادثة الثالثة عشرة ليرينا أن القرآن لهذا أنزل فليس يقصد أن نفرح ببنى اسرائيل بل نفرح بما نتذكر وبالرحمة التى ننالها من التذكير فلاخير فى شجر لاثمر له . ولاخير فى علم لانفع له . ولاخير فى أمة لاهمة لها . ولاخير فى قراءة دين لايعقله قارئوه . ولاخير ولارحمة إلا لمن يتذكرون و يعقلون والحمد لله رب العالمين

﴿ البلاغة والعلوم ﴾

ينظر قوم الى القرآن من جهة البلاغة و يظنون انهم اذا عرفوا الجناس فى قوله ــ الى إله موسى ــ وعرفوا ماسأقصه عليك وهو قول الأصمعى حكاية عن فتاة غربية قالت إن فى قوله تعالى ــ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ــ قالت الفتاة إن فيها أمرين ونهيين وخبرين و بشارتين . فالخبران أوحينا وخفت . والأمران ألقيه وأرضعيه . والنهيان لاتخافى ولاتحزنى . والبشارتان ــ إنا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ــ

أقول . ينظر قوم الى القرآن من هذه الوجهة فيطربون لعجائب التركيب والبلاغة ولهم الحق فى ذلك ولكن هل لهذا أنزل القرآن . إن البلاغة علم يرجع الى تركيب الألفاظ ونسق الكلام فهل هذا كاف ؟ كلا ثم كلا . إن المقام ليس مقام استدلال على أن القرآن معجز فليس هذا نهاية العلم . إن نهاية العلم أن يدرس

و يستخرج منه مايجب علينا دراسته فى هذه الحياة

﴿ قصص موسى أيضا ومناسبة قوله تعالى ـ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾

لقد عرفت آنفا مقاصد البلاغة وانها لقوم مبتدئين فى العلم وانها مفتاح الفهم ، أما الفهم فانه وراء ذلك فالبلاغة مفتاح خزائن العلم والعلم فى نفس الخزائن وفرق بين مفاتيح الخزائن و بين المخزون ، هل أنبئك بشئ من المخزون فى هـذه السورة ؟ أنت تعلم أن قصص موسى قد كرر فى القرآن وتكراره يصعب على كثير من الناس ادراك سببه . فأما عالم البلاغة اذا كان حادّ البصيرة فانه يقول الاطناب فى مقام والايجاز فى مقام لمراعاة المقامات وهذا لابأس به وهوحق ولكن أين الفائدة الحقيقية ؟ فعالم البلاغة لاقدرة له على الاجابة ولكن انظر مخزون العلم ومكنون الحكمة ، انظر وتعجب ، ذكرت قصة فرعون وموسى فى (طه) وفى (الشعراء) وفى هذه السورة . لقد اطلعت على (طه) فانظر ألست ترى أنه فيها شرح مسألة العصا ومسألة عجل السامرى وأطنب فيهما ليرينا أن المدار على العلوم العقلية فأما خوارق العادات فانها تنفع مؤقتا فالايمان بها كأنه ظل لاثبات له وذلك لأن الصور المادّية ظلال الحقائق فيكون الايمان بها ظلا لاثبات له . وملخص ذلك انه يراد أن تكون الأمّة الاسلامية أمّة علم وحكمة لا أمة خوارق عادات للصالحين ولا للطالحين وقد تقدم هذا

ولقد ذكر فى تلك السورة عجائب الأرض والسماء ليتم القصد من هذه الموازنة . هذا فى (سورة طه) وليكون ذلك تبصرة وتذكرة للمسلمين . أما فى (سورة الشعراء) فقد أطال القول فى السحرة وشرح المقام شرحا وافيا فأوجب ذلك النظر فى السحر وحده وشرحه كما فعلنا هناك وذكرنا سحرهم على قدر مايسعه المقام

أما فى هذه السورة فان القصة أتت لغرض آخر كأنها شرح لقوله ﷺ فى الصحيح ﴿ بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدا ﴾

إن الأمة الاسلامية فى أوّل أمرها كانت قليلة العدد وكانوا مضطهدين من الكفار وهاجر بعضهم الى الحبشة ثم هاجروا جميعا الى المدينة ثم أعزّهم الله فبدؤا بدأ غريبا لم يكن له نظير فى سرعة الرقى والانتشار والمنعة بعد الخوف والقلة والضعف ، ثم ماذا ؟ انهم انتشروا فى الأرض وترجموا علوم الأمم فتحقق بذلك كونه ـ رحمة للعالمين ـ لأن أمته حفظت العلم وسلمته الى أمم الغرب والشرق . والبرهان على عموم رحمته للشرق والغرب الألفاظ الآتية فى العلوم فانها تنطق بلسان فصيح أن محمدا ﷺ رحمة للعالمين فى جميع الكرة الأرضية لأنه لولا أمته ماحفظت هذه العلوم

﴿ الألفاظ العربية فى العلوم العصرية ﴾

(علم الفلك)

السمت والنظير

﴿ الكيمياء والطب ﴾

الانبيق . الالكحول . القلى . البورق . الشراب . الجلاب . الاكسير . اللعوق . السا . الكافور

﴿ الموسيق ﴾

العود . الطبل . الطنبور

﴿ فن الملاحة ﴾

أمير البحر . الترسانة . الحبل . الجلفاط . الرصيف . الموسم . الفلك

﴿ فن التجارة ﴾

التصريف . الديوان . المخزن . البازار . القيروان . الترجمان

هكذا أخذ الاوروبيون عن المسلمين الأرقام الهندية وأصول الجبر والهندسة والنقوش و بناء الحصون والقلاع والسفن الحربية والجزة والمناور وكثيرا من الفوائد الصناعية والزراعية التى هدت أوروبا الى الحال الحاضرة من العمران والتقدم ، وانما نقلت لك هذا لتفهم هنا قوله تعالى ـ ولكن رحمة من ربك ـ وتفهم أيضا ـ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ هذا هومعنى هذه الرحمة ، فانظر كلمات العلوم العربية التى لاتزال تنطق بلسان فصيح بهذه الآية و بقوله تعالى ـ وانه لذكر لك ولقومك ـ هذا ماحصل فى الزمان الماضى ولكن هذه السورة جاء فيها ذكرقصص فرعون بطريق آخر كما قدمنا لم يقصد فيها شرح السحر ولاالموازنة بين عصا موسى وعجل السامرى بل أريد أن تجعل القصة بابا للحرية ولخروج الأذلاء من ذلهم فذكر الحوادث الثلاثة عشرة التى بها خرج بنواسرائيل . يقول للمسلمين اذا وقعتم فى الذل فلتخرجوا منه كما خرج بنواسرائيل وسيكون شأنكم غريبا بعد ذلكم كما كان غريبا فى أول أمركم ، فاذا تقهقرتم أيها المسلمون ولامناص من تقهقركم ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ لافرق بين الأمم والديانات فى الأرض كلها فان الباب مفتوح لخروجكم من ذلكم وانظروا قصص بنى اسرائيل فلتخرجوا كما خرجوا ولترجعوا المجد الذى فقدتموه ولتكونوا رحمة للعالمين كما كنتم سابقا ، واذا كنتم فى مجدكم الأول حفظتم العلوم وسلمتموها للامم فاذا رجعتم هذه المرة فاقرؤا العلوم وعلموا الأمم كيف يكون العدل وعمارة الأرض لأنكم كنتم رحمة أولا لمناسبة ذلك الزمان فلتكونوا رحمة على حسب الزمان المستقبل ولهذا كله يشير قوله تعالى ـ ولكن رحمة من ربك ـ بعدذكر انتصار بنى اسرائيل فيكون الاسلام غريبا فى سيره اليوم بأن ينتشرأهله بسرعة غريبة لانظيرلها كما انتشر فى المرة الأولى انتشارا لانظيرله ، وكما حفظ المسلمون العلوم أولا ونفعوا الأمم فليرثوها من أهلها ثانيا وليرقوا النوع الانسانى . هذا مافهمته من قوله تعالى ـ ولكن رحمة من ربك ـ وفى التعبير بمعنى التربية اشارة الى ماذكرناه ـ ولله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصرالله ينصرمن يشاء ـ

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ الى قوله ـ إنه كان من المفسدين ـ ﴾

اللهم إنك أنت المنعم المتفضل الملهم ، أنت الرحيم ، رحمت الجنين فى رحم أمه ، ورحمت الحشرات فى الفلوات والأنعام فى المراتع ، لم تذرعالما من العوالم إلا شملته برحمتك . اللهم اننا فى هذه الأرض قد غمرتنا رحماتك وشملتنا أنوارك ظاهرا و باطنا كما قلت فى سورة الروم ـ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ـ ولكننا محبوسون فى حواسنا مغمورون فى ذنوبنا وعواطفنا ومطالبنا فصرفنا عن فهم النعمة وحولنا عقولنا الى أمورغيرعظيمة تحويلا مزريا بانسانيتنا و بشرف أصلنا فى العالم العلوى فكأننا بهذا الصرف معذبون ونحن غير عالمين

أنت رحمن رحيم للأفراد وللأمم ، وهذه أمتنا الاسلامية المترامية الأطراف قد بذرت بذورالعلم والرقى فى الأمم شرقا وغربا ثم دالت دولتها ونامت آمادا وآمادا ، وهاهى ذه تريد الرقى كرة أخرى وهذا كتابك بين يدى الآن أكتب هذه الكلمات فى تفسيره ، وقد قدرت فى علمك القديم أن يكون هذا التفسير فى زمان نطلع فيه على عمل سياسات الأمم الاسلامية القديمة والحديثة وعلى سياسة الأمم المحيطة بنا . فهانحن الآن ننظر فنرى آباءنا العرب ومن اهتدوا بهديهم من الأمم بدين الاسلام قد سلطتهم على أرضك وخولت لهم ممالكك وأودعتهم ودائعك فقاموا بالأمانة ماشاء الله أن يقوموا ثم خلع الأبناء عن أنفسهم فضائل الآباء وتركوا مواهبهم وناموا وكسلوا و بطروا ولم يقوموا برعاية عبادك كما وصيتهم فى كتابك فأخذت منهم أرضك وأعطيتها لغيرهم وقرأنا تاريخهم وعرفنا مدى رقيهم ومدى ضعفهم وتبين ذلك فيما تقدم فى (سورة النمل) عندآية ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ ومابعد ذلك من أن بيوتهم خاوية بما ظلموا . إذن هذا التفسير اليوم قد جاءت فيه ملاحظات على الأمم الاسلامية السابقة وأن ماتم لهم كله مصداق للقرآن الكريم

ياسبحان الله و ياسعدانه ، فكيف نسمع الله عز وجل يقول فى (سورة النمل) ماتقدم من إفساد الملوك

للأرض اذا دخلوها ، وكيف يذكر أن بيوتهم خاوية بما ظلموا ثم تأتى هذه السورة فيكون مبدؤها فيه هذا
هذا المعنى نفسه ونهايتها فيه مصداقه فكان فيها ردّ العجز على الصدر المذكور فى علم البديع . إن تفسير القرآن
على هذا النمط فى زماننا مرآة ترى فيه آثار الأمم والدول المصدّقات لكتابنا المقدّس . أوّل هذه السورة
﴿ أمران * الأوّل ﴾ علوّ فرعون فى الأرض مع استضعاف أهلها وجعلهم شيعا وتذبيح أبنائهم ﴿ الثانى ﴾
انه مفسد من المفسدين . هذا هو الذى جاء فى أوّل هذه السورة . فانظر أيها الذكى الى ماجاء فى آخرها ، ماهو ؟
هو ذكر قارون وانه كان من قوم موسى ، فماذا فعل ؟ بغى على قومه وفرح بماله الوفير ونصحه الناصحون فقالوا
له ـ ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين ـ وهذه القصة القارونية تضمنت ان الله لايحب الفرحين
ولايحب المفسدين ، ومعلوم أن الفرح صفة لمن يعلو فى الأرض . إذن هذه القصة تضمنت النهى عن العلوّ
المذكور فى أوّل السورة وعن الفساد . إذن قصة فرعون جاءت فى أوّل السورة لذم العلوّ والفساد ومثلها قصة
قارون فى آخرها . ثم انظر كيف قال فى آخر السورة ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض
ولافسادا والعاقبة للمتقين ـ فجلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة . هذا معنى قول الله تعالى ـ كتاب أحكمت
آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ

انظر حكم الله عزّوجل فى القرآن ، أيها الذكى انظر الى القرآن فى ظاهر الأمر بغير هذه المباحث ، إن الناظر
للقرآن نظرا سطحيا لايتخيل هذه الحكم ، العربى فى البادية عرف تأثير القرآن بغريزته وفطرته ولكننا نحن
الآن نقف على جوهره وبدائعه وحكمه . جل الله . إن مانعرفه الآن فى حكم القرآن وبدائعه أجلّ وأرفع
مما عرفه علماء البلاغة السابقون . إذن كأن هذه السورة يقصد بها ألا نعلو فى الأرض وألا نفسد فيها

المفسدون فى الأرض هم الذين يغلبون الأمم ويحكمونهم ليكونوا عالة عليهم ليذلوهم وليكونوا أشبه
بالنمور والاسود والذئاب والناس أمامهم كالغزلان والأرانب . وهذه الصفة هى التى وصفها ابن خلدون فيما
نقلناه عنه فى سورة النمل فى الآية المتقدّمة فى صفة الأمم العربية المتأخرة التى تركت دينها فكان ذلك مصداقا
لتخوّف النبى ﷺ من فتوح البلدان ومصداقا لقوله تعالى ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض
وتقطعوا أرحامكم ـ ولما ظهر من سورة الأنفال تلك السورة التى جاء نظمها فى الحكمة أشبه بماجاء فى هذه
السورة . ألاتراه تعالى يقول فى أوّل السورة ـ وان فريقا من المؤمنين لكارهون ـ الى قوله ـ واذيعدكم
الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ـ الخ وملخص المعنى هناك أن
الصحابة رضى الله عنهم كانوا يريدون أن يستولوا على العيرالتى مع أبى سفيان ويتركوا الجيش الكبير الذاهب
الى بدر لحمار بتهم لأن العيرالتى مع أبى سفيان غنيمة لاتحتاج الى قتال وأما الجيش المتوجه الى قتالهم فانه يحتاج
الى قتال وعمل شاق فاختار الله لهم مواجهة الجيش لأن المال ليس هو المقصود بل المقصود اعلاء كلمة الله لاغير
واعلاء كلمة الله لاتكون بالاستيلاء على الغنائم بل بمحاربة الرجال والطعن والنزال . وجاء فى آخر السورة قوله
تعالى ـ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله
عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا
الله ـ فتأمّل فى هذه الآيات وتعجب ، حذر الله المسلمين فقال ـ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ـ
ثم ذكر العذاب وأبان انه ملازم لعرض الدنيا غاية الأمر ان الله أباح الغنائم لنا لأجل حفظ بلاده فهذه الغنائم
يلازمها العذاب ولكن الله لم يعذب المسلمين ولم يمنعهم من الغنائم ذلك لأنهم بها كانوا نعمة على الأمم ولكن
المفسدون فى الأرض من الأجيال التى جاءت بعد القرون الثلاثة لم يجعلوا الغنائم لحفظ الأمم بل جعلوه لشهواتهم
وهذا هو الذى يهلك الأمم . فالدمار الذى حلّ بأمم الاسلام كله تطبيق على القرآن . فاذا رأينا أهل الأندلس
كما تقدّم فى السورتين السابقتين لهذه صاروا (٢٠) مملكة فاقرأها فيما تقدّم . واذا رأينا بنى العباس فى آخر

امرهم

أمرهم تفرّقت دولتهم شذر مذر فى أيام خلافتهم . وإذا رأينا أمة الترك بعد ذلك كانت تفعل تحت خلافة بنى عثمان ماكانت تفعله الأمم العربية بعد الصدر الأوّل أيقنا أن هذا كله تفسير لهذه الآية وأن مال الغنائم المستعمل فى غير ماوضع له يجعل الأمم التى ملكته فرحة به مفسدة فى الأرض والله لايحب الفرحين ولايحبّ المفسدين ، وانما فرح هؤلاء بالمال لأنهم وجدوا أن القصد من الحياة هى اللذات والنوم والكسل بلا عمل وهذه صناعة الديدان فى الأرض ، فالله ينتقم من هذه الأمم بالاذلال ، ومن تأمّل أوّل القصص وآخرها وجدهما مطابقين لأوّل (الأنفال) وآخرها . وماالقصص فى القرآن إلا إيضاح للحكم المودعة فى القرآن ، فالله أبان فى الأنفال أن عذاب الله يمس من يأخذون الغنائم ولكنه أباحه لكم بمقتضى ماسبق فى علمه القديم وهو أن أمثال أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة والتابعين لم يجعلوا المال وجهتهم فكان عمر يخطب على المنبر بثوب مرقع وأبو بكر يحرّم على أهل بيته أخذ شئ من الغنائم إلا للضرورة فهؤلاء هم الذين فهموا القرآن وفهموا فعل النبى ﷺ وفهموا قوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ وفهموا قصة قارون ومافيها من ذم الفساد فى الأرض وذم الفرحين ، لذلك تبرؤا من المال . أما ملوك الاسلام فأكثرهم جهلوا هذه المعانى فانحطت عزائمهم وخارت قواهم وذهبت دولهم لأنهم لم يفهموا لم أحلت الغنائم ولم يفهموا قوله تعالى ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ـ فكأن قصة فرعون فى هذه السورة وقصة قارون ايضاح لماتقدم فى سورة الأنفال من المذكور فى أولها والمذكور فى آخرها ، ثم انجب من قول قارون ـ قال انما أوتيته على علم عندى ـ والرد عليه من الله بقوله ـ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ـ الخ فهذا مثل قوله فى (الأنفال) ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ـ ثم انظر الى قوله تعالى ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ومايلقاها إلا الصابرون ـ فهذا فتح باب للعلم والحكمة والعلم هو الذى شرح أمر المال ، فترى الفيلسوف (قابس) قبل الميلاد بنحو (٥٠٠) سنة ألف الكتاب المسمى ﴿ لغز قابس ﴾ وفيه أبان أن السعادة ليست هى المال وحده ولا الملك ولا الأدب المزوّر ولا غيرها من عرض الدنيا وانما السعادة ترجع الى كمال النفس بالصبر والوقار والحلم فاقرأ ملخصه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى ـ و بشر الصابرين ـ الخ وترى كتاب ﴿ الكوخ الهندى ﴾ المؤلف حديثا ينحو هذا النحو . وترى أفلاطون فى جمهوريته يبين طبقات الحكام والمحكومين و يذكر أن الأمة اذا حكمها أهل الطمع فى المال وجمعه أحاط بها و بهم الذل . فالأغنياء يجمعون المال والشعب يذل وكل منهم فى شقاء . والأغنياء مهددون من الفقراء لقلة الأوّلين وكثرة الآخرين

ونظرة فيما تقدم فى (سورة النمل) عند آية الملوك المفسدين وغيرها تعرف أن المال آلة للشقاوة عند قوم وللسعادة عند آخرين فهو تابع لعقول المستعملين له شرفا وضعة . إن القرآن لم يهمل نظام الأفراد ولانظام الأمم بل سلك كل سبيل لاسعادهما وانما هذه الأمم الاسلامية حيل بينها و بينه فهو كتاب يفسره كل علم فى الأرض قبله و بعده . ومن عجب أن أكبر الفلاسفة جاء بحثه على مقتضى هذه الآيات . ولقد قرّر أفلاطون وقبله سقراط أن هذه الحياة الدنيا أشبه بالعدم لأن المادّة فى نظرهم ليست شيأ مذكورا . لماذا ؟ لأنها متغيرة وكل متغير متقلب غير ثابت لايستحق اسم الوجود بل الذى يستحق اسم الوجود انما هو الدائم والدائم انما هى النفوس والعقول وفوقهما الله . و بناء عليه وجهوا عقول الناس الى مبدع الكون وازدروا بالدنيا ازدراء تاما بهذا البرهان مع أنهما وضعا أشرف النواميس والقوانين للحكومات وللجيوش وللأمم ليعيش الناس بسعادة . اللهم إنى لأعجب من كتابنا كيف يكون هذا هو مشربه ثم يجهله المتأخرون . ياسبحان الله . كيف يختم الله السورة بهذه الآية ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ وكيف يكون نفس هذا القول ملخص آراء أكابر الحكماء فى العالم وعليه يجب علىّ أن أكتب فى سورة القتال عند آية ـ فاعلم أنه لاإله إلا الله ـ تلك الرسالة

المسماة ﴿مرآة الفلسفة﴾ ليطلع المسلمون بعدنا على ملخص فلسفة الأمم قديماوحديثا ويفهموا كيف يقول أولئك الفلاسفة ان المادّة غيرموجودة وأن هذه العوالم أشبه بالخيال ، وكيف يتجه أفلاطون وسقراط الى الخير المحض (الله) وكيف يقول علماء أوروبا الحاليين ان علومهم فى هـذا المقام ليست شيأ مذكورا بالنسبة لعلوم علماء اليونان المذكورين ، وكيف نرى ألمانيا تتبع مذهب (كنت) الألمانى فمذهبه يقرب من رأى أفلاطون إن المسلمين يجب أن يطلع كبراؤهم وعظماؤهم على هذا وواجب علىّ أن أكتبه لهم لينظموا دولهم وعقولهم ومدارسهم على نهج علمى وليكونوا بمنجاة عن الافساد فى الأرض الذى ورد فى (سورة القصص) هنا وفى (سورة النمل) ولايدخلوا فى زمرة من نهاهـم الله فى (سورة الأعراف) فقال ـ ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ـ فان الافساد فى الأرض انما يفعله الجاهلون الذين ورد ذكرهم فى آية ـ إنّ الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ الخ وفى آية ـ وكان فى المدينـة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولايصلحون ـ وفى آية ـ إنه كان من المفسدين ـ وفى آية ـ ولاتبغ الفساد فى الأرض ـ

إن قرّاء هذا التفسير حينما يطلعون على هذا بمجرد اطلاع يدخلون فى زمرة قال الله فيها فى آخر هذه السورة ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا ـ ولولا أن الله علم أن الأمم العربية التى حملت هذا الدين سيكون من ذرّيتهم قوم فرحون بالمال وملوك مفسدون فى الأرض ماصرّح لهم بالنهى عن الافساد فى آية ـ ولاتفسدوا ـ ولاعرّض لهم فى آية ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض ـ

علم الله عزّ وجل أن آباءنا ستكون هذه حالهم فملأ القرآن بهذه الحكم التى تقرّ بها وتشهد بها تلك العقول الحكيمة أيام اليونان و بعـدها ثم غشى على عقول أمم اسلامية فجهلت ذلك واستحلت مرعى البغى والإثم فأذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وجعلنا نحن أبناءهم وعلمنا خطأهم و بصرنا وأفهمنا الحقائق فكتبناها واقتبسناها من القرآن وانشرحت بها صـدورنا فسيكون خلفنا إن شاء الله خلفا شريفا صالحا نافعا لعباد الله مستخرجا لكنوز الله التى خبأها فى الأرض رؤفا بالأمم عاطفا على الانسانية كلها لأنهـم عباد ربه وهو يحبه ويحب عباده والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٦ يونيو سنة ١٩٢٩

(القِسْمُ الثَّانِى)

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ * إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) الى قوله (ونكون من المؤمنين) أى لولا قولهم اذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت الينا رسولا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين ما أرسلناك . وملخص الآية انما أرسلناك قطعا لعذرهم وإلزاما للحجة عليهم * روى أن مشركى العرب بعثوا الى رؤس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته فى كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا وهذا قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) أى هلا أوتى الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها مما اقترحناه تعنتا قال تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) ومعنى هذا أنهم سألوه الآيات التى اقترحوها كما كان يفعل موسى من خوارق العادات فرد عليهم بأنكم قد كفرتم بموسى كما كفرتم بى و بين ذلك بقوله (قالوا ساحران تظاهرا) أى محمد وموسى ساحران تعاونا يقوّى كل واحد منهما الآخر. ومن قرأ — سحران — فهو بمعنى ساحران وعبر بالمصدر مبالغة (وقالوا إنا بكل كافرون) أى بكل منهما (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما نزل علىّ وعلى موسى (أتبعه ان كنتم صادقين) أنا ساحران (فان لم يستجيبوا لك) دعاءك الى الاتيان بالكتاب الأهدى (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) فانهم لو اتبعوا العقل لأتوا بحجة (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام بمعنى النفى

حال كونه كائنا (بغير هدى من الله إنّ الله لايهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى الشهوات (ولقد وصلنا لهم القول) أتبعنا بعضه بعضا فى الانزال ليتصل التذكير ووصلنا خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون و يتعظون و يقيسون أحوالهم بأحوال الأمم * روى انه آمن أربعون من أهل الانجيل منهم اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة ومنهم ثمانية جاؤا من الشام فهذا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) والضمير للقرآن (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به) أى بأنه من كلام الله تعالى (إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) فقوله ـ إنه الحق من ربنا ـ علة لقولهم ـ آمنا ـ وقولهم ـ إنا كنا من قبله مسلمين ـ أى ليس إيماننا به مستحدثا بل إنا كنا به مسلمين من قبل لأنا قرأناه فى كتبنا الدينية (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) إحداهما على إيمانهم بكتابهم ، والثانية على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الايمانين (ويدرءون بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية كما قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ويدفعون ماسمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرّما (وقالوا) للاّغين (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا (لانبتغى الجاهلين) لانطلب صحبتهم ولانريدها أولانريد أن نكون من أهل الجهل والسفه لأنا نترفع عنهم (إنك لاتهدى من أحببت) لاتقدر أن تدخله الاسلام (ولكنّ الله يهدى من يشاء) فيقذف فى قلبه نورا يشرح صدره للاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) المستعدّين لذلك * روى مسلم قال نزلت فى رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام إذ قال النبى ﷺ له عند الموت « ياعم قل لاإله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » وهذه وان كان نزولها على ماترى ليست خاصة بذلك ، انها قاعدة عامّة ، فتجد المستعدّين للحكمة والعلم والهدى أناسا لا تجمعهم رابطة ولابلد ولاأمّة ، فتجد أن المستعدّين للفنون وللعلوم وللحكمة يخلقون ونفوسهم قابلة لذلك فالمدار على الفطرة الأصلية لا على القرابة وأمثالها * جاء الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف الى النبى ﷺ فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا فنزل قوله تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا) أى أولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن فان العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض و يقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون أنى كانوا وذلك لحرمة الحرم فهو مكان منعنا عنه الأذى ممن عداه وأغدقنا النعم على أهله ، فالشرّ عنه مدفوع والخير اليه وارد وهذا قوله (يجبى اليه) يحمل اليه ويجمع فيه (ثمرات كل شئ) من الشام ومصر والعراق واليمن (رزقا من لدنا ولكنّ أكثرهم لايعلمون) أى جهلة لايتفطنون ولايتفكرون فى أن حرمهم آمن من الغارات تجبى اليه الثمرات فالشر عنه نازح والخير اليهم وارد وهم فى ذلك على طريقة أكثر النوع الانسانى جهلوا ماهم فيه من نعمة العقل والأعضاء والجوارح والسموات والأرض والأنهار والجبال والنعم التى لاحصر لها فكلّ يجهل النعم العامّة . فاذا قال الله فى أهل مكة ـ ولكنّ أكثرهم لايعلمون ـ قال فى الانسان كله ـ إنّ الانسان لفى خسر ـ واستثنى بعضه وقال ـ إنّ الانسان لظلوم كفار ـ وقال ـ قتل الانسان ما أكفره ـ فهذا هو الكفر وهذا هو الجهل . فلافرق بين جهل الجاهل بنعمة الحرم وجهل الجاهل بنعمة المال والولد والجسم والعقل والحواس والسموات والأرض . لافرق بين الكل والجزء فالناس إلاقليلا يجهلون هذه النعم لا أهل مكة وحدهم ـ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ـ ثم أشار الله لذلك فقال لم يختص أهل مكة بهذا البطر بل سبقتهم أمم فبطروا فهلكوا وهو قوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكم من أهل قرية أثرت وطغت و بطرت أى ساء احتمالها للنعمة كحالكم فى ذلك فخرّب الله ديارهم (فتلك مساكنهم)

خاوية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى لم يعمرمنها إلا أقلها وأ كثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) أى لم يخلفهم فيها أحد يتصرّف تصرّفهم فى ديارهم وسائر متصرّفاتهم (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا) أى ما كانت عادته سبحانه أن يهلك القرى حتى يبعث رسولا فى أكبرها وأعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل كثكة وأهلها (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) بتكذيب الرسل أوالجهل والمعاصى و بطر النعمة وما أشبه ذلك ، وكيف قصرتم نظركم على الحياة الدنيا ، أفلاتعلمون أن للنفوس الانسانية حياة ودواما (وماأوتيتم من شئ) من أسباب الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) تتمتعون به وتتزينون مدة حياتكم المنقضية (وماعندالله) وهوثوابه (خير) فى نفعه من ذلك لأنه لذة لايخالطها كدر (وأبقى) وأدوم لأنه لا آخر له (أفلاتعقلون) فتستبدلون الفانى بالباقى (أفمن وعدناه وعدا حسنا) وهو الجنة (فهولاقيه) مدركه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بآلام الكدر والانقطاع (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) للحساب والعذاب وثم للتراخى فى الزمان وهذه الآية زيادة بيان لما قبلها والاستفهام بمعنى النفى أى لايستويان فان الحسن الباقى خير مما ليس بحسن وهو منقطع * ثم أخذ يبين ما يلاقونه يوم القيامة بيانا لقوله ـ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ـ واظهارا لمناقشتهم الحساب(و) اذكر (يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى (قال الذين حقّ عليهم القول) بثبوت مقتضاه وهو قوله تعالى ـ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هؤلاء هم الذين أغويناهم ثم استأنف فقال (أغويناهم كما غوينا) أى أضللناهم كما ضللنا فنحن لم نفعل إلا ماهومن عادتنا وسجيتنا ولم نغوهم إلا لما وجدناهم قابلين كما لايقع الذباب إلا على عين قذرة فليس ذنبهم علينا وانما عيبهم عليهم هم لأنهم مشاكلون لنا ولوكانت نفوسهم أرقى ما أضللناهم ولاأغويناهم لعدم المناسبة والمشاكلة ، فاذا فعلنا ما كان من طباعنا فهم فعلوا ما كان من طباعهم فلايلومونا وليلوموا أنفسهم (تبرّأنا اليك) منهم فليس علينا ذنبهم (ما كانوا إيانا يعبدون) وانما كانوا يعبدون أهواءهم وهل الذنب على الذباب اذا وقع على العين القذرة انما العيب على صاحب العين لأنه لم ينظفها ولونظفها لتباعد الذباب عنها طبيعة فهكذا هؤلاء هم الملومون لانحن ، هكذا الأمم الاسلامية اليوم لقلة العلم فيها يرسل أهل أوروبا لهم أقواما من العظماء منهم يعطونهم أموالا ليبثوا فيهم أن هؤلاء يحمونهم ويحفظونهم من غوائل الأمم ويدخلونهم تحت حمايتهم ورحمتهم فيطيعهم هؤلاء فيقول الاوروبى ليس الذنب علىّ انما أنت جاهل ومن طبعك أنك ضعيف ولاتفهم إلا الحياة الحيوانية فأنا استعبدتك لأنك جاهل ، ولوكنت متعلما ناظرا فى هذه الدنيا وفيما خلق الله فى السموات والأرض حافظا لثغورك متسلحا بالأسلحة التى تقيك ماتجاسرت أن أكلمك ، وكيف أجسرأن أكلم من هومثلى أن يدخل تحت حكمى فليس العيب علىّ فى استعبادك ولكن العيب عليك لأنك أهل أن تخضع للأقوى لضعفك وجهلك (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم) من فرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن الاجابة ورأوا العذاب لوأنهم كانوا يهتدون) أى لوأنهم كانوا يهتدون فى الدنيا مارأوا العذاب فى الآخرة ، ثم ان هؤلاء يسألون ﴿ سؤالين ﴾ سؤالا عن اشراكهم بالله وسؤالا عن تكذيبهم الأنبياء ولما ذكرالأوّل أتبعه بالثانى فقال (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أى ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين (فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى خفيت واشتبهت عليهم الأخبار والأعذار والحجج فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لايتساءلون) لايسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة فهم إذن يسكتون (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) عند الله ، ثم ان عسى تحقيق على عادة الكرام . انتهى التفسير اللفظى القسم الثانى من السورة

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول ـ الخ ﴾

(حديث بينى و بين العالم صديق الذى اعتاد أن يباحثنى فى هذا التفسير)

بعد أن كتبت مانصه ﴿ ان توصيل القول لهم فيه معان غزيرة وعجائب وحكم ﴾ حضرصاحبى فقال أتريد أن تولدهنامعانى من هذه الجملة ، هذه جملة مفهومة بنفسها وانك بهذا تطيل التفسير إطالة ربمالا تكون مجدية وربما يسأم منها كثيرمن الناس . فقلت له إنى أرى أن هذا غيرإطالة انما التطويل هو القول الذى يكون أشبه بالمكرر وما سأكتبه هنا ليس بالمكرر بل هوحكمة ازّينت للناظرين ، وحسناء أسفرت للعاشقين ، وحوراء برزت للمحبين

كأنما تبسم عن لؤلؤ * منضد أوبرد أواقاح

جمعت الى اعتدال قوامها وحسن شكلها زينة حلاها وفصاحة لسانها وجمال جنانها وحسن خلقها ورجاحة عقلها ، بها هام العاشقون ، وبحديثها طرب السامعون ، ألافلا كشف لك عنهاالقناع بعد أن تنقد مهرها ، فقال ومامهرها ، قلت أن تشعرأن جسمك وروحك قدأحضرت صورتهما أمامك وأخذت تدرسهما ومتى فهمتهما فهمت معنى التوصيل وهنالك يتمّ لك الوصال . فقال إذن توصيل القول فى الآية يعوزه دراسة جسمى ودراسة روحى . فقلت نعم . فقال إذن هـذا تطويل لأنه تكرار كما قلت لك أولا لأن دراسة الروح قد تقدّمت فى مواضع كثيرة . فقلت له لكل مقام مقال والحديث ذوشجون والكلام ذو ألوان

فلاتدوم على حال تكون به * كما تلوّن فى أثوابها الغول

هـذه الدنيا عروس ذات ألوان ونحن خلقنا فيها فعلينا أن نبرز علومها ببـدائع الألوان وأفانين الصور ومختلف الأصباغ . فقال وكيف ذلك . فقلت إن ذلك منا انما هونسج على منوال مانرى فى وضع الحكمة فى خلق أجسامنا ، نحن نأكل ونلبس لمنافعنا وهذه المآكل والملابس والأصباغ والزينة والأزهار والطيور المغرّدة . لم يكن شعورنا بها ولاعلمنا بمحاسنها من طريق واحد بل الطرق لعلمها مختلفة . فهذا التفاح نلمسه بأيدينا ونذوقه بألسنتنا ونشمه بحاسة الشم ونسمع صوت وقعه على الأرض بحاسة السمع ونرى شكله بحاسة البصر ، فهذه طرق خمس لنعرف ثمرة التفاح ، إن الحكمة قضت أن لا يكون العلم بالتفاحة عن طريق واحدة بل نرى لنا حاسة تلمسه من قرب وحاسة ذوق تحسّ بحلاوته فاحساس الحلاوة غير احساس النعومة فالحلاوة بالذوق فتحت الباب لأكلها وتمثلها بأجسامنا ، فأما الحرارة والبرودة والنعومة والثقل والخفة التى عرفناها باللمس فهى أقلّ درجـة من الطعم الذى هوأقرب الى استعمالها من الثقل والخفة ، وحاسة الشم وظيفتها انها تتقبل ذرات دقيقة منفصلة عن التفاحة واصلة الينا من الهواء فتشوّقنا لاجتنائها

أما حاسة السمع فالواصـل لهـا من التفاحة اذا سمعت وقعها انماهوالحركات الآتية فى الهواء فهى حاسة ألطف من سوابقها . فأما حاسة البصر فانها ألطف وألطف لأن الرسول الموصل لها انما هوالضوء وهوألطف من الهواء الذى استعمله الشم والسمع

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذه أقوال غريبة . ان المقام مقام سؤال منى لك فى مسألة التوصيل فى الآية فأجبتنى بدراسة الجسم والروح . فقلت أنا فيه تكرار فأجبتنى قائلا إن العـلم يجب أن ينوّع ويكون أصباغا وألوانا ثم أخذت تقول إن الله جعل العوالم التى حولنا تصل لنا من طرق شتى وضربت مثلا بالتفاحة فانا نعرفها بلمسها وذوقها وشمها وسمع صوتها ورؤية شكلها فهل ذلك القول هونفس المقصود من تفسير الآية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هو نفس الأسلوب الذى نتوصـل به الى معنى التوصيل فى الآية أم هوتبيان نظام الله فى تعليمنا الذى نقيس عليه تعليم أممنا العلوم من حيث التفنن . إنى أرى أن هذا الذى تكتبه يظهرلى انه شروع فى الأمرين معا أى انك أردت أن تضرب بحجرواحد طيرين . فبينما أنت تمثل لتنوّع المناهج فى تعليم الناس العلوم مما فعله الله

فى جسم الانسان من الحواس التى تدرك التفاحة بأنواع من الادراك رحمة من الله بنا أن يرينا بطرق مختلفة لازدياد العلم . إذ أنت بنفس هذا المثال أخذت تشرح المقصود وهو الجسم والروح اللذان أردت أن أتصوّرهما أمامى وأفهمهما و بهذا الفهم أصل لمعنى التوصيل فى الآية و بعض سرّه . فقلت لقد أحسنت . نعم انى بهذا التمثيل أبين الأمرين معا . أبين أن تعاليم الأمم الاسلامية وغير الاسلامية يجب أن يكون على طرق شتى وكلها ترمى الى غرض واحد كما أن الله لما خلق العالم وخلق الانسان فيه جعل علمه بما حوله بطرق مختلفة ليحيط به علما على مقدار طاقته ويكون من نتيجة هذا أن أفهمك معنى — ولقد وصلنا لهم القول — قال فاضرب لى مثل ذلك حتى أعقله . فقلت انما مثل الانسان فى هذه الأرض كمثل ملك عظيم الشأن رفيع المقام عالى المنزلة واسع الملك كثير الجنود والأعوان . ولاجرم أن مثل هذا الملك له عاصمة يعيش فيها وله بلاد نائية عن العاصمة ، فنها ماهو قريب من العاصمة ومنها ماهو بعيد عنها ، فأهل العاصمة يمكنهم المثول أمامه بأنفسهم ورفع قضاياهم له بدون رسول . قال نعم . قلت وسكان القرى المتوسطة فى البعد يمكنهم أن يرسلوا نوّابا عنهم قال نعم . قلت وسكان القرى التى هى فى أقاصى بلدانه يقدرون على محادثة الملك بارسال رسائل كتابية بطريق البريد المعروف أو بطريق الحمام الزاجل أو بطريق البرق (التلغراف) قال نعم كل هذا ممكن . قلت هذه صفة الانسان فى هذه الدنيا . إن الملك فى عاصمته له أعوان يحيطون به فى نفس قصره وله خواصّ يعيشون فى عاصمته . قال نعم . قلت فالأعوان المحيطون به من خدّام قصره يراهم كل حين . فأما ضواحى المملكة فانه يراهم حينا بعد حين لمصالح المملكة . قال نعم . قلت هكذا هذا الانسان هو هذا الملك والعاصمة هى جسمه فاما الحرّ والبرد والثقل والخفة والنعومة والخشونة وماأشبهها وهى ﴿عشرة أحوال﴾ من أحوال المادة فانها تحيط بالجسم وهى تعرف بحاسة اللمس فقد أشبهت أعوان الملك المقيمين معه بقصره . وأما طعم التفاحة وطعوم المآكل المختلفة من الحلاوة والملوحة والحرافة ونحوها فالقائم بها حاسة الذوق التى هى أرقى من حاسة اللمس لأن حاسة الذوق هى أشبه بوزراء المملكة الذين يترددون عليها آنا فآنا ليتشاوروا معه فى حياتها واصلاحها ثم إن المشمومات والمسموعات أشبه بسكان المملكة الذين ابتعدوا عن عاصمة الملك ، فأما المشمومات فانها ترسل ذرات دقيقة جدا كذرات المسك التى تتطاير فى الهواء كل حين ولشدّة دقتها لايظهر أثر النقص فيه على طول الزمان فهذه الذرات التى تخللت الهواء لم تخرج عن كونها نماذج من جرم التفاحة المخلوقة فى الشجرة أرسلت مع الريح يشمها الانسان فهى أشبه بالوفود التى أرسلها سكان القرى المتباعدة عن المملكة ليعرف الملك مقدار طاعتهم ممن حضروا منهم ونابوا عنهم فى الخضوع أمام الملك وتقول تلك الذرات التى نسميها رائحة أيها الملك انا طائعون لك فهل ترغب أن يحضر بقية الجماعة ليكونوا خدما لك وعبيدا بل سيصبحون جزأ من جسمك ولحما ودما وعظاما ومخا وعينا وأذنا . ولاجرم أن هذه الذرات أغلظ من الحركات لأن الحركات عرض والذرات جسم ثم إن حركات تلك التفاحة فى الشجرة وهى تترنح يمينا وشمالا وتعانق الأوراق وتضاحك القمر والنجوم وتفرح وتمرح وترسل تلك النغمات فى أمواج الهواء فيسمعها صاحب البستان تعطى نفسه شوقا وتوقا الى احضارها والتغذى بها وهذه أشبه بارسال البريد بالخط والرقم فى القطرات أومع الحمام الزاجل

ولاجرم أن الحركات فى الهواء وسماعها ألطف من الذرات المشمومات فى الهواء كما أن حاسة السمع أشرف من حاسة الشم فتلك أقرب الى عالم الروح وهذه أقرب الى عالم المادّة ، ثم إن صورة تلك التفاحة لايحملها النسيم ولكن يحملها عالم الأثير الذى يتموّج و يتموّجه آلاف آلاف المرات فى الثانية يحدث لنا مانسميه ضوأ فهذا الضوء يحمل تلك الصورة و يدخلها فى حدقات الأعين المركبات من أغشية متناسقة معدّة لقبول تلك الصورة فتحبنا فتنارها . هذه هى الفنون وأنواع الطرق وألوان الطرق العلمية التى أبدعها المبدع الحكيم فى صورة الانسان فلم يقتصر الانسان على

(١) لمس التفاحة

(٢) ولاعلى ذوقها

(٣) ولاعلى الاحساس بأجزاء منها بحاسة الشم

(٤) ولم يقف عند سماع حركات الهواء بسبب تحركها

(٥) بل تعالى الى عالم الأثير وضوئه فارتقت هذه النفس الى عالم الأفلاك ، لماذا ؟ لتعرف التفاحة فهى إذن استعانت بكل ماحولها ، استخدمت اللمس مباشرة والهواء والضياء وهذا الضياء مسافرلها من أقاصى العوالم التى ربما كان ضوؤها قد سافرالينا منذ مائة مليون سنة نورية (اقرأ هذا فى سورة الفرقان عندقوله تعالى ـ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ـ فانك ترى هناك هذا المقام مشروحا وأن من الأجرام السماوية مابعده عنا مائة مايون سنة نورية) هذه مراتب العلم عند الانسان

(٦) إن العين كما تدرك صورة التفاحة بنفسها تدرك اللفظ الدال عليها مكتوبا بصناعة يدها

(٧) وتدرك صورة رسمها بالآلات المصوّرة فهى إذن تعرف من ﴿ طرق سبعة ﴾ ثلاث منها بطريق البصر والأربعة الباقية بطرق الحواس الباقية

ثم إن الحواس الثلاث الأولى أقرب الى العالم الأرضى فلذلك كانت صناعاتها سهلة قريبة المنال . أما حاسة السمع والبصر فانهما أقرب الى عالم الأرواح ولذلك ترى أن حاسة السمع تسمع كل ماحولنا قريبا وهذا المسموع يشمل كل ماهوقريب وكذا ماهو بعيد باللفظ لأن الكلام يعبرعن كل موجود قريبا أو بعيدا والبصركما يدرك نفس الأشياء يدرك صورها التى صوّرت بآلات التصوير . هذا هوالشرح الذى أردت أن أبينه لك أيها الصديق . وههنا ﴿ نتيجتان * النتيجة الأولى ﴾ ان العلوم والمعارف فى هذا النوع الانسانى يجب أن تنوّع وتكون لها طرق مختلفة ، وقد عرف هذا علماء البيداجوجيا كما تقدّم فى تفسيرسورة الفاتحة فانهم يقولون للمدرسين ليسمع التلميذ القول وليكتبه هو بيده وليكن مكتوبا بخط جيل ولتكن صور الأشياء مرسومة أمامه، إذن يشترك السمع من المعلم و بصر المتعلم وكلام نفس المتعلم وكتابته للكلمة وصور الأشياء المرسومة أمامه كلها تشترك فى تفهيم التلميذ . إذن علماء تعليم الأطفال أخذوا يدركون الحكمة الأولى وهى حكمة صانع العالم انه أرانا ماحولنا بطرق مختلفة . فهاهم أولاء أخذوا يسيرون على منواله ومن ضلّ طريق الصانع الحكيم عاش جاهلا ، هذه هى النتيجة الأولى التى جاء الكلام عليها عرضا . أما ﴿ النتيجة الثانية ﴾ وهى المقصود من أصل المقال فهى ان الله عزّوجل جعل جسم الانسان كأنه النور أوكأنه بطارية كهربائية وخلقه مناسبا لما حوله ومهدالسبيل لانتفاعه بكل ذلك ، فالنور والهواء ونفس الأجسام كلها مستعدّات لابلاغه العلم ولمنفعته . إن الله لما خلقه أراد أن يرفعه الى عالم أعلى ولاطريق الى رفعه الى عالم أعلى إلا العلم خاطه بطرقه وأكثر منها وابتلاه بالآلام واللذات والمرض والصحة والموت والحياة . كل ذلك ليوقظه للعالم الذى هو مسوق اليه فأكثر من الطرق ليزعجه ليخرجه من هذه الأرض الضيقة وجعل فى الأرض حكماء وعلماء وأنبياء فهؤلاء زادوا فوق الحواس وانما زادهم فى الأرض ليساعدوا هذه الحواس وهذه المزعجات من حوادث الأيام والليالى على خروج الانسان من مضايق الأرض فأسمعوهم أقوالا توقظهم الى عوالم عرفوها تارة بعقولهم كالفلاسفة وتارة بالوحى كالأنبياء فهؤلاء استعملوا حاسة السمع فسمعوا الكتب السماوية ومنها القرآن . ان البصر ازداد قوّة برسم صور الأشياء بعد رؤية نفس أجسامها و بنظر الألفاظ الدالة عليها بوضع اللغات المختلفات شرقا وغربا هكذا السمع فضلا عن سماعه حركات المخلوقات سمع الألفاظ الدالة عليها ثم هوفوق ذلك سمع ماأنتجته العقول أوجاء به الوحى . كل ذلك تكميل للنفوس لارتقائها الى العالم العلوى وازعاجها عن هذا العالم الضيق فقوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ـ تبيان لآخر مايترقب من حاسة السمع وهو سماع

الوحى

الوحى الذى يأتى للنفوس بما يحدث فيها حكمة فتستيقظ بعد الغفلة وتتاق أشعة من نور الحكمة والعلم فتنبعث لدراسة ماحولها ، وهـذا الذى كتبته الآن لم ينبعث فى نفسى إلا عند قراءة ـ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ـ فهاهى الذكرى التى وصلت الينا من هذه الآية

فقال صاحبى هذا بيان حسن و يظهرأن هـذا الجسم الانسانى مستودع علم فعليه نظام الدول الأرضية كما فى كتابك ﴿ أين الانسان ﴾ وبه علم (البيداودجيا) أوعلم تعليم الأطفال ، وبه الازدياد فى الحكمة ودراسة العلوم الطبيعية وعلم الفلسفة . فقلت نعم إن نوع الانسان بعدنا سيكون فيهم أناس أبرع من العلماء فى زماننا أما الأمم الاسلامية فان حوادث الدهر ومزعجات الليالى والأيام وأمثال هذا التفسير كلها متعاونات على اخراج أجيال منهم يكونون ـ خيرأمة أخرجت للناس ـ وسينهجون منهج ما أكتبه فى هذا التفسير وسيكون منهم حكماء وعلماء يبتلعون علوم الشرق والغرب بعشق وغرام وحب ولايثنيهم عن ذلك الجمال عائق وهم الذين يقولون إن الله قد جعل أجسامنا مستمدة من كل ماحولها ، فعلينا أن نستمد من كل مخلوق فنتعلم كل علم وندرس كل موجود ، ومتى قصرنا فى أى عالم من العوالم التى حولنا فالله لنا بالمرصاد و يقول لنا أيهاالناس أنا لم أترك فرصة إلا انتهزتها لتعليمكم ولم أقف عند اللمس ولاالشم ولاالبصر بل خلقت لكم اللغات المعبرات عن صورالموجودات ووصلتها لكم تكثيرا للعلم ، فاذا أغمضتم العين ولم تشموا ولم تلمسوا أرسلت المعانى بطرق الألفاظ حتىان هذه الحاسة كأنها جميع الحواس ، فاذا كانت هذه أعمالى فعليكم أن تتخلقوا بأخلاقى ولاتدعوا فرصة إلا انتهزتموها فانتفعوا بكل شئ بالهواء و بالماء و بالضوء و بكل موجود فهذا هو التوصيل وهذا هو حديث حجة الوداع ﴿ ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع ﴾ وهؤلاء هـم الذين يعقلون قوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ـ فهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النبى ﷺ ومن على شاكلتهم هم الذين يتذكرون . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٥ ينايرسنة ١٩٢٩ والحمد لله رب العالمين

واعلم أن هذا القسم إلزام للكفار واحتجاج عليهم وقطع لأعذارهم بعدأن مهد لهم السبيل بذكرقصص موسى حتى يكون مدخلا للكلام معهم ومخاطبتهم وقطع أعذارهم ، ثم أعقبه بالقسم الثالث وهومن قوله تعالى ـ ور بك يخلق مايشاء ويختار ـ الى قوله ـ وضل عنهم ماكانوا يفترون ـ وهوتذكير بآيات الله سبحانه فى الأرض والسموات كما ذكرهم فى القسم الأول بآياته فى الأمم الماضية حتى تتضافر الدلائل وتتحد الحجج فأخذ يذكر أنه سبحانه هو وحده مصوّرالصور باختياره يخلقها كما يشاء لاراد لقضائه فلاشريك له كما يزعمون وعلمه محيط بما ظهر ومابطن وهو محمود فى الدنيا والآخرة وقضاؤه نافذ ، ومن أعظم نعمه أنه لم يجعل ظلام الليل دائما ولانورالنهاردائما بل أدارالأفلاك فكان ليل ونهارلينام الناس ليلا و يعملوا للرزق نهارا ، واليك بيان القسم الثالث

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) أى وربك يخلق مايشاء ويختار مايشاء لاموجب عليه ولامانع منه ولذلك كان هـذا العالم على غاية النظام والاتقان والابداع فليس لأحد من المخلوقين اختيار فى شئ من ذلك (ماكان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير فليس لهم أن يختاروا على الله شيأ مّا وله الخيرة عليهم ومما يدخل فى هذا أنه له أن يرسل من يشاء رسولا فلايجعل ذلك منوطا بمال أو بجاه فيسقط بذلك قولهم ـ لولانزّل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ وهما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى فالله مطلق التصرّف وهوأعلم بمن استعدادهم قابل لذلك (سبحان الله) تنزيها له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره فاذا أراد النبى ﷺ أن يهدى أحدا من أحبابه أوأراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله ليس لكم من الأمر شئ ، فلاالنبى يهدى عمه ولا أهـل مكة ينالون أن تكون الرسالة فى عظمائهم تنزيها لله (وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم . ولما كانت القدرة المسبوقة بالارادة المعـبر عنها بالاختيار يتقدمها العلم الذى هومقدّم على الارادة أعقبه بقوله (وربك يعـلم ماتكنّ صـدورهم) تخفى (وما يعلنون) يظهرون فلما اختص بالعلم اختص بالاختيار فخلق مايشاء كما يشاء (وهوالله لاإله إلاهوله الحمد فى الأولى والآخرة) ذلك انه يحمده المؤمنون وأولياؤه وأنبياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة مثل قولهـم ـ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ـ وقولهم ـ الحمد لله الذى صدقنا وعده ـ (وله الحكم) القضاء النافذ فى كل شئ (واليه ترجعون) بالنشور (قل أرأيتم) أى أخبرونى يامعشر الكفار (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما (الى يوم القيامة من إله غيرالله يأتيكم بضياء) يقول الله أخبرونى من إله غيرالله يقدر أن يأتيكم بضياء إن جعل الله عليكم الخ (أفلاتسمعون) سماع تدبر واستبصار وكان الانسان اذا جنّ عليه الليل وفرض أن الشمس لاتطلع يقول فى نفسه ذلك فعبر بالسمع لأن الليل يناسبه السماع والنهار عكسه (قل أرأيتم إن جعـل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غـيرالله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من التعب (أفلاتبصرون) ولما كان الضوء فى نفسه نعـمة والظلمة انما هى عدم الضوء لم يصف الضوء اكتفاء بذكره هو ووصف الظلمة لتبيان فائدتها (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) بالليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بالمكاسب المختلفة والتنقل فى الأسفار والتقلب فى الأعمال (ولعلكم تشكرون) أى ولكى تعرفوا نعـمة الله فى ذلك فتشكروه عليها ولاشكر لغـيره لأنه لا يكوّر النهار على الليل ولاالليل على النهار إلا الله تعالى فلذلك يعترف الكافرون بهذه الحقيقة على رؤس الأشهاد يوم القيامة بعد أن جهلوها أوتجاهلوها فى الدنيا وهوقوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم ترعمون) هذا تكرير للتوبيخ على اتخاذ الشركاء فهوفيما تقدم دليل على فساد آرائهم وهنا تقرير أنه لاحجة لهم ولاشبهة وانما هوهوى وشهوة وهوقوله (ونزعنا) أخرجنا (من كل أمة شهيدا) وهونبيهـم يشهد عليهم بما كانوا يعملون (فقلنا) للأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ماكنتم تدينون به (فعلموا) حينئذ (أن الحق لله) فى أن الله ألوهيته لايشاركه فيها أحد (وضلّ عنهم) وغاب عنهم كما يغيب الضائع (ما كانوا يفترون) أى يختلقون فى الدنيا من الكذب على الله . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

عجائب

﴿ عجائب القرآن فى هذه الآيات ﴾

تأمل قوله تعالى ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ـ تأمّل فى هذا وتعجب كيف يقول هنا ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة ـ نعم الله محمود فى الدنيا يحمده الناس على ماعرفوا من نعم يحمدونه اذا أحسوا بها ، فيحمده الفقير متى أحسّ بالغنى ، ويحمده المريض متى نال الشفاء ، ويحمده الذليل متى أحسّ بالعزّ . وبالجملة حمد الناس وثناؤهم على ربهم اذا أحسوا بنعمه وذلك عام فى جميع النوع الانسانى ، فأما فى أوقات الفراغ وهدوء البال فان الناس لايتذكرون نعمة ربهم فلايذكرون صحة البدن ولا قوّته ولا العقل المركوزفيهم ولاالذكاء ولايفكرون فى نعمة الولد والأهل والأصحاب والأقارب ولانعمة نظم المدن التى تحفظهم ليعيشوا فيها ، ولانعم السموات والأرض والكواكب والشمس والقمر والأنهار والبحارفالناس ماداموا فى خفض وسعة الرزق وبحبوحة العيش فانهم غافلون . لذلك أرسل الله رسوله ﷺ والأنبياء قبله ليذكروا الناس بالنعم ليدرسوها ومتى درسوها أحسوا بها ومتى أحسوا بها حمدوا الله عليها . ولما كان النبى ﷺ آخر الأنبياء وأمر بالحمد كما رأيت فى (سورة النمل) إذ قال الله له ـ قل الحمد لله وسلام على عباده ـ أمر ﷺ أن يصلى المسلمون بفاتحة الكتاب فقال ﴿ لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ﴾ وانما قال ذلك لأن الله أمره بالحمد ولاحمد إلا حيث تعرف النعمة لأن النعمة التى لايعرفها الانسان لايحمد عليها كما لايحمد الأصحاء على العافية ولا المبصرون على خلق أعينهم اذا لم يعترهم مرض فيذكرهم . لهذا ترى المسلمين فى أقطار المسكونة قد اتخذوا الفاتحة شعارهم وتسمع فى كل آن وقت الصلاة وفى خارج الصلاة قولهم ﴿ الحمد لله ﴾ وفى عقب الأكل وعقب كل نعمة ﴿ الحمد لله ﴾ فهذا من الحمد فى الدنيا . ولاجرم أن الحمد يتقدّمه العلم بالمحمود عليه حتى تشعر النفس بالنعمة . فالشعور إما بحادث طبيعى أو بطريق علمى والحادث الطبيعى المذكر بالنعم غير دائم بل هو قليل لأنه خاص بالمصائب والأمراض . أما الطريق العلمى فهوعام فى النعم الجزئية والنعم الكلية . فبه تعرف نعم السموات والأرض والأنهار وخلق هذا العالم حتى يدرك الانسان أن هذه كلها مساعدة له على بقائه ونعمها واصلة اليه بل يرى أن الناس جميعا ينفعونه فى أمّته وفى غير أمّته ، فإذن العالم كله نافع له لافرق بين شمس وقمر وبحر وأمة نشأ فيها وأمة لم ينشأ فيها ، فالعلم يعرّف الانسان هذه العوالم فيحمد عليها ويعرّفه أن الناس اخوانه فيحبهم ، ومتى حمد الانسان على نعم الله فى الدنيا حمد عليها يوم القيامة بل لاحمد فى الآخرة إلا اذا تقدّمه حمد فى الدنيا إذ لاحمد حقا إلا على علم والعلم فى الدنيا باق فى النفس بعد الموت فمن لايدرك هذا الوجود فى الدنيا لايدركه فى الآخرة ، فاذا حمد العامّة والجهال ربهم على طعام أوشراب أومال أوجاه ، فالعالم أرقى وأرقى لأنه يحسّ فى نفسه بحمد الله كلما نظر كوكبا أونباتا أوحيوانا أوهبت ريح أوجرى نهرلأنه يراها كلها متعاضدة متعاونة لخدمته وخدمة الناس بل يحمد الله لذلك الجمال البديع والبهجة والرونق والحسن ويرى هذا العالم كله جميلا فيكون الحمد أجلى وأبهى وأدوم وأبهج وأجل وهذا الجمال هوالمقصود لذاته وهذا غاية الحمد

ولما كان الأنبياء هم المذكرون بتلك النعم وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ورد أنه هورافع لواء الحمد وأنه له المقام المحمود فيرجع الأمر كله الى العالم لأنه لاحمد إلا بعد علم ، ونتيجة هذا القول أن هذه الأمّة الاسلامية أمة حمد ويلزم من ذلك أن يكونوا علماء بهذا الوجود ، انظر أليس الأمر اليوم معكوسا ، إن حمد المسلمين اليوم لفظى إذ حمد العامّة هوالغالب ، أما الحمد الاسلامى العقلى المبنى على العلم والحكم والفهم فانه غائب اليوم انه سيقوم فيهم أناس ينبغون فى العلوم ويعلمون هذه الأمّة أنواعها ويتصرّفون فيها ويعمّ الأكابر وهم يفيضون على الأصاغر وهذا هوالسر فى قوله فى (سورة النمل) ـ وقل الحمد لله ـ وأتبعه بقوله ـ سيريكم آياته فتعرفونها ـ لأن الحمد بلامعرفة حمد لفظى لامعنى فيه وهوجسم بلاروح ولفظ بلامعنى ، وأى فضل فى حمد لايحسّ حامده به ، فالحمد بعد المعرفة ولذلك قال فى هذه السورة ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة ـ لأنه ذكر

المعرفة هناك فى آخر (سورة النمل) ومثل هذا يقال فى (سورة الفاتحة) ابتدأ الله فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) ولاجرم أن الرحمة ﴿ قسمان ﴾ رحمة أفيضت على الأجسام ورحمة أفيضت على العقول ورحمة الأجسام مقدمة ورحمة العقول نهاية ثم أتبعها بقوله (الحمد لله رب العالمين) فذكر التربية ليوجه عقولنا الى نظام هذه العوالم كما تقدم فى الفاتحة وأتبعه بذكر الرحمة للدلالة على انها سارية فى العوالم كلها لنستوجب الحمد والاحساس بالنعمة ولما كان أكثر الناس كما قلنا لايحسون إلا بما تشعر به حواسهم من النعم الطارئة ولايفقهون النعم المترادفة لأنها بتكرارها عليهم يبطرون ولايذكرونها . ذكر العبادة وانها خاصة بالله وسأل المؤمن أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . فذكر هداية الله للمنعم عليهم الى الصراط المستقيم وهذه الهداية منشؤها العلم والعلم بالنعمة هو الذى يثير فى النفس الحمد والاعتراف به . إن الأمة الاسلامية أمة حمد ونبينا ﷺ رافع لوائه ولاحمد إلا على علم بالمحمود عليه والمحمود عليه جميع النعم والمسلم يسأل الله الهداية لصراط المنعم عليهم وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين هو الصراط السوى . هو العلم بالنعم . هو العمل الصالح والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون هؤلاء هم المنعم عليهم فالأنبياء والصديقون متحققون بالعلم والأخلاق والشهداء تبع لهم وأما الصالحون فهم متحققون بالعمل أكثر من العلم فالصراط المستقيم شامل للعلم وللعمل و بالعلم كما قلنا يثور الحمد فى الانسان

إن هذه الآيات التى نحن بصددها جاء فيها التسبيح ـ سبحان الله وتعالى عما يشركون ـ وتبعه التوحيد إذ قال تعالى ـ وهو الله لاإله إلا هو ـ ثم الحمد على النعم وهو قوله ـ له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم ـ فهذه ﴿ درجات ثلاث ﴾ تقديس وتوحيد أى ان الذات المقدسة ليست متعددة ثم حمد * وقد ورد « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لاإله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » وورد أيضا ﴿ افضل الدعاء الحمد لله ﴾ وقيل ﴿ ليس شئ من الأذكار يضاعف ماتضاعف الحمد لله ﴾
* قال الامام الغزالى ﴿ ولاتظنن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات ﴾ اه

يقول مؤلف الكتاب إن أول الأمر وآخره المعرفة والعلم ، إن هذه كلها مذكرات بالعلم ، فاذا سمعت قوله تعالى ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ فانما ذلك الحمد لمعرفة أوجبته فى الدنيا والمعرفة فى الدنيا هى الاطلاع على نظام هذه الدنيا وجمال الله فيها وحكمته و بهائه وتلك النظم البديعة البهية التى تدهش العقل وتبهره فينطق بالحمد فى هذا الجسم و بعد مفارقته . وهذا الذى ذكرته كله واضح فى هذه الآيات فانك ترى التقديس تلاه التوحيد أتبعه الحمد ، ولما كان الحمد لا يكون إلا على نعمة والنعمة العامة لاتعرف إلا بالعلم قال الله تعالى ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ـ الخ يقول الله أيها المسلمون إن ربكم مختص بالحمد فى الدنيا والآخرة ولاحمد إلا بعلم ، فانظروا فى الليل والنهار فلو أن الليل دام عليكم أفلستم تحرمون من التصرف فى معاشكم ، واذا كان النهار دائما عليكم أفلستم تمنعون من وقت الراحة ؟ انظروا فى رحمتى التى وسعت كل شئ ، انظروا فيها فانى جعلت ظلمة وجعلت نورا بنظام دوران الشمس ليكمل هناؤكم وسعادتكم فحمدكم لا يكون إلا اذا عرفتم رحمتى ولاتعرفونها إلا بالعلم ، ألم آمركم أن تقولوا ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ قبل ـ الحمد لله رب العالمين ـ أليس ذلك لتذكروا رحمتى التى وسعت هذا النظام وذلك بالتعليم ومتى عرفتم حمدتم . انتهى

﴿ النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها ﴾

(نمط آخر فى تفسير هذه الآية)

ذكر الله الليل والنهار وانه رحمنا بهما مريدا بذلك أن نعلم النعم فنشكر عليها والشكر أعم من الحمد المتقدم فالحمد باللسان وحب جميع الناس بالقلب وصرف النعم والمواهب كلها فيما خلقت لأجله ، فهذه الثلاثة هى الشكر

واسها

وأسها كلها العلم ، ومجامع النعم وأضداد النعم جمعت هنا . إن الله لما خلقنا فى هذه المادّة أراد تربيتنا والتربية لابد لها من ضدين نعمة ونقمة ، فالنعمة موهبة ، والنقمة تسوق الناس اليها ، وعبر عن هذا كله بالليل والنهار والأصل كله دوران الشمس ومبدأ ذلك كله الحركة فبالحركة كان دوران الشمس ظاهرا وبدوران الشمس ظاهرا كان الليل والنهار ، والنهار عنوان النعم ، والظلمة أشبه بعدمها وعدم النعم هو النقم إذ لا نقمة إلا عدم النعمة ، فهذا الدوران أنتج فيما على الأرض ماهو من طباعه ، واذا كان من طباع الدوران الظلمة والنور أى عدم النعمة ووجودها

﴿ كان فى الأرض ﴾

جبل وواد وسهل وحزن وبحر وبرّ وعامر وخراب وخصب وجدب وحلو ومالح وهواء وحجر وخشن وناعم وحرّ وبرد ولطيف وكثيف ومرّ وحلو فى النبات وحيوان مفترس ضار لنا وأنعام تنفعنا

﴿ وكان فى أجسامنا ونفوسنا ﴾

أعمى وبصير وأصم وسميع وأخرس وفصيح وأعرج وضده وأقطع وذو يد ومريض البدن وسليمه وكذا مريض القلب أو الجنب أو المعدة أو الامعاء أو الكبد أو الطحال وهكذا بقية الأعضاء ومقابلة الصحيح فى ذلك كله ، وكان فى الانسان الغنى والفقير والعزيز والذليل والبخيل والكريم وهكذا مما لا يسعه المقام وكان فيه أيضا الذكى والبليد والعالم والجاهل والأحمق والعاقل كل ذلك داخل فى ذكر الليل والنهار فالأوّل لعدم النعم والثانى لوجودها وماذكرناه كله لا يخرج عنهما وكل ماعلى الأرض ناجم من آثار الحركات السماوية النازلة على الكرة الأرضية فكأن النتائج تابعة للمقدمات ناهجة منهجها سائرة على منوالها ولما كانت هذه تمرّ على الناس وهم غافلون ذكر الله الناس بقوله ــ لعلكم تشكرون ــ أى لعلكم تعرفون فتشكروا على النعم

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى ألم الجهل وألم الذل وألم الفقر وألم المرض والجوع وألم الفراق وألم الوحدة محرّضات على نعمة العلم والعزّ والغنى والصحة والطعام والاجتماع وهذه أشبه بالسائق للناس الى حوز النعم وجعل لذة العلم ولذة النصر ولذة الثروة ولذة الصحة ولذة الطعام ولذة الاجتماع أشبه بالقائد ، فلكل من ذلك سائق مؤلم وقائد ملذ تحمله على استجلابه ، ومن أكبر قائد للنعم جمال الزهر وحسن القمر وبهجة ضوء الكواكب . وغرائب المخلوقات التى تلفت النظر وتكون فى باب السائق أشبه بالمقطوعى الأيدى والأرجل فى باب النقم . ثم الجمال الفائق والقبح الزائد أحدهما قائد للنعم وثانيهما سائق يسوق الناس للبعد عن قبح المنظر وشناعة الملبس وسوء الحياة

هذا كله هو ما وضعت عليه الحياة فى أرضنا ويقرب منه قوله تعالى ــ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففرّوا الى الله ــ فقوله ــ ففرّوا الى الله ــ هناك أى بالعلم وقوله ــ لعلكم تشكرون ــ ولا شكر إلا بعد علم

﴿ نتيجة هذه الآيات ﴾

عليك أيها الذكىّ أن تفهم المسلمين أن الله يغضب على كل أمة نامت عن العلوم ، أيقظ المسلمين وقل لهم اقرؤا جمال هذه الدنيا من نبات وحيوان وتشريح وعلم نفس وعلم فلك وعلوم البحار وبهجة هذه الدنيا وعلى كل غنى وعالم وذى جاه أن يفهم المسلمين انهم يجب عليهم أن يعمموا التعليم فى سائر بلاد الاسلام وأن تكون معرفة الله بأشياء مشوّقة من بهجة الأنوار ومحاسن الأشجار وجمال البحار وصولة البخار وعزة النضار وضوء الماس ونفائس الأحجار وبدائع الأسرار وعجائب الآثار وحساب الليل والنهار وعجائب الفلك المدار ــ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ــ

قل ابدؤا بهذه العلوم فاقرؤها فاذا قرأتموها للصغار فمعنى ذلك أن تقطفوا من أثمارها وتسمعوهم من

أخبارها فيكونون مشتاقين فرحين بها وهذا الشوق يدفعهم الى اكتناه أسرارها اذا كبروا . ذلك هو المسمى (درس علم الأشياء) فيؤتى بنبذ من كل علم وتعطى لهم كأنها حلوى بها يفرحون وفاكهة بها يتفكهون فاذا كبروا قرؤا دروسها وعرفوا نظمها وتناولوا آياتها

هذا هو شكر ربكم فادرسوه ، وهذا هو دين الاسلام فى المستقبل فتربصوه ، وهذا هو توحيد الله وشكره فاشكروه ، وهذا هو الذى به تعمر مدنكم وتعظم أممكم وتقوى شوكتكم وتحفظ ثغوركم وتكثر نعمكم وتقل نقمكم ويهابكم عدوّكم . هذه هى العلوم التى ترفعكم فى الدنيا بما ذكرناه وفى الآخرة بلقاء الله ، فالدنيا تكون لكم سامعة مطيعة وقلوبكم تعشق ربها وتحب خالقها وتأنس به فى هذه الحياة ، فاذا ماقرب موتها أنست بعالم الجمال وفرحت بلقاء الله وهذا هو قوله تعالى ـ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك هو الفوز العظيم ـ

وههنا ﴿ أربع جواهر ﴾ ﴿ الجوهرة الأولى ﴾ فى قوله تعالى ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى قوله تعالى ـ وهو الله لا إله إلا هو ـ الخ

﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى بهجة العلم فى قوله تعالى ـ قل أرأيتم إن جعل الله ـ الخ

﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى ـ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ـ

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ـ ﴾

يقول المسلم فى صلاته « اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاراد لما قضيت ولاينفع ذا الجد منك الجد » هذا لأنه أعلم بالمصالح فهو يعطى وهو يمنع لحكم هو وحده يعلمها ولن يعرف أحد من بنى آدم حقائق هذه الحكم إلا بقراءة كل علم على قدر الطاقة هو يخلق مايشاء ويختار ليس الخيار لنا لأن علمنا قاصر وهو يعلم كل شئ ، واذا أردنا ضرب مثل هنا على ذلك وجدنا العالم كله والعلوم كلها مضرب أمثال ولكنى أقتصر على مسألة واحدة تأخذ باللب وتشرح الصدر فأقول

يعيش الجنين فى بطن أمه وفيه يتغذى بدمها ، فأمه تهضم الطعام فى بطنها وينقلب دما والدم يقابل الهواء الجوّى بالتنفس فى رئتيها فيصلح لتغذية جسمها فيرجع الى القلب ويدخل الجهة اليسرى منه فيدخل من أعلاه فى تجويف يسمى البطين وينزل منه بفتحة الى تجويف أسفل منه يسمى البطين وهو أكبر من التجويف الأوّل ، ومن هذا التجويف الأكبر فى الجهة اليسرى يخرج منتشرا فى البدن أعلاه وأسفله ثم يرجع الى نفس القلب من الجهة اليمنى وهو ممتلئ موادّ فحمية (كربونية) فيدخل فى تجويف صغير هناك ثم ينزل منه الى تجويف أسفل منه يسمى البطين أيضا ومن هذا الأسفل يخرج متجها الى الرئتين أى رئتى المرأة التى كلامنا فيها وهو يحمل الموادّ الفحمية فيقابل الهواء الجوّى الداخل فيعطيه بتنفسها تلك الموادّ ويصفى كما نصفى نحن الماء ونخلصه من المواد الغريبة بآلات التصفية ، فهذه الرئة أشبه بالأوانى التى نضعها فى منازلنا وفيها الماء فينزل من مسامها خالصا سائغا للشاربين لاضرر فيه ، فالرئة كالأوانى المذكورة والدم كالماء ومتى صفى الماء فى الرئة وطهر بمقابلة الهواء الجوّى أخذ من الهواء فى نفس الحال موادّ الحياة (الاكسوجين) بعد ما أعطاه المواد المهلكة السامّة الفحمية (الكربونية) ورجع الدم يجرى الى الناحية اليسرى ودخل فيها كما تقدم . هذه هى الأعمال التى تحصل فى قلبى وقلبك أيها الذكى وفى قلب المرأة ونحن لانشعر ولا نعلم . وليس شرح هذا المقام مقصودا بهذا المقال . كلا . لأنه قد تقدّم مستوفى فى (سورة المؤمنون) عند آية ـ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ـ وانما الذى سقت له هذه المقالة أمر عجيب وغريب . سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى اخترت هذا الوضع للقلب واصطفيت له هذه الدورة الدموية التى تتوقف حياتنا عليها . ولما كان هذا النظام معلوما لجميع الأطباء ويتبعهم المتعلمون فى الكرة الأرضية لم يكن

أمرا غريبا لأن كل مألوف متروك وكل غريب مرغوب ، فلتكرار هذا العمل زالت غرابته كما زالت غرابة الليل والنهار ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والكواكب فلا تحرك ساكنا فى أكثر هذا النوع الانسانى كذلك هذه الدورة الدموية التى تدور فى أجسامنا المملوءة حكما وعلما قد أصبح الانسان كله إلا قليلا معرضا عن بدائعها وعجائبها ، واذا رأى الناس كسوف الشمس وخسوف القمر أخذوا يتعجبون من ذلك لأنه نادر فربما بعث الأذكياء منهم الى التفكر . هذا فى عالم السموات الذى نراه بأبصارنا . أما الدورة الدموية فهى غائبة عنا لانراها بل لايعرفها . الا العلماء الدارسون لها بل الدارسون لها أيضا قل منهم من يفكر فى عجائبها

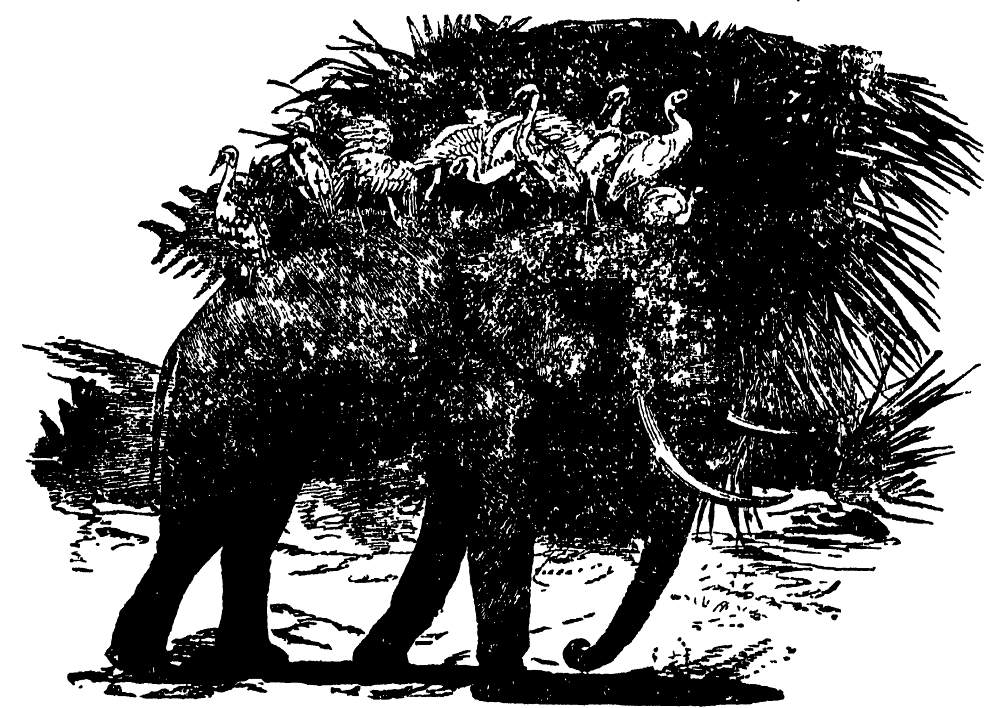
إن دراسة العوالم حولنا أسهل علينا من دراسة نفوسنا وتشريح أجسامنا ، ولكن اذا اطلع هؤلاء الدارسون لتلك الدورة على ماسقت الكلام لأجله دهشوا من تلك الدورة وعجبوا وذلك هو المقصود من هذا المقال كله . ذلك أن التجويفين الأعلين الصغيرين اللذين يسميهما العلماء (بطينان) بينهما فى أجسامنا الآن فاصل وحاجز فلاصلة بينهما . ذلك لأن الدورة الدموية لاتتم إلا بهذا الحاجز بينهما (انظر شكل الدورة الدموية فى سورة المؤمنون)

وانما لم تتم الدورة إلا بهذا الحاجز لأنه يفصل الدم الوريدى أى الذى لايصلح للتغذية فى البطين الأيمن عن الدم الشريانى الذى يصلح للتغذية فى البطين الأيسر كما علمت . إذن الله فعل فى الدورة الدموية فى جسمى وجسمك أيها الذكى مثل مافعله فى البحرين العذب والملح فقد جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا فلم يخلط أحدهما بالآخر وجعل الحلو مشتقا من الملح بالبخر منه فيخرج الى الهواء فيخلص من الملح ثم يكون مطرا هكذا فعل الله فى هذه الدورة خرج الدم الوريدى الذى لايصلح للتغذية لما فيه من الكربون من البطين الأيمن ورفعه الى الرئتين فقابل الهواء الداخل بالتنفس فصفاه وجعله صالحا للتغذية . هذا هو فعل الله فى جسمى وجسمك أيها الذكى الآن وجسم المرأة التى تحمل الجنين . انما الأمر الأعجب هو أن الحاجز الذى بين الأذين الأيمن والأيسر الذى بينا انه لابد منه لأنه حاجز بين الدمين الشريانى والوريدى الآن لم يكن له وجود فى الجنين فهو لى ولك ولأم الجنين ولكنه لم يكن عند الجنين ومتى ولدته أمه سدت هذه الفتحة حالا فكأن هنالك بوابا فتح هذا الحاجز قبل الولادة وعند الولادة أقفله و بقى مقفلا ، والسبب فى ذلك أن الجنين اذا وصل دم أمه اليه اتجه أولا الى الأذين الأيمن فبدل أن ينزل الى البطين الأيمن ومنه يتجه الى الرئة ليخلص فيها كما قدمنا يتجه حالا من الاذين الأيمن المذكور الى الاذين الأيسر مباشرة ومن الاذين الأيسر الى البطين الأيسر ومنه ينتشر فى الجسم كله ، ذلك لأنه دم الأم ودم الأم الذى يجرى الى الطفل كله شريانى . إذن لاحاجة الى دخول الدم فى البطين الأيمن ثم خروجه الى الرئتين لأنه لايعوزه مايعوز دمنا نحن لأن ذلك دم مصفى فى رئة الأم فهو دم شريانى . فرئة الطفل لانفس فيها لأن نفس الأم فى رئتها قائم بما يجب . إذن لاحاجة لهواء يدخل فى رئته لقيام رئة الأم مقام رئته . وعليه لابد من اتجاه الدم من الاذين الأيمن الى الأيسر مباشرة و يعطل البطين الأيمن مادام الجنين فى بطن أمه وتعطل الرئة أيضا ، ومتى ولد الطفل قابل فمه وأنفه الهواء الجوى ودخل الهواء الى الرئتين فهنالك حالا يسد ذلك الحاجز و يدور الدم دورته المعلومة المشروحة شرحا كافيا وافيا والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ٤ يونيو سنة ١٩٢٩

﴿ ضوء الجوهرة فى قوله تعالى أيضا ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ ﴾

عبر بلفظ الرب إيذانا بالتربية فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ ، فالمبتدا هو ربك والخبر هو يخلق وفى اضافة الرب لضمير الخطاب ايذان بشرف المخاطب وانه جدير بأن يكون خليفة فى الأرض يربى الأفراد والأمم ، فالله يربى ما خلق ورسوله ﷺ ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التى أمرهم بها ليكونوا مربين للناس وجعل المشيئة خاصة به تعالى والاختيار

ولم يجعل لأحد من عباده اختيارا فى اعطاء أومنع ، المربى الخالق الذى يعلم ماخلق لايجعل لأحد سلطانا ولا وزارة ولااستشارة فيما يدبره ، وهذا القول الاجمالى هومعنى الآية وهذا المعنى معلوم ، واذا أردنا أن نجعل له مثالا تواردت آلاف الأمثلة بل مافى هذا التفسيرمن عجائب الحكمة يصلح فى هذا المقام ولكن وقع اختيارى على هذا الفيل المسمى بالانجليزية (جمبو) وعليه صف من طيرأبى قردان تأكل الدود من جلده وهومطمئن ساكن وهذه صورته (شكل ١)



(شكل ١)

أنا اخترت هذا المثال لأنه أثر فى نفسى أعظم أثر وكيف لايؤثر وأنا أرى أكبرالفيلة واقفا ساكنا وهذه الطيور واقفة فوقه وهومستلذ ساكن بل مبتهج . هذا الفيل معلوم من طبائعه أنه قوى جدا وهو يقوم فى العمل مقام جماعة من الرجال وهويقاتل الآساد والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة ولكنه فى نفس الحال حبيب صديق لأبى قردان ، ذلك الطائر الضعيف الذى لاسلاح له ولاقوة ، إن الفيل وان لم يغلبه غالب من الحيوانات المفترسة فقد غلبه أضعف المخلوقات الذى هوأعدى أعدائه ولكنه لن يقدرأن يصل اليه ، إن له جلدا متينا قويا جدا وقدسلط عليه حشرة صغيرة تسمى (تيكس) فهى تعيش فيه وتتغذى بأكله وتؤذيه بأكلها وهو يحتك بالحجر و بالشجر لينحيها عن جسمه ـ ولات حين مناص ـ وكلما أوغل فى حكها أوغلت هى فى جلده وتعمقت وغاصت فيه فلن يقدرعليها فهى فى أمن وأمان ، فمن ذا الذى يغيث الفيل إلاأصدقاؤه أولئك القوائم على ظهره الآكلات عدوّه المطهرات جلده من الآلام . وهذه الطيورالبيض الجسم الصفرالعيون والمناقيرقد عملت للفيل مالم يقدرالفيل أن يعمله لنفسه . إذن هذه الطيورخيرأصدقائه . قال شارح هذه الصورة باللغة الانجليزية ﴿ فعلينا أن نخدم بعضنا بعضا ﴾ هـذا هو الذى استنتجه العالم الانجليزى من هذه الصورة

ننظرنحن فى هذه الصورة فنجد الفيل العظيم احتاج الى الطيورالضعيفة وصارت صديقات له وهذا هو خلق الله وتربيته بمشيئته ، ليس المدار فى هذا المقام على كثرة العلوم بل المدارعلى الاتقان والفهم ، وسترى أيها الذكى فى (سورة الروم) عند قوله تعالى ـ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ـ

كيف

كيف تكون الصور فى أنواع الحيات وفى بعض الطيور وفى بعض الحشرات متشابهة وتشابهها يجعل سببا فى حفظ الضعيف الذى لاسلاح له لمشابهته والتباسه بالقوى إذ يخيل الى الذى يريدها هلاكه انه ذوسلاح أو بطش شديد . هذا ماستراه هناك وسترى صوره الجميلة الموضحة الدالة على حكمة تفوق كل حكمة وعلم لم تعلمه الأمم إلا فى أيامنا هذه فان علم الألوان (كما تقدم فى سورة الكهف عند قوله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا -) لايزال الآن فى حال الطفولة ومع ذلك قد أصبح ماظهر منه لنا الآن معجزة قرآنية فان تلك الألوان وتلك الصور والابداع فيها والتفنن لايدع أدنى شك لعاقل فى الحكمة التامة التى لايعقلها إلا من عرفها وهل يعرفها إلا علماؤها وهذا معنى كونه آيات للعلماء لالجميع الناس . هذا ماسيأتى هناك ومعه شرحه لتبيان تلك المعجزة وهى أن هذه الآيات انما يفهمها العلماء بفن الألوان وهى أيضا تصلح لهذا المقام لأن قوله تعالى - وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة - اذا تلوت ماستراه فى الصور التى هناك أوالصور المذكورة فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى - وما كنا عن الخلق غافلين - فيما تقدم أيقنت أن هذا الاختيار يسحر العقول ويدهشها . إذن أنا فى هذا المقام لا أكثر من الأمثلة فان ما مضى وماسيأتى كاف فى ذلك

وانما الذى أقول الآن ان منظر الفيل وفوقه أبوقردان ماهو إلا كتاب كتبه الله بيده وقال اقرءوه . الفيل أقوى والطير ضعيف والحشرة أضعف . الفيل مكن العدوّ فى جسمه ولم ينجه منه إلا طير ضعيف . إذن تعاون الفيل وأبو قردان على هذا الضعيف . إن هذا الكتاب الذى كتبه الله لنا بيده يجب علينا دراسته فنقول الفيل من الحيوانات الأرضية ذوات الأربع وأبوقردان من حيوانات الهواء والدود من الحيوانات التى تختفى عن الأعين فى الأجسام

هذه أمم ثلاثة أمة تكون غالبا فى الأجسام أوتحت الثرى ، وأمم فوق الثرى ، وأمم فى الهواء . هذه كلها هى التى ظهرت فى هذه الصورة ، فساكن الأرض وساكن الهواء تعاونا على مايسكن تحت الثرى أوفى طيات الأجسام . أيها الناس ، طير وحيوان أرضى برى تعاونا معا ، هذه هى الصورة التى ترونها ، تعاونا لأن الحاجة ماسة ، فهناك دفع أذى عن الفيل وغذاء لأبى قردان ، فهذا العمل أشبه بمن ضرب بحجر طيرين فهو غذاء للطير وشفاء للفيل . إذن هو غذاء وشفاء ، وهنا نقرأ (درسين » الدرس الأوّل) بعض أسماء الله تعالى الدرس الثانى نظام نوع الانسان ، (١) انظر الى الصورة وتفكر فانك تقرأ فيها أن الله ملك فالملك يدير الرعايا وهم فى رحابه يعيشون وأى ملك ينظم كهذا النظام وهو (قدّوس) منزّه عن كل مالايليق بكماله ومنها انه لايخلق داء إلا خلق له دواء مثل مارأينا هنا (السلام) فههنا أمان للفيل وأمان لأبى قردان وهو (مهيمن) فهو يفعل مع هذه الحيوانات فعل الطائر يهيمن على صغاره بأجنحته وهو (عزيز) قد غلب الفيل بتلك الحشرات وغلب تلك الحشرات بأبى قردان وهو (مؤمن) جعل هذه الحيوانات آمنة فى أماكنها فرحة بنعم خالقها وهو (جبار) حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه فذل لأضعف الحيوان واحتاج لبغاث الطير وهو متكبر لايريد أن يدخل أحدا فى هذا النظام فهو عمله وحده (الخالق) أى المقدر لهذه الموجودات (البارئ) الموجد لها (المصوّر) صوّرها على مقتضى الحكمة التى رأيناها هنا عيانا وهو (قهار) قهر الفيل وقهر الحشرة وهو (وهاب) وهب هذه الطيور أغذيتها من تلك الحشرات (رزّاق) رزقها من جلده (فتاح) فتح لها باب الرزق (عليم) بما يصنع فى هذا وفى غيره (قابض) قبض أرواح تلك الحشرات (باسط) بسط الرزق لتلك الطيور بأجسام تلك الحشرات (خافض) تلك الحشرات (رافع) تلك الطيور على الفيل (معزّ) لهذه الطيور (مذل) لهذه الحشرات الخ إذن أسماء الله الحسنى دراستها تكون أكمل فى الحقول وهو (لطيف) وبهذا اللطف خلق المنقار الحادّ والعيون القوية والأجنحة لهذا الطائر فغاص على تلك الحشرات فصار لطيفا بالفيل

ولطيفا بالطير وهكذا

(٢) ﴿ الدرس الثانى نظام الأمم الأرضية ﴾

وحق لى الآن أن أخاطب الناس كافة ، ذلك لأن هذا كتاب الله وهـذا خلق الله وأنا مفسر لكتابه وقد ينشرح صدرى لما أقول فيه ، فعلىّ أن أخاطب أهل الشرق وأهل الغرب ، أخاطبهم بكلام ربهم وأعماله العجيبة فأقول

يا أهل الشرق ، ويا أهل الغرب ، إن الله جعلكم أرقى من هـذه الأمم الحيوانيـة وجعلها هى أنفسها دروسا لكم ، فاقرؤا هـذا الدرس وانظروا أمة من أمم الهواء قد اتحدت مع أمة من أمم الأرض مع تباعد ما بينهما وشدّة اختلافهما واتساع نطاق البعد بينهما ، هذا قوىّ وهـذا ضعيف ، هذا أرضى وهذا هوائى ، هذا له أجنحة وهذا له أرجل ، هذا له معدات وهذا له قانصة وحوصلة ، هذا أسود وهذا أبيض ، هذا طعامه نبات وهذا طعامه حيوان . نعم أنتم درستم يا أهل الأرض صفات الحيوان ولكن لم تدرسوا فنّ الأدب ونظام الأمم منه ، فاذا كانت هـذه الحيوانات المتباعدات تباعدا تاما قد اتحدا وتعاونا وفرح كل منهما بأخيه ، فما أجهلكم يا أهل الارض ؟ رأت الأمم الكبيرة أن الأمم الصغيرة اضعفها لم تستخرج مافى أرضها من كنوز ولم تستثمر مواهبها ، فماذا فعلوا ؟ هجموا عليهم وأذلوهم ومنعوهم العلم وهذا هو الخطأ والجهل

يقول الله لكم جميعا انظروا الفيل وأبا قردان ، الألفة بينهما جامعة لاعداوة فيها ولااجهاد ، قتل الانسان ما أجهله ـ قتل الانسان ما أكفره ـ تقرؤن ولاتفهمون تدرسون ولاتعقلون ـ صم بكم عمى فهم لايعقلون ـ

أعجزت الأمم العظيمة أن تكون مع الصغيرة كالفيل مع أبى قردان تعاونا بالمحبة والمودّة لابالاذلال والاكراه ارتقت الأمم الاوروبية ولكنهم جاهلون طرق الاستعمار ، الأرض لم تزل مملوءة بالمتوحشين من نوع الانسان وهؤلاء لم يقدروا أن يعلموهم ، وغاية مايعملونه أنهم يستعبدونهم وينهجون معهم نهج جماعات النمل القوية مع النمل الضعيف كما تقدّم فى (سورة النمل) فيكون هؤلاء سادة وهؤلاء عبيدا وتكون النتيجة أن السادة بعد أجيال وأجيال يألفون الراحة ويكرهون التعب ويفرحون بالبطالة وهناك تنقرض تلك الجماعات من الوجود . هذا هو استعمار أوروبا المعطوف على استعمار الرومان والأمم العربية فى القرون المتأخرة ومثلها استعمار التتار والترك العثمانيين ، فهؤلاء فى أواخر أيامهم كانوا عالة على الأمم يستنزفون ثروتهم وهم مذمومون ـ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ـ

والحق الذى لامحيص عنه أن الأمم الأرضية اليوم لاسعادة لها إلا بالمعاونة العامّة وهذه يعوزها مفكرون دارسون لها حتى يكون الضعاف فى أواسط أفريقيا وفى غربها مع الأقوياء فى أوروبا أشبه بأبى قردان مع الفيل

هذا هو الذى فهمته من هذه الصورة (أى شكل ١) فى تفسير قوله تعالى ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ فهو الذى وضع لنا فى الأرض نملا يأسر بعضه بعضا وطيرا يصاحب فيلا ، وقد اخترنا أسوأ المثالين فى القرون الخالية فلنختر أشرفهما فى الأيام المقبلة لنكون ناهجين فى العمل أحسن المنهجين . انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ م

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ـ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ـ الخ ﴾

جاء فى هـذه الآية أن الله واحد وانه محمود أوّلا ومحمود آخرا وانه هو سبحانه له الحكم وأن المرجع اليه ثم أعقبه بذكر الليل والنهار والضياء والظلام . ومن عجب أن المحاورة بين (طيماوس) وهو حكيم من أصحاب (فيثاغورس) وبين (سقراط) الفيلسوف المشهور تناسب كل مافى هذه الآية وألخصها هنا جميعها لمناسبتها هذا المقام بعد أن أثبت منها فى (سورة الشعراء) ما هو أكثر مناسبة للطب فى آية ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ

ذلك أن طيماوس ابتدأها بقوله ﴿ إنه يستعين بالله فى شروعه فى معرفة مبدإ العالم عسى أن يلهمه الله القول الحسن ويلهم السامع قبوله ، ثم أخذ يفرق بين القديم والحادث فالقديم متصف بالوجود ويدركه العقل أما الحادث فليس له وجود حقيقى وانما يدركه الحس والخيال ويحتاج الى علة فى وجوده المجازى ، ثم أخذ يثبت حدوث العالم بأنه مرئى ملموس مادّى ، وكل ماثبت له هذه الصفات فهومحسوس ، فكل ماهومحسوس فهومدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث والحادث لابد له من علة ، ثم أبان انه عاجزعن شرح وفهم الإله لأن المتكلم والسامع من البشر ، ثم ذكر سبب خلق العالم وقال سببه أن الله جواد وقد عمد الى الأشياء المضطربة فوزنها فركب لها عقلا والعقل جعله فى النفس والنفس جعلها فى الجسد فجعل صورة العالم كله كصورة حيوان واحد مشتمل على كل حيوان والعالم فى نظره حيوان عاقل مرئى جسده مركب من العناصر الأربعة فى نظره إذن العالم مركب من العقل والمادّة وشئ مشترك بينهما فهوكله أشبه بجسم انسان واحد وقبل ذلك التكوين لم يكن ليل ولانهار لأنهما حصلا عند تكوين الأفلاك . إذن لاتحكم إلا على الحادث أما القديم فلا ، والكواكب التى هى من هذه الحيوان الكبير وهو العالم سواء أكانت سيارة أم ثابتة أجرام حية (فى نظرهم هم) بها تكوّنت الأيام والشهور والسنين ، ويقول ان الله لما خلقها خلق لها أرواحا وهى الملائكة تدبرها وخاطبهم بقول أنتم حادثون وهذا الحدوث ليس نقصا لكم لأن قوّتى تحفظكم فأنتم لايلحقكم موت ، وهنالك خلق أرواحا فى كل كوكب وفى الأرض والقمر والكواكب الثابتة وأطلع تلك الأرواح على العوالم كلها ثم قال لها أنا خلقتكم من عنصر الروح الملكية وسأنزلكم الى عوالم المادّة وتكون لكم شهوة فمن اتبع العقل رجع الى كوكب سعيد ومن اتبع الشهوة نقلته فى حيوان بعد حيوان على حسب ماغلب عليه من الشرّ والشهوة ، وقبل ذلك خاطب أرواح الكواكب فقال لها أنتم دائمون وأنا آمركم أن تأخذوا هذه الأرواح التى هى أيضا إلهية وتسكنوها فى أجسام وتغذرها بما يناسبها وتكون تلك الأشخاص مركبات مما يموت وهوالجسم ومما لايموت وهوالروح مع إحداث حيوانات أخرى ليكمل النظام العام ﴾ وهذا القول الذى قاله طيماوس لسقراط أكثره موافق للاسلام فقد ذكر بقاء نفوسنا ونفوس الملائكة وذكر العقاب للمذنب والسعادة للصالح وذكر أن الملائكة موكلون بالعالم وذكر أن العالم حادث وهذا عجيب جدا أوقفنا على أن نقل الفلسفة من اليونانية الى العربية كان مشوّها إذ نقلوا القول بقدم العالم فظهر أن ذلك النقل كان عن صغار علمائهم وأن ذلك الخلاف فى الكتب كان ضياعا ، وأقول الآن يجب الاستقلال فى جميع المباحث فان الاتكال على الأمم مضيعة لأمّتنا والذى ينافى ديننا مسألة كون العصاة يصبحون حيوانات ، فنفس (طيماوس) يقول هذا ظنّ لايقين وعليه فان شريعتنا ذكرت جهنم وهذا عذاب يقين ، ومن الحكم العجيبة انه يقول « ان الله خلق الأرواح وخاطبها » وهذا بعينه آية ــ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيتهم ــ الخ وهذا من أعجب العجب أن يكون نبينا ﷺ قد نزل الوحى عليه وهولم يزاول علما بما كان يختلج فى قلوب علماء اليونان ، وأقول إن هذه معجزة كبرى بل كل هذا المقال معجزة وأى معجزة ، وكيف يثبت طيماوس المبدأ والمعاد وقدم الله واثبات اليوم الآخر والعذاب والثواب وان أخطأ فى تعيينهما ويثبت بالظنّ خطاب الله للأنفس قبل نزولها الى عالمنا الأرضى ، كل ذلك قبل الرسالة المحمدية بنحو تسع قرون

وهنا بهجة العلم التى هى أنسب لهذه الآية بذكر النور والعين ، قال مانصه بالحرف الواحد

﴿ قال أفلاطون ثم بين (طيماوس) تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره ، قال إن البصر نار جعله الله فى داخل العين فمن تلاقيه بالنار الموجودة من خارج يتولد الابصار و بسط القول فى مدح البصر و بيان منافعه قال إن فائدة البصر على ما أرى انه لولم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس والكواكب ماكنا نتمكن من الكلام عن السماء والعالم إذ من مراقبة اليوم والليل

وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم فمنه نشأت الفلسفة وهى أنفس ما أنعم الله به على البشر ﴾

ثم قال ﴿ إن الله لم يقصد من إيجاده البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمّل دوران العقل فى السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا وتنظيمه على نسق مانراه فى السماء من ترتيب العقل فى دورانه إذ هو وذاك طبيعة واحدة ﴾ انتهى

يقول (طنطاوى جوهرى) مؤلف هذا التفسير إنى لما اطلعت على هذه الجملة الأخيرة اعترانى مايشبه الدهش والبهر وفكرت فى هذا النوع الانسانى فى الوقت الحاضر لاسيما أمة الاسلام ، اللهم إنك أنت خلقتنا فى هذه الأرض غرباء عن المادّة فحجبت هى أكثر عقولنا فكيف نرى هذا الجمال ، جمال النجوم ونظام الشمس والقمر والكواكب ونرى الشهور والسنين ونحن غافلون لم يخطر ببالنا من تلقاء أنفسنا أن تلك العوالم المنظمة قد جعلت نبراسا لعقولنا التابعات لها ونحن نقرأ كل يوم ـ وزيناها للناظرين ـ ونقرأ ـ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ـ ونقرأ ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ـ الخ فهاهو ذا ذكر الليل والنهار وانهما لمنافعنا ، ويقول فى آية أخرى ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا ـ الخ أوليس من أعجب العجب أن يأتى رجل يونانى فيقول إن البصر لم يخلق فينا إلا لنلاحظ هذه الكواكب وسيرها ونفكر أن نظامنا يكون على نظام السموات التى نظمتها عقول عالية عقولنا مخلوقة على مثالها . أوليس هذا هو قوله ـ ووضع الميزان ❊ ألا تطغوا فى الميزان ـ

أيتها الأمم الاسلامية ، إنى أكتب هذا وان نفسى فى خجل أن أرى أن هذه الحكمة وهذا الاشراق وهذه النظرات السامية تكاد تكون مفقودة فى أمّتنا الاسلامية فى القرون المتأخرة ، أنا أقول لن يكفى المسلم أن يقرأ هذا فى كتاب . كلا . بل لايتسنى للمسلمين أن يتأثروا بهذه المباحث إلا اذا نظروا بأنفسهم وفكروا بعقولهم فكرا استقلاليا ، فمن وفقه الله لهذا هداه الى النظرات فى الكواكب ليلا فيفكر فى جمالها الظاهرى ويتأمّل فى عجائبها بنفسه يوما فيوما ثم يدرس مبادىء الفلك وهذا هو قوله تعالى ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ـ هنالك يتأثر الوجدان ومن هذا التأثر تحصل المعرفة ، فالكتب وحدها لاتفيد بل لابد من النظر الاستقلالى

اللهم إنك أنت المنعم وأنت الهادى . اللهم إنى ألجأ اليك أن تجعل هذا الكتاب ذكرى لشبان من النوع الانسانى مسلمين وغير مسلمين لأنك أنت رب الجميع والمنعم على كل نسمة بما يناسبها وخير النعم ماكان علما وحكمة فاجعله يا الله نورا لبصائر المستعدّين من العالمين والحمد لله ربّ العالمين انتهى صباح الاثنين يوم آخر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧

﴿ الجوهرة الثالثة فى بهجة العلم فى قوله تعالى ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة ـ الخ ﴾

حدّثنى الحارث بن همام قال رأيت فى المنام كأنى مت وغسلت وكفنت وصلى علىّ ودفنت وفى نفس الوقت كان روحى ترفرف بهيئة تشبه هيئة جسمى ولكنها هيئة روحية نورية فأخذنى ملائكة أوقفونى فى عوالم من النور البهيج الذى لامثيل له فى الأرض بحيث لاأتمكن من وصفه لبهجته وجماله ثم أحسست فى نفسى بخواطر على هيئة السؤال والجواب وأنا فى حال الدهش من الجمال وكأن الحق يخاطبنى بلاحرف ولاصوت وأنا أجيب فى سرى وكأنه يقول لى ياعبدى أنا أحبك فقلت فى سرّى ربما كان هذا الخاطر شيطانيا والافكيف أستحق هذه المحبة وأنا مقصر فى أعمالى كلها ، فقلت فى سرّى وماعلامة حب الله لى فكان الجواب مايأتى ﴿ علامة حبى لك انى شغلت عقلك بى طول حياتك ، فأنت فى حضرك وسفرك وفى كل حال من أحوالك تبحث عنى وتفكر فى أعمالى ، فهذه لم تكن إلا من الحب الذى ألقيته فى قلبك لى ولن يحبنى أحد إلا كنت أنا محبا له

قبل أن يحبني ، ألم تقرأ ـ يحبهم ويحبونه ـ ﴾ ثم قال ﴿ وقد خلقت العالم كله لأجلك ﴾

قال فلما خطرلى هـذا الخاطر وكأنه خطاب من الله اعترانى الذهول ورفعت طرفى الى السماء وقلت ياالله أنا لست بقادر على أن أفهم هذا فأجبت بما يأتى ﴿ طب نفسا وقرعينا وسأعلمك معنى ذلك ، من أين أنت روحك ؟ فقلت هى قبسة من نورك فقال وهذا النور حكمت عليه أن يتربى تربية تدريجية فى العوالم المادية ولا يكون ذلك إلا بأبوين يلدانك وأمة يعيش فيها هـذان الأبوان وأمم تحيط بهم تساعد هـذه الأمة بتجارة ومعاملة وهـذه الأمم كلها لابد لها من الحيوان والنبات والماء والمعادن والأرض والهواء والكواكب الثابتة والسيارة . فقلت نعم حقا أنا لا أخلق إلا وأنا مصحوب بهـذا كله فقال لى الله فى سرّى فأنا لأجلك خلقت الشمس والقمر والمجموعة الشمسية والمجرّة والسدم والأرض ومن عليها ، قال فقلت فى نفسى انه لم يخلقها لى وحـدى فأجابنى قائلا أضرب لك مثـلا رجلا له عشرة أبناء أسكنهم بيتا مزخرف الحيطان مفروش الأرض مضاء السقف بالمصابيح وهؤلاء الأبناء يتعاونون على جلب الرزق ودفع الأعداء ، فهل هؤلاء الأبناء كل واحد منهم شرعلى البقية من اخوانه أم هوخير فقلت بل هوخير لأنه وان شارك اخوته فى الرزق فقدشاركهم فى العمل والمنفعة لهم ، فقال إذن كل واحد من العشرة الأبناء فى حياة وسعادة بالمنزل نفسه و بجميع اخوته المساعدين له ، فقلت نعم قال فهكذا أهل الأرض كلهم فـكل امرئ منهم يصح أن يقول خلق العالم كله لأجلى ولاينافى هـذه القضية بل يؤيدها وجود أمثاله من بنى آدم فى الأرض لأن كل انسان منتفع بالناس تعلما وتجارة ومدنية ونظاما كما انتفع من الشمس والقمر والسحاب والهواء : إذن لـكل عاقل أن يقول خلقت لى السموات والأرض وما بينهما كما تقول المرأة فى حق زوجها واخوتها وذرّيتها هؤلاء كلهم لمنفعتى وخدمتى وكل من هؤلاء يقول مثل ماتقول هى ، وعليـه لـكل انسان فى الأرض أن يقول خلق العالم كله لأجلى ، قال ثم هجس فى نفسى أن هذه المعانى كامنة فى قوله تعالى ـ ألم يجدك يتيما فآوى ـ فاليتم اللغوى معروف وهوالذى يحبب القلوب فى ذلك اليتيم فتكفله ، أما اليتم العلمى فهواحتياج النفوس الى تربيتها فى الأجسام واصلاحها بهذه العوالم كلها وأوّل اليتيمين رمز لثانيهما ، فـكل نفس فى حدّ ذاتها مفتقرة الى هـذه العوالم افتقار من فقد أباه الى من يعوله ، وقوله ـ والضحى * والليل اذا سجى ـ قد شمل العوالم كلها فالعالم العلوى والسفلى ليلا ونهارا مسخر لـكل امرئ فى الأرض

قال الحرث بن همام فلما تمّ هذا الخاطر فى نفسى قلت ياعجبا وهل هذا دليل على حب الله لى ؟ فخاطبت الله فى السرّ قائلا إذن أنت تحب كل مخلوق وكل انسان كافر أومسلم لأن كل واحد من هؤلاء يقول مثل ما أقول فأجابنى الخاطر فى سرّى يقول ﴿ إن الله لم يخلق الخلق إلا وهو يحب أن يخلقهم ومن كشف منهم له الغطاء عن حقيقة الأمر وأحس بوجدانه بما ذكرته لك الآن فهوالمقصود الحقيقى لأن روحه أصبحت راقية ، أما بقية الخلق المغمورين فى الجهالة فأمامهم دهور ودهور يتيهون فى بحار الجهالة والعماية والضـلال ، ثم قال إن الله خلق الخلق وأعدّهم للرقىّ ومن أحس بهذا الوجـدان وثبت فى نفسه فذلك دليل على أنه استعدّ للمحبة الحقيقية والنور والبهجة والجمال ﴾

ثم قال الحرث بن همام فقلت فى سرى ان المحبة فى أهل الأرض اذا ملكت قلب امرئ أضنته وأحرقت فؤاده وأمرضته وماهى إلا أن يحب الرجل امرأة ردحا من الزمن فما بالك اذا أحب العالم مبدع هذه الصور وأنواع الجمال ؟ فـكيف يطيق ذلك ؟ وكيف يكون ذلك الحب . قال فأجابنى الخاطر فى سرّى قائلا أما قولك كيف يكون ذلك الحب فأقول ، أذكرك بما تقرأ فى الحكمة والعلم فتفكر فى رجلين رأيا طائرا على شجرة مثل الزقزاق البلدى (المرسوم فى سورة يوسف وفى سورة النمل) فهذا له نوع من الجمال فوق الشجرة وقد تمايلت الأغصان وهبت الرياح وتغنت الأطيار فأحدهما لم يفكر فيه والثانى فـكر فى جماله ومنفعته وكيف

أعدلا أكل الدود الذى يأكل الزرع ، فهنالك يحار لبه و يدهش و يقول انى كما أنتفع بالشمس والقمر والكواكب وأهل بلدى وأمتى والأمم و بالجبال والأنهار هكذا أنتفع بهذا الطائر هو وأمثاله التى تبلغ نيفا وثلاثين كما تقدم فى (سورة طه) و (سورة يوسف) فهذه كلها جيوش وجنود مجندة أرسلت الىّ من العالم الأعلى لتلتقط الدود وتحافظ على حياتى ، هنالك يخرج من هذا الخاطر الى ماهو أرقى عنده و يقول فى نفسه من أنا ؟ وماهى حياتى ؟ وماهذه الطيور والأمم والدول والكواكب . إن الأمر لأعظم وأكمل . أى حكمة دبرت . وأى تدبير أحكم إن الأمر لعظيم . هنا تدبير محكم ربط الشجر والطير بالدود والزرع والانسان . هذه حكم ونظم محكمة مضبوطة هنالك تطير روح هذا المفكر الى عالم الجمال وتفكر فيه وتنشرح وترجع الى مبدع هذه النظم وهنالك يرى الجمال بالبصيرة و يدهش عقله و يطير لبه . وهذا الحب والدهش والتعجب ليس اختياريا بل هو أشبه بحب المرأة لولدها والعاشق لمعشوقه . والناس فى حق أصحاب الجمال على ﴿ قسمين ﴾ قسم عرف الجمال وهام به وقسم عرفه ولم يهم به لعدم استعداده . وكما اننا اذا أتينا بطفل أمام مائة امرأة وهو يبكى طالبا ارضاعه لانرى واحدة منهنّ تتقدّم اليه اكثر من غيرها إلا امرأة واحدة هى أمه التى تلقمه ثديها لأنها هى التى بينها و بينه مناسبة أشدّ من غيرها وان كان النساء كلهنّ يتأثرن لبكائه و يردن ارضاعه هكذا مناظر هذا الوجود كمسألة الطائر المتقدمة والتقاطه الدود وحسن النظام العام فهذا ينظره العالم والجاهل وعلماء الزراعة وغيرهم ولكن لايتأثر بالحب لمبدع العالم إلا نفوس خاصة كما لم يؤثر بكاء الطفل الأثر القوى إلا فى أمه . هنالك دعيت فى سرّى وقيل لى إذن أنت محبوب فعلا لأنك اذا نظرت أمثال هذا الطائر طار لبك وأخذ منك العجب كل مأخذ ووجدت فى نفسك حبا لايحسّ به من حولك مع أنهم يشاهدون مثل ماتشاهد و يعلمون مثل ما تعلم بل نفس علماء الحيوان وعلماء النبات يعلمون هذا أكثر منك ولكنهم لا يتأثرون فيرى عالم الزراعة أن ورق السنط قد حفظ بشوكة طلعت بجانب كل ورقة وأن عنق ورقة (البازلاء) وعنق ورقة الورد قد حفظ كل منهما بما خلق ملازما له كما تقدم فى (سورة النمل) رسم ذلك . يرى ذلك عالم الزراعة فلايتأثر به لأنه ربما لم تكن روحه من الأرواح المستعدّة لفهم الجمال كما لم يستعد الطفل لادراك جمال الغانيات

ثم قال الحرث بن همام ، وختم الهاتف فى سرّى خطابه لى قائلا ﴿ إن كل العوالم ساعية مجدّة للرقى ولم يحظ بتلك المحبة إلا نفوس خاصة هى التى أدركت ذلك الجمال ، أما البقية فانهم الى الآن لم يصلوا الى ذروة الكمال فلم ينالوا هذه المحبة . هذا جواب السؤال الأوّل وهو كيف يكون هذا الحب

أما قولك كيف يطيق ذلك الحب فأقول هذا هو بيت القصيد . اعلم أن أرواحكم فى هذه الأرض لها صلة بالأرواح العالية فهى نفوس جزئية لها نسبة الى النفوس الكلية التى بها نظمت العوالم كلها بأمر الله وهى ــ المدبرات أمرا ــ فهذه وضعت فى الأرض والأرض كلها جمال وحكم وعجائب و بدائع فلو أن هذه النفوس كشف لها الجمال فيما حولها لماتت وتصدّعت ولكن الله لرحمته أحاطها بالمصائب والجهل والحسد والحرب والمرض وغيرها لئلا تعرف ذلك الجمال فيدهشها فلاتتحمله فتهلك ، فانظر الى آثار رحمة الله ، جهل وذل وعمل وأشغال متعبة وهموم ، كل ذلك جعل غطاء يغطى جمال هذه العوالم المحيطة بالانسان من كل جانب بل على مقدار كثرة الجمال فى العوالم كان الغطاء الذى غطاه فكثرة الأعمال والجهل والثورات والفتن فى الأرض وضعت بمقدار وفرة الجمال لتغطيه وتحجبه . فأكثر الخلق محجوبون عن الجمال فى أنفسهم وأجسامهم وحيوانهم ونباتهم وأرضهم . فأما الذين كشف لهم بعض الجمال فهؤلاء أيضا تنزل بهم الكوارث والنوائب فتحجب عقولهم عن ذلك الجمال كالباقين وانما يتجلى لهم الجمال وقتا بعد وقت فى فترات على مقدار طاقتهم ــ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ــ

(نور الجوهرة الثالثة الصحة والشمس)

جاء فى جرائدنا المصرية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ مانصه

يقول الدكتور (بنتلى) عميد كلية الطب بكلكتا ان الشمس تسبب زيادة سكان الممالك أونقصها كما تسبب نموّ المحصولات أوضعفها . وعلى ذلك يقول الدكتورانه فى أمريكا والهند استدلوا على أن الشمس تؤثر فى إنماء الأجسام والمحصولات الزراعية وأن عدم وجود الحرارة يضعف الأجسام والمحصولات أيضا . ويزيد أن الصحة لاتسلم إلا فى نور الشمس وتحت حرارتها اه

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى ـ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ـ الخ بعد قوله ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ـ الخ ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذا المقام عظيم القدر سامى المنزلة ففهم الرحمة هنا يعوزه أن تجتهد النفس فى أن تملص من عاداتها وتخلص ولوموقتا من شؤنها حتى تتفرّغ الى فهم رحمة الله بشمسه وكواكبه نهارا وليلا وبالظلمات والأنوار . واعلم أن السبيل لذلك ما قاله الله فى سورة أخرى ـ فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى * ولاتمدنّ عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ـ

خلقنا الله فى الأرض وأفاض علينا نعم الشمس والكواكب والأنوار ولكنه فى الوقت نفسه سلط علينا الأعداء من كل جانب كلما أحسن اليهم المرسلون والعلماء بافاضة العلم والخير أساؤهم وسلقوهم بألسنة حداد ومن جهة أخرى سلط على كثيرمن الأخيار فى الأرض حب الموازنة بينهم و بين معاصريهم فى المال والرزق والولد والجاه . إن أهل الأرض من الصالحين والطالحين جميعا قد أحاطت بهم هذه المزعجات ممن حولهم ومن أنفسهم ، يجدون من بنى آدم العداوة والبغضاء ، لاسيما الأقارب والقرناء ، ويجدون من أنفسهم طمعا لاحدّ له وميلا لزخرف الحياة الدنيا ، فالأنفس فى عذاب واصب مزدوج من داخلها ومن خارجها فأنى وكيف تقدر هذه النفوس ان تخلص للنظرة العامّة فى هذه الشمس الجميلة والكواكب البهجة وبهائها وظلمة الليل وضياء الشمس . كلا . فالقوى النفسية فى الانسان محدودة وقد وزعت بين قوّتين قوّة داخلة وأخرى خارجة

اللهم إنا نحن بنى آدم على الأرض مساكين خلقتنا فى أرضك الجميلة تحت شمسك البهية المتلألئة وكواكبك البديعة ثم أحكمت اقفال أبواب السماء على أكثر نفوسنا فغابت فى دجى ظلماتها وانهمكت فى مطالب دفاع الأعداء وجلب الكساء والغذاء ، فنفوسنا أبدا مابين قوى الدفع والجذب فأنى لها أن تخلص من ذلك وتنظر رحماتك الواسعة المحيطة بها

علم الله أن ذلك الخلق فينا فقال لنا أيها الناس ، أماذم الأعداء وحسدهم وايذاؤهم فدواؤه الصبر وماالصبر إلا الجنة (بضم الجيم وتشديد النون) التى تتخذونها لكم دروعا تتقون بها ايذاء الأعداء وأنا مع الصابرين ، وأمامطالب أنفسكم وحبها زهرة الحياة الدنيا فاياكم أن تمدّوا أعينكم الى ذلك لأنها زهرات وهل للزهرات بقاء ؟ إذن لابد من صبر على الضراء وصبر عن الشهوات . إذن الناس موثقون بوثاقين والوثاقان لهما حلّ واحد وهوالصبر ، صبر على قول الأعداء وصبر عن الشهوات ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ احتقار مايصيب الانسان داخلا وخارجا . هذا هوقوله تعالى ـ فاصبر على مايقولون ـ راجع للصبر على كيد الأعداء . وقوله ـ ولاتمدنّ عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم ـ الخ راجع للصبر عن الشهوات . وهاتان الخصلتان يرجع اليهما كل مكروه من مرض وفقر وفراق وهكذا . فهذه هى القواطع التى تقطع الناس وتصرفهم عن معرفة رحمة الله عزّوجل

فى شمسه وقمره وكواكبه . وبالصبر والرضا بالقضاء والقدر رضا مبنيا على العلم والحكمة . يتفرّغ الانسان لهذا الوجود ويفهم إذ ذاك قوله تعالى ـ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ـ لأن النفس لاترضى إلابالعلم والعلم لا يكون إلا بعد أن تذهب تلك القواطع يأمرنا الله بالتسبيح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويأمرنا بذلك فى بعض ساعات الليل ويقول لنا فى هذه الآية التى نحن بصددها ـ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ـ . قد قلنا إن الانسان موثق بوثاقين من الداخل والخارج والوثاقان يحلان بالصبر ولكن الزهد فى الدنيا والصبر على الأذى وحدهما ليس معناهما أن الانسان فهم هذا الوجود لأن هذا ماهو إلا تخلية ولابد من التحلية كداخل الحمام يتجرّد من الأقذار ثم يلبس الثياب هكذا هنا اذا خلصت النفس من هذه القواطع فلتشرع فى درس هذا الوجود ولتقف أيها الذكى صباحا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى موضع خال والجوّ جيل فسيح وقد أقبلت جيوش الصباح البيض الصباح أو المشرقات الحسان البهجات فى دياجى الظلمات . فهنالك تنظر فترى دولة وموكبا مقبلا فتطلع الشمس وترسل الحرارة الى الهواء فتجرى الرياح والى الماء فيثور البخار الذى يصير سحابا فتقابله الرياح فتحمله الى الاقطار فيمطر فيكون أنهارا تسقى النبات والحيوان والانسان . أوترى تلك الثريات اللامعات التى لاحدّ لجمالها فى الدجى وهنّ باهرات لايعرف لهنّ أمد ولايوقف لهنّ على عدد ثم تنظر فترى أن حياة كل مخلوق موقوفة على الشمس وضوئها وحرارتها وأن كل ماهو جيل فى الأرض مشتق من بهاء تلك المشرقات ، وماهذه الزينة التى تتباهى بها الغانيات الحسان فى الأرض إلا من آثار ذلك الضياء ، ألم تر أن الأصباغ التى نوّعها الانسان فى الثياب ماهى إلا من الفحم الحجرى الذى حفظ ضوء الشمس قبل آلاف الآلاف من السنين ثم استخرج الناس منه تلك الأصباغ الآن والأضواء ، وبتلك الحرارة المخزونة أجروا المركبات فى الطرقات ونوّعوها ووزعوها فى الأقطار

نفس الانسان شريفة كبيرة عظيمة تعطى الملك والنعم والمال والولد وتملك الأقطار والبلاد ولكنها تقول كلا . كلا . هل من مزيد ، هى حقا من نور الله ، نحن لانرضى فى الأرض بما نملك . لوملك كل منا هذه الأرض جميعها لقال هل من مزيد فكيف اذا كانت الأرض موزعة بيننا فلاسبيل لنا إلا العداوة والبغضاء فى اقتسامها وانما لم نرض بذلك لأن هذه النفوس عالية شريفة لاترضى إلا بمعرفة حقيقة هذا الوجود ومتى عرفت اطمأنت وسكنت . فهذا معنى قوله تعالى ـ لعلك ترضى ـ أما إهلاك الأعداء وأما مد عينيك الى ما متعناهم به من مال وولد فهذا لايرضى هذه النفوس إلا وقتا ما ثم ترجع للطالبة وتقول أين المنتهى . ومتى أدرك الانسان جمال هذا الوجود (ويكفيك مؤقتا قراءة هذا التفسير أوأكثره) رضيت نفسه وفهم معنى ـ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ الخ وأدرك السبب فى ترتب الرضى على التسبيح والتنزيه لاغير إذ يرى أن مايصيبنا لم يكن إلا لارتقائنا والله منزّه عن قصد الايلام بلافائدة . ومتى اعتقد ذلك اعتقادا مبنيا على النظر والعلم رضى وفهم سر معنى كون رضوان خازن الجنان فهو من هذا الوادى وكم فى هذا المقام من أسرار وبهذا المقام يفهم المسلم فى صلاته معنى مخاطبة ربه قائلا ﴿أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت﴾ فأنت أهل الثناء والمجد دائما . ومعلوم أن الثناء لا يكون إلا على نعمة وهذا المنع بعد فهم الحقائق صار نعمة . والمصلى يقوله إما تعبدا وتكلفا إن كان جاهلا واما بعلم وعقل ان كان عارفا بأمثال مايذكر فى هذا التفسير وهنالك درجات فوق ذلك

فهناك يمتزج التسبيح بالتحميد إذ يرى فى طلوع الشمس والكواكب وغروبها حياة وموتا وزرعا وحصادا ويدرك النعم ويعقل السبب فى الموت والمرض وأن كل شرّ لم يكن إلا الخير وأن الأمر عظيم ويفهم ـ واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ـ ويرى أن الملك الكبير كما يكون يوم القيامة يكون فى الدنيا بالفهم والعلم

غاية الأمر أنه يكون هناك أظهر ولكنه ظاهر لذوى البصائر الآن . إن هذه الطائفة التى اتصفت بما أقوله الآن وعرفت مقصود الوجود على مقدار طاقتها تعرف نعم الله فتحمده عليها وتشكره ويخامر قلوبها حبه لما ترى من جماله واحسانه الذى لاحدّ له وتفهم أن رحمته لاحدّ لها وتعقل أن الموت الذى هو أعظم المصيبات المخيفات فى الدنيا ماهو إلا مقدمة لابد منها من مقدمات الرحمات لأنه يستحيل أن تكون هذه الرحمة التى لاحدّ لها تأتى بنقمة إلا مقدمة لنعمة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان النقمة ضرورية لجلب نعمة أرقى من النعم السابقة

هذا هو الذى تضمنه قوله تعالى هنا ـ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ـ الخ فبهذا الاجمال نتصوّر مبادئ الرحمة التى فى هذه الآية فنتنزه الله عن الايلام لغير نتيجة وهذا هو التسبيح ونعرف نعمه التى لاحدّ لها وهذا هو التحميد وهذا هو غاية الرضا واذن نفهم ـ لعلك ترضى ـ هذه هى الرحمة العلمية

أما الرحمة العملية فانظر أيها الذكى الى بنى آدم تجدهم قد تخبطوا فى قبول هذه النعمة . رأوا الشمس وضوءها فماذا فعلوا ؟ رأوا الطيور والأنعام والحشرات متمتعات فرحات بضوء الشمس فقلت أمراضها وكثرت خيراتها ونعمها . أما هذا النوع الانسانى فانه لما أعطى قوّة الفكر والتمييز أخذ يتوارى عن السعادة و ينحط فى دركات الشقاء بسوء تدبيره وكبل فى قيوده وحيل بينه و بين سعادته بالتباهى وألهاه التكاثر فى المال والولد والزينة والزخرف وجمع المال والاكثار من الملابس والتفنن فى الأطعمة والانزواء فى القصور والمنازل فحرم الهواء النقى وضوء الشمس والأطعمة الطبيعية فأحاطت به المكروبات (الحيوانات الذرّية) وأوردته موارد الهلكة بالطاعون والحصباء والجدرى والحمى وأمثالها وقتلته الأسقام بسبب البطنة وسوء اختيار الأغذية واتباعه ظواهر اللذات الحسية ونبذه مقاصد المطاعم والمشارب ولذلك الاشارة بقصة أبينا آدم التى ذكرت فى مواضع من القرآن يقول تعالى ـ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ـ فانظر هذا المقام فى أوّل سورة الحجر وفى أواخر سورة طه ، فهنالك ترى خطل هذا الانسان وجهله فى الشرق والغرب ومرض بدنه بجهله سواء فى ذلك أطباؤه وعامّته وعلماؤه وجهلاؤه

لعمر الله مانزلت تلك القصة ولا كررت تأديبا لآدم . كلا . وانما ذكرت عظة لنا وتأديبا وهذه القصة قد نزلت على الأنبياء ثم على نبينا ﷺ والناس لايكادون يفطنون لها حتى اذا كان هذا الزمان أخذ الناس يفطنون لهذا الوجود و بحثوا فأدّاهم بحثهم الى أن التوارى عن الشمس والانزواء فى البيوت والانهماك فى اللذات كلها عذاب واصب . أما المطاعم واللذات فقد تقدّم الكلام عليها مفصلا فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ وفى (سورة طه) عند قصة آدم وفى (سورة الحجر) كما تقدم وفى (سورة الأعراف) عند قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ـ وفى (سورة البقرة) عند قوله تعالى ـ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ـ فاقرأ ما هناك فان فيه غنى لك ولذويك وحكمة ونورا مبينا

وأما أمر الشمس فان الناس اليوم عرفوا قيمة الخلوات والهواء والتعرّض لضوء الشمس فعلى المسلمين أن يذروا ماعندهم من العادات وليكن لهم وجهة صحية بعلم وفهم وليعلموا أن الله عزّوجل عمم نور الشمس وجعله سعادة وصحة للطيور وللأنعام وللحشرات المقيمات فى الحقول والبساتين فليس من المعقول أن يكون نعمة لهذه المخلوقات ثم هو نفسه يكون نقمة على الانسان

قد أجمع الأطباء أن ضوء الشمس يجب أن يتخلل جميع حجرات المنزل حتى تقتل الحيوانات الذرّية بل ان الأمر فوق ذلك . هاهم أولاء أهل ألمانيا أخرجوا التلاميذ من المدن والمنازل وأخذوا يعلمونهم فى الخلاء ليتلقوا العلم وهم معرضون للشمس التى هى رحمة مرغوبة لانقمة مرهوبة ، فهاك ما اطلعت عليه فى « مجلة كل شئ » فاقرأه قراءة من يريد أن يعمل بالعلم ، فاذا قرأته فتفكر فيه وغير نظام مدارس المسلمين وأخرجهم من ظلمات الحجرات الحقيرة القذرة وقل لهم أيها الناس إن الله جعل ضوء الشمس رحمة بنص الآية ثم ألهم

الأمم وعلمهافعرفت فوائدالضوء فاغترفوا من رحمه بضوء الشمس ولاتحبسوا أبناءكم فى تلك الأماكن القذرة التى لايدخلها ضوء الشمس وابتعوا من فضل الله فهذا كلام الله وهذا عمل العلماء من عباده فهذا ماجاء فى تلك المجلة بنصه

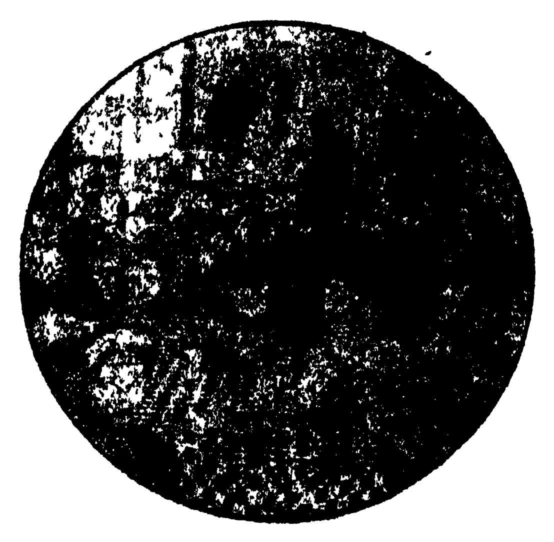
(التعليم فى الهواء الطلق)

يؤمن الأطباء الآن إيمانا عظيما بفائدة الضوء والهواء الطلق ، ولذلك هم يصحون للمرضى بالتعرّض لضوء الشمس والتخفيف من الملابس بل ينصحون باستعمال الضوء الصناعى اذا كانت الغيوم كثيرة كما هى فى لندن . وقد بنى الألمان وغيرهم مدارس مكشوفة يجرى التعليم فيها فى الخلاء فاذا أمطرت السماء آوى التلاميذ والمعلمون الى الغرف ، ويرى القارئ هنا ثلاث صور لمدرسة أطفال جديدة أنشئت قريبا من (بورجيه) فى فرنسا وهى تجمع الصغارمن منازلهم كل يوم بالاتومو بيل وتخرج بهم للخلاء فيجرى التعليم بين الحقول تحت الشمس عند اعتدال الهواء ، فاذا لم يكن الجوّ موافقا قعدالتلاميذ فىالمدرسة الأصلية وهى بناء عادى به الغرف الخاصة بالتدريس وبهذه المدرسة الآن ٨٠ تلميذا (انظر شكل ٢) و (شكل ٣) و (شكل ٤)

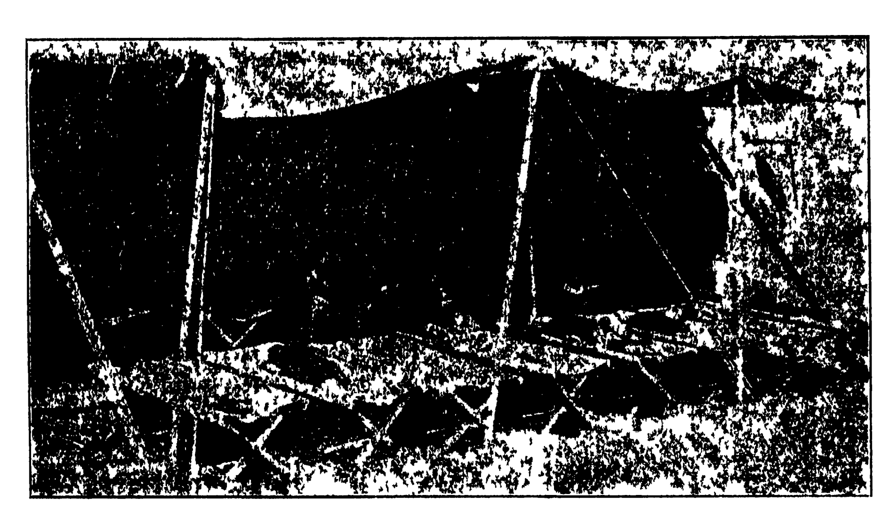


(شكل ٢ ـ التلاميذ فى المدرسة الجديدة التى أنشئت أخيرا فى فرنسا يلعبون فى الحقل أثناء الاستراحة بين درسين)

شكل



(شكل ٣ ـ التلاميذ على الموائد)



(شكل ٤ ـ التلاميذ فى خيامهم فى الخلاء يستريحون على أسرتهم عقب الغداء)

فلما اطلع صاحبى العالم على هذه الصورة وفيها التلامذة فى الخلاء معرّضين للشمس . قال أتدرى مايقول الناس حين يرون هذه الصورة ، يقولون إنك تأتى بالجزئيات فتجعلها كليات ، هـذه فرنسا ربما قام فيها أفراد وصنعوا هذه للتجربة وجعلوا مدارسهم فى الخلاء تحت الهواء والشمس فهل يصح هذا قاعدة وعلما وأيضا إن أمر الشمس يحتاج الى ايضاح ثم لماذا أدخل من على الرحمة ومارأيك فى تعليم المسلمين اليوم وغدا فقلت سأشرح هذا المقام فى هذه الفصول ﴿ الفصل الأوّل ﴾ فى منافع الشمس ومايتخيله الناس فى مستقبل أمرهم بالنسبة لها ﴿ الفصل الثانى ﴾ علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم وفى ذلك ﴿ مقصدان * المقصد الأوّل ﴾ آراء ابن خلدون فى أن التضييق على المتعلم يورثه الخيبة وتقعد به عن المعالى ﴿ المقصد الثانى ﴾ فيما قاله العالم السويسرى الذى جاء الى مصر الآن ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى شرح الكلام على الرحمة فى هذا المقام ﴿ الفصل الخامس ﴾ آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم وفى المستقبل

﴿ الفصل الأوّل فى منافع الشمس ومايتخيله الناس فى أمرها غدا ﴾

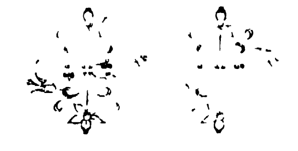
(١) إن الشمس بها يكون البخار فيصير سحابا فمطرا فيكون النبات والحيوان

(٢) إن الفحم الحجرى المطمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس وهاهو الآن تجرى به المركبات وتسرع الحركات

(٣) بالشمس كانت الرياح اللاتى تجرى بها السفن والمطاحن . إن الشلالات بها تستخرج الكهرباء والشلالات وما أشبهها نتائج الشمس لأن نفس الأنهار سببها الشمس

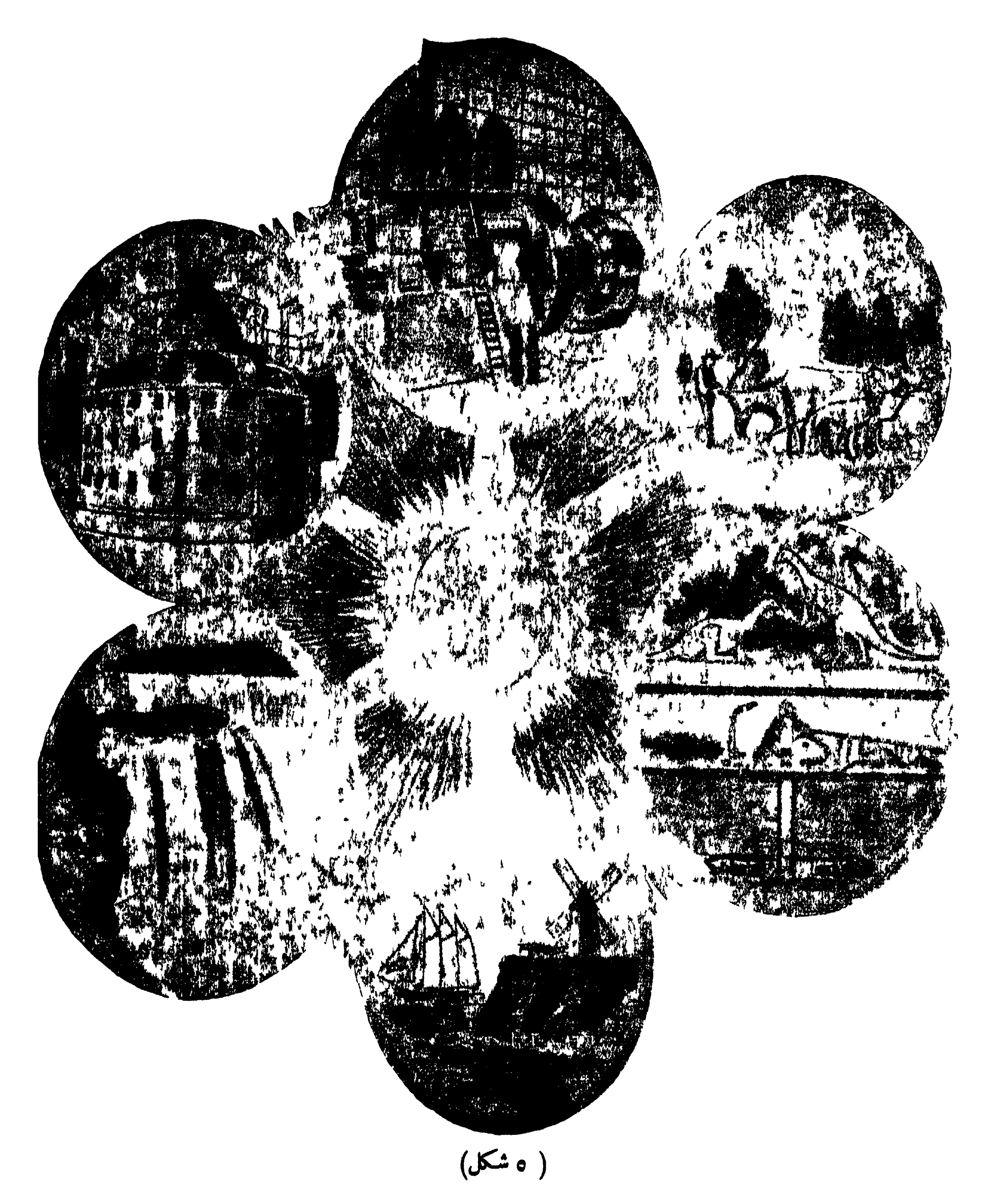
(٤) وكل محرك كهربائى لايسير إلا بوقود وقوّة والقوّة أصلها من الشمس

(٥) وقد تخيل العلماء أن الشمس فى المستقبل سيجعل لها زجاج بلورى يجمع الأشعة ثم يوزعها ومعنى هذا أننا بدل أن نرجع الى ما خزن من حرارتها قديما فى الفحم المطمور فى باطن الأرض نتجه مباشرة لنفس الضوء بآلات خاصة ونخزنه ونستعمله أى اننا نأخذ ضوء الشمس مباشرة بدون تلك الوسائط القديمة التى صنعها الله لنا لضعفنا وجهلنا ، أما الآن فالعلم يفتح لنا كل مغلق وهذا هو الرسم الذى تخيله الناس نقلته من مجلة «كل شئ» (انظر شكل ٥ فى الصفحة التالية)



(الشمس مصدر كل قوة فى الارض)

هذا الرسم يبين أهمية الشمس للبشر وكيف انها المرجع الأصلى لكل القوى التى نستخدمها على وجه الأرض ، وقد رسمت الشمس فى الوسط ورسمت حولها بعض الأشكال التى نستخدم بها قوّتها أى الأجهزة التى تستمد قوّتها من الشمس



(٥ شكل)

(١) آلة لاستخدام أشعة الشمس فى المستقبل وهى صورة تخيلية
(٢) الأحياء كلها تستمد قوّتها من الشمس إما مباشرة أوغير مباشرة
(٣) الفحم ليس إلا نباتا مطمورا والنبات انما تحييه الشمس
(٤) الشمس تسبب حركة الرياح فتستخدم فى المطاحن وفى السفن
(٥) الشلالات والأنهار انما نشأت عن تبخرالمياه وسقوطها مطرا
(٦) المحركات الكهربائية لاتسيرإلا بوقود أى بقوّة مستمدّة من الشمس

﴿ ايضاح الصورة المتقدّمة ﴾

تكثر الصحف هذه الأيام من ذكر القلق الذى ينتاب العلماء بشأن نفاد الوقود ، فالبترول والفحم سينفدان عن قريب ، وقوّة المياه الساقطة محدودة ، أماقوّة الرياح والمد والجزرفلم يمسها أحد إلاقليلا ولذلك يكد العلماء قرائحهم لابتكارطريقة للانتفاع بقوّة الشمس مباشرة ، فكل مافى الأرض من قوّة مخزونة ماضية أومستقبلة مرجعه الى الشمس وحدها ففى

(١) رسم يمثل آلة لتوليد القوّة من الشمس رأسا وبها زجاج بلورى يجمع الأشعة ثم يوزعها ، والرسم خيالى لأنه لم يتحقق للآن ولن يتحقق إلا فى زمن بعيد جدا وفى

(٢) صورة حارث يحرث الأرض ، فكل مافيه وفى الأشجار والثيران من قوّة مستمد من الشمس فالشجر يختزن قوّة الشمس بواسطة ورقه وحياة الحيوانات كلها متوقفة على حياة النبات والنبات لايمكنه أن يعيش بدون ضوء الشمس . وفى

(٣) يرى القارىء صورتين العليا تمثل الأشجار القديمة والزواحف المنقرضة . وهذه الأشجارقد طمرها التراب فصارت الآن فحما ، فمصدر القوّة فى الفحم هوالشمس أيضا لأنها هى التى أنبتت نباته . وفى

(٤) ترى مطحنة هوائية وسفينة وكلتاهما تستغل الرياح والرياح لاتتحرك إلابفعل الشمس التى تسلط أشعتها على بعض الأماكن فيخف الهواء عند مايسخن ويرتفع فيأتى غيره مكانه فتتولد الريح . وفى

(٥) يرى القارىء شلالا ينتفع بسقوط المياه منه فى توليد الكهربائية وقوّته تعزى أيضا الى الشمس التى هى سبب تبخرالمياه وتكوين الأمطار والأنهار . وفى

(٦) يرى دينام كهربائى ولده البخار الذى تولده الشمس أيضا فهى التى أوجدت الوقود لايجاد البخار وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى فى بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه « مقصدان * المقصد الأوّل » آراء العلامة ابن خلدون فى التضييق على المتعلمين فقد عقد فصلا عنوانه ﴾

(فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم)

قال ، وذلك ان ارهاف الحدّ فى التعليم مضرّ بالمتعلم سيما أصاغرالولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهرمن المتعلمين أوالمماليك أوالخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغيرمافى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهرعليه وعلمه المكروالخديعة لذلك . الى أن قال وفسدت الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصارعيالا على غيره ، ثم أخذ يقيس الأمم على الأفراد وضرب مثلا باليهود وانهم يوصفون فى كل أمة وعصر بالحرج والتخابث والكيد وسببه ماتقدّم ، ثم أخذ ينصح المعلم أن لايستبد بالمتعلم ونقل من الاستاذ محمد بن أبى زيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين انه لايزيد فى الضرب عن ثلاثة أسواط ، وهنا ذكرموعظة عمر وخطاب الرشيد للأحمر معلم ولده وقوله له يا أحمر إن أمير المؤمنين الخ

هذا ما قصدت نقله من مقدّمة العلامة ابن خلدون وهو وان لم يكن فيه نص على الهواء والشمس اللذين نحن بصدد الكلام عليهما لمناسبة الآية ففيه ذكر العناية بالمتعلمين وان فى اذلالهم بوضعهم فى حجر ضيقة ومنع الهواء والشمس عنهم ضررا أشدّ وذلا أعظم من الضرب وهذا هو الذى صرّح به المستر (مان) الذى انتدبته وزارة المعارف المصرية أثناء طبع هذه السورة من علماء النفس والتعليم فى بلاد سويسرا وهو الذى عقدت له

﴿ المقصد الثانى ﴾

فان وزارة المعارف كلفته أن يضع تقريرا وافيا عن التعليم فى مصر بجميع فروعه ، فمن حسن حظ هذا التفسير انى اطلعت على ما كتبه فى هذا الصدد فرأيته يقول ﴿ لقد رأيت مدارس كثيرة فى نفس بلاد الريف والجوّ حول المدارس حسن جيل والمزارع تحيط بهم والتلاميذ مع ذلك لاتبدو عليهم ملامح السرور فكأنهم محبوسون وقد حرموا من الهواء والشمس ، ونصح المعارف أن تجعل الشمس والهواء يحيطان بهم وأن يجعل لهم حرية فى الذهاب والإياب وأن يشعرهم المعلمون بأن لهم كرامة الخ واقترح أن المعلمين يذهبون بهم أحيانا الى الخلاء فى الشمس والهواء ويعلمونهم هناك ﴾ اه

أفليس هذا من العجب ، أنى بعد أن أحضر صورة المدرسة الفرنسية أطلع على التقرير أثناء ترجمته فأجده يصرّح باخراج التلاميذ الى الخلاء فى الشمس أحيانا . أليس هذا من التأييد لهذا التفسير . ومعلوم أن جميع مدارس أوروبا تنحو نحو الخلاء والشمس والاستقلال

﴿ الفصل الثالث فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴾

إن هذا الموضوع مناسب لما قبله مرتبط به ، ذلك أن العلامة (فنلند) ألف كتابا موضوعه «إطالة العمر» فقد قال هو وغيره ﴿ إن الكلب يبلغ تمام نموّه فى سنة ونصف ، والحصان فى ثلاث سنين وهكذا لكل حيوان زمان يتم نموّه فيه ومدة تمام النموّ المذكورة تبلغ ثمن عمره اذا لم يقتل بسبب آخر ، فيعيش الكلب (١٢) سنة ويعيش الحصان (٢٤) سنة ويقاس عليهما بقية الحيوانات ﴾

ثم قال هو وغيره ﴿ إن نهاية نموّ الانسان تكون فى (٢٥) سنة وبضربها فى (٨) تكون مائتى سنة والسبب الذى منع عن الناس طول عمرهم انهم لايعيشون بالبساطة والقناعة والاعتدال بل يفرطون فى كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعى ومن ذلك العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزى . أنا لست أقول هذا الكلام حق من كل وجه . كلا . وانما أقول علينا أن نعتدل لتصح أجسامنا ، وقد ذكر أن (هنرى) عاش (١٦٩) سنة وهو انجليزى و (جون بافن) البولندى عاش (١٧٥) سنة و (يوحنا) النوروجى عاش (١٦٠) سنة و (طوزمابار) عاش (١٥٢) سنة . وهناك رجل زنجى يعيش الآن وعمره (٢٠٠) سنة اه

﴿ الفصل الرابع فى الكلام على الرحمة ﴾

يقول الله تعالى ــ ومن رحمته ــ الخ . معلوم أن أوّل السورة ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ والمسلم فى كل صلاة يذكر الرحمة عشرات المرات ، فالرحمة تكرر فى كل زمان ومكان . يقول الله ــ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ــ الخ فهذه الشمس المضيئة التى جرت بها الأنهار والرياح والسحاب واخضر الزرع وعاش الحيوان والانسان وجرت السفن والقطرات والكهرباء وبها كانت الأصباغ المخترعة الكثيرة التى تفتخر بها الغادات فهى كلها من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم فى آخر (سورة النمل)

فهذه الشمس ومنافعها التى لا حصر لها من بعض رحمته . ومعلوم من حديث الصحيح أن الرحمة فى الأرض واحدة نشأ عنها هذه السعادة فى الأرض والرحمة بين الأمهات وذرّيتها والآباء وأبنائهم فى الانسان والحيوان وهذه الرحمة واحدة من مائة رحمة أخرها جيعها للناس فى عالم آخر بعد فراق هذه الأرض

﴿ الفصل الخامس آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم ﴾

إن الأمم الاسلامية فى الأكثراليوم ليس عندها إلا الكتاتيب المعدّة لحفظ القرآن وهى فى أكثرها أشبه بالمقابرقذرة لاضوء فيها ولاهواء إلاقليلا وهـذه مضرّة بالمتعلمين باجماع الأمم . فقال صديقى العالم هل تظنّ أن المسلمين يقنعهم هـذا القول ؟ هذا يقنع الراقين منهم لأنهم يعلمون اتساع ديننا . أما الأمم المتأخرة منهم فانها لاتثق إلا بما يرد عن المتقدّمين . فقلت أذكرك بما ورد أن النبى ﷺ كان يوحى اليه وهو سائر فى الغزوات ومتى نزلت عليه آيات أوسورة اجتمع القوم أوّلهم فى الطريق وآخرهم وهو على دابته يقرأ لهم مانزل عليه ﷺ فهاهو ﷺ ألقى عليهم الدرس فى الشمس والهواء الطلق . أفليس هذا يكفيك أن تعرف أن جلوس المسلمين فى الهواء الطلق موافق للسنة النبوية . ومن عجب أن الحج فيه الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة وهكذا جميع أعمال الحج . وترى الحاج قد امتنع عن كل زخرف فى هـذه الحياة ولايلبس المخيط وانما يلبس إزارا ورداء ، فكيف كان الحج على هذا النمط؟ نعم هذا أمر تعبدى . نحن لا ننكرذلك ولكن هذا التعبدى ظهر بعض سرّه اليوم . الله أكبر . يتجرّد الحاج من المخيط و يقف عارى الرأس تحت الشمس المحرقة يوم عرفة و يهرول بين الصفا والمروة . أليست هذه مبادئ ستبنى عليها أمم بعدنا سعادة للانسانية غير هـذه الحال . إن آدم أكل من الشجرة والقرآن والتوراة وغـيرها صرّحت بذلك وعصيان آدم ربه نزل به القرآن فهومع صحته يرمز به لحالنا نحن . فهاهى ذه الأعمار قصرت لانحراف الناس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم وفى طمعهم وفى شرههم ولذاتهم فهلكوا سريعا

إن بنى آدم باجماع الأطباء انحرفوا عن سواء السبيل فى أحوالهم النفسية والجسمية ، فرأينا الصحابة رضى الله عنهم يأكلون الخبز غير منخول زهدا فى الدنيا ، ولكن العلم الحديث اليوم أثبت أن هـذا صحة لأبدانهم ، وهاهى ذه الأمم تنحونحوهم طبيا لا زهدا ، ومثلها مسألة الحج فهى لنا تعبد ولكن من الذى تعبدنا ؟ الذى تعبـدنا هو الله . ولما نظرنا وجدنا أن الأمم اليوم تستشفى بالشمس (انظرماتقدّم فى سورة الشعراء شكل ١٠) فانك ترى الفتيات فى الشمس يستشفين بنورها ، ثم انظر المدرسة الفرنسية فى هذه المقالة التى ترى تلاميذها مكشوفين للشمس . إذن البساطة فى الحج من حيث الملابس وظهور بعض الجسم للشمس هو أوّلا عبادة مقدسة وثانيا هومبدأ يتخذ للشفاء والصحة والقوّة والعلم وهذا ضدالترف المهلك للأمم ونفس الهرولة بين الصفا والمروة مبدأ يقاس عليه الحركات التى تقوّى الأجسام وهذه كلها حكم غـير حكمة العبادة المقدّسة العالية . ألست ترى أن تقليل الملابس وكشف بعض الجسم للشمس وترك الترف هوهذا الذى يحبه النوع الانسانى الآن ليسعد بالحياة وتصح أجسامه . إذن الحج من فوائده فتح باب التجرد من أمور الزينة والشهوة لتصح الأجسام ومنها فتح باب الرياضة البدنية وأيضا اجتماع الناس فى مكان واحد ولبسهم ملابس متماثلة رجوع بهم الى الفطرة الأولى وفيه اشارة الى انكم أيها الناس جميعا يجب أن تتعارفوا وتتركوا الترف والنعيم وهذا الترك هوالذى يجمعكم واللذات تفرّقكم ، والصوم يلحق بالحج لأن فيه ترك الأكل فأماالصلاة فهى درس اجمالى لجميع العلوم كما أوضحته فى بعض هذا التفسير ، الصلاة مبدأ العلوم والزكاة مبدأ المودّات بين الأمة والحج مبدأ المساواة العامة وصحة البدن وهكذا . انتهى نصف الليل ليلة الأربعاء ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٩ و بهذا تمّ الكلام على القسم الثالث من السورة

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ

بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون * إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين * ولا يصدنك عن ءايات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلها ءاخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون *

هذا القسم تطبيق على ماتقدم من أقسام السورة راجع اليها متمم لها مكمل لمقاصدها منبه لما ترمي اليه ، ابتدأ الله السورة بما يأتي

(١) بذكر أن فرعون علا فى الأرض وأنه من المفسدين

(٢) ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأول وهلاك الثانى وقومه

(٣) ثم أردفه بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخربت ديارهم

(٤) ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا

ذلك ملخص السورة ، ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه وقد كثر ماله فأبطره الغنى ونسبه الى علمه وتكبر على قومه وانقسم الناس فى أمره ﴿ قسمين ﴾ قسم العلماء وهؤلاء حقروا زينته وماله وقسم الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ماأعطى قارون ، فلما وقعت واقعته وانشقت سماء مجده فكانت واهية وسقط قارون فى الهاوية عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثة وأدركوها بتلك الكارثة فأما أهل العلم فلم تزدهم إلا ثباتا ،

إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد ﷺ وكفار قريش ففرعون كقارون وكأهل مكة لما طغوا وأسرفوا واستكبروا وتدمير قارون وما علك كتدمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش . لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها ﴿ اثنان ﴾ العالون فى الأرض والمفسدون وينالها من تنزهوا من هذين وهذا نظير ما فى أوّل السورة ــ إن فرعون علا فى الأرض ــ الى قوله ــ من المفسدين ــ فهنا يقول الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين وتجرّد من الأمرين وفاز بالحسنيين التواضع واصلاح الأرض . ثم ختم السورة بأن كل شئ هالك إلا ما كان على نسق يرضاه الله كما كان موسى ومحمد ﷺ والذين أوتوا العلم مع فرعون وقريش وقارون ، وملخص ذلك أنه لا آخرة إلا لنبي أوحكيم أوعالم أومتبع سنتهم . فهؤلاء هم الذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا فكأن السورة فى هذا القسم لخصت مرّتين مرة فى قصة قارون ومرة فى قوله ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ فى آخر السورة . اذا عرفت ذلك فلنشرع فى

﴿ تفسير الألفاظ ﴾

قال تعالى (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه (فبغى عليهم) طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره وتكبر عليهم وظلمهم (وآتيناه من الكنوز) الأموال المدخرة (ما إن مفاتحه) أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وأما ما يفتح به فهو بكسرها وما بمعنى الذى منصوب والجملة صلته (لتنوء بالعصبة أولى القوّة) أى لتثقل العصبة ، فالباء إذن للتعدية ، يقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والقوّة الشدّة ، وقوله (إذ) متعلق بقوله (قال له قومه) المؤمنون ونبيهم موسى عليه السلام (لا تفرح) لا تبطر بكثرة المال كما قال تعالى ــ ولا تفرحوا بما آتاكم ــ وكيف يفرح الناس بما أوتوا وهم زائلون من هذه الأرض (إنّ الله لا يحبّ الفرحين) بزخارف الدنيا لأنهم قوم غافلون ، ثم أبان المقصود من المال فى هذه الدنيا فقال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تكون أبا لأمّتك ناظرا فى شؤنهم مرقيا لهم حافظا لكرامتهم حريصا على اسعادهم بحيث يكون مالك معينا لفقرائهم مرقيا لهم (ولا تنس نصيبك من الدنيا) لأنك واحد منهم والمال مال الله والخلق عياله ، فليس معنى انفاق المال للناس أن تنسى نفسك . كلا . بل ابدأ بنفسك فاذا نسيت نصيبك من الدنيا فأنت مذنب لأنه لا معنى لإحياء نفوس الناس واماتة نفسك واصلاح حياتهم وافساد حياتك ، ولما قرّر هذه الحقيقة أخذ يتمم تحريضه على الاحسان فقال (وأحسن كما أحسن الله اليك) لأن ما لديك من المال والقوّة والعلم ليس منك وانما هو من الله وكما أن ضياء الشمس والكواكب من الله خلقه فانه الى خلقه منفعته هكذا ما أنعم الله به عليك فهو من الله والى عباده ومنهم نفسك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) بالظلم والبغى (إنّ الله لا يحب المفسدين) لسوء فعلهم فأجاب قارون ناسيا أن الله هو الذى وهبه هذه النعم مدّعيا أنه استحقها بقوّة فطنته وذكائه وعلمه (قال انما أوتيته على علم عندى) فضلت به على الناس واستوجبت به التفوّق عليهم فى المال والجاه أى انما أوتيته حال كونى على علم كائن عندى كعلم التجارة والكيمياء ، ولا جرم أن العلوم كلها كشجرة ذات أغصان وفروع فمن اقتصر على أحدها أغرم به وجهل سواه ، وما مثل الناس إلا كمثل قوم عمى أمسك كل بجزء من الشجرة فقال أحدهم إن هذه الشجرة ناعمة رائحتها طيبة وهو قد أمسك بالزهرة وقال آخر إن هذه الشجرة خشنة مدوّرة وقد أمسك بالجذع وقال ثالث إن هذه الشجرة رقيقة كورق الكتابة كثيرة القطع معلقة فى سقف مربوطة بحبال دقيقة يريد الورق وهو متصل بفروع صغيرة دقيقة هكذا العلوم من قرأ منها علم التجارة أوعلم الكيمياء على فرض استخراج الذهب به فانه يغرم به ويقول انما العلوم لجمع المال وهو المقصود وما عداه لجهالة . ومن قرأ علم الزهد والتصوّف احتقر المال وتعلق بأسباب الكمال وتهذيب النفس وههنا قارون كان من القسم الأوّل وكلا القسمين فى نقص مشين فلا بد من معرفة سائر العلوم معرفة اجمالية ثم التفرغ لواحد منها ولا يكون المسلم كما كان قارون

يحفظ علما واحدا و يجهل سواه فيعيش ناقصا وحيدا لأن ذوقه لايطابق أذواق الناس فيصبح عالم التجارة عدوّ صاحب تهذيب الأخلاق ويكون الناس فى تقاطع ، فعلى الناس أن يقرؤا سائر العلوم فعلم الزهد لابد منه لذى المال حتى لا يكون أحدهم مغرما بالمال فتضيع حياته سدى ولذلك وبخه الله فقال لماذا عرفت علوم الدنيا وتركت علوم الآخرة والدنيا والآخرة لى ، هلاقرأت العلمين (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعا) للمال أى أغره علم المال فافتخر به وجهل علم تواريخ الأمم الغابرة والقرون البائدة وكم فيهم من كانوا أكثر منه مالا وأعزّ نفرا فهلكوا

فقل لمن يدّعى علما ومعرفة * حفظت شيأ وغابت عنك أشياء

ولذلك يقال « البلاهة خير من الفطانة البتراء » فهؤلاء جميعا واقعون فى الهلاك محكوم عليهم بالاعدام لافرق بين الأوّلين و بين الآخرين ومنهم قارون انهم يهلكون بذنوبهم لأن الله عليم بظواهر ذنوبهم كما هو عالم ببواطنهم فيهلكهم (ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون) وكيف يسألون وأمرهم عنده معلوم ، ثم أعقبه بذكر بعض ذنوبه ليعلمنا الله كيف تكون الذنوب الكبائر والموبقات كامنة فى مظاهر لايظنها الناس إثما ولا يعتقدونها ذنبا بل تلك المظاهر أحوال عادية وأمور مباحة مظاهرها رحمات و باطنها زلات بل أعظم الزلات فياليت شعرى أىّ شين وأى إثم فى قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) وماذا فعل ؟ يقال انه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهنّ الحلى والثياب الحمر وهنّ على البغال الشهب ، ولاحاجة الى نقل أقوال غير هذا لأنها عبارات متقاربة وانما المقام مقام هذا السؤال أى ذنب فى هذا وهل ظهور الانسان مع نسائه ومع الفرسان وعليهم ملابس جميلة حرام ، إن هذا ليس بحرام إلااذا كان هناك بعض ملابس محرّمة وهذه الملابس حرمتها من الصغائر. إن هذا المظهر مظهر مباح فما ذنب قارون إذن ؟ ولماذا يذكر ذلك المظهر بعد قوله ـ ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون ـ وهل اذا تمنى الجهال مثل ذلك الجمال والزينة إذ (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذوحظ عظيم) من الدنيا ، هل هذا ذنب لقارون وانما هؤلاء لجهالتهم تمنوا مثل قارون كما نرى ونسمع فى كل قرية و بلدة وضيعة هذه العبارة بعينها حتى ان الرجل والشاب والمرأة والفتاة ليقول كل منهم ياليت لى مثل ما أوتى فلان وفلانة على أى نعمة كثوب جميل أودابة يركبها أو بهيمة يأكل لبنها أومزرعة يحصد غلتها وما أشبه ذلك ، إن هذه عادة جميع أهل الأرض فى زمن قارون وقبل قارون و بعد قارون ، فما ذنب قارون إذن ؟ نعم ذنبه ظاهر فى الآية إذ قال تعالى ـ فبغى عليهم ـ وسيأتى ما فعله من أنه برطل المرأة الباغية لتتهم سيدنا موسى ، فهذا بعض البغى منه ولذلك ذمّه الله وخسف به و بداره الأرض . أقول ولكن ذكر خروجه على قومه فى زينته لابد فيه من أمر خفى والافلماذا يذكر بعد ذكر هلاك الأمم وأن المذنب منهم لايسأل عن ذنبه كما قال تعالى ـ فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان ـ والجواب على ذلك ، ان من الذنوب ذنوبا باطنية وقال علماؤنا رحمهم الله انها أشدّ فتكا بالانسان من الذنوب الظاهرية . إن الله لم يذكر فى القرآن إلا انه بغى على قومه وانه ـ قال انما اوتيته على علم عندى ـ وانه ـ خرج على قومه فى زينته ـ ولم يذكر ماسأقصه عليك مما نقله المفسرون عن بنى اسرائيل من أمر المرأة وغيرها ، فلنبحث فى هذا الذى جاء فى الآية . إن فيه لكبائر الذنوب مثل الكبرياء والاعجاب والتعالى على الناس . فهذه وأمثالها ذنوب كبائر و يقول علماؤنا انها هى المهلكة . إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال واما أن تكون من أضلها فاذا كانت لاظهار مجد الأمّة وقهر عدوّها وكسر نفسه واظهار العظمة الدينية والقومية فهى جهاد فى سبيل الله . فأما اظهارها لاذلال النفوس وكسر القلوب والتعالى على الاخوان وأبناء البلاد فذلك تفريق للكلمة واظهار للعظمة فى غير موضعها فان الناس اخوانه ومتى تعالى عنهم خفضهم فلاجامعة بينهم ولارابطة تربطهم

فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم وفى الآخرة بجهنم . فظاهر قارون كانت من القسم الثانى قصها الله ليعلم المسلمين و يقول لهم لتكن نفوسكم شريفة وإياكم أن تطغوا انما نظرى لقلوبكم لا لصوركم ، فكم مظهر نعمة يريد بها التعالى والتفاخر ، وكم مقيم زينة وصانع وليمة أوعرسا أومأتما وهوفى ذلك كله كقارون ، ليست هذه المظاهر عند كثيرمن الناس إلا ليظهروا بها الكبرياء والتعالى على الناس واظهار العظمة — من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلاالنار وحبط ماصنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون — إن هذه الآية وردت فى المرائين ، ففعل قارون وأمثال قارون من كل ذى مال ولوقل فى الأمة الاسلامية يدخله الرياء والاعجاب بالنفس والكبرياء والتعالى على الأقران وهى هى المهلكات المزعجات قال تعالى — أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغيرالحق و بما كنتم تفسقون — هذا هوالقرآن وهذا كلام الله وأكبر مصيبة حلت بالاسلام أن الذنوب الباطنية لم تذكر فى مدارس التعليم واكتفى الناس بالأحكام الشرعية الظاهرة وظنوا أن التعليم فى البواطن خاص بالمجاذيب والصوفية وهذا من أكبر عيوب التعاليم الاسلامية . إن هذا هو السبب فى أنك ترى بعض المسلمين فى الاكتتابات العامة النافعة لايساعدون ، وترى الناس يصرفون أموالهم فى الزينة والزخرف والسفرالى أوروبا للنزهة والرياضة ومصرالتى هى بلادى يسافرمنها كل سنة نحو خمسين ألفا يصطافون فى أوروبا ، وترى الناس فى المآتم والأعراس يدفعون أموالا كثيرة ، كل ذلك لأن التعاليم الاسلامية اليوم لم تدخل القلوب . إن التعاليم الاسلامية انما قصرها الناس على ظواهر الأجسام وتركوا القلوب فارغة لاعلم ولارحمة ولااحساس إلا ماجاء عفوا و بدون قصد . فأما تربية الوجدان فانها متروكة للأهل والأقارب والبيئة . إن المسلم اذا سمع هذه الآيات يقول انها فى الكفار فأما أنا فيكفينى الاسلام وهذه أكبرخطر . يقول المسلم « مادمت لا أوذى أحدا ولاأسرق ولاأزنى فأنا لاذنب على » وهذا هو الخطأ الفاحش والذنب العظيم . إذن أين أمثال هذه الآيات ولم أنزل القرآن . إن استتار المسلم بالدين واحتجاجه به وقوله إنى مسلم وانما هذه الآية واردة للكفار هوالذى أوقع الأمة فى الجهل وضياع المال والبذخ والزينة والاسراف فخسف بنا و بدارنا الأرض خسفا معنويا وذلا حقيقيا . فلئن خسف بقارون و بداره الأرض فهلك هلاكا حسيا فلقد خسف بنا و بدارنا الأرض خسفا معنويا ، فأينما تول وجهك فى بلاد الاسلام لاترى إلا جهالة عمياء وضلالا ورياء إلا قليلا من ذوى النفوس الشريفة فهم الذين يرجع اليهم وسيقومون بنشر أمثال هذه بين المسلمين وسيرجع للاسلام مجده على يديهم ويكونون نورا للمسلمين . إن الله ماقص هذا القصص إلا ليرينا أن أمثال هذه الذنوب كالكبرياء والرياء والتعالى ليس ذنبها فى الآخرة وحدها بل شؤمها يحصل فى الدنيا كما حصل اليوم للسلمين ، هذا فى ضمن قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) بأحوال الدنيا والآخرة لأولئك المتمنين (ويلكم) دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لايرتضى كيف تتعالون بالزينة وتفخرون بالحلية (ثواب الله) فى الآخرة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتى قارون ومن الدنيا ومافيها (ولايلقاها) أى المثوبة أوالجنة والعمل الصالح (إلا الصابرون) على الطاعات وعن المعاصى و بذلك الصبر وحفظ الشهوات يصرفون مالهم لوجه الله وللأعمال العامة ويكونون قدوة صالحة و يرفعون أمتهم ويحفظون مجدها و يجعلون مالهم لاسعاد أمتهم فينالون بذلك الصبر الثناء فى الدنيا وحب الناس وفى الآخرة يدخلون الجنة فانه لا آخرة إلا على حسب الدنيا . إن النفوس الانسانية مصروفة الى الهوى والشهوة والعادات الموروثة والامور المحسوسة . انظر الى المصلى انه يريد أن يوجه قلبه فى الصلاة لله وللذكر وللقراءة وللمعانى فلا تطاوعه نفسه وتنصرف الى أمور تهمها . هذا طبعها فاذا جاهدها مرة بعد مرة قرت ونبتت وتذكرت ثم يصير ذلك عادة جديدة ثم يستلذ بها هكذا فى المال تنصرف النفس الى الزينة واظهار الشرف والغنى والجاه والثروة فاذا وجدت من يفهمها أن المال ليس لهذه السفاسف بل لتلبية

الدين وشريف العواطف و يذكرها مرة بعد أخرى صار ذلك عادة لازمة واستلذ بها لذة دائمة و يسمع ثناء الناس عليه والآخرة خير وأدوم . إن اتجاه قلب المصلى بعد شموسه وجماحه وشروده وانقياده بعد نفوره للحضور فى الصلاة وصرف ذى المال ماله للمحتاجين وللمنافع العامة بعد ريائه وكبريائه وجهالاته لم يكن إلا بالصبر . إن ردع النفس عن طبعها لا يكون إلا بالصبر عن المألوف والبذل فى المعروف . هذا معنى قوله تعالى ـ ولا يلقاها إلا الصابرون ـ ولاجرم أن قارون لم يكن منهم ككثير من أمثاله من أغنياء الأمة الاسلامية الآن بل انه استعان بالمال على اهانة قومه وعصيان ربه ككثير من أغنياء المسلمين الآن وقد ذكر المفسرون منها ما يأتى

(١) أوحى الله الى موسى أن مر بنى اسرائيل أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكروننى به اذا نظروا الى السماء و يعلمون أنى منزل منها كلامى فامتثل بنو اسرائيل وتكبر قارون وقال هذا فعل الأرباب لعبيدهم

(٢) جعل الله الحبورة لهارون وهى رئاسة المذبح فكان بنو اسرائيل يأتون بقربانهم الى هارون فيضعها فى المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فحسد موسى وهارون وقال أنا أقرأ التوراة وأنت تنال الرسالة وهارون الحبورة ولست فى شئ من ذلك فأقام له موسى الحجة أن هذا من الله فعدّها سحرا . ذلك أن القوم وضعوا عصيهم فى قبة وحرسوها طول الليل فأورقت عصا هارون ولم تورق سواها من العصى فقال هذا سحرك المعهود ولكم سحرت قبل هذا

(٣) أمره بالزكاة فلما جمعها استكثرها وعصى ولم يعطها

(٤) أراد أن يفضح موسى بين بنى اسرائيل فبرطل بغيا لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال إن بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فاستحضرت فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخرّ موسى شاكيا منه الى ربه فأوحى اليه أن مر الأرض بما شئت فقال يا أرض خذيه فأخذته الى ركبته ثم قال خذيه فأخذته الى وسطه ثم قال خذيه فأخذته الى عنقه ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرّع اليه فى هذه الأحوال فلم يرحمه فأوحى الله اليه ما أفظعك استرحمك مرارا فلم ترحمه وعزّتى وجلالى لو دعانى مرة لأجبته ثم قال بنو اسرائيل انما فعل ذلك ليرثه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله

إن ذلك كله كان نتيجة عدم صبره أى انه لم يكبح جماح نفسه عن رعونتها وميلها الى الكبرياء والشهوات والقرآن لم يجئ فيه هذا التفصيل وليس فيه إلا قوله تعالى (فخسفنا به و بداره الأرض) مرشدا بذلك المسلمين أن يصرفوا هواهم عن التعالى والكبرياء والتغالى فى الزينة لئلا يخسف بهم و بمالهم الأرض كما حصل الآن فقد أصبح مالهم تحت تصرّف غيرهم من الأمم المحتلة وذلك لجهلهم وقلة علم وعاظهم إلا قليلا فصرف الناس أموالهم وعقولهم فى الرياء والمباهاة وجهلوا المقصود من المال ومن الحياة فضاعت بلادهم وهذا هو الخسف العظيم ، وأىّ شئ خسف قارون وداره ؟ الخسف الآن خسف الأمم بتمامها ، يدخل جيش الأعداء القاهر فى بلدة من بلاد الاسلام فيصبح الناس عبيد الغاصبين وضحية الطامعين ، ذلك هو الخسف الأكبر ، خسف أمة لا خسف فرد ، فليخسف الفرد ولتبق الأمة ، أما الأمم الاسلامية الحديثة فانها ابتليت بخسف الأمم والأفراد ولجهل كثير من الوعاظ الغافلين الساهين النائمين الجاهلين ، الخسف حتم لكل مراء و باغ وجاهل بمقاصد المال ومقاصد الصحة والعلم ، يخسف بهم سواء أكانوا أمما أم أفرادا كقارون (فما كان له من فئة) أعوان (ينصرونه من دون الله) فيدفعون عنه عذابه (وما كان من المنتصرين) الممتنعين منه يقال نصره من عدوّه فانتصر اذا منعه منه فامتنع . وكيف يكون له معين . وكيف يكون للأمة الغافلة ناصر

وهو وهي قد فرطوا فى قواهم وأضاعوا مجدهم وخربوا بيوتهم بأيديهم . إن النصر للصابرين . إنما النصر نتيجة الصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول وجعل ذلك كله للفضائل والمنافع العامّة

﴿ ضرب مثل لحال المسرفين فى ما لهم بالمسرفين فى مآكلهم ﴾

أضرب لك مثلا يوضح لك السابق كله لتعلم أن هذه الآية لم تنزل فى القرآن ليتعجب الجاهل من قارون كيف خسفت به الأرض وكيف كانت البغى لم يغرها المال بل نطقت بالحق وهو براءة موسى وأشباه ذلك . كلا . إن هذه القصص جاءت لحقائق علمية ومعانى قدسية وحكم عقلية وآيات عمرانية وعجائب نظامية وسعادة اسلامية للمسلمين فى مستقبل الزمان * قال أطباء هذا العصر من النمساويين والألمان وغيرهم ﴿ إن الذين يتعاطون اللحم والبيض واللبن وأمثالها من كل ما فيه غذاء كثير التغذية تقوى أجسامهم وتحمر وجوههم ويحسدهم أقرانهم لأن الموادّ الغذائية فى هذه الأصناف الثلاثة قوية فتدخل فى نسيج الجسم وخلاياه بقوّة فتملؤها فيظهر ذلك على الوجوه والأعضاء وتحمر الخدود وتقوى الجسوم . وهناك فريق ثان ضعيف البنية منهوك القوى قد أضرّ به المرض فظهر فى جسمه القروح والبثور والعوارض الكثيرة وهو يئنّ من المرض ولا يقوى على هضم الطعام أحيانا ، فيقول الناس اذا رأوا الأول قائما بينهم هاشا باشا ياليتنا كنا مثله ويحسدونه على ما آتاه الله من قوّة الجسم والبدن والجمال والحسن وبينما الناس على هذه الحال اذا ذلك القوى المتين خرّ صريعا فى يوم أو بعض يوم ، أما ذلك المريض الضعيف فانه كثيرا مايعيش بعد ذلك سنين وسنين وهذا أمر عجب ، الغذاء حسن جيل مقوّ فهل المقوّى ضار ؟ وماذا يصنع الناس ، فأجاب هؤلاء الحكماء قائلين اعلم أن الرجل القوىّ الجسم كان ضعيفا والضعيف الجسم كان قويا لأن القوى الجسم لما أكل هذه المواد الدسمة وامتلأت به أنسجة جسمه ولم ترحم تلك الأنسجة ولم تشفق عليها ولم تكن كالأغذية الواردة عليها من المواد النباتية والفواكه والحبوب ، تلك الأغذية التى تدخل تلك الأنسجة بلطف وتؤدة لأنها ليست كثيرة التغذية بل قوّة الغذاء مصحوبة بمواد أخرى تحول بينها وبين تلك الأنسجة فلا ترهقها كما أرهقها أمثال اللحم وما معه

أقول لما حصل كل هذا فى جسم ذلك القوى ظاهرا وامتلأت الأنسجة بالمادّة الغذائية احتاج الجسم أن يخرج الفضول ويستريح مما زاد عن قوّة الأنسجة الممتلئة فلا يجد لذلك سبيلا فامتلأ الجسم كما يمتلئ النهر بالماء حتى يفيض ولابد من قطع موضع من الجسر ، هكذا ذلك الجسم يتمزّق فى يوم أو بعض يوم ، أما ذلك الضعيف فان جسمه لما امتلأ كذلك القوى فانه لقوّته فتح منافذ سماها الناس أمراضا كالقروح والبثور والأمراض فتخرج الداء من الأجسام ويستريح الجسم وماذلك بداء وانما هو صحة للجسم واخراج للفضلات منه فتكون النتيجة هكذا « المريض قوىّ والصحيح ضعيف »

هذا هو الذى قاله الأطباء فى العصر الحاضر وبنوا على ذلك أن الانسان خير له أن يأكل البقول والفواكه والحبوب وأن يمتنع عن اللحم والبيض واللبن أو يقلل منها ما استطاع لذلك سبيلا . أفلست ترى أن صاحب الثروة الواسعة الذى أشبه قارون فى بذخه كذلك القوىّ الجسم . أولست ترى أن الذى أنفق ماله لأهل قريته ونفع أمّته وذلك العالم الذى جعل علمه لأمّته أشبه بذلك المريض الذى قوى جسمه على دفع الأذى . ألا ترى أن مايظنه الناس انه فقر عند مايعطون المال لمستحقه أشبه بما يظنه الناس مرضا بظهور القروح والبثور فاذن يكون المنفق غنيا والممسك المتباهى بالزينة فقيرا . أوليس هذا أشبه بما فى قوله (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالأمس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) يبسط ويقدر بمقتضى المشيئة لا لكرامة تقتضى البسط ولا لهوان يوجب القبض فالقبض والبسط كالليل والنهار والصغر والكبر والصيف والشتاء يمران على الصالح والطالح امتحانا لهما واختبارا وتربية من رب العالمين وقد أخطأ الانسان فانه اذا أكرمه الله ونعمه يقول ــ ربى أكرمن * وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى

أهانن * كلا ـ ثم كلا إن الأمر امتحان واختبار وتربية ولفظ « وى » للتعجب و « كأنّ » للتشبيه أى ما أشبه الأمر ـ ان الله يبسط ـ الخ (لولا أن منّ الله علينا) فلم يعطنا ماتمنينا (لخسف بنا) لأنه يحيق بنا ما حاق به فيخسف بنا (ويكأنه لايفلح الكافرون) لنعمه الصارفون لها فيما نفعه قليل ومن هؤلاء المكذبون برسله . أليس هذا هو مايحصل الآن أمام أعيننا فى الدنيا لاسيما فى هذا العصر

(١) ألم تر الى قيصر الروس كيف كان له السلطان التام والقدرة والصولة والعظمة والجاه وقد ملك مقاليد الروس ، وما ادراك ما الروس ، أمة عظيمة قوية تحتها أمم وأى أمم ، مائة مليون أو يزيدون ، فماذا حلّ به لما جاءت الحرب الكبرى ؟ أنزله قومه من على عرشه وذبحوا أبناءه أمامه وأنزلوه بعد ذلك دار الهوان وقتلوه قتلا شنيعا بعد أن أجاعوه وأذاقوه مرّ النكال . أليس ذلك هو عينه ماحصل لقارون وللمسرفين فى ماّ كلهم مخالفين نصح الأطباء ، يحسدهم الناس ويقولون ياليت لنا مثل قيصر انه لذوحظ عظيم ، ياليت لنا صحة مثل هذا السمين الوسيم من الأصحاء ، أفليس الناس بعد انقلاب الأمر على قيصر وحلول المنون بذلك السمين الوسيم يقولون نفس هذا المقال يقولون نتعجب كأن هذه الدنيا دار خدعة ، انظر الى قيصر كيف أبادته الجنود وأهلكه من كان يغتر بهم وذلك لأنه استبدّ بالأمر وخرج على قومه فى زينته وهو يريد الحياة الدنيا والناس كلهم كانوا له كالعبيد . هكذا حصل فى الاستانة وخلع عبد الحميد من ملكه وهكذا كثير من ملوك أوروبا

(٢) أولست ترى أن أولئك الموسرين من مصر وأهل الشام والمغرب وغيرهم من أقطار الاسلام الغافلين عن منفعة المال يتباهون بالدور والعقار والولائم ويتظاهرون بها وقد ركبهم الدين ورهن العقار والفرنجة واقفون لهم بالمرصاد يخربون بيوتهم بالدين وهم غافلون والناس من حول هؤلاء المثرين يقولون ياليت لنا مثل ما أوتى فلان المثرى ، انظروا الى زينته ، انظروا الى قصوره ، انظروا الى الجموع التى جمعها فى عرسه أو مأتمه ثم ينقضّ عليه دائنوه فيبيعون العقار ويخربون الديار ويصبح كأن لم يغن بالأمس . ذلك مشاهد فى كل قرية وبلد وضيعة ولكن الناس غافلون وترى الذين كانوا يحسدونه بالأمس بعد سقوطه يقولون ـ ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ـ لولا أن الله لطف لكان جعلنا مثله مغرورين فأصبحنا عبرة وشماتة للأعداء فى الداء العضال . ذلك هو المقصد من قصة قارون ثم ذكر الله نتيجة جميع ماتقدّم فقال (تلك الدار الآخرة) الاشارة للتعظيم أى تلك التى سمعت من أنباء الأمم وعرفت وصفها ، وقوله ـ الدار ـ بدل والآخرة صفة الدار والخبر (نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض) غلبة وقهرا (ولافسادا) ظلما على الناس كما أراد فرعون وقارون وكفار مكة لما آذوا النبى وأصحابه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) مالايرضاه الله (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلايجزى الذين عملوا السيآت إلا ماكانوا يعملون) أى إلا مثل ماكانوا يعملون ولما كان الصابرون الذين لايفخرون على الناس وتكون أموالهم وحياتهم وقفا على أممهم موعودين بالثواب فى الآخرة أعقبه بما يفيد أن الحظ فى الدنيا والآخرة لهم فلهم الآخرة ولهم الدنيا ، فالذى لايتبع الهوى فى شهوة الطعام له الصحة الحقة والذى يسلك سبيل الانفاق فى المنافع العامّة يرى فى الدنيا سعادة لايحلم بها ذلك المسرف المرائى بما يتهيأ له من حب الناس وثنائهم عليه واكرامهم له وتبجيله واعظامه فقال (إنّ الذى فرض عليك القرآن) أى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرادك الى معاد) دنيوى وأخروى ، أما الدنيوى فانك تردالى مكة اذا اشتقت اليها لأنها مولدك ومولد آبائك ، وأما الأخروى فانك ترد الى المقام المحمود الذى وعدت أن تبعث فيه وهذا المقام أنت تحمده ويحمده كل من عرفه ، ولقد تقدّم أن هذا المقام يشير الى ارتقاء العلوم فى هذه الأمة فى مستقبل الزمان كما ارتقت عند أسلافنا ، فهم رفعوا منار العلوم التى هى مناط الحمد كما قدّمناه وسيرفعونه كما أوضحناه . وملخصه أن هذه الأمّة سترقى فى مستقبل الزمان . وملخص ذلك كله أن الذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا وهم منفقون أموالهم فى الخيرات ينالون الخير فى الدنيا والآخرة كما حصل

لرسول الله ﷺ إذ قال له جبريل لما نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة فاشتاق اليها «أتشتاق الى بلدك» قال نعم قال فان الله تعالى يقول ـ إنّ الذى فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد ـ فهذه الآية لا مكية ولا مدنية ، ثم قرّر ذلك فقال (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) ومايستحقه من الثواب فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ـ وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ـ (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ـ لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ـ والمقصود من ذلك نفسه عليه الصلاة والسلام والمشركون وكذا كل مهتد وكل ضال كما عرفت . ولما كان الصبر على شدة الكفار ومقاساة الأهوال شديدا على النفوس وقد وعد الله نبيه على صبره على أذى قومه وما يلاقيه من الصعاب أن يردّه الى مكة فى الدنيا والى المقام المحمود فى الآخرة . أكد ذلك بما سبق له من شوقه الى لقاء جبريل ونزول الوحى أيام الفترة فى أوّل النبوّة فلقد كان لشدة وجده وهيامه وغرامه بملاقاة جبريل وتلقيه الوحى منه يكاد يلقى نفسه من فوق الجبل وذلك الشوق جعله الله فى الأنبياء وفى العلماء والحكماء ليكون ذلك أدعى الى صبرهم على مقاومة الأعداء ومقارعة الاخوان ومصادمة الحوادث فانهم لولم يتشوّقوا لتلك المراتب ولم يرتقبوا تلك الفضائل بل أتت لهم سهلة هنيئة مريئة لمجوها اذا أوذوا أولتركوها اذا قهروا فالمشتاق للشئ الذى لج فى طلبه وكرره وهو ممتنع عليه محبوس عنه اذا بلغ مناه بعد اليأس كان أحرص الناس عليه وألزمهم له وأغرمهم به وأحبهم اليه وهذا قول الله تعالى (وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب) أى يوحى (إلا رحمة من ربك) أى ولكن لرحمة من ربك ألقى اليك الكتاب فأنت أوتيت الكتاب بعد الشوق وقطع الرجاء فهانحن أولاء وعدناك بالعزّ فى الدنيا والمقام المحمود فى الآخرة الآن وقد كنا شوّقناك الى الوحى ومنعناه عنك وقد قطعت رجاءك استزادة لشوقك لتزيد بالكتاب غراما وعليه حرصا حتى تصبر على الأذى وتقاوم المشركين (فلاتكوننّ ظهيرا للكافرين) أى لاتكوننّ معينا لهم بمداراتهم والاجابة الى طلبهم وكيف يكون ذلك منك وأنت مانلت هذا الكتاب إلا بعد الطلب القوى والشوق إن ذلك أدعى لصبرك هكذا أكرمناك ودبرنا أمرك ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ وهكذا جميع الحكماء والعلماء والمصلحين يشوقون الى المعالى ثم يمنعونها زمانا ليصبروا على ما أحبوا متى نالوه وهذه سياسة الله فى هذا العالم الأرضى إنه لطيف لما يشاء (ولايصدّنك عن آيات الله) عن قراءتها والعمل بها (بعد إذ أنزلت اليك وادع الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولا تكوننّ من المشركين) بمساعدتهم (ولاتدع مع الله إلها آخر) وذلك القول لقطع أطماع المشركين وكيف يصدّونك أو ينالون بغيتهم منك أوتكون أنت معهم ونحن قد أحكمنا أمرك بما ذكرناه فشوّقناك ثم أرسلناك وهذا القول يقتضى أن سياسة الشوق أعظم وسيلة للمنفعة العامة ، فالدعاية والتشويق للأفراد وللأمم والجماعات الى فضيلة من الفضائل هى الداعية للاستزادة منها

فعلى المسلمين فى أنحاء المعمورة أن يشوّقوا الشبان الى مجد آبائهم والى حفظ بلادهم والى استخراج ثمرات أرضهم ومعادن جبالهم ويبثون فيهم هذه الفكرة ويحضوهم حضا دائما على ذلك وعلى النظر فى العجائب بذكر بعض جمالها ، وكلما تمنعت هذه المطالب ازداد الشبان بها غراما حتى اذا نالوا بغيتهم استمسكوا بتلك المزايا أجيالا وأجيالا حتى تخور العزائم وتدور الدوائر وتضمحل الأمم وتموت الهمم ذلك يؤخذ من هذه الآيات إذ رتب الله أمره لنبيه بأن لايعاون الكافرين ولايصدنّ عن آيات الله وأن يدعو الى ربه وأن لا يكون من المشركين وألايتخذ غيره وكيلا على أموره كلها ولا يعتمد إلا عليه . كل ذلك رتبه على انه شوّقه الى الوحى وأوحى اليه بعد اليأس ، هكذا فليفعل المسلمون وليقم بذلك المدرّسون فى البلاد الاسلامية ، وقوله (لاإله إلا هو) معروف (كل شئ هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه لأن كل شئ أريد به غير الله فهو هالك ، فكل مالامصلحة فيه كما تقدم من الأمثلة بقيصر الروس وبالأغنياء فى الاسلام المسرفين الجاهلين وبقارون

وفرعون

وفرعون وكفار مكة كل فعل هؤلاء هالك (له الحكم) فصل القضاء بالعدل فيخذل المسرفين المرائين و ينصر الفاضلين العادلين على وجه الحكمة وطريق الصواب (واليه ترجعون) للجزاء بالحق . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ فخرج على قومه فى زينته ـ ﴾

لقد ذكرنا فى هذا التفسير فى سور كثيرة أن التنعم مضعف للأجسام والعقول والهمم ، ومن لطائف الاسلام انه حرم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، ذلك ليقفل باب التنعم الذى يورث القعود عن المعالى ، والأمم لاحياة لها إلا بالرياضة البدنية ومزاولة الأعمال العسكرية ومشاق الجندية لحفظ الثغور ونظام البلاد وقوّة الأجسام وصيانة النفوس والقوى من الضعف . إن السعادة كل السعادة فى ترك التنعم وكثرة الأعمال الجسمية وترك النعيم فانه أدعى للسعادة والهناء والصحة والقوّة وحفظ البلاد

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين ـ ﴾

إن ذكر هذه الجملة بعد ماقصّ الله من قصص قارون وموسى وماتجلى للناس من أمر المال وانه زائل وأن الذين أوتوا العلم قالوا إن ثواب الله خير الخ ثم خسفت الأرض بالمال وصاحب المال . أقول إن ذكر هذه الجملة بعد ماتقدّم فتح باب لأرقى ماوصلت اليه الحكمة والفلسفة . ياسبحان الله . أليس من العجب أن يكون أرقى الحكماء فى نظر علماء العصر الحاضر والغابر يقولون ﴿ إنه لايصح أن يسمى موجودا إلا ما كان معصوما من الزوال ﴾ ولقد نسمع كثيرا من حكماء القدماء يقولون ﴿ إن الحركة وجودها ضعيف و برهنوا على ذلك ﴾ فهذه هى القاعدة التى بنى عليها أن العلم لايبنى إلا على ماهو ثابت ، فأما مالا ثبات له فلايبنى العلم عليه . ولاجرم أن مافى السموات والأرض كله متغير والمتغير غير ثابت وغير الثابت لايبنى عليه علم فالعلم الذى نعقله مبنى على أمور وراء هذه المادّة و يسمونه (عالم المثال) وكل مانراه أونحس به فما هو إلا ظلال لذلك العالم أوصور له أوآثاره لاغير وذلك العالم هو الثابت الذى يبقى فلذلك نرى العلم باقيا فهو باق ببقاء مابنى عليه والمادّة لابقاء لها فلاعلم يتعلق بها ، وعلى ذلك يقول أولئك الفلاسفة ﴿ فلنوجه وجوهنا للعالم الذى يبقى ولنحقر هذه الدار الفانية ﴾

أما الدار الدنيا فليست دار حياة وانما هى دار متقلبة متغيرة فليس من حقها أن تسمى حياة كما أنه ليس من حقها أن تسمى موجودة ، فاعجب من القرآن ومن أن تشرحه حكمة الحكماء وعلم العلماء ، جلّ الله وجلّ العلم ، واعجب كيف يقول الله فى آية أخرى ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ـ فأفاد أن عدم العلم هو الذى يمنع الناس من أن يفهموا أن عالم الأرواح هو العالم الثابت وهو الموجود على الحقيقة وما سواه من المادّة باطل ، وهل يفهم هذا القول إلا أولوا العلم المذكورون فى هذه السورة وهو ذلك ـ وقال الذين أوتوا العلم و يلكم ثواب الله خير ـ وأفاد أن ذلك يعوزه الصبر . انتهى صباح يوم السبت قبيل ظهر (٢١) يوليو سنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة . الموازنة بين فهم الصحابة رضى الله عنهم و بين فهمنا فى القرآن ﴾

كيف كان سلفنا الصالح يفهمون القرآن ، وكيف كان فهمهم سببا فى انهم ملكوا ملك فارس والروم ، وكيف كان فهمنا للقرآن بعد ذهاب الدول الاسلامية والقوّة العربية غير مجد ولامفيد فغلبتنا الأمم وصرنا لهم خاضعين . ذلك نفهمه من حكاية الربيع بن زياد مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال الربيع بن زياد الحارثى كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعا (أى أن يتخذ كل واحد منهم له خليفة يقوم بالحكم فى غيابه)

قال فلما قدمنا أتيت (يرفأ) فقلت (يايرفأ) مسترشد وابن سبيل أى" الهيئات أحب" الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الى" بالخشونة فاتخذت خفين مطارقين أى مطبقين يقال طارقت نعلى" اذا أطبقتهما ويقال لكل ماضوعف قد طورق ولبست جبة صوف ولثت عمامتى على رأسى أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء ويقال رجل ألوث اذا كان أهوج مأخوذ من اللوثة ، فدخلنا على عمر فصفنا بين يديه فصعد فينا وصوّب فلم تأخذ عينه أحدا غيرى فدعانى فقال من أنت قلت الربيع بن زياد الحارثى قال وماتتولى من أعمالنا قلت البحرين قال كم ترتزق قلت ألفا قال كثيرفما تصنع به ؟ قلت أتقوّت منه شيأ وأعود به على أقارب لى فمافضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال فلابأس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعى من الصف فصعد بنا وصوّب فلم تقع عينه إلاعلى" فدعانى فقال كم سنك قلت خمس وار بعون سنة قال الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام وأصحابى حديث عهدهم بلين العيش وقد تجوّعت له فأتى بخبز وأكسار بعير (الكسر والجدل والوصل بكسر الأول فى الثلاثة العظم ينفصل بماعليه من اللحم وجمع الكسر أكسار) فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر اليه يلحظنى من بينهم ثم سبقت منى كلمة تمنيت انى سخت فى الأرض فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى صلاحك فلو عمدت الى طعام ألين من هذا فزجرنى ثم قال كيف قلت ، فقلت أقول ياأمير المؤمنين ان تنظر الى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل ارادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز لينا واللحم غريضا (أى طريا) فسكن من غربه (أى لانت حدّته) وقال أههنا غرت (أى ذهبت) قلت نعم فقال ياربيع إنا لوشئنا ملأنا هذه الرحاب من صلائق (الصلائق كل مطبوخ ومشوى" بالنار) وسبائك (هومايسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو الحوّارى والرقاق تسمى سبائك) وصناب (هوصباغ يتخذ من الخردل والزبيب ولكنى رأيت الله عزّوجل نعى على قوم شهواتهم (أى عابهم ووبخهم) فقال ـ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ـ ثم أمر أبا موسى باقرارى وأن يستبدل بأصحابى اهـ

﴿ الكشف الحديث ﴾

(فى ايضاح قوله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ)

اعلم أن هذه الآية أصل عظيم من أصول العلوم الطبيعية والذى جاء فى نص هذه الآية هو آخر رأى وصل له العلماء ، انظر الى علوم اليونان فلقد ابتدأت حياتى العلمية الفلسفية بقراءتها ولم أكن أعلم بالحديث فرأيت القوم يقولون ان السموات والكواكب كل هذه أزلية أبدية ولايمكن خرقها ولاالتئامها فهى قديمة كما أن الله قديم وباقية كما ان الله باق ولايمكن أن تجزأ ولاتنفصل . أقول ومعلوم أن هذا المذهب يخالف ديننا على خط مستقيم ، ثم إن المتأخرين من العلماء أجمعوا أن هذه الكواكب مركبات من عناصر وانها كانت بخارا قديما وفى المستقبل ترجع بخارا الخ ولاجرم أن هذا يوافق ديننا أى ان علماء أوروبا قرّروا ما يوافق ديننا موافقة تامّة وان كانوا لايعلمون ولكن بقيت العناصر وهى فوق الثمانين ، فهذه لاتنحل مطلقا ، فإذن هى دائمة وتقوم فى دوامها مقام السموات فى بقائها عند القدماء فرجع الأمر الى مثل ما كان عليه القدماء . هنالك ظهر علماء زماننا فقالوا . كلا . بل كل هذا الوجود ونفس هذه المادّة تنعدم كما تنعدم مركباتها ، وآخر رأى هو أن العناصر محكوم عليها بالفناء كالمركبات منها

﴿ ايضاح هذا المقام . النظرية القديمة ﴾

قد أبنت لك أن بعض علماء اليونان ومن تبعهم من علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر قد قالوا ﴿ إن السموات لاتنحل ﴾ وأزيد عليه أيضا انهم قالوا ﴿ إن المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن مركبات من عناصر أربعة وهى الماء والتراب والنار والهواء ، فاذا حكمنا بأن السموات وكواكبها لاتنحل ولا تتجزأ ولاتفنى فانا نحكم أيضا على الماء والنار والتراب بأنها لاتنحل ولا تتجزأ ، فالشمس لاتفنى والقمر

لايفنى والكواكب لاتفنى ﴾ واستمرّ الأمر على ذلك مئات السنين

﴿ نقض هذه النظرية ﴾

هنالك جاء متأخرو علماء الاسلام كما تراه فى ﴿ كتاب المواقف ﴾ للعلامة العضد وهكذا السيد وغيرهما فزلزلوا بعض القواعد كقولهم ﴿ إن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس دائرة حول الأرض ﴾

ثم جاء (كوبرنيكوس) و (غاليلى) من علماء أوروبا وأوضحوا هذا ودوّنوه وهذا وان لم يكن نقضا لهذه النظرية هو فتح باب للنظر فيها والتفكر والهدم . هنالك نظر المتأخرون من الفرنجة مثل العلامة (لافوازيه) فانه وضع هذه النظرية وهى

﴿ المادّة لاتنعدم ولاتتجدّد ﴾

ومعنى هذا انك لوأتيت بمادّة خشبية وأحرقتها فان الأجزاء تتفرّق فبعضها يطير فى الهواء و بعضها يبقى فحما فى الأرض وهكذا . نحن نأكل الخبز فالخبز لم يذهب منه شئ فانك لو وزنته فوجدته رطلا فهذا الرطل يقسم اقساما فقسم يصيردما بعد تمام هضمه وقسم يخرج مع العرق والبول وقسم يخرج مع الفضلات ، فدمنا موجود يصير لحما وعظما ومخا الخ والفضلات والعرق لاتزال فى هوائنا وفى أرضنا وفى حقولنا فترجع فى أجسام نباتنا وحيواننا أوفى تراب أرضنا . هذا هوالوجود كله عند (لافوازيه) وهناك حللوا هذه المادّة فوجدوا أن العناصر الأربعة مركبات من عناصر ألطف منها ، فالماء من الاكسوجين والاودروجين والهواء من الاكسوجين والاوزوت ومعه بخار الماء والفحم وهوالكربون ومواد أخرى ، وقد عرفوا من العناصر فوق الثمانين ولها جداول عجيبة تبين المناسبات بينها كما ستراه فى (سورة العنكبوت) فهذه العناصر وان أبطلت النظرية القديمة لم تحل بها المشكلة ، فاذا قلنا ان الكواكب مركبة من عناصر كما يتركب حيواننا ونباتنا وماؤنا وأرضنا وأن هذه الكواكب وهذه الأرض ستنحل وتذهب مركباتها وتتفرّق وأن ذلك معروف من أضواء تلك الكواكب فانهم حللوها بالمنظار فوجدوا فى كل كوكب أضواء مختلفة كالنحاس والحديد والرصاص الخ أى انهم وجدوا هذه الكواكب مركبات من عناصر هى نفس العناصر الأرضية والشمسية لأن أشعة تلك الأضواء تشبه أشعة المعادن المختلفة المذكورة وبحثوا بحثا طويلا فى معاملهم . أقول إن هذا أيضا لم يحل المشكلة لأن هذه العناصر التى تنحل اليها الكواكب لاتفنى كما هو رأى (لافوازيه)

﴿ الرأى الحديث الموافق لقوله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ ﴾

(رأى العلامة جوستاف لوبون)

اطلع العلماء اليوم على مادّة اسمها (الراديوم) فهذا الراديوم له ضوء غريب عجيب جدا . ذلك أن أشعته لها مزايا لاتوجد فى غيرها بها تنحل أجزاء العنصر أى ينقص وزنه فهذا أدهش العلماء كيف يكون هذا الشعاع سببا فى نقص الوزن فأخذوا يعللون ذلك بعلل لم تصب كبد الحقيقة وذهبت أدراج الرياح ، ولكن (جوستاف لوبون) قال مايأتى ﴿ إن جميع العناصر تقبل هذا الانحلال ولكن الراديوم أقواها وأسرعها انحلالا مع علمنا أن جزأ واحدا من ألف جزء من الجرام فى الراديوم الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع الملايين وملايين الملايين من تلك الذرات حتى يصبح معدوما تماما أى ان الراديوم المذكور يصير قوّة لا مادّة ومثله العنبر وان كان أبطأ انحلالا عن الراديوم وهكذا سائر العناصر قابلة لهذا الانحلال لكنها أبطأ وأبطأ ثم قال وهذا الانحلال البطىء يكون بخروج أجزاء ضوئية سرعتها فى الثانية الواحدة (٢٠٠ر٠٠٠) مائتاألف كيلومتر . وقرر العلماء الذين وافقوا (لوبون) انهم لواستطاعوا أن يحللوا جراما واحدا من الحديد فى ثانية واحدة أى لوقدروا أن يعدموه كما يعدم الراديوم ويحوّلوه الى قوّة لاوزن له لأفادونا قوّة من هذا التحوّل تعادل قوّة تجرّ قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات فان القوّة التى يتحوّل اليها ذلك الجرام تساوى

قوة (٦٨٠٠) ألف ألف حصان ﴾ ومعنى هذا أن المادة التى نراها والعناصر التى تركب منها كل نبات وحيوان وانسان تنعدم كلها ، وماهذه العناصر إلاقوى مخزونة متراكة مجتمعة سميناها مادة وماهى إلاحالة من حالات عالم يسمى الأثير ، فالأثير الذى لا وزن له ولالون ولايرى ولايعرف إلا بالعقل والاستنتاج هوالوجود كله ، فاذا رأينا كهرباء أوضوأ أونورا أوحرارة ومغناطيسا قلنا هذه كلها قوى يتحوّل بعضها الى بعض وهى فى المعنى شئ واحد هو الأثير المالئ للفضاء فى جميع هذا الفراغ فاليه يرجع كل شئ بل هو كل شئ ، وماهذه العناصر الأرضية والسماوية بالنسبة للأثير إلا كالماء قد صار ثلجا أوالبخار صار ماء ، فاذن أنا وأنت وأرضنا وسماؤنا وعناصرنا كلها عبارة عن قوى أشبه بقوى الكهرباء والنور تجمدت وتكاثفت وهانحن أولاء نراها تنحل فى الراديوم مثلا . إذن هذا الوجود الذى نعيش فيه والذى نسميه مادة منوّعة الى عناصر والى كواكب وشموس ماهو إلا قوى متجمدة متكاثفة كتكاثف البخار فيعود ماء فالبخار اذا صار ماء أمكن رجوعه الى بخار ثانيا هكذا المادّة . فاذن لامادة ، واذن فهمنا قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ

﴿ حظ هذا التفسير ﴾

أفلاترى أن هذا التفسير حظه عظيم ، انظر الى التوفيق ، انظر كيف أمكن انطباق الآية فى آخر السورة على آخر كشف حديث وكيف كانت هذه الآية توافق نفس العلم الذى به ارتقت أوروبا وقهرت المسلمين به ، اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، بل انظر فوق ذلك الى ماستراه فى (سورة العنكبوت) أنا الساعة أكتب هذا صبح يوم الأربعاء وهو ٢٤ نوفبر سنة ١٩٢٦ وذلك أثناء طبع هذا التفسير بعد أن تمّ تأليفه وقد كنت كتبت فى (سورة العنكبوت) فى العام الماضى مايناسب هذا المقام ولم أكن لأعلم ولم يخطر لى أن آخر الشعراء هو عين أوّل العنكبوت ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لم يكن ليخطر لى أن قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ هو عين مادوّنته فى (سورة العنكبوت) من أن ــ الم ــ فى أوّل السورة هى عبارة عن حروف مفرّقة وهذه الحروف المفرّقة تفتح باب العناصر وأن المركبات السماوية والأرضية ترجع الى عناصرها كما ترجع الكلمات والخطب والقصائد الى الحروف الأبجدية وأن الأمم الاسلامية يجب عليها أن تنظر فى التحليل والتركيب لأن العالم الذى نعيش فيه لانعقله إلا بتحليله كما ان القراءة لاتتم إلا بمعرفة حروف الهجاء التى تتركب منها الكلمات وهناك فى السورة جدول للعناصر والصلة بينها . إذن سورة العنكبوت أصبحت موضحة لسورة الشعراء من بعض الوجوه واتصل آخر الثانية بأول الأولى

﴿ ظهور هذه الوحدة فى النبات والحيوان ﴾

(الذرة والخروع)

إن الذرة كما تقدّم فى (سورة الفاتحة) يكون فيها أعضاء الذكور فى أعلى عودها والأنثى فى وسط العود والخروع يكون ذكره أسفل والأنثى أعلى ولكنها عند الالقاح تنزل الأنثى فتكون أسفل من الذكر فيقع اللقح عليها ثم تكون الثمرة فيهما ثم يعدم الذكران والاناث ، وهذه الحال حاصلة فى كل نبات ، والنخل وان امتاز ذكره عن أنثاه هكذا حالة الذكر والأنثى متعاونان ثم يذهبان ، وكل حيوان وكل انسان أشبه بعود الذرة وعود الخروع فانك ترى شجرة الخروع وتقول هى واحدة وترى النباتة من الذرة فتقول هى واحدة ومع ذلك ترى فى هذه الوحدة ذكرا وترى أنثى فهما ممتازان ، فهنا وحدة تنوّعت ، هكذا النخل وحدة تنوّعت وهكذا الانسان والحيوان ، فالرجل والمرأة فيهما معنى الوحدة التى رأيناها فى الذرة والخروع وهذه الوحدة تذكرنا بالوحدة العامّة فى الوجود فهو كله يرجع للأثير والأثير شئ لاوزن له ، فالمظاهر كلها ذاهبة ، هذا كله معنى قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ والحمد لله رب العالمين

ايضاح

﴿ ايضاح لهذا المقام بأوسع مما تقدم وذلك تذكرة فى قوله تعالى - كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون - وقوله تعالى فى سورة أخرى - كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام - ﴾

إنّ هاتين الآيتين من واد واحد ، فقوله - هالك - وقوله - فان - كلاهما اسم فاعل وهو حقيقة فى الحال ، وكثيرا ماكنت أسمع بعض أساتذتى يقولون ذلك وأن الموجود على الحقيقة هو الله ولاموجود سواه الآن ، ولما كانت العقول اليوم فى الأمم لاتعرف إلا الحقائق أخذت أبحث فى هذا الموضوع فوجدته يرجع الى ﴿ مسألتين اثنتين * المسألة الأولى ﴾ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ﴿ المسألة الثانية ﴾ هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ؟

أما المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ، فاعلم أيها الذكى أن نفس المادة من سموات وأرضين ومابينهما قد صعب على العلماء اثباته وحاروا فى تحقيقه ، و بيانه أن القدماء من علماء الفلسفة قالوا إن هذه المادة مفرّقة على حواسنا ، فهذه الأضواء والحركات والسكنات والألوان والقرب والبعد اختص بها البصر ، وهذه المسموعات من صوت الانسان والحيوان والجماد اختصت بهاحاسة الشم ، وهذا الثقل وهذه الخفة وهذه الحرارة وهذه البرودة اختصت بها حاسة اللمس ، وهذه الحلاوة وهذه الملوحة والمرارة وما أشبهها اختصت بها حاسة الذوق

اننا لما فكرنا فى هذا الوجود لم نعرف منه إلا هذه الصفات وهذه الصفات شئ والمادة شئ آخر ، أما المادة فاننا لم نعرف لها برهانا ولابرهان على وجودها إلا هذه الأوصاف فهذه المحسوسات ماهى إلا أعراض وأخيرا حكموا بأن المادة وجودها ضعيف

هذا مايقوله قدماء الفلاسفة وهذه المحسوسات هى التى عرفوها فى (علم المقولات) وهى كلمات عشر تشمل جميع هذا الوجود والذى ذكرته لك منها هنا ملخص كلة منها وهى (الكيف) والكيف عندهم يرجع الى كيف محسوس والى كيف معقول والذى ذكرته هو الكيفيات المحسوسة التى استنتجوا منها ضعف أدلة وجود المادة . هذا آخر آراء القدماء فى المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا

﴿ آراء المحدثين ﴾

أما آراء علماء العصر الحاضر فانهم وافقوا القدماء ولكن على منهج غير منهجهم قالوا إن الذى نعرفه من هذه العوالم أمامنا انما هو الأثير والأثير شئ تصوّرناه ولم نره وهذا الأثير فيه حركات كثيرة وتلك الحركات تتنوّع فمنها حركات تصير كهرباء . ومنها حركات تصير نورا ، ومنها حركات تصير حرارة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان هذه المذكورات من النور والحرارة والكهرباء ماهى إلا حركات ظهرت بمظاهر مختلفة أى انها شئ واحد اختلفت مظاهره بحسب استعداد قوانا نحن الأحياء على الأرض . فأما ما نراه من جماد ونبات وحيوان وانسان وجبل وحجر فما هو إلا نفس هذه الحركات حصل لها ماحصل للحركات التى صارت نورا وكهرباء وحرارة غاية الأمر أن الحركات التى صارت نورا قليلة بالنسبة للحركات التى صارت قمحا أوقطنا أوذهبا أوفضة فان الحركات التى سميناها نورا تعدّ بملايين الملايين فقط فيقال إن حركات النور فى الثانية الواحدة من حوالى (٤٠٠) مليون مليون الى حوالى (٧٠٠) مليون مليون . فأما الحركات التى تكون حجرا أوشجرا أوماء فانها تعدّ بأكثر من هذا فيقال مثلا انها ستة آلاف مليون مليون فبدل أن كنا نقول إن الحركات فى النور تعدّ بمئات الملايين صرنا نقول إن الحركات التى صارت مادة تعدّ بآلاف الملايين . إذن الموجودات كلها ترجع الى حركات وكلما كانت الحركات أقل كان الموجود ألطف وكلما كانت الحركات أكثر كان الموجود أكثف . ولعمرى ان هذا يخالف ماهو معروف فى بادئ الرأى . ألاترى رعاك الله أن النور سريع الحركات وأن الحجر والشجر معدومة الحركات . فانظر كيف انقلب الوضع وأصبح ماكان يظهر لنا انه كثير الحركات قليل الحركات

وما كان قليل الحركات قد كثرت حركاته

فياعجبا من وجودنا فى هذه الأرض ، الأوضاع مقلوبة والأحوال معكوسة والعلم يظهرلنا الحقائق على غيرمانعهد . سبحانك اللهم حكمت علينا أن نعيش فى عالم مقلوب الوضع معكوس الحال ، نرى الشمس جارية حول الأرض فيقول العلم . كلا . الأرض جارية حول الشمس . ونرى أن المال والولد والدنيا كل ذلك سعادة فيقول لنا العلم والدين . كلا . فالسعادة غير هذا . ونرى بحسب نظرنا أن الانسان متى مات فلاوجود له ويقول العلم والدين . كلا . بل هوحى . إن هذه الحياة مقلوبة الوضع معكوسة الحال ترينا الكبيرصغيرا والصغيركبيرا والعظيم حقيرا والحقيرعظيما

فهاك برهانا على مانحن بصدده من أن المادة كلها ترجع لحركات أذكرك بما تقدم فى (سورة النور) عند قوله تعالى ـ الله نورالسموات والأرض ـ فأذكرك بقطرة الماء المذكورة هناك وانها رجعت الى جزئيات ضعيفة وتلك الجزئيات يبلغ عددها نحوعدد نجوم السماء ثم هى مع هذا كله لاتملأ فراغ هذه القطرة بل تملأ جزأ من مئات الآلاف من الفراغ المذكور ثم هذه الجزئيات مع صغر مقدارها بالنسبة للفراغ الذى تشغله القطرة ظهرانها ترجع الى كهرباء سالبة والى كهرباء موجبة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ نقطة ضوء تجرى حول نقطة أخرى ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة وباختلاف مقادير هذه السرعة فى الجرى اختلفت المادة بحسب مانراه فقلنا هذا اكسوجين وهذا ادروجين وهذا ذهب وهذا فضة الخ والحقيقة أن هذا كله أمر واحد هونورأوكهرباء لاغير وباختلاف الحركات ظهرت المواد المختلفة . أما أنا فانى أحمد الله عزوجل . أحمدك يا الله على انك وفقتنى لتلخيص هذا الموضوع وشرحت صدرى لتبيانه فيعرف الأذكياء فى أمم الاسلام وغيرهم أن العلم الذى وصل الى عقول أمم الأرض الآن أظهر أن الموجود انما هوحركات والحركات ضوء أو كهرباء أوحرارة أوذهب أوفحم أوحديد لا أقل ولا أكثر . فالحقيقة شئ والظواهر شئ آخر

واعلم ايها الذكى أن كثيرا من الناس حينما يقرؤن هذا يهجس فى نفوسهم خواطرتزعجهم فيقولون ﴿ اذا كان الموجود ماهو إلا حركات اختلفت مظاهرها فكيف يكون عندنا جنة ونار وحساب وعقاب ودنيا وآخرة إذن هذا كله لاوجود له ﴾ وهذا قول من لاتحصيل عنده . فاننا اذا عرفنا حقيقة هذه الدنيا على حسب ما وصلت اليه عقولنا فليس معناه أن هذه الموجودات والمظاهرلاعمل لها . كلا . فان فائدة هذه المباحث فى مثل هذا المقام أن تظهرلنا الحقائق فأماتعطيل قوانا وملكاتنا وأعمالنا فهذا ضرب من الجهل . إن هذه الحقائق تثيرعقولنا وتفهمنا أن هذه العقول أمرها عظيم وانها قادرة أن تحيط علما بالمادة علويها وسفليها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انها أكبر من الشموس والأقمار والكواكب الثابتة والسيارة لأنها تحكم عليها وتتصورها وتتخيلها وترجعها كلها الى أمر واحد . إذن هذه العقول نور أكبرمن النور الذى خلقت منه المادة بدليل أن هذه العقول حكمت على جميع العوالم فقالت انها نور والنور يرجع الى حركات والحاكم أفضل من المحكوم عليه ، فنفس هذا المبحث يرينا عظمة نفوسنا وشرفها وانها تكبر وتعظم أن تخضع لهذه المظاهر بل مقامها الأسنى أن تعيش فى ملأ أعلى ومقام أشرف ـ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ

﴿ آراء أفلاطون ﴾

ولاجرم أن هذه الآراء قد عرفها اجمالا أفلاطون إذ يقول ﴿ إن هذه المادة لا ثبات لها ومالاثبات له فلاثقة به ومالاثقة به لايصح مناطا للعلم بل العلم مبنى على أمورثابتة ﴾ وما هى هذه الامور الثابتة ؟ هى التى سماها هو « المثل الأفلاطونية » التى أوضحتها فى غيرهذا المكان ، وما هذه المثل الأفلاطونية إلا العوالم العقلية التى تعلوعن المادة ، وكم ورد عليه من اعتراض ، وكم أجيب عنه ، وسترى هذا المبحث فى (سورة القتال) إن شاء الله تعالى فى رسالة ﴿ مرآة الفلسفة ﴾ التى ظهرفيها هذا الوجود أوضح مماقاله أفلاطون ولايرد علينا

ما

ماورد عليه من الاعتراض ذلك لظهور الحقائق فى زماننا والله واسع عليم

سبحانك اللهم و بحمدك ، علمت الأولين وعلمت الآخرين وجعلت العلم كله يرجع الى أمر واحد وألهمت (افلاطون) قبل الميلاد ماعلمته لعلماء العصر الحاضر ، إنك رحيم بعبادك معلم الأولين والآخرين ، ومن عجب أن علماء الهند قديما يقولون كما رأيته فى كتاب ﴿ راجا يوقا ﴾ المترجم الى الانجليزية من الهندية ﴿ إن المادة أصلها عقل بدليل انها ترجع اليه ﴾ ألا ترى أن الغـذاء فينا يرجع الى قوة فكرية ، فمن المادة العضلات والأعضاء ومنها نفس العقل إذن رجعت الى أصلها وهذا رأى عجيب وهذا الرأى يقول به (استوارت سميث) فانه يقول ﴿ ان المادة ماهى إلا عقل تكاثف ﴾ وهذه العبارة منقولة عنه فى نفس ذلك الكتاب . انتهى الكلام على المسألة الأولى وملخصها

(١) ان القدماء يقولون ﴿ إن الكيفيات المحسوسة البالغة ٣٦ كيفية مفرقة على حواسنا وحواسنا لم تدرك المادة وانما أدركت هذه الكيفيات لاغير ﴾ إذن وجود المادة ضعيف

(٢) علماء العصر الحاضر يقولون ﴿ إن العوالم كلها ترجع الى حركات فلافرق بين الضوء و بين الحجر كلاهما حركات والحركات أضواء والأضواء باختلاف حركاتها تصير محسوسة لنا فان كثرت الحركات كانت مواد صلبة وان قلت كانت سائلة وان زادت قلتها كانت ضوأ أوكهر باء الخ

(٣) أفلاطون من علماء اليونان يقول ﴿ إن المادة لاثبات لها ومالاثبات له لايصح أن يكون مناط العلم بل لايصح أن يسمى موجودا فالموجود الحقيق هو العالم العقلى المسمى المثل الأفلاطونية ﴾

(٤) يقول القدماء من علماء الهند ﴿ إن المادة أصلها فكر بدليل انها تعود الى فكر ﴾ ويقرب منها رأى (ستوارت سميث) ومن قرأ آراء (اينشتين الألمانى) لايجدها تعدو ماكتبناه هنا فهو يقول هذا القول بعينه غاية الأمر انه أوضحها وأطال فيها وأعلن عنها . فهذا العالم الألمانى أعلن أيام الحرب الكبرى هـذه المسألة وقال ﴿ إن هذا الكون ساكن لاوجود لشئ فيه وماهى إلا حركات ظهرت لحواسنا مختلفة المظاهر ﴾ وهذا الرأى قد تقدم فى هذا التفسير فارجع اليه إن شئت

وهـذا هو نهاية الكلام على المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا تفصيلا واجمالا وأحمد الله على التوفيق ونعمة العلم ونعمة الايضاح والحمد لله رب العالمين

﴿ المسألة الثانية هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ﴾

اعلم أيها الذكى أن المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى تحقيق هذا الوجود وانه راجع للحركات لاغير ولكن هذه الحركات مظاهر وهـذه المظاهر لها قيمتها العظيمة فحياتنا كلها وأعمالنا ودنيانا وآخرتنا ترجع أكثرها الى هذه المظاهر فليس معرفة أصل الوجود بمغن فتيلا عن نفس هذه الموجودات فما تقع عليه حواسنا له مقام عظيم فى العلم فلاينبغى لنا أن نفعل مايفعله كثير من جهلة الصوفية الذين يقولون ﴿ اذا لم يكن فى الوجود إلا الله فالعلم يكون جهلا والبحث جنونا ﴾ وهـذا يرجع بالانسانية الى الكسل والجهل والعجز ويقول ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل الخ » إذن لهذه المادة التى هى مظهر من مظاهر الحركات والأنوار مقام عظيم وعليها مدار المباحث وهى السبيل الموصل الى ما وراءها وحينئذ نقول هل هذه المادة التى ظهرت أمام حواسنا يوما ما ستفنى بحسب مايظهر لحواسنا ، وهنا ظهر فى الدنيا ﴿ رأيان اثنان * الرأى الأول ﴾ وهو القديم « لاشئ يزيد على المادة ولاشئ ينقص منها » وهذا رأى (لافوازيه) وهو يعتبر اليوم الرأى القديم . ومعنى هذا أنك اذا أحرقت خشبة أمامك ثم جمعت مابقى من رمادها وماطار فى الجو من دخانها و بخارها كان مساو يا فى وزنه لوزن الخشبة . وعليه يكون الماء والهواء ونحوهما لاتفنى فالماء يدخل النبات ويخزن فيه ثم يتحلل هذا النبات والماء الذى كان فيه لابد أن يرجع بخارا كرة أخرى

ولايفنى وهكذا الهواء ونحوه . إذن المادة تتحلل وتتركب وكأنما هى حروف الطبع توضع فى الصندوق وترتب وتنظم ويطبع بها الكتاب ثم تفرّق كرة أخرى وهكذا فالحروف واحدة معلومة محدودة فى المطبعة والكتب المطبوعة بها تعدّ بالمئات والآلاف هكذا هذه العوالم بحسب النظر الظاهر والمشاهدة فى هذه الحياة

﴿ الرأى الحديث « لاشئ يزيد على المادة ولكن كل شئ صائر الى الزوال » ﴾

لعلك حين تسمع هـذا القول تقول ان المسألة الأولى والمسألة الثانية اللتين ذكرتهما مرجعهما واحد فان المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى أن العوالم كلها ترجع الى الحركات والحركات الى الأثير ، وهـذا الرأى القائل ان المادة صائرة الى الزوال معناه يرجع لهذا ، فرجع الأمر الى أن هذه المادة تتحات وتتجزأ وتصير فى آخر أمرها الى القوّة والقوّة ترجع الى الأثير فقلت . كلا . ليست المسألتان واحدة وايضاحه بضرب المثل أن أقول انظر حباك الله العلم وألهمك التوفيق وشرح صدرك للحكمة وأنالك الكمال الى رجل أصيب بمرض عصبى وهذا المرض جعله يرى أشباحا مزعجة وأشخاصا يظهرون له فيؤذونه ويسمعونه ما يكرهه ولايزالون يوالون الظهور له وهو يستغيث ولامغيث ويسأل ولامجيب وهو فى الحقيقة ماظهر له إلا ما خيلته له نفسه من الصور المخيفة التى ظهرت له كأنها حقيقة فلاتزال تلك الصور تظهر له وقتا فوقتا حتى يوارى فى ثرى رمسه بسبب ظهور تلك الأشباح المزعجة والتاريخ القديم والحديث قصّ علينا قصص هؤلاء العصبيين الذين اوردهـم مرضهم موارد الحتف وأقلقتهم تلك الصور وأمضت مضاجعهم وهيأتهم للموت ومفارقة الحياة ، لست فى هذا التمثيل أتخيله تخيلا بل هو حقيقة عرفها علماء الطب وعلماء الأخلاق ، هذا المريض بذلك المرض العصبى يرى تلك الأشباح ، لماذا ؟ لأنه مستعدّ لذلك فاستعداده هيأ له تلك الأشباح والمظاهر وهذه حقيقة عنده لاتقبل الشك ولذلك تمنع عنه النوم والأكل والشرب واللذات ثم يرد أحواض المنايا ليخلص من هذا العذاب المهين ، فبينما هو كذلك اذا الناس حوله يصفونه بأوصاف الجنون والتخبط والطبيب يقول إن أعصابه فيها مرض هيأ له ظهور هذه الصور فهنا ﴿ رأيان ﴾ رأى الجمهور الذى سلمت قواه العقلية من الخطل فهو يقول لاصور ولاأشباح ، ورأى المريض الذى أصيب بهـذا الخطل والخبل فهو يقول بوجود صور وأشباح والجمهور تكون نتيجة معارفه انه لايفزع لأشباح ولايخاف من عفاريت وهذا العصبى يتأثر فيموت

اذا عرفت هذا المثل فاعلم انه منطبق على المسألتين السابقتين . فمامثل الناس فى الأرض إلا كمثل هذا هذا العصبى المريض . ومامثل العوالم الروحية التى خلصت من المادة إلا كمثل العقلاء الذين فى الارض حول هذا العصبى . ومامثل الصور والأشباح التى تظهر له إلا كمثل هذه المادة الظاهرة لنا فى الأرض الآن . فاذا قال العصبى هنا صور وأشباح وقد صدق فعلا وما كذب وقال الناس حوله لاصور ولاأشباح وقد صدقوا وما كذبوا فهكذا نحن الآن فى الأرض نقول هنا موت وحياة وسماء وأرض وجماد وحيوان ونبات وقد صـدقنا وهناك عوالم أخرى روحية لاترى إلا أنوارا وحركات وقد صـدقوا فنحن صادقون فى اعتبار هـذه العوالم موجودة وصادقون فى قولنا باعتبار آخر انها غير موجودة . ومن الجهل أن نخلط أحد المقامين بالآخر ثم إن هـذا المريض العصبى اذا بقى على حاله مريضا واتفق أن الصور والأشباح لم تعـد تظهر له فهذه حال أخرى نظيرها مانقوله فى المادة نحن فاننا نقول ان المادة آيلة للزوال ونحن على حالنا الحاضرة أى اننا بالعلم عرفنا أن هذه المادة ونحن فى حالنا الحاضرة تأخذ فى الزوال وترجع الى قوّة والقوّة ترجع الى عالم الأثير . إذن هنا فرق بين المسألة الأولى والمسألة الثانية ، المسألة الأولى فيها أن هذه العوالم لاحقيقة لها بل ترجع الى الأثير أى فى التحقيق العلمى وهـذا كالمثال الأوّل للمريض بالمرض العصبى ، والمسألة الثانية ترجع الى أن المادة ونحن على حالنا صائرة الى الزوال كما ان العصبى وهو مريض زالت الأشباح وماعادت تظهر له

هذا هو الفرق بين المسألتين ، فالمسألة الأولى فيها بطلان العوالم فى التحقيق العلمى ، والمسألة الثانية تفيد

ان

أن بطلان المادة يصير عملا واقعا تطبيقا للعلم على العمل ، وعليه نقول ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ و ــ كل من عليها فان ــ اما فى الحال الآن فى التحقيق العلمى واما فى الظواهر وفى مقامنا الانسانى فى الأرض ؛ بل نحن مأمورون ومسوقون الى العمل فى العالم بجد باعتبارانه موجود فعلا وجودا يناسب حالنا ، واما فى المآل بأن يبطل هذا العالم الذى ظهرلنا ويزول من الوجود فعلا كما انه زائل الآن فى النظر العلمى ولايجوز للناس أن يخلطوا أحد المقامين بالآخر فلايقول جهال المسلمين و بعض الذين يدّعون التصوّف ﴿ اذا لم يكن فى الوجود إلا الله فلم النصب والعمل فلنتوكل ولننم ﴾ واذا قال بعض المتفلسفين صغارالعقول من الذين قرؤا قشورالعلوم وجهلوا الحقائق ﴿ ليس عندنا فى الوجود إلا هــذه المحسوسات فعلام النصب والتعب فى تحصيل الحقائق ولا حقائق إلاماتراه فلنعش للذات ﴾ فهؤلاء يقال لهم أنتم مساكين جهلتم علوم الأمم المحيطة بنا وأدّاكم كسلكم الى هذه الفكرة فوقفتم فى أوّل الطريق فأنتم مغرورون ، وهؤلاء يأكلون كما تأكل الأنعام والنارمثوى لهم

ولما اطلع صديقى العالم على هــذا المقال قال لقد أجدت صنعا ولكن هنا ﴿ سؤالان * الأوّل ﴾ انك جعلت النوع الانسانى أشبه بالمريض مرضا عصبيا يرى الأشباح ولا حقيقة لها . إذن هذا الانسان الآن فى حال نقص . فقلت إن الانسان فى هــذه الأرض روحه من عالم النور ووجوده فى أرضنا يعــدله عن مقامه السامى الشريف وهــذا هوالمرموزله بقصة آدم إذ عصى وأكل من الشجرة وهذا هوالمرموزله بالذنب ، ألم تر الى قوله تعالى ــ واستغفرلذنبك ــ ألم تر الى المسلم يقول فى كل صلاة فى الجلوس بين السجدتين ﴿ ربّ اغفرلى وارحمنى الخ ﴾ إن المسلم يطلب المغفرة دائما أذنب أولم يذنب ، ولامعنى لطلب المغفرة لغيرذنب . إذن هناك ذنب عام لنوع الانسان وهوتجسده فى هذه المادة والذنب هنا ليس بالمعنى المتعارف بل بمعنى آخر كالنقص أوالاحتجاب عن مقام الكمال أوالبعــد عن عالم الأرواح والصفاء والنور ولهــذا المعنى تفسركثير من الآيات كقوله تعالى ــ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ــ ولاذنب لنبينا ﷺ متقدما أومتأخرا من الذنوب المعروفة . كلا . وانما الذنب هنا بمعنى الوجود فى هــذه المادة الجسمية التى هى أشبه بسجن يسجن فيه الناس ولكنهم بالعبادة والعلم والعــمل يتخلصون من ذلك السجن ، فالذنب هنا يرجع الى معنى يقرب من هذا ، ولاجرم أن هذا المعنى ملازم لكل حىّ فى الأرض . إذن نبينا ﷺ أشبه بمن دخل السجن لا ليسجن ولكن دخله ليخلص المسجونين ولكنه فى أثناء بقائه فى السجن قد حجز وأبعد عن مقرّه العالى الشريف فلامانع أن يسمى هــذا ذنبا مجازا . وهذا هوالسر فى طلب الاستغفار . هذا هو السؤال الأوّل

فقال أما ﴿ السؤال الثانى ﴾ فانى أقول انك لم تبين لنا ايضاح المسألة الثانية وهى أن الكون صائر للزوال ومن الذى قال بهذا الرأى وما برهانه ؟ فقلت ان هذا الرأى رأى الدكتور (جوستاف لو بون) العالم الفيلسوف الفرنسى فان الناس يقولون ﴿ إن علم الطبيعة أساسه الجوهر الفرد ﴾ ولكنه هو يقول ﴿ إن المادة تنحل فعلا ﴾ وجعــل المادة أشبه بالنبات والحيوان والانسان ، فــكل نبات وكل حيوان تنحل وترجع الى المواد الأصلية والعناصر المعلومة ، فهكذا المادة تكون على الحال الأثيرية ثم تصير كواكب وأرضين ثم تنحل وترجع الى عالم الأثير فهى كحيوان أوكنبات ، وقد قرّظ علماء أوروبا كتابه الذى شرح فيه هذه الآراء وسماه « نشوء المادة » أحسن تقريظ ثم قالوا انه أعظم كتاب علمى ظهر بعد كتاب « أصل الأنواع » لدارون وملخص كلامه أن الرأى القديم القائل ان الكون مركب من مادة قابلة للوزن ومن قوّة تحرّك المادة ولاتقبل الوزن أيضا وتكون كهرباء وحرارة ونورا الخ ومن أمر لطيف يسمى أثيرا غير قابل للوزن أيضا تسبح فيه الجواهر الفردة وهذه العوالم الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر فهو يقول إن هذا الرأى القديم خطأ وان هذه العوالم الثلاثة لافواصل بينها . فالمادة تتحوّل الى قوّة والقوّة تتحوّل الى أثير . يقول (جوستاف لو بون) لاثبات

هذه المسألة ﴿ إن الراديوم وما أشبهه يذهب هباء منثورا ويزول من الوجود بارسال ذرات صغيرة منه ذات سرعة عظيمة ﴾ و يقول إن جزأ من ألف من جرام (الراديوم) الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع ملايين الملايين من تلك الذرات الى أن تتحوّل مادّته الى قوّة أخيرا فعلا . إن جميع المادة لافرق بينها و بين الراديوم غاية الأمر أن الراديوم أسرع انحلالا وانحلال الراديوم يكون بارسال ذرات صغيرة منه بسرعة تقرب من سرعة النور أى (٢٠٠ر٠٠٠) كيلومتر فى الثانية وقد قاسوا تلك القوى التى تضيع فى أثناء انحلال المادة فوجدوها أشدّ القوى فى هذا العالم وقد قالوا انهم لوقدروا أن يحولوا جراما من الحديد بحيث يعدم فى ثانية واحدة لتحوّل هذا الجرام الى قوّة تعادل قوّة (٦) آلاف مليون و(٨٠٠) مليون حصان وهذا المقدار كاف أن يجرّ قطارا حديديا حول الأرض (٤) مرات ومن هذه القوّة الكامنة فى المادة النور والكهرباء والحرارة والجاذبية ، فهذه يتحوّل بعضها الى بعض لأن أصلها واحد وما الكهرباء إلا نتيجة انحلال المادة وهكذا ضوء الشمس فهو ناتج من انحلال مستمر فى عناصر وهكذا

فهذا هو الرأى الجديد لجوستاف لو بون القائل إن العالم المادى مصيره الزوال ككل حيوان وكل انسان وهذا هو تفسير الآية . يقول الله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ إذن أصبح الرأى الجديد هو المفسر لهذه الآية ، فكل شئ هالك إلا وجهه فلا فرق بين النحلة والنملة و بين نفس المادة العامّة فكل منها له عمر محدود ثم ينعدم ، فاذا رجع الحيوان والنبات الى المادّة الأرضية والهوائية رجعت المادة جميعها الى عالم الأثير وعالم الأثير عالم إلهى لاندرى سرّه ـ وأن الى ربك المنتهى ـ

وماعالم الأثير إلا كعالم الخيال الذى نحسه فى نفوسنا فان الانسان متى أغمض عينيه وهو مستيقظ أخذ يجول فى عوالم لانهاية لها يشاهدها بحاسة باطنية ثم ان الصور التى تبرزها فى الخارج لا نصنعها إلا بعد أن نتصوّرها فى خيالنا كما أن المادة الخارجية لاتظهر إلا من الأثير فعالم الأثير عالم مجهول لايقربه لنا إلا هذا الخيال الذى نتخيله ولانراه

فلتنظر أمة الاسلام بعدنا وليتأملوا هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا ؟ ألسنا بهذا نعرف قوله تعالى ـ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب ـ فالعلماء فى الأمم بعدنا هم الذين يفهمون أسرار النبوّة و يعقلون معنى ـ كل شئ هالك إلا وجهه ـ ومعنى ـ وقال الذين أوتوا العلم و يلكم ثواب الله خير ـ الخ

وهذا وأمثاله هو السبب فى أن القرآن يذكر فى الامور العظيمة العلم وأولى العلم و يقول الله ـ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ إذن دين الاسلام فى المستقبل لايحمله إلا أمم ارتقت بالعلم ودرست مناهل كل فن ، فو يل بعدنا للمسلمين الجاهلين ، وو يل ثم و يل لمن قرأ هذا التفسير ولم يكن نبراسا ونورا مشرقا للمسلمين فأعرض وتولى عنهم مع قدرته ولم يكن مصلحا لعقول المؤمنين . انتهى ماأردته فى تفسير هذه الآية عند الطبع يوم الاثنين أوّل يوليو سنة ١٩٢٩ م

﴿ جوهرتان ﴾

(الأولى) فى بعض سر ـ طسم ـ

(الثانية) فى الصلة بين السورتين

﴿ الجوهرة الأولى فى سر ـ طسم ـ أى الطاء والسين والميم فى أوّل سورة القصص ﴾

فى ليلة الخميس ١٨ يوليو سنة ١٩٢٩ خطر لى وأنا ذاهب الى المنزل هذه المعانى فى سر ـ طسم ـ فى أوّل هذه السورة . لقد جاء فى أوّل السور المتقدّمة أن هذه الحروف قد خصت لتذكر المسلمين اليوم بأهمّ ماينقصهم من الكمال فى هذه الحياة وغيرها وهذه السورة طبعا بدئت بما يشير لذلك فيها . إن هذه السورة مبدوءة

بقصص فرعون مختومة بقصص قارون ، ولاجرم أن فرعون استضعف طائفة من الناس واستحيا نساءهم لأنه مفسد . ثم ان هـذه الطائفة منّ الله عليها وفازت ، إذن أهـم مافى هذه السورة أن الطوائف الضعيفة المستعبدة يوما ما تنصر على أعدائها ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ ومثل ذلك أمر قارون فانه أعطى المال ففرح وأفسد ثم ذهب هو وماله وكان الذين أوتوا العلم أرشد ممن أوتى المال . هذا ملخص مافى السورة طوائف ذليلة ، سياسة ، أومالا يكون مآلهم الفوز ، فالسياسة فى أوّل السورة فى قصص فرعون وموسى والمال فى آخرها فى قصص قارون ، فلما كانت هذه المعانى هى أهم مايقصد فى زماننا لرقىّ المسلمين كان مافتح الله به فى هذه الليلة مناسبا لذلك ، ألم تره أشار بالطاء لطائفة و بالسين لذلها واستعبادها وهذه السين مذكورة فى ـ يستضعف ـ و ـ يستحيي ـ وفى ـ المفسدين ـ فالسين فى الكلمتين الأوليين مذكورة مع الاذلال وفى الآخرة لتوجيه الفكر الى صفة الظالمين وهوالافساد ، ولما كانت هذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها كثر ذكر الميم فى هذه المعانى إذ قال ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم ـ الخ فالميم فى ـ طسم ـ تشير الى جعلهم أئمة لأن الميم جاءت فى الكلمتين وفى جعلهم الوارثين وفى تمكينهم فى الأرض . إذن ـ طسم ـ فى هـذه السورة فيها ملخص السورة ، ولعلّ قائلا يقول هذه الحروف لم تأت فى أوّل الكلمات غالبا بخلاف كثير من السور السابقة فأقول إن من فهم أسرار حروف أوائل السور فيما تقدّم يسهل عليـه استخراج فحوى هذه السورة من الحروف فى أولها ، إذن من عرف ماتقدّم يعرف الحكمة الإلهية واذن يفقه ماذكرناه هنا سريعا ، لذلك جعل الله هذه الحروف هنا موزعة على آيات كثيرة وليست أكثرها فى أول الكلمات وظهور هذا السرّ الآن فى هذا التفسير يرمى ﴿ لغرضين * الغرض الأول ﴾ هوماتقدّم وهوأن الطوائف الضعيفة لابدمن فوزها وأن الله رؤف بها ، فالطاء للطائفة والسين لذلها والميم لنصرها ، وهذا ملخص السورة كما تقدّم ، فهذا الغرض اليوم يشيرالى رقى المسلمين كأنه يقال لهم أيها المسلمون كل ذليل يعزّ بعد ذله فاقرؤا التاريخ ، فاياكم أن تقنطوا من رحمة الله فسيرجع لكم مجدكم فلستم أول أمة ذلت بعد عزّها ﴿ الغرض الثانى ﴾ أن تحترس الأمم الاسلامية وغير الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها من الغرور بالملك واستضعاف الأمم فاذا قويت أمم اسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاد واذا أذلت أمة فان الله يقتص للمظلوم من الظالم ، وكل هذا تشير له ـ طسم ـ فكأن هذه الحروف مبشرة لكثير من الأمم الأذلاء ومنذرة للأمم الأقوياء وانهم لابد أن الله ينصر الضعفاء يوما ما عليهم فيجب الاحسان للأمم الضعيفة والنصح لهم والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثانية فى الكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت ﴾

اللهم إنا نحمدك على جمال العلم و بهاء الحكمة ، أريتنا يا ألله فى قصة قارون انه غرّه المال والخزائن و ـ قال انما أوتيته على علم عندى ـ وو بخته على انه جهل تصرفك فى الدول واهلاكك للأمم وشهد الذين أوتوا العلم أن هذا ظل زائل وقلت للناس فى غضون ذلك انك لاتحب الفرحين وانك لم تجعل العاقبة إلا للذين لايفسدون فى الأرض ولايريدون العلوّ فيها ثم ختمت السورة بأن هـذه المواد غير موجودة عند التحقيق وانما هذه النفوس الأرضية قد حكم عليها أن يكون نظرها للموجودات نظرا يحبسها فيها و يجعل عقولها مشغولة بهذه المادة وفى الحقيقة لامادة وانما تلك أشياء أقرب الى الخيال منها الى الحقائق ، فناسب أن تكون سورة العنكبوت مبتدأة بمسألة الفتنة وأن هذا النوع الانسانى مبتلى كله كما ابتلى الأنبياء والعلماء وذلك ليجتهد الناس فى أعمالهم و يصل كل منهم الى درجته التى استعدّ لها ، ثم أخذ بعد ذلك يحرض على الجهاد وأن لقاء الله لا يكون إلا بهذا الجهاد . إن هـذا الانسان كله مكبل بقيوده محبوس فى سجنه حكم عليه حكما قاطعا أن يعيش فى ظلمة الطبيعة و يقضى الضرورة الحيوانيـة و يتلبس بالطين و يزاول شهوات البهائم ونزوة السباع وضراوتها

فلست تراه إلا ساعيا جهده لكسرة يأكلها وشهوة يسدّها وغضب يثيره فقواه موزعة وآراؤه مشتتة هذا هو الانسان أوّله وآخره ، وما الدين ولا العلم ولا العمل إلا سعى للخلاص من هذه الطبيعة الطينية .
واعلم أيها الذكى أن هذه المعانى لاتكشف إلا لمن أدرك ماعليه الناس الآن . إن الناس تراهم فى هذه الأرض مجبورين مقهورين على أعمال كلها نصب وتعب وما أرضنا إلا جواهر نارية متكاثفة و باطنها موادّ محرقة وكل نبات وكل حيوان أجسامها قابلة للاحتراق ونحن لاحياة لنا إلا بالحرارة التى هى من طبع النار ، وها نحن أولاء ننتقل من سجن الى سجن فاذا سجنا فى سجن الجوع أو الشبق وهربنا من هذين السجنين بتعاطى الطعام وباجتماع الذكور بالاناث دخلنا فى سجنين آخرين وهما سجن حوز المال وحب الترف وذل المحافظة على ماملكنا ثم الحسد والبخل وما أشبه ذلك ، وسجن الذرية الذين نسعى ونكدّ لتربيتهم وتعليمهم ونحزن لمرضهم وجهلهم فنحن نخرج من سجن الى سجن ومن عذاب الى عذاب ونحن نظنّ اننا سعداء فرحون
ثم إن الأمم كالأفراد فهم متعادون منافقون مخادعون متحاربون ـ لقد خلقنا الانسان فى كبد ـ قتل الانسان ماأكفره ـ إن الانسان لفى خسر ـ وكيف لا يكون فى خسر وهو مشغول بما كفيته الدودة وسعدت به حشرة أبى دقيق ، حشرة أبى دقيق دودها يأكل ورق القطن وتجده موفرا لها فهى به سعيدة ، ومانال الانسان من سعيه مثل مانالت تلك الحشرات الساكنات فى قصور خضراء من ورق القطن فيها ثريات لامعات بهجات هى أزهار القطن ، وهذا الانسان كله أوّله وآخره يسعى ليحصل سعادته فى الدنيا فلم ينل ثم هو يخلو بنفسه و يفكر فى أصل العالم ومنشئه وهذه النجوم والشموس ولماذا خلقنا فى الأرض وهكذا فيعجزه البحث فيرجع طرفه خاسئا وهو حسير
هذه هى مرتبة الانسان ولهذا أمر بالجهاد ليخرج من هذه المآزق وضربت له الأمثال تارة بقصة آدم وآونة بقصة قارون ، فاذا وجدنا قارون افتتن بالمال فذلك ليس خاصا به بل كل الناس بل الذى لامال عنده قد يكون قلبه معلقا به كقارون ، وكم من صعلوك لايملك شروى نقير أعمته الدنيا وأضلته ، وكم من غنىّ زهدها فهما كما قيل

علقتها عرضا وعلقت رجلا * غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

واعلم أن جميع الذنوب التى وردت فى الشرائع السابقة واللاحقة كالزنا والسرقة والقتل ما هى إلا آثار أو نتائج لما كمن فى هذه النفوس من الشهوة والغضب ، فما مثل تلك الصفات فى النفوس إلا كمثل الأقذاء فى العيون ، وما مثل هذه الذنوب إلا كمثل الذباب يقع عليها فلولم تكن فى العيون أقذاء لم يقع الذباب عليها فوقوع الذباب شبه به الذنوب والقذى فى العين شبه به أساس تلك الذنوب ومن أزال الآساس فقد أزال مابنى عليها ولا تزال هذا الآساس إلا بالجدّ والاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة والرجوع الى مبدع العالم
واعلم أيها الذكى أن من عرف ماقلته لك الآن وأدركه حق الادراك عرف أسرارا فى الديانات وحلت له مشاكل كثيرة ﴿ مثال ذلك ﴾ أن المسلم يقول فى الجلوس بين السجدتين ﴿ رب اغفرلى وارحمنى واجبرنى وارفعنى وارزقنى واهدنى وعافنى ﴾ فقول المسلم اغفرلى فى كل ركعة ليس معناها انه قد أذنب فعلا فكم من المسلمين من يقول اغفرلى ولاذنب له وقد كان ﷺ يقولها وقد أجمع العلماء انه معصوم من الذنب فهو ﷺ وكثير من المسلمين لاذنوب لهم فكيف يطلب هؤلاء الطاهرون غفران ذنب لم يقع منهم . إذن طلب الغفران منصب على أساس الذنوب وهى الطبيعة الترابية التى شبهناها بقذى العين الذى هو السبب فى وقوع الذباب عليها . إذن المسلم يطلب غفران الذنب سواء أذنب ذنبا أولم يذنب لأن هذه الطبيعة الطينية معرّضة للذنوب فاذا كان المسلم مذنبا طلب غفران هذه الذنوب الفرعية وان لم يكن مذنبا طلب ازالة أساس الذنب لاغير ، و بهذا نفهم قوله تعالى ـ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفرلك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ـ فالغفران

هنا

هنا منصب على تلك الأساس التى اقتضتها الطبيعة الانسانية فى هذه الأرض

﴿ بيان مايشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة ﴾

واذا أنت أيها الذكى رجعت الى ماتقدم فى آخر (سورة المائدة) وقرأت أن الدين المسيحى ماهو إلاصدى صوت ديانات تقدمت فى مصر والهند والتبت والعراق عند الآشوريين والبابليين وأهل المكسيك القدماء وهكذا ترى بعضه فى (سورة مريم) منقولا عن علماء الألمان الكاشفين لهذا المعنى سنة ١٩٠٣ مما وجدوه على الألواح فى بلاد العراق ، أقول اذا رجعت الى ذلك كله وقرأته وفهمته حق فهمه أيقنت أن الصلب كان أمرا شائعا فى تلك الأمم على سبيل الخرافة وقد نقل الى الدين المسيحى نقلا لاغير وأن هذا الصلب لابن الله البكر ليخلصهم من ذنوبهم بخروجه من هذه المادة وانهم جميعا يغمسون أنفسهم فى الماء (ماء المعمودية) وأيضا قد شاع فى أكثر الديانات وآخرها الاسلام أن آدم عصى وانه هبط من الجنة الى الأرض وهكذا فكل ذلك من واد واحد ، نعم تلك الديانات منسوخة عندنا نحن المسلمين والمنسوخ لاحكم له ، ولكن كلامنا الآن فى شيوع هذه الآراء فى الأمم . ان العقول الانسانية لاتقل فى فطرها عن فطرة الحيوان بل فطرة الانسان أرقى وأرقى ولم نجد فى الحيوان غرائز باطلة بل هى كلها غرائز شريفة أبدعها المبدع الحكيم ، فاذا كان هذا فى الحيوان فكيف إذن بالانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وشرفه فكيف تعم فيه خرافات الصلب وهذا الصلب لابن الله البكر ، وكيف تشيع عادة ماء المعمودية ، أقول إن هذا كله انما شاع فى هذه الديانات وقبلته الفطر الانسانية و بقيت فيها دهورا ودهورا لأن هذا النوع الانسانى كله يحس بأنه موضوع فى طبيعة تبعده عن مقامه العالى وشرفه الرفيع فهو عاص وهو يحتاج الى التطهير من المعصية فماء المعمودية ماهو إلارمز لطهارة النفس بالعلم والعمل والصلب خروج النفس من هذه المادة وارتقاؤها وتنزهها عن شهوات أهل الأرض . كل هذه المعانى مخبوءة فى عقول أهل الأرض فتارة تظهر بهذه الخرافات كالصلب وماء المعمودية وتارة تظهر بهيئة حقائق مثل انها ذنوب ويطلب من الله غفرانها ، ومثل ان أبانا آدم قد عصى وهبط من الجنة . كل ذلك يرجع الى تلك الآساس التى ذكرتها لك ، ولست أقول لك ان كل دين من تلك الأديان كان حقا بل أقول ان هذه خرافات ابتدعها الناس فى الأمم وقبلتها نفوسهم ولكن لماذا قبلت النفوس هذه الخرافات ؟ انما قبلت هذه الخرافات لأنها تعبر عن فطرها

ولما أراد الله انقاذ الانسان من الخرافات وعلم انه استعد لاظهار بعض الحقائق أنزل دين الاسلام وعبر بالمغفرة والذنب . هذا ثم انك اذا سمعت الله يقول فى آخر القصص ـ فلايجزى الذين عملوا السيآت إلا ما كانوا يعملون ـ فان هذا راجع الى الذنوب الفرعية ، واذا سمعته يقول ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا ـ الخ فهذا راجع الى طهارة تلك الآساس وتهذيبها ، واذا سمعته يقول ـ فخرج على قومه فى زينته ـ الخ فذلك لفروع تلك الآساس واذا سمعت ذكر الجهاد والفتنة فى أول العنكبوت فما هو إلا إتمام لما فى آخر القصص وهكذا ذكر الأعمال الصالحة والسيآت والأثقال كل ذلك تكميل لما فى آخر السورة قبلها . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٩ م

(تذييل)

(حكمة ألقاها الله على قلوب بعض عباده من الصوفية وهى ان من ادّعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل وهى من حكم قصة قارون فانها تحدّد الزهد فى الدنيا)

هذه القصة كما ذمّت المال والدنيا حرّضت على عدم نسيانهما بالكلية ، فالقصة أعطتنا طريقا وسطا فلا نكون عالة على الناس ولانكون طماعين جماعين ، ولقد شاع فى أيامنا هذه أن كثيرا من الشيوخ ورجال

الصوفية وجهلة الوعاظ يحقرون أمر الدنيا للناس فيبطل سعى كثير من العامة و يكون نفس أولئك الشيوخ عالة على الأمة يلتمسون منها الهدايا تقرباً اليهم مما هو شائع معروف وهذا إثم وضلال ، فالله ماخلق العقل والقدرة والأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ليعطلها ولكنه فصلها تفصيلا لأعمال تقوم بها فتظهر مواهبها فى الحياة الدنيا والآخرة ولقد رأيت فى كتاب الشيخ الشعرانى المسمى « درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص » مانصه « سألت شيخنا رضى الله عنه عما استندا اليه الزاهد فى الدنيا من الأسماء والحضرات الإلهية فانه لابد لكل شئ فى العالم من استناده الى حقيقة إلهية ونرى الحق تعالى رجح وجود العالم على عدمه فبخلق من تخلق هذا الزاهد ؟ فقال رضى الله عنه الزهد فى الدنيا هو هدى الأولين والآخرين المتبعين للأوامر الإلهية لأن الله تعالى قد عشق الخلق فى الوجود وزينه لهم وجعل ذلك حجابا عليه لايصل أحد الى معرفته تعالى إلا بالاعراض عن زينة الكونين ، فمن زهد فى الدنيا والآخرة فقد تخلص لربه عز وجل ومن زهد فى الدنيا فقد تخلص للآخرة ومن لم يزهد فى الدنيا لم يتخلص بشئ وتعس وانتكس ، فالزاهدون قد تخلقوا بأخلاق الله تعالى فى كون الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر اليها أعنى نظر محبة ورغبة والافهو تعالى ينظر اليها نظر تدبير وامداد ولولا ذلك ماكان لها وجود ، وكذلك الزاهد لاينظر الى الدنيا نظر محبة ورغبة وانما هو نظر تدبير لمعايشه التى لايصح له أن يستغنى عنها فان من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل إذ الغنى بالحق حقيقة لايصح فالاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله عز وجل فما بقى مقصود القوم بالزهد فى الدنيا إلا فراغ القلب وعدم التعمل فى تحصيل مازاد على ضرورات العبد لاغير عكس مرادهم بالرغبة فيها . فقلت له إن بعض الناس يزهد فى الدنيا و يقول انما أزهد فيها توسعة على اخوانى فى الرزق فما حكمه ؟ فقال رضى الله عنه هو زهد معلول . فقلت له فكيف ؟ فقال لأن فى اعتقاده أن الذى تركه قسمه الحق له ثم أعطاه للخلق وهو باطل . فقلت له فما الخلاص فى مقام الزهد ؟ فقال رضى الله عنه الخلاص أن يكون بما ضمنه الحق تعالى أوثق منه مما فى يديه ثم يتصرف فيما فى يده تصرف حكيم عليم إذ هو نائب الحق من حضرة اسميه المعطى والمانع فيمنع بحق و يعطى بحق والله غفور رحيم » انتهى و بهذا تم الكلام على (سورة القصص) والحمد لله رب العالمين

سورة العنكبوت مكية

إلا من أول السورة الى قوله تعالى ـ وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون ـ فمدنية وآياتها ٦٩ ـ نزلت بعد الروم

﴿ وهى قسمان ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ فى تعليم الصبر والجهاد وطاعة الوالدين والمجاهدة فى سبيل الله وفى برهما ومجاهدة الأصحاب وعدم إطاعتهم اذا أرادوا فتنة المؤمن ، ثم قصص الأنبياء من أول السورة الى قوله ـ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى محاجة الكفار وأهل الكتاب واثبات النبوّة من قوله ـ مثل الذين اتخذوا من دون الله ـ الى آخر السورة

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا
لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
* يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا
اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ
وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَإِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ
* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا
ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم) تقدّم الكلام فيه فى سورة آل عمران ، وسيأتى بيان أتمّ لها فى هذه السورة ، فانك سترى قريبا أن ـ الم ـ هنا تشير الى قوله تعالى ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ـ الخ ففيه ـ الم ـ وذلك ليحقق العلماء بالحكمة ، ههنا أخذ الله عزّ وجل يصل هذه السورة بما قبلها ، إن أواخر السورة السابقة كان فى ذكر قارون وأهل العلم والجهلاء وكيف كانت الزينة القارونية تغرّ الجاهلين وكان أهل العلم غير مغترين بها ولاجزعين من فواتها ولافرحين بنوالها لعلمهم أن دوامها مستحيل وأن هناك ماهو أبهج منظرا وأبقى أثرا وهى الحكمة والعلم ونعيم الآخرة فكان ملخص ذلك المجاهدة فى ترك هوى النفس فلاعلوّ على الناس ولا فساد فى الأرض ، فهذه السورة ابتدئت بتمحيص هذا الموضوع والتدقيق فيه فقال الله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) أى أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم ـ آمنا ـ كلا انهم لايتركون لقولهم آمنا بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال والفقر والقحط ومصابرة الكفار ، ولقد فتن الله بعض الناس ببعض لتخلص نفوسهم من أسر المادّة وذل الطبيعة لأن التهذيب والتأديب إما بالعلم والمعرفة والعبادة واما بأنواع المصائب فكلاهما جعله الله فى الأرض لتخليص الناس من أشراك هذه المادّة

(١) فيجاهد المرء شهواته المذكورة فى آخر القصص حينما يرى زينة المترفين والأغنياء كزينة قارون وهذا الجهاد إما بالعلم كما قص الله عن أهل العلم إذ قالوا ـ ويلكم ثواب الله خير ـ الخ واما بالعبرة والنوازل كالجهلاء لما رأوا هلاك قارون فعرفوا معرفة سطحية وقالوا ـ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ـ

(٢) ويجاهد أبويه ويكون معهما بوجهين فهو بارّ بهما عاص لأمرهما اذا أمراه بالكفر كما سيأتى

(٣) ويجاهد الأصحاب اذا أغروه أن يكفر وسهلوا له الأمر كأن يقولوا له « نحن نحمل عنك خطاياك »

وملخص ذلك كله جهاد الشهوات ، وجهاد الأصحاب ، وجهاد الأعداء ، وكل ذلك اختبار للناس وتهذيب

واعلم أن كل مارواه المفسرون فى هذا المقام من أنها نزلت فى عمار أوفى مهجع أوغيرهما لم يرد له ذكر فى الصحيح وفوق ذلك رواياتهم مناقضة للحقيقة لأنهم ذكروا أن بعضهم أوذى فى مكة والمؤمنون فى المدينة وذلك ينافى كون السورة مكية وكثير من أحاديث النزول ليست فى الصحيح فتفطن ، ولم يرد فى هذه السورة من الصحاح إلا حديث أم هانئ كما سيأتى رواية الترمذى وحديث ابن عباس رواية رزين و بقية الصحاح لاشئ فيها مما يخص هذه السورة ، وسأتبع هذه الطريقة فى بقية التفسير إن شاء الله تعالى ، فلاذكر بقية

تفسير هذا القسم فأقول

ههنا يقول الله أيها الناس لاتظنوا انى خلقتكم سدى انما خلقتكم لأرقيكم لعالم أرقى من عالمكم ولايتم ذلك إلا بعلم وعمل ، ولما كان العلم والعمل وحدهما لايقويان على ارتقائكم ساعدتكم بما ينتابكم من النوازل والمصائب الطبيعية والأنفس والآفاق لأن هذا يرقى نفوسكم وان كنتم لاتشعرون ولم أخل العبادات من ذلك فلقد أمرتكم بالتخلى عن بعض المال والشهوات وبالجوع فى الصيام لأكمل بالعمل التهذيب الذى وضعته بالطبع فى أرضكم كما أنى كلفتكم بالزرع والكسب لاصلاح معاشكم فأكثر معاشكم بالطبيعة التى نظمتها ولا يكمل إلا بعملكم هكذا المصائب والنوازل وتغير الأحوال التى لاتفترون عنها كل حين مهذبات لنفوسكم فجاء الدين فأكملها تهذيبا وتأديبا بصرف النفس عن المال والولد الى الزكاة والحج والصلاة والجهاد وغيرها فحياتكم كلها حياة شقاء شئتم أم أبيتم فان جاهدتم ارتقيتم والا كان العذاب واصبا عليكم فى الدنيا و بعد الموت لأن الميت اذا لم يكن له أجنحة من العلم والعمل يطير بها هناك فكيف يعيش فى تلك الأجواء النقية الحرة البهية فلذلك لم أخلكم من الجهاد كما لم أخل من قبلكم من الأمم البائدة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) فذلك سنة قديمة قويمة شرعناها لكم كما شرعناها للأمم قبلكم فلاينبغى أن يتوقع الناس خلاف ذلك (فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) أى فلينظرنّ الله الصادقين والكاذبين وليميزنهما أوليجازينهما فالمراد بالعلم أثره ومن ظنّ خلاف ذلك من الناس فهوسيئ الحكم جاهل (أم حسب الذين يعملون السيآت) كالشرك والمعاصى (أن يسبقونا) أى بل أحسب هؤلاء أن يفوتونا فلانقدر أن نجازيهم (ساء ما يحكمون) أى بئس حكما يحكمونه حكمهم ، وكيف يحكمون هذا الحكم وأنا لم أخلق الخلق سدى ، أنا ربيتهم فى عالم المادة وهذّبتهم بأنواع التهذيب والتعذيب والرياضة والعلم عسى أن يلمحوا فى هذا العالم نورجلالى وجمالى (من كان يرجوا لقاء الله) فى الجنة وأن يشاهده ويرى مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر فليفرح (فان أجل الله لآت) وكيف لايفرح وكل مصيبة نزلت أوتكليف جاء به دين فانما جعل ليقرّب العبد من ذلك المقام ويبعده عن ظلمة المادة وليس الله بغافل عن المطيع والعاصى (وهو السميع) لأقوال الفريقين (العليم) بما أكنته قلوبهم من كفر وجهل أوايمان وعلم فيضع كلا فى مركزه الخاص به ، فعلى المرء أن يجاهد حتى يبلغ تلك المرتبة العالية (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) لأنه يريد أن يتخلص من عالم النقص حتى يستعدّ لمشاهدة العوالم اللطيفة ثم يصل الى الله ولا يكون ذلك إلا بتلطيف النفوس فليس ذلك الجهاد راجعا لله بل هو لنفس العبد (إن الله لغنيّ عن العالمين) فهم فى حاجة الى لقائه بتصفية نفوسهم لاهو فالجهاد إذن لهم لا له إذ لامعنى لعمل لاتعود فائدته على العامل نفسه فكل عبادة أوتكليف يراد بها ارتقاء النفس فقول العبد ـ إياك نعبد ـ ليس الله فى حاجة اليها بل تلك تلطف النفس بعض التلطيف بذلك التوجه فتتخلص شيأ فشيأ من المادّة وهذا هو قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيآتهم) كالكفر بالايمان والمعاصى بالطاعات فترتفع نفوسهم عن العالم المظلم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم والحسن فى الجزاء أن تكون الحسنة جزاؤها حسنة والأحسن أن تكون الحسنة جزاؤها عشر حسنات أوأكثر ثم أخذ يشرح بعض الجهاد فى الوالدين إذ قال (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى وقلنا له أحسن بوالديك حسنا أوقلنا افعل بهما حسنا (وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم) أى لاعلم لك بالهيته بل هو منفى أى لتشرك بى شيأ لايصح أن يكون إلها (فلاتطعهما) فى ذلك وكيف تطيعهما فى معصية خالقك وخالقهما (الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأجازيكم على الخير والشرّ * روى انها نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأن أمه حلفت لاتنتقل من الضح ولاتطعم ولاتشرب حتى يرتدّ ولبثت ثلاثة أيام كذلك ثم إن ابنها أوقع فى قلبها اليأس من اسلامه فرجعت فأكلت وأن هذه الحادثة أيضا كما كانت سبب هذه كانت سبب

التى

التى فى لقمان والأحقاف وهـذه الرواية لم ترد فى الصحيحين ولا بقية الـكتب الستة ، ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى جلتهم فليستعدوا لذلك بالجهاد فللصلاح درجات وللعلم درجات وكل يوم القيامة يدخل فيمن هو أهل لهم ، وليس الصلاح مجرّد دعوى لادليل عليها بالعمل . إن الصلاح لا يكون إلا بالجهاد والصبر على الأذى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) كما حصل من تعذيب الـكفار المؤمنين (جعل فتنة الناس) أى مايصيبه من أذيتهم فى الدنيا ليصدّوه عن الايمان (كعذاب الله) الذى قدره على الـكافرين ليصرفهم عن الـكفر ، فهؤلاء يجزعون من عذاب الناس ولا يصبرون عليه فيطيعون الناس فى كفرهم كما يطيع المؤمن ربه لخوفه من عذابه وهل فتنة الناس كعذاب الله كلا . ان عذاب الله أشدّ وأبقى فهؤلاء لاثبات لهم ولاصبر ولاسعادة لأحد إلا بالصبر وانما يروغون كما يروغ الثعلب و يتقلبون تقلب الحرباء وذلك التقلب لضعف قلوبهم ، ولذلك اذا جاء نصر أوغنيمة قالوا إنامعكم وهذا قوله تعالى (ولئن جاء نصرمن ربك ليقولنّ إنا كنا معكم) فى الدين فاشركونا فيه ، فهؤلاء هـم المنافقون (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) من الاخلاص والنفاق ثم أكده فقال (وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين) يقال انها نزلت فيمن أخرجهم المشركون معهم الى بدر وهم الذين نزل فيهم ـ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ـ ولذلك يقال إن هذه الآيات العشر من أوّل السورة الى هنا مدنية و باقى السورة مكى وقد علمت أن الأحاديث ليست فى الصحاح المعلومة

هذا ولما تمّ الـكلام على جهاد الوالدين ومابعده من المنافقين ذكر جهاد الأصحاب الذين يغرون أصحابهم ليتركوا الدين فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) الذى نسلـكه فى ديننا (ولنحمل خطاياكم) فاتركوا الاسلام واتبعوا ديننا القـديم وعلينا أن نحمل خطاياكم وهـذا قول صناديد قريش لمن آمن منهم (وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لـكاذبون) فى قولهم نحمل خطاياكم (وليحملنّ أثقالهم) أثقال ما اقترفوه من الإثم (وأثقالا مع أثقالهـم) أى وأثقالا أخر معها فان من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غـير أن ينقص من وزر من اتبعه شئ (وليسألنّ يوم القيامة) سؤال تقريع (عما كانوا يفترون) من الأباطيل التى أضلوا بها ، وههنا أبتـدأ سبحانه بذكر قصص الأنبياء ليتعظ المسلم بما يرى من جهاد المجاهدين شرحا لقوله ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ الخ فابتدأ بمافتن به نوح ومن معه حتى يصبر الناس كما صبروا وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى ، فهؤلاء كلهم صبروا هم وأتباعهم على ماأوذوا فنجوا وهلك أعداؤهم

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنىّ عن العالمين ـ ﴾

اللهم إنك خلقتنا فى الأرض ونحن فيها أشبه بالغرقى فى بحر لجىّ ، أرواحنا قبسة من نورك فأنزلتها الى الأرض ولبست كل روح جسمها ووقعت فى حيص بيص فهى أبدا تجاهد لتنجو من الخطر الملازم لها وهى هذه الأجسام وشهواتها وأخلاقها وأحوالها ، وليس الجهاد قاصرا على أمر دون أمر فالجهاد يشمل كل عمل يرفع هذه النفس عن الدنايا ويقوّيها فى سفرها وينتشلها من غرقها ويخرجها من بحر هذه الحياة اللجىّ والجهاد ﴿ نوعان ﴾ جهاد داخلى وجهاد خارجى ، فالجهاد الداخلى لقوّتى الشهوة والغضب فيعتدل الانسان فى قوّتيه الجسمية والعقلية ، وجهاد خارجى وهو دفاع الأعداء و بعض العبادات ومنها الحج فهو من أهم أنواع الجهاد بل الحج يذكرنا بسعادة نوع الانسان ويرمز الى ﴿ فائدتين ﴾ منها صحة البدن واجتماع الأمم بسلام ، إن الاسلام لو لم يكن فيه سوى الحج لـكفى لسعادة الانسان ، ففيه جهاد النفوس بترك المخيط من الثياب كما تقدّم قريبا فى (سورة القصص) عند الـكلام على منافع الشمس فى آية ـ قل أرأيتم ـ الخ والاجتماع بالاخوان من سائر الأقطار ليشهدوا منافع لهم . واعلم أيدك الله أيها الذكى أن مسألة الحج يقصد بها الى أمر عظيم وهو

نبذ التعالى والتكبر وترك الترف والنعيم اللذين يسببان هلاك الأمم فى هذه الدنيا ، ولقد فاتنى فى سورة الحج وفى البقرة وغيرهما من السور التى ذكرفيها الحج أن أبين أكثرمما ذكرته هناك ولكن الله عزّوجل يريد أن يمنّ على أمم الاسلام بالعلم والحكمة ، فأول ماخطر لى خاطر الحج من حيث الصحة العامّة بتعرّض الجسم لضوء الشمس كان بسبب محادثة شاب معى أخذ يذكرمناسك الحج وأن أوروبا قد أخذت تنبذ القصور والدور وتذهب الى أعالى الجبال ليعرّضوا أجسامهم لحرارة الشمس تبعا لأوامر الصحة ، هنالك حضر لى هذا الخاطر فكتبت بعض ذلك فى (سورة القصص) كما قلت لك آنفا ولكن انظر . ان الانسان يعيش و يموت وهو لايزال فى حاجة الى الاطلاع ليعلم مالم يكن يعلم فانى فى هـذا اليوم صباح ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ اطلعت على هذا الموضوع فى ﴿ الرحلة الحجازية ﴾ لصديقى محمد لبيب بك البتنونى فرأيته وفى الموضوع حقه فسألخصه هنا تلبية لنداء الوجدان واتماما للكلام على الجهاد لأن جهاد النفوس الانسانية فى الحياة الدنيا يجب أن يشمل الجهاد الجسمى والجهاد الروحى وجهاد الأجسام بصفائها وخلوصها من الأمراض بترك الاكثار من المآكل وباستخلاص أنفعها فى الحياة والصحة و بترك الاكثار من الملابس التى تضرّ بالصحة فى كل أمة بحسبها . والجهاد الروحى بحب الاخوان بل بحب جميع الأمم ولن يكون ذلك إلا بترك الترف والتنعم والحرص ومدّ يد المساعدة العامّة فلامترف فى الأرض مساعـد لاخوانه ولاضعيف جسم يقوم بأود محتاج . إن الحياة جميعها جهاد . ومما كان يهيج بالى ويزيد بلبالى أمر الملابس فانى وجـدت الأمم قد اختطت لأنفسها خطة ضيق الملابس والتصاقها بالجسم ولم أجد فى هذا الانسان إلا مقلدا . الناس جميعا مقلدون وقليل فيهم المفكرون وهذا القليل لاقوّة له على اخضاع هذه الجموع ، ولطالما وقفت أمام صورة فى المتحف المصرى يقال انها صورة (شيخ البلد) فكنت أجد الجسم ليس عليه إلا إزار واحد فعجبت وصرت أقول ياليت شعرى ، أليست هذه مصر ، أليس هذا منها وأنا منها ، فلماذا اكتفى هـذا الرئيس ومرؤسوه بالازار ونحن لبسنا ملابس وماهى إلا حمل ثقيل علينا . هـذا الموضوع وغـيره حرّك وجدانى فبحثت فلم أجد لى سبيلا إلا مناسك الحج وفهم بعض أسرارها فعرفت أن الله فرضه ليقول للناس هاهوذا وصف رقّ الانسان ليقرأ الناس علم الصحة فيعرفوا أن صحتهم لاتتم إلا بالتجرّد فى بعض الأوقات من الثياب و بتعرّض أجسامهم للشمس وليكونوا بزىّ واحد تقريبا حتى يتحابوا فتكون مدارس الغرب ومدارس الشرق على وتيرة واحدة ، هنالك يتعاونون جميعا وهنالك تقدّم لهم الأرض خيراتها وكنوزها . ولم أجد كتابا شرح هذا الموضوع مثل ما جاء فى تلك (الرحلة) وهذا نص ما جاء فيها تحت العنوان التالى وهاهوذا

﴿ لباس الاحرام ﴾

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا والمصريون كانوا يستعملون فى أوّل أمرهم المئزر ثم البرنس وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف وتربط بحزام وترسل الى الركبتين فى العامّة أو الى أسفل منهما فى الخاصة حتى اذا ترقت الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس الى الكعبين ولبسوا من تحته قميصا لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين [1] وكانوا فى مبدإ أمرهم يلوّنون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر) ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان فى ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دائر ملابسهم بالأشرطة المنقوشة . أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش و يمرونها من تحت ابطهم الأيمن و يغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك

(١) هم سكان أثيوبيا وهى مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التى بها الحبشة وما والاها شرقا الى الصومال وشمالا وغربا الى جزء عظيم من السودان المصرى

(انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى) ثم غيروا هذا الزىّ بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة . وأهل اليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعا ويمرّونه من تحت ابطهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه . ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة مابينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها (شيون) كما تراه الى اليوم فى عرب البادية المصريين خصوصا عرب الغرب منهم . ولاشك فى أنهم أخذوا هذا الزىّ من الرومانيين أوالقرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الأولى الى الآن وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيأ يماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة فى متحف الاستانة بل وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهرية (القعرية) وهو أوّل كنيسة بنيت فى الاستانة وحوّلت الى مسجد بعد الفتح . أما أنتكخاتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١)

وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال «كفرين» المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (٨) من الدور الأوّل نمرة ٧٤ وهو بانى هرم الجيزة الثانى ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد فى القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة فى القاعة حرف (٥) ثم تمثالى (امور وأمون) وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط ولايمكن تحقيق ماعلى نصفه العلوى لأن يد الزمن قد محت ماعليه ، ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل وقد شاهدت من بينها تمثالا من الفخار للعذراء وهى ملتحفة بشملة تغطى جميع جسمها وابنها على يدها

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الأوّل ففيها مثال الاحرام بأشكاله التامّة فترى فى وسط القاعة حرف (١) امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردى بهيئة احرام كامل أعنى انها ملتحفة برداء أبيض يغطى كل جسمها ماعدا رأسها ، ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن وهو مايسمونه فى الاحرام بالاضطباع وفى رجله نعال لاتغطى ظاهر القدم اللهم إلا عروة يدخل فيها الابهام ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على مادون الكعبين ويربطان فيما دون العقب وهو مايسمونه فى الحجاز بالنعال الشرقية التى أجمعت المذاهب الأربع على صحة الاحرام بها وهذه النعال تراها أيضا فى قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل فى القاعة حرف (٨) ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم فى لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الاحرام بل هو هو بعينه والقوم يمثلونه تماما فى تشخيص الروايات التى تمثل الزمن القديم الرومانى أو اليونانى وخصوصا فى تمثيل صور الأنبياء والحكماء . ويقال ان اليهود كانوا يستعملون فى معابدهم لبس غير المخيط . أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه (تليت) أو (تسيسوت) ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه . ومن هذا ترى أن ملابس الناس فى الزمن القديم بل فى جميع أدوار الأمم الخالية حتى فى إبان الحضارة كانت على هذه البساطة ، وليس هذا بغريب فان آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك

---

(١) هذا اللباس شائع للآن فى أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التى لاتزال على فطرتها الأولى ونشاهده على كثير من أعراب البادية فى احرامهم وفى غير احرامهم

الأزمان ، ولقد كان الناس يستعملون أولا فى خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية ، أما الإبر التى من الصلب فانها لم تخترع إلا فى القرن الرابع عشر للمسيح ولم يذع استعمالها فى أوروبا إلا فى القرن السادس عشر ، وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشوريين الذين هم اخوان الكلدانيين الذين خرج منهم ابراهيم لأن كليهما من الجنس السامى ، وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ومازالت هذه السنة قائمة فى حج البيت الى الآن ، وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة والا فالغرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقا اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها الى بساطة الوجود وبداوته ، خرج الى ربه من أبهة الحياة ورفهها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة التى كان مظهرها ذاك الزىّ الذى يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها فيستوى فيه الصعلوك والملوك .
هذا الزىّ الذى يستقبل الانسان فى مهده ويشيعه الى لحده حتى كأنه يقول الى ربه « اللهم إنى قد نزعت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الأباطيل وموّهته الأضاليل وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعا فى نيل مالا أملك من نعم إن عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة أو أقضى بها إن مت فى سبيلك ومحبتك وطاعتك وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصدّيقين زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط « لباس الرهبان » الذى رسم عليه كل من تمثالى (غليوم الثانى) أمبراطور ألمانيا والأمبراطورة قرينته وأرسل بهما ليوضعا فى الملجأ الألمانى الذى بنى فى بيت المقدس وسافر البرنس (ايتل) لافتتاحه رسميا بالنيابة عن والده الأمبراطور فى شهر ابريل سنة ١٩١٠

على أنه لايعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيرا أن الانسان لابد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجوّ نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوّته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة أوكسوجين الهواء لجميع مسام جثمانه ، وبهذه العملية يحترق مافى الدم من الكربون الذى تشبع به أثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم فيعود الى القلب دما نقيا زكيا صالحا لتغذية الحياة بمادة القوّة التى تكون بها العافية التامة والصحة العامة التى هى قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها .
لذلك ترى الاوروباويين وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال أو الى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم إلا مايستر عورتهم ويقيمون على هذه الحال شهرا أو أكثر يستعيدون فيه مافقدوه من قواهم فى سبيل العمل طول سنتهم ، وكثيرا مارأيت الفرنجة فى هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر حفاة عراة معرّضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجوّ أو حرارة الشمس جملة ساعات وليس عليهم إلا تلك العانة المستعارة التى يغطون بها السبيلين ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء ولاغرابة اذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير مما كان عليه القدماء فى بداوتهم الذى يسميه الجهلاء خشونة وتوحشا . انتهى ما أردته من تلك الرحلة والحمد لله رب العالمين

واعلم أيها الذكى كما قدمت لك أن الحياة كلها جهاد وانما أطلت الكلام على الحج لأن فيه أصول سعادة الأمم جسما وروحا فهو نموذج الجهاد العام وأىّ جهاد يفوق توافق الأمم وارتباطها واتحادها وأوّل من قام بذلك رسول الله ﷺ فهو الذى حرّك الأمم شرقا وغربا وهاهى ذه الموجة التى أرسلها فيها قد سكنت فى الشرق ثم تحركت فى الغرب ثم رجعت الى الشرق ثانيا ، كل ذلك لم يقصد منه إلا اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا ورمز لذلك بالوقوف بعرفة والتجرّد من المخيط وغير ذلك من المزايا والاحكام وصرّح بذلك فقال ـ حتى تضع

الحرب أوزارها ـ هنالك قال العلماء إن ذلك يوم يصبح أهل الأرض ﴿قسمين﴾ قسم مسلم وقسم مسالم اهـ

﴿ خطابي للمسلمين ﴾

أيتها الأمم الاسلامية ، حكمة الجهاد عامة تشمل العبادات والأعمال المدنية كلها والصناعات والسياسات ، إن ذلك كله إما فرض عين واما فرض كفاية ، فالصلاة والصيام ونحوها فروض عين والعلوم ونظام المدن والصناعات فروض كفايات وتحتاج الى جموع كثيرة حتى تكفي الأمة ، فالنجارة والحدادة والكهرباء وصناعات السفن والطيارات ونظم المدن كلها فروض كفايات واجب على الأمة أن تتعاون عليها طوعا أوكرها ، وليس عمل من هذه الأعمال يكفي فيه الفرد الواحد فالجموع هي التي تتعاون على كل ذلك

أيها المسلمون ، لقد أودع الله في عقول الأمم وفي أديانها بذور السعادات ، هاهوذا لم يذر العباد يتخبطون ويغرقون في بحر الحياة اللجي بل أسعفهم بأصول العلم وغرسها في أفئدتهم وفي عاداتهم وفي دياناتهم ، لك الحمد يا الله على نعمك العامة ، أنت الذي ألهمت القدماء ألا يبنوا بناء ولايعملوا عملا إلا نقشوه على الأحجار وكتبوه في الطوامير وأبقاه الأولون للآخرين ، أنت يارب أبقيت آثار الأولين ليتبعها الآخرون ، هذه مصر والعراق والشام و بلاد الهند وأمريكا والصين وأوروبا يظهر كل يوم فيها كنوز مدفونة وأجسام مطمورة ونقوش مفهومة أبقاها الأولون للآخرين ، أنت الذي دفنت الفحم الحجري قديما ثم أبرزته لأهل الأرض الآن ليكون من أكبر أساس السعادة في العالمين ، فالأرض ملأتها بالذخائر والنفائس والنقوش وأودعت فيها وفي الجو كهرباء تصل الناس بعضهم ببعض وهم يتعجبون ، ولما كانت الديانات في الأرض من وحيك ونزلت بأمرك وقبل الناس دعوة الرسل بالهامك كنزت فيها علوما وخزنت فيها حكما كما كنزتها في الأرض والهواء والماء والسماء

ألهمت الأنعام والحشرات وكل حيوان إلهامات كلها نافعات لها وأنزلت للانسان ديانات وجعلتها هدى للعالمين في كل زمان بحسبه ، وهذا ديننا كنزت فيه علوما وعلوما وهذه العلوم لايثيرها إلا البحث والتنقيب ، التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج التي هي أركان الاسلام قد كنزت فيها سعادات الأمم ، هذه الصلاة التي هي بعض الجهاد المذكور في هذه الآية قد جعلتها مذكرة بجميع الحكمة والفلسفة وما الحكمة ولا الفلسفة إلا ما أجنته السماء وأقلته الأرض ونظام هذا العالم ، المؤمن صباحا ومساء يقول ﴿ ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما الخ ﴾ كما قدمناه مرارا ، وهل جميع الطبيعيات والرياضيات إلا ما في السموات والأرض . الله أكبر . لقد أنعم الله علي بنعمة هذا التفسير وماهو إلا سر الصلاة التي هي ركن من أركان الجهاد المذكور في هذه السورة وسيأتي فيها ـ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ ، فهنا يقول تعالى ـ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ـ وفي أواخر السورة يبين أهم أركان الجهاد وهو الصلاة الخ

﴿ رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح ﴾

اعلم أيها الذكي انى من إبان شبابي كنت أرى رؤى كثيرة جدا كلها تدل على ما أعمله الآن و بشرت بأن هناك عملا نافعا لابد منه ، ولما بلغت سني نحو (٥٩) سنة رأيت وقت الصباح كأني أقول أنا يارب قائم بأعمالي ولاتقصير عندي فأين إذن مابشرت به فسمعت قائلا يقول كذبت انك لاتحضر قلبك في الصلاة فلما استيقظت أخذت أحضر قلبي في الصلاة بقدر الامكان فانفتح الباب لهذا التفسير . ومن عجب أن كثيرا من المسائل تحضر لي بعد الصلاة أوفي أثنائها ، و بسبب هذا الاستحضار عرفت أن الصلاة ملخص العلوم أومفتاح لأصولها وهكذا سميت الفاتحة فعلمت إذن أن المسلمين بتأملهم في الصلاة يصبحون أمة غير هذه الأمة . الصلاة عبادة ولكن اذا كنا نرى الناس يشربون الماء ويأكلون الفاكهة ومع ذلك يحللونهما ويدرسونهما حتى يتم الانتفاع بهما ، فاذا كان الماء والهواء والتراب لايتم الانتفاع بها إلا بتحليلها فكيف بالصلاة والصيام والزكاة والحج ، أفليس انتفاع الجهال بها في العبادة كانتفاعهم بشرب الماء ، أوليس الانتفاع بكشف أسرارها

ومانرمى اليه كانتفاع الأمم الآن بتحليل الماء والهواء الخ أليس هذا سرّ قوله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - فالدرجات لأولى العلم أما الجهلاء فلاحظ لهم من العبادة إلا كحظ الشارب من الماء . هذا ما أقوله فى الصلاة وسيتم الكلام عليها فى آية - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - الخ ولأذكر الحج بعد الصلاة لأنه هو الذى أفضنا فيه الكلام قريبا وقد ظهر أن الله كنز فيه آثار الأمم وأصبحت الأمم العريقة فى المجد ترجع الى حال البساطة وسهولة الحياة فيسعدون سعادة لم يحلم بها أولئك المترفون الغافلون إذن الحج الذى هو من أركان الاسلام قد حمل فى طياته بذور السعادة والمدنية المستقبلة التى يرجع فيها الانسان الى الاجتماع العام والصحة التامة

فانظروا أيها المسلمون ، صلاة تحثه على الفلسفة وحج يحث على الصحة العامة ونظام الاجتماع العام . وههنا جاء دور الزكاة ﴿ الزكاة ذكر فيها الامام الغزالى انها مساعدة للفقراء ومذهبة لشح النفس فان الانسان اذا ملك حب المال قلبه أقلقه وأحزنه بعده عنه بموته هو أو بأخذه منه ظلما أو بالقضاء والقدر ﴾ ويقول ﴿ إن المقصود من ذلك راحة النفوس ﴾ ونقول نحن فكما أن الصلاة مذكرة بالعلوم والحج بالاجتماع العام وصحة الأبدان هكذا الزكاة يراد بها أن يكون الناس جميعا اخوة كما نقلته عن الامام الغزالى فى أواخر (سورة البقرة) فانه يقول ﴿ إن مال الانسان للأمة كلها عند الخواص أما الزكاة فانما تؤخذ من البخلاء ﴾ فتبين إذن أن انفاق المال بالزكاة متمم لنظام الاجتماع الذى فهمناه من الحج فالحج يعطينا درس الاجتماع العام والصحة والزكاة تكمل ذلك بالمساعدة . وههنا جاء دور الكلام على الصيام

الكلام على لصيام معروف فى الكتب ولكن نحن الآن فى تفسير القرآن وتفسير القرآن انما يكتب لأجل الأمم كلها لأن القرآن كتاب الله والناس عباده والصوم درس من أهم ماظهر منه اليوم فى الأمم علم الصحة ، نعم هو قربى الى الله ولكن فيه فوائد أخرى ، إن علم الصحة اليوم قد تطوّر وأخذ الناس يهجرون المداواة بالعقاقير ويكتفون بالرياضة البدنية والجوع ، يصوم المسلم ويصلى المسلم ويحج المسلم ولكنى أقول إن من أكبر العار أن لاتظهر أسرار هذا الدين إلا على يد الأمم لاعلى يد المسلمين . يحج الناس ويكتفون من الحج بظواهره ويقف العلماء فى الأمم الاسلامية عن دراسة الحقائق الاجتماعية

الله أكبر . بعد هذا التفسير سيقوم فى الاسلام فطاحل العلماء ويدرسون كل شئ فى الوجود وبعد ذلك يدرسون أركان الاسلام ومتى درسوا عرفوا انها يراد بها اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا على الصحة والتعاون العام . هذا الصيام درسته الأمم فى زماننا وعرفوا بعض سرّه ففتح لهم بابا واسعا من علوم الصحة والمداواة

الله أكبر . وهاأناذا أسمعك ﴿ مقالين * أحدهما ﴾ مقال عن حال زعيم الهندوس الأكبر مهاتما غاندى ﴿ والثانى ﴾ . ما جاء فى مجلة «كل شئ» تحت عنوان (المعالجة بالصوم) فهاك ما قاله معرّب كتابه المسمى ﴿ كتاب الصحة ﴾ ومعرّبه الاستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادى وهذا نص ماقاله فى مقدمة التعريب

إن من سوء حظ الشرق أنه لم يفقد استقلاله السياسى فحسب بل قد فقد استقلاله الفكرى أيضا ولذلك تراه يقلد الغرب فى كل شئ حتى إنه أصبح لايتفكر فى نفسه ولايقيم للأشياء وزنا ولايميز بين الحق والباطل بل لايزال نظره الى الغرب فان رآه يقول لشئ إنه حق قال هذا أيضا إنه حق وبالعكس

أنا لا أكره الغرب ولاأنكر فضله فى العلم والمدنية ولاأحرّم الاقتباس والاستفادة منه ولكن الذى اقبحه وأشمئز منه هو الاستعباد الفكرى للغرب لأن هذا الاستعباد اذا تمكن من نفوسنا لن نستردّ حرّيتنا السياسية المغصوبة ولن نجدّد أسس قوميتنا المنهدمة . أقول هذا لأنى أخشى أن ينبذ فريق من القراء هذا الكتاب قبل أن يطلع عليه ، لا لأنه يستحق النبذ بل لأنه جاء من مصدر شرقى بحت فيحسبه سخافة شرقية ، فلذلك أرجو من هو على هذه الشاكلة أن يتمهل فى الحكم عليه ليقرأه بامعان فان لم يعجبه فليرمه إن شاء ،

وانى تطمينا لهؤلاء أقول إن هذه الآراء ليست خاصة بغاندى وحده بل هناك فى أوروبا وأمريكا أيضا ثورة كبيرة على الطب وأساليبه وأدويته بل إن تقدم العلوم أخذ يهدم أركان هذا الطب الذى نسميه (الحديث) ويسمونه هنالك (القديم)

الى أن قال « إن هذا الزعيم كذلك يدعو الناس الى المعيشة الفطرية الساذجة ونبذ البذخ والترف والى التخلق بالأخلاق الفاضلة والمحبة الشاملة العامة والتمسك بجميع مافى الأديان من الخير والتقوى وخشية الله والرأفة بالبشر . ليت شعرى كيف يكون عجب المغترين بالمدنية الغربية اذا رأوا هذا الزعيم الهندى بأعينهم، انهم ليرونه عاريا حافيا حاسرا قد تجرّد من الملابس قائلا لايصح لى أن أتجمل بالملابس والملايين الكثيرة من بنى جلدتى لايجدون مايسترون به عوراتهم ويقون به أجسادهم من الحرّ والبرد ، فتراه الآن متجردا ليس على جسده لباس اللهم إلا إزار صغير يستر به عورته . وكذلك شأنه فى مأكله ، لايأكل المشتهيات والملذات والأطعمة الشائقة ، ليس ذلك لأنه يرى رأى المتقشفين الغفل الذين يحرمون أنفسهم من الطيبات ويحسبون ذلك قربة الى الله بل يرى ذلك مضرا بالصحة البدنية والعقلية فلذلك نراه لايأكل الملح ولااللحم ولاالعدس ولا الحبوب ماعدا خبز القمح نادرا وقد حصر غذاءه فى الفواكه وهو يكثر من أكل البرتقال والموز ويفضلهما على غيرهما من الفواكه »

الى أن قال « وأكبر دليل على قوّته انه صام أربعين يوما متتابعة لم يذق فيها أى شئ ومع ذلك لا أغمى عليه ولا أحس بضعف بل مازال يكتب لجرائده المقالات ويغزل كل يوم من القطن المقدار الذى قرّره لنفسه ومن أعجب ما رأيناه أنه بينما كان ثقله قد قلّ كثيرا فى الاسبوع الأوّل من الصوم حتى خافوا على نفسه أخذ يزداد وزنا بعد ذلك وقد تحير الأطباء فى تعليل ذلك . ثم انه فوق ذلك قد ملك زمام نفسه فيعيش كما قرّر لنفسه أن يعيش فلاينام إلا القدر الذى قرّر أن ينام ويقوم بجميع أعماله بنظام تام بدون أن يطرأ عليه أى خلل ثم انه لايغضب أبدا ولايستعجل ولايفزع بل يبقى دائما هادئا مطمئنا كأنه مالك نفسه سخرها فأصبحت له أطوع من بنانه . ومن عجيب أمره انه يعيش مع زوجته ولكنه يحسبها كأخته أوأمه كما صرّح بذلك فى إحدى خطبه فقال « أنا وزوجتى قد اتفقنا على أن نعيش كالأخ والأخت أوكالابن والأب أوالبنت والأم فأنا لها كأب وهى لى كأم » وكلامه هذا لايرتاب فيه لأن عيشته مفتوحة وليست بسر وهو لايكذب أبدا مهما اضطرته الأحوال اه » هذا ما أردت نقله من ذلك الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين

وأقول ، إن هذا الزعيم الهندى قد جمع بين فضيلة الصيام وفضيلة الحج فاستفاد بهما صحة وقوة . هاهوذا تجرّد من أكثر الثياب . وهاهوذا قلل الطعام فنال الصحة والعافية . ولست أقول ان هذا عبادة ولا انه يثاب عليها . كلا . لأن الصيام لايصح إلا من مسلم وكذا الحج وأيضا الحج انما يكون بمكة لا بالهند ولكن ليس المقام فى خصوص التدين بل المقام فى أن منافع الصوم ومنافع بعض مناسك الحج فى حدّ ذاتها مقوّية لصحة الانسان كما قرّرناه . فهذه فى الحقيقة دراسة للحج وللصيام من بعض الوجوه . وعلى المسلمين بعدنا أن يتولوا هذه الدراسة ليتموا مانقص فى أمم الاسلام . انتهى الكلام على المقال الأوّل

﴿ المقال الثانى ﴾ ماجاء فى مجلة « كل شئ » بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٢٧ تحت العنوان الآتى

(الصوم للمعالجة)

كان الناس ولايزالون للآن يصومون للأغراض الدينية وقد يكون صومهم كليا أوجزئيا ، ففى الهند يعمد الصالحون الى الكف عن الطعام كلية جملة أيام ، ولايزال بعض الأقباط فى مصر يصومون عن الطعام والشراب كلية ثلاثة أيام فى ذكرى يونس الذى بلعه الحوت ، أما الصوم الجزئى ففى الامتناع عن اللحم كما يفعل بعض

المسيحيين الى الآن

وجميع الذين يصابون بكثرة الزلال فى الدم أو بتصلب الشرايين ينصح لهم الأطباء بالامتناع عن اللحم وخاصة ذلك اللحم الأحمر و بالامتناع أيضا عن تناول زلال البيض ونحوذلك بل من الأطباء من ينصح لكل من جاوز سن الأربعين أوالخمسين أن يمتنع كلية عن اللحم والاقتصار على الأغذية النباتية ، وقدفشت عادة الصوم فى هذه الأيام حتى ان طبيبا فرنسيا يشير على كل انسان جاوز الأربعين أن يصوم صياما كاملا يوما فى الاسبوع ، ويشير أيضا بأن يتعاطى مسهلا فى الصباح حتى تبقى أمعاؤه فارغة لايشغلها شاغل يوماً كل أسبوع ، ومن الأطباء من ينصح بالامتناع عن العشاء للمسنين

ولكن فائدة الصوم ليست للامعاء وحدها بل هى أيضا للجسم كله وذلك لأن الجسم اذا لم يحمل الدم الى خلاياه طعاما جديدا انكفأ على نفسه تأكل منه الخلايا القوية الخلايا الضعيفة وفى الوقت نفسه بزوال الشحم من الجسم تتطهر المسالك وتحمل معها فضلات كانت تعوق الدورة الدموية فاذا انتهى الصيام بعد ثلاثين أو أربعين يوما لم يبق بالجسم سوى خلايا قوية . وللجسم عقل يهتدى به أيام الصيام فهو يتخلى عما لافائدة فيه الى مافائدته صغيرة ، أما الأنسجة التى لا يمكن الجسم العمل بدونها فلاتتلف من الصيام . فاذا شرعنا فى الصوم فاننا نفقد أولا الشحم ثم اللحم ، أما الأعصاب ومادة الدماغ فلا تنقص درهما واحدا بعد صيام ثلاثين أوأربعين يوما وذلك لأن مادة الأعصاب ثمينة وعليها ميزان الجسم كله وعقله وهى اذا فقدت شيأ لم تستعضه . أما اللحم والشحم فيمكن استعادتهما بعد فقدهما . والصيام الذى يمارسه الناس للمعالجة الآن هو عن الطعام فقط . أما الماء فان الصائم يشرب كما يحب و يشتهى لأنه فى حاجة اليه حتى يغسل خلايا جسمه وأنسجته و يحمل معه الفضلات و يطهرها منها ، و بعض الصائمين الآن يضع قطرات من عصارة الليمون أوالفاكهة أوالخضراوات الطازجة على الماء حتى لايحرم الجسم من الفيتامين لأن جسم الانسان قد يستطيع أن يعيش بلاطعام نحو خمسين أو ستين يوما ولكنه لا يمكنه أن يبقى هذه المدة بلافيتامين

و يمكن كل انسان أن يمارس الصيام ولكن يجب الحذر من الافطار لأن الصائم اذا بقى نحو عشرين يوما بلاطعام رقت جدران معدته وأمعائه واعتاد جسمه حالة الصوم فاذا فاجأ قناته الهضمية بطعام جامد فقد يؤذى نفسه بذلك أذى كبيرا إذ قد يغمى عليه من هذه الصدمة وقد ينخرق جدار الامعاء أوالمعدة ، فالافطار يجب أن يكون رويدا رويدا حيث يتمصص الصائم جرعة بعد جرعة

ونحن نذكر فيما يلى تجارب المستر (ارفنج) وهو رجل انجليزى صام خمسين يوما بغية التخلص من ضعف المعدة وضعف الأعصاب الناشئ عن تراكم الفضلات فى الجسم ، فقد قال انه ابتدأ أول يوم من الصيام بأن شرب ستة أكواب من عصارة البرتقال وفى اليوم الثانى شرب أقل من ذلك من هذه العصارة أيضا وفى اليوم الثالث لم يشرب سوى الماء القراح و بقى على ذلك عدة أسابيع وكان أحيانا يمزج الماء بقطرات من عصارة الليمون . و بعد الاسبوع الأول من الصيام زالت الشهوة للأكل فكان يتريض بالمشى ميلين أوثلاثة فى اليوم على مهل وفى غيرمشقة وكان لسانه قداكتسى بفرو أبيض يكاد ينفصل عنه اذا مسح . و يقول الراسخون فى فن الصوم ﴿ إن الصحة لاتعود الى الجسد حتى يزول الفرو الكاسى للسان ﴾ ولكن الواقع انه لايزول تماما وانما عند اقتراب نهاية الصوم يتحسن اللسان و يرق هذا الكساء من الفرو ، وكان المستر (ارفنج) قد هبط وزنه واستمر الهبوط الى الاسبوع الرابع حين وقف الجسم فلم يفقد فى الأسبوعين سوى رطل أورطلين فقط . وفى اليوم الثامن والأربعين جلس فى الشمس فنام نوما طويلا استيقظ منه وهو فى غاية الضعف وقضى اليوم التاسع والأربعين وهو فى الفراش . وفى اليوم الخمسين عاد اليه نشاطه فنهض وزال عن لسانه بعض فروه فقنع بهذه المدة وخاصة عند مارأى أن الآلام التى كان يشكومنها قد زالت كلها

أما كيفية رجوعه فانه شرب فى اليوم الخسين نصف كوب من اللبن تمصصه كما يمص الانسان الليمونة . وفى اليوم التالى صار يشرب كوبا من اللبن كل ساعتين فيمتصها أيضا و بعد ذلك يتناول كوبا من اللبن كل نصف ساعة واستمرّ على ذلك أربعة أسابيع تناول فى نهايتها (عجة) وكان قدفقد فى صيامه ٤٦ رطلا استعادها وزاد عليها ، ومن غريب ما رأى انه كان يلبس نظارات لقصرنظره فلما صام عاد اليه نظره كله سليما اه

﴿ ضرب مثل لحال العابدين الذين يفكرون فى العبادة بحال قراء القرآن بلاتعقل ﴾

اعلم أن مثل العباد الذين يعبدون ولايفكرون فى عبادتهم ولايعرفون مقصودها كمثل من يقرأ القرآن بلافهم ولاعقل فكلاهما له ثواب على مقدارنيته ولكنهما فى مرتبة ضعيفة ، هذا فى القراءة وهذا فى العبادة فاذا فكر العابد وأدرك معانى الكلمات التى يقرؤها فى الصلاة التى يقيمها ومقاصد الزكاة التى يؤتيها ومناسك الحج التى يؤدّيها وعبادة الصوم التى يتقرّب بها كان هؤلاء كلهم أشبه بمن يفهم معانى القرآن و يعمل به ، فاذا ارتقى العابد عن هذه الدرجة أدرك السرّ المصون والجوهر المكنون كالذى ذكرناه هنا فى أمر أركان الاسلام وانها بذور لسعادة انسانية عامّة فى الطب وفى الاجتماع والتعاون العام كان ذلك خليفة الله فى أرضه وكان أشبه بمن ارتقى عقله فى القرآن وأدرك أن علوم الحكمة كلها وأسرارها موافقة للقرآن وأن هذه العلوم كلها لاتخالف بينها و بين القرآن الذى أنزله الله بالوحى وانه كلما كان الانسان أضعف منزلة وأقل فهما وأسخف رأيا تباعدت مسافة الخلف بين دينه و بين العلوم عند عقله ، وكلما ارتقت نفسه منزلة وازداد عقله كمالا تقارب العلم والدين عنده على مقدار ارتقاء علومه وعقله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الجهاد على ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ جهاد بالغريزة . وجهاد بالعقل . وجهاد بالوحى . والأخيران أفضل من الأوّل . إن الجهاد بالغريزة لايعوزه عقل ولافكر ولاروية فهو أضعف رتبة وأقلّ قيمة ، فأما الجهاد بالعقل و بالوحى فهما أرقى منزلة وأكمل شرفا وأعظم قدرا

ألاترى رعاك الله أن هذا الانسان فطر على ألايعجب إلا بممنوع وألايفرح إلا بما تباعدت أقطاره وصعب نواله وعزّ مطلبه وتمنع وتولى بركنه كما ترى أن الماس والياقوت والزبرجد وأمثالها من الأحجار الثمينة يحرص عليها الناس كل الحرص لغلاء ثمنها وصعوبة مطلبها ووعورة طرقها وهم يشاهدون أمامهم فى منازلهم وحقولهم وسمائهم زهرا جيلا وكوكبا مشرقا متلألئا أجمل من الياقوت والماس والزبرجد وأبهج وأعلى ولكن الزهر والكواكب مبذولات والماس والياقوت ممنوعان ، لذلك رغب الناس فى الممنوع وزهدوا فى المبذول ولذلك نجد الكواكب فى السماء لايفرح بها الجهلاء وانما يفرح بها المفكرون من العلماء و يحقرون الأحجار الثمينة وأنواع الزينة فى هذه الأرض اذا وازنوها بما عرفوا من جمال الكواكب وسيرها فى مداراتها ودقة حسابها و بهجة نظامها ، فالجاهل وقف عقله عند الزبرجد والياقوت والعالم ارتقى فقرهما ولكنه سعى سعيا حثيثا وجدّ حتى ارتقى الى الأفلاك . كلاهما لاسعادة له إلا بالجهاد . فالجاهل جاهد بالمال حتى نال الماس والزبرجد والياقوت . هنالك وقف عقله وحطّ رحله وأنشد

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

والعالم جاهد جهاد الأبطال فى ارتقاء عقله و بذل ثمن ذلك النوال بالسهر والنصب والتعب والجدّ وأنشد

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها * وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقال آخر ومن تكن العلياء أكبر همه * فكل الذى يلقاه فيها محبب

وقال غيره فالمنايا ولا الدنايا وخير * من ركوب الخنا ركوب المنايا

وقال غيره لاتحسب المجد تمرا أنت آكله * لاتبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

اذا عرفت هذا فهاك نبذة فى الجهاد بالغريزة ثم أتبعها بنبذة فى الجهاد بالعقل ثم أذكر تأييد الوحى للعقل فى الجهاد وذلك فى ﴿ ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الأول فى الجهاد بالغريزة ﴾

إن من قرأ هذا الكتاب أوجلة صالحة منه عرف كثيرا من غرائز الحيوان فانه يراه مفرّقا فى سور كثيرة فانظر رعاك الله فى (سورة النحل) واعجب من نظامه ونظام الأرضة فانك تراها مرسومة هناك فى جانب رسم ملكة النحل وجنودها المحيطين بها . فهاتان دولتان عظيمتان دولة الأرضة ودولة النحل ومثلهما دولة النمل . الله أكبر . جلّ الله . إنك يا الله رحيم لطيف حكيم عليم ألهمت الأرضة فجعلت لها دولة لاتضارعها فى ارضنا دولة من دول الانسان ولا الحشرات ولا الطيور وعدد كل دولة من دول الأرضة لايعرف منتهاه فهى أعظم من مملكة النمل والنحل . واذا كان الناس الآن وجدوا أن أعظم دولة للنمل عرفوها قد بلغت (٥٠٠) خمسمائة مليون نملة ولا نظيرلها فى الممالك الأرضية إلا الدولة الصناعية المتكافقة التى هى انكلترا بل هى لم تصل لهذا العدد مع ملحقاتها التى ليست ملتئمة بها إلتئام رعايا النمل . أقول عرف الناس ذلك كما تقدّم فانهم لم يقدروا أن يحصوا مملكة واحدة من ممالك الأرضة كما تقدّم شرحه فى سورة النحل وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى (سورة سبأ) عند آية ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ـ

هاأنا ذا أيها الذكى ذكرت لك ممالك ثلاث أنت عرفتها فى هذا التفسير مشروحة فاقرأها فى سورة النحل وفى سورة النمل وفى سورة سبأ وأقتصرلك عليها فى بيان الجهاد بالغريزة . فهذه وغيرها من الطيور والحشرات وحيوانات البرّ والبحر نرى جهادها جهادا اجتماعيا لافرديا فأيقنا بهذا أن الجهاد كلما كان من جمع كان أقوى وأعظم وكلما كان فرديا كان أضعف وأقل فائدة . والعبرة فى هذا أن الناس كلما كانوا أكثر عددا فى العمل والجهاد كانت الثمرة أضعافا مضاعفة على مقدار كثرة العدد على شرط أن تكون الجماعة مهما كثرت على رأى واحد ومشرب واحد وفكرة واحدة ونظام قوىّ متين . فاذا كان الجهاد بالغريزة الذى أثبتنا انه أقلّ مرتبة من الجهاد بالعقل و بالوحى لم يكمل إلا بالاجتماع فليكن ذلك الاجتماع فيما هو أكمل منه أكثر وجوبا وأولى بالعناية . انتهى الكلام على الجهاد بالغريزة

﴿ الفصل الثانى فى الجهاد بالعقل ﴾

أيها الذكى ، إن العلم سعادة وهناء ، وأى سعادة وأى هناء من أن نجد فى هذا المقام أن غرائز الحيوان فى اجتماعها قد اتصلت بآراء الحكماء والفلاسفة

أيها الذكى ، اننا بالبحث فى العلم كلما أوغلنا ازددنا بهجة وسعادة ، وأىّ بهجة وأى سعادة أعلى وأدوم من اتفاق الغرائز فى الحيوان مع عقول الحكماء فى الشرق والغرب ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان عقول الناس كلها انما تسعى لترجع العلم كله والحياة كلها الى مبدإ واحد وقاعدة واحدة ، فكلما وصلوا لهذا التوحيد فى عمل ما أحسوا بالهناء والسعادة وكلما تباعدت القواعد واختلفت الاصول كانت العقول أقرب الى الشقاء وأبعد من السعادة لما تجد من التناقض والاختلاف فى هذا الوجود

هذه الحشرات وهذه الطيور وهذه الأنعام نرى أكثرها كوّنت لها ممالك منتظمة أيما نظام متقنة أيما اتقان ، فهل تحب أن أنبئك نبأ عقول الحكماء والعلماء ، انظر كيف ضربوا الأمثال للاجتماع ، انما ضربوا الأمثال بنفس الحيوانات واجتماعها وائتلافها واتحادها فى طلب النافع والفرار من الضار ، وانما ضربوا هذه الأمثال بالحيوانات لأنهم أيقنوا بعقولهم انها لوحهم المقروء وكتابهم المفتوح ومدرستهم العامّة ، فالأمم قديما قبل نزول الانجيل والفرقان كانوا يضربون الأمثال بالحيوان للاجتماع وان كان ذلك ضربا من الصور على طريق الخيال لأنه أقرب الى الأفهام وأدعى الى الاقبال . يقصدون بذلك أن الجهاد يكون أتم كلما كان عدد

المجاهدين

المجاهدين أوفر ونظامهم أتم . فانظر الى أمثال ﴿ كليلة ودمنة ﴾ الذى ألفه بيدبا الفيلسوف وترجه عبـد الله ابن المقفع الى العربية بعد أن ترجـه (برزديه) الطبيب الفارسى الذى كان أبوه من المقاتلة وأمه من عظماء بيوت الزمازمة من الهندية الى الفارسية فان من الأمثال هناك ماجاء فى باب الأسد والثور من تمثيـل (بيدبا) الفيلسوف رأس البراهمة للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء ثم لايلبثان أن يتقاطعا و يتدابرا بالأسد والثور اللذين تحابا وحصلت بينهما المودّة والمحبة . ثم جاء (دمنة) وأخذ يشى بينهما و يقول للثور ياثور إن الأسد يريد أكلك وقال للأسد إن الثور يريد مقاتلتك وعلامة ذلك انك اذا توجهت اليه وجدت حركات غريبة فلما رأى الأسـد الثور خاف الثور واضطرب فظنّ انه يريد مقاتلته ففتك بالثور الأسد ثم ظهرت الحقيقة بعد ذلك وحكم على (دمنة) جزاء كذبه

ومن تلك الأمثال مثل الحمامة المطوّقة فقد ضربها ذلك الفيلسوف ليعلم الناس انهم يقدرون على الاتحاد سواء أكانوا من وطن واحد وأمة واحدة أم من أوطان مختلفة وأمم كثيرة . ذلك أن دبشليم الملك قال لبيدبا الفيلسوف قد سمعت مثـل المتحابين يقطع بينهما الكذوب والى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك فحدّثنى ان رأيت عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم و يستمتع بعضهم ببعض فذكر الحمامة المطوّقة وهى سيدة الحمام إذ وقعت هى وهنّ فى الشبكة فخطبتهنّ خطبة قالت « لاتخاذلن فى المعالجة ولاتكن نفس إحداكنّ أحب اليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون جميعا فنرفع الشبكة » فلما علت الحمامات فى الجوّ استعانت المطوّقة بجرذ كان صاحبها قديما يسمى (زيرك) فنزلت معهن بالشبكة عنـده فقرض الشبكة حتى فرغ منها فنجت المطوّقة وأخواتها . فلما رأى الغراب صنع الجرذ مع الحمام أحب مصاحبتـه وانضم اليهما السلحفاة والظبى . فكما تعاون الحمام الذى هو من نوع واحـد تعاون الغراب والظبى والجرذ على نجاة السلحفاة حين جاءها الصياد ليقتنصها . هـذه أساليب تلك الأمثال التى ضربها حكيم الهنـد لجهاد الانسان المؤيد بالجماعة اتباعا لخطة الحيوان بغريزته و بهذا انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فى الجهاد بالوحى الذى هو أعلى من سابقيه ﴾

قد ذكرنا آنفا أن الهدى ﴿ بثلاث طرق ﴾ طريق الغريزة ، وطريق العـقل ، وطريق الوحى ، وكل مرتبة أرقى مما قبلها وأقلّ مما بعدها ، وربما يظنّ قوم أن غريزة الحيوان كوحى الأنبياء وربما يستدلون بقوله تعالى ـ وأوحى ربك الى النحل ـ وهذا خطأ فان الغريزة فطرية ساذجة وان كانت صادقة والوحى أمر علوى يحكم العقل و يصقله و يرقيه ، فالوحى جاء لتنظيم العقول والغريزة لنظام العمل فى الحيوان والعقول الانسانية أرقى من الأعمال الحيوانية ومنظم الأعلى أرقى من منظم الأدنى

هاأنت ذا رأيت غرائز الحيوان فهى بها مجاهدات وعقول الحكماء وتعليمهم للناس فقد جاء على مقتضى غريزة الحيوان ، فهل لك أن أسمعك ماجاء بالوحى فاقرأ ماستسمعه واعجب من هذا الوجود ، حيوان ذو اجتماع بغريزته وانسان يتعلم الاجتماع بتعليم حكمائه ثم أنبياء نراهم ينظمون اجتماع الانسان على نسق غرائز الحيوان وحكمة الحكماء فى الانسان بحيث يصقل تلك العقول و يهيئها

فاسمع ما أقصـه عليك من جهاد رسول الله ﷺ عسى أن ننهج نهجه . فانظر كيف كاتب الأمراء والملوك وحملهم على التآلف والتآزر والمودّة والاخلاص حتى اتحدوا والتأموا وصاروا أمة واحدة يشار اليها بالبنان . فهاهو ذا جهاد الغريزة وجهاد العقل اللذان بدأهما الله فى الحيوان والانسان أكملهما بما هو أعلى فأرسل نبينا ﷺ يذكر العقول بما اختبأ فيها من الكمال الفطرى ـ انما أنت مذكر ـ إنا نحن نزلنا الذكر ـ فما الوحى إلا تذكير للناس بما سترته عاداتهم وتقاليدهم عن فطرهم الشريفة الالهية المستمدة من سماء الكمال وكمال الجمال

(خير مناهج الجهاد)

اعلم أن للجهاد مناهج وطرقا مذللة عبدها (بتشديد الباء) أناس مضوا قبلنا وخيرالمجاهدين من درس سير العظماء والعلماء والحكماء ، فلتقرأ أيها الذكى سير أولى العلم والحكمة واعلم أن الله ماخلقنا فى الأرض إلا لننمى كل قوانا التى خلقها فينا وفصلها تفصيلا . أما والله ليسألن كل امرئ عن هذه الأعضاء المفصلة وهذه الحواس المكملة وهذه العقول المحكمة وعما أعطيت من نعم ومماأتيح لها من قوى وقدر

واعلم انك مسؤل عما أودع فيك من هذه العطايا والنعم فجاهد أمد الحياة ولتبدأ بجهاد نفسك ، فاذا رأيت منهاخورا أوضعف عزيمة فاستعن بالله وأدم الدعاء وثق به فانه يجيب دعاءك لاسيما اذا كان هذا الدعاء عن شدة ولوع بما تدعواليه فتكون أشبه بالمضطرفهنا الاجابة محققة لاشك فيها

وخير من تقتدى بهم فى جهاد نفسك وفى ارشاد غيرك رسول الله ﷺ فاذا ألمت بك حاجة فادع كما دعا رسول الله ﷺ إذ يقول « اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى لايخفى عليك شئ من أمرى أناالبائس الفقيرالمستغيث المستجير والوجل المشفق المعترف بذنوبى أسألك مسألة المسكين وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤفا رحيما ياخيرالمسؤلين وياخير المعطين »

ومن دعائه ﷺ فى الاستسقاء « اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا (١) نافعا غيرضار عاجلا غيرآجل » ومن دعائه « اللهم حوالينا ولاعلينا ، اللهم على الآكام (٢) والجبال والظراب (٣) و بطون الأودية ومنابت الشجر » ومن دعائه « اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريعا غدقا مجللا (٤) عاما طبقا (٥) سحا (٦) دائما ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد (٧) مالانشكوه إلا اليك ، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض ، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا فأرسل السماء علينا مدرارا »

واذا أصابك هم أودين فقل ما أمر به رسول الله ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » فاذا دعوت به وداومت فان الله يجيب دعاءك كما روى فى الحديث وهكذا من الأدعية التى وردت فى الصحاح ، فاذا قويت نفسك وهذبت ورأيت فيها ميلا قويا الى الارشاد والنفع العام فاعلم انه لايقف أمامها مايمنعها ولا يصدها أحد فى العالمين . واياك أن يصيبك خور أوضعف واسمع مارواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز وان أصابك شئ فلاتقل لوأنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل فان لو تفتح عمل

(١) المرىء الطيب السائغ والمريع المخصب وكلاهما بوزن كريم
(٢) جمع أكمة وهى الرابية
(٣) الجبال الصغار واحدها ظرب ككتف
(٤) الغدق المطر الكبار القطر ، والمجلل الذى يجلل الأرض ويعمها بمائه أونباته
(٥) مالئا للأرض مغطيا لها
(٦) قوله سحا بفتح السين وتشديد الحاء أى دائم النزول
(٧) اللأواء الشدة والجهد المشقة كقفل

الشيطان »

الشيطان » واعلم علما ليس بالظن أن الله لما خلق هذه النفوس الانسانية جعل قواها موزعة على مايحتاج اليه النظام . واعلم انك اذا منحت منحة إفاضة الخير والارشاد والتعليم فان تأثيرك على سامعك حاضرا وعلى قارئ كلامك غائبا لن يكون إلا على مقتضى ماتمتلئ به نفسك فعلى مقدار الأحوال المضمرة فى نفسك تكون نتائج كلامك . اننا نرى النار تحرق بجوهرها وكذلك الماء يحيي بنفس جوهره لابعوارض فيه وهكذا السم السم فى الإهلاك والدواء فى الشفاء . كل هذه مؤثرات بأنفسها وطبائعها هكذا شأن التعليم والارشاد ، فاذا رأيت نفسك متجهة وطال الأمد على هذا الاتجاه فاعلم انك رجل قد أذن لك وقد اصطفيت لترقية العقول واصلاحها فشمرعن ساعد الجد وادرس سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة وعظماء الأمة وحكماءها واقتف آثاره ﷺ فى وعظه وارشاده للأفراد وللجماعات الذين كانوا معه ولمن بعدوا عنه ، فاذا رأيت هذا كله مغروسا فى نفسك من غير تكلف ولاتصنع فاعلم انك منصور مقبول الوعظ والارشاد فجاهد فى الله بعد أن تقرأ أمثال ماقاله ابن شهاب « بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول اذا خطب ، كل ماهوآت قريب لابعد لما هو آت ولايعجل الله لعجلة أحد ولايخف لأمر الناس ، ماشاء الله لاماشاء الناس ، يريدالله شيأ ويريد الناس شيأ ماشاء الله كان ولوكره الناس ، ولامبعد لما قرب الله ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شئ إلا باذن الله » وهكذا تقرأ خطبته ﷺ لما قدم المدينة * قال ابن اسحق ﴿كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ مالم يقل . انه قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال (أما بعد) أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن[1] والله ليصعقن[2] أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فماقدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلايرى شيأ ثم لينظرن قدامه فلايرى غيرجهنم فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

قال ابن اسحق . ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال ﴿إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من يهد الله فلامضل له ومن يضلل فلاهادى له وأشهد أن لااله إلا الله وحده لاشريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قدأفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الاسلام بعد الكفر فاختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ولاتملوا كلام الله وذكره ولاتقس عنه قلوبكم فانه قد سماه خيرته من الأعمال فاعبدوا الله ولاتشركوا به شيأ واتقوه حق تقاته وأصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3]﴾

وتقرأ ماورد عن أحمد بن حنبل انه ﷺ قال « أما بعد فان رجالا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وانهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده فينظر من يحدث منهم توبة الخ » وتقرأ خطبة حجة الوداع . لما زالت الشمس يوم عرفة أمر ﷺ بناقته القصواء[4] فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادى فخطب الناس خطبة عظيمة نذكر لك نصها من رواية ابن هشام فى سيرته وهاهى ذه

---

(١) بنون التوكيد

(٢) من باب علم

(٣) روى ذلك هناد وعن أبى سلمة مرسلا

(٤) القصواء لقب ناقة رسول الله ﷺ ولم تكن قصواء أى مقطوعة طرف الأذن

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيآت أعمالنا . من يهد الله فلامضل له ومن يضلل فلاهادى له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير ، أيها الناس اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون ، قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أوّل دمائكم أضع دم بن ربيعة بن الحارث (وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل) فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية (أما بعد) أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسىء [1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ماحرم الله ويحرموا ماأحل الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متوالية [2] ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . (أما بعد) أيها الناس فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه . وعليهن أن لايأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان [3] لايملكن لأنفسهن شيأ وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة فلايحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلاتظلمن أنفسكم ، ألاهل بلغت ؟ فقال الناس اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ اللهم اشهد »

فاذا قرأت هذه الخطب وأمثالها علمت أن لكل مقام مقالا وانتهزت فرص الحوادث والوقائع وهنالك يسمع قولك ويهش السامعون له ويبشون . فانظر كيف انتهز ﷺ فرصة كسوف الشمس وجعلها موضوع وعظ . فهكذا فليكن تعليمك على حسب الوقائع والأحوال ولتكن أنت نبراس زمانك باجتهادك أنت نفسك واذا رأيت ظلما عم وفتنا طمت فتفكر فى قوله ﷺ فى بعض خطبه ﴿ أما بعد فان الدنيا خضرة حلوة وان الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أوّل فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء ، ألا إن الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم ، ألاترون الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه [4] فاذا وجد أحدكم شيأ من ذلك فالأرض الأرض ، ألا ان خير الرجال من كان بطىء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطىء الرضا . فاذا كان الرجل بطىء الغضب بطىء الفىء وسريع الغضب سريع الفىء فانها بها . ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب . فاذا كان الرجل حسن القضاء سيئ الطلب أوكان سيئ القضاء حسن الطلب فانها بها ،

(١) النسىء التأخير فى الوقت . كان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر

(٢) ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم

(٣) عوان بالفتح معينات لأزواجهن أوعوار كما فى رواية أى أمانات عندكم

(٤) الأوداج عروق الدم فى العنق

الا

ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته . ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة . ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق اذا علمه . ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر . ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه »

وهيئ نفسك لتذكير الناس بأمثاله . ومتى علمت قبول جهادك فيمن يليك ورأيت النفوس مشرئبة لما تقول متبعة طريقك فى جهادك وأن عواطفك قد أشربت قلوب من حولك بتأثير وعظك وهديك فهنالك يجب عليك أن تخاطب من بعد عنك كما فعل رسول الله ﷺ . قد كان رسول الله ﷺ يريد أن يجعل الناس كلهم فى الأرض أمة واحدة فلننسج نحن على منواله ولنوقظ العقول الاسلامية لتتجه لإصلاح الأرض مع الأمم . أفلا تعجب منه ﷺ إذ أخذ يدعو الأمم أمة أمة فاقرأ ما كتبه ﷺ الى صاحب اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هوذة[1] بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر[2] فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك (وكان الحامل لهذا الكتاب سليط[3] بن عمرو العامري فأكرم هوذة وفادته) وكتب الى النبي ﷺ يقول ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله والعرب تهاب مكاني فاجعل الي بعض الأمر أتبعك وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر فقدم بذلك كله الى النبي ﷺ فأخبره وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال لو سألني سبابة من الأرض ما فعلت باد و باد ما فى يديه . وقد مات هوذة مرجع رسول الله ﷺ من الفتح »

ثم اقرأ ما كتبه الى ملك عمان « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى جيفر[4] وعبد ابني الجلندى[5] سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص فخرج به حتى وافى عمان ، قال عمرو فلما قدمتها عمدت الى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت إني رسول رسول الله ﷺ اليك والى أخيك فقال أخي المقدم علي بالسن والملك وأنا أوصلك اليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال وما تدعو اليه ؟ قلت أدعوك الى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فان لنا فيه قدوة . قلت مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت انه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام قال فمتى تبعته ؟ قلت قريبا فسألني أين كان اسلامك ؟ قلت عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت أقروه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب . قلت ما كذبت وما نستحله فى ديننا . ثم قال ما أرى هرقل علم باسلام النجاشي . قلت بلى . قال بأي شئ علمت ذلك ؟ قلت كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا . قال هرقل ، رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال أنظر ما تقول يا عمرو . قلت والله صدقتك قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه . قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته و يأمر بالبر

(١) هوذة بوزن جوزة

(٢) الخف للبعير والحافر للفرس و يطلقان عليهما

(٣) سليط بوزن جليل

(٤) بوزن جعفر (٥) بضم ففتح فسكون وهو مقصور

وصلة الرحم و ينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخروعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال ماأحسن هذا الذى يدعو اليه لوكان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه و يصير ذنبا . قلت إنه إن أسلم ملكه (بتشديد اللام) رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردّها على فقيرهم . قال إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت الى الإبل قال ياعمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه . فقلت نعم . فقال والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا قال فمكثت ببابه أياما وهو يصل الى أخيه فيخبره كل خبرى ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعىّ (١) فقال دعوه (٢) فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس فنظرت اليه قال تكلم بحاجتك فدفعت اليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى الى آخره ثم دفعه الى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه ارقّ منه قال ألاتخبرنى عن قريش كيف صنعت . فقلت تبعوه إما راغب فى الدين واما مقهور بالسيف . قال ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا فى الاسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك (٣) الخيل وتبيد خضراءك فأسلم تسلم و يستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال دعنى يومى هذا وارجع الىّ غدا فرجعت الى أخيه فقال ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى اذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت الى أخيه فأخبرته أنى لم أصل اليه فأوصلنى اليه . فقال إنى فكرت فيما دعوتنى اليه فاذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا مافى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا وان بلغت خيله ألفيت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه . فقال مانحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل الىّ فأجاب الى الاسلام هو وأخوه جميعا وصدّقا النبى ﷺ وخليا (بتشديد اللام) بينى و بين الصدقة و بين الحكم فيما بينهم وكانا لى عونا على من خالفنى »

وهكذا تتأمل كتابه ﷺ الى المنذر بن ساوى . بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى الى المنذر ابن ساوى وكتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، أسلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحبّ ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فعليه الجزية فأسلم ، وكتب الى رسول الله ﷺ (أما بعد) يارسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ومنهم من كرهه ، و بأرضى مجوس و يهود فأحدث الىّ فى ذلك أمرك ، فكتب اليه رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله (أما بعد) فأنى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح إنما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى و يتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وان رسلى قد أثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ﴾

و بعد ذلك تنظر مكاتبته ﷺ الى ملك الحبشة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول (٤) الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى

(١) الضبع وسط العضد أوماتحت الابط وقوله بضبعىّ مثنى ضبع بوزن قاب
(٢) بالبناء للمجهول (٣) بتشديد الطاء (٤) البتول أى العابدة

جاءنى فانى رسول الله وانى أدعوك وجنودك الى الله عزّ وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى . وقد بعث النبي ﷺ بكتابه هذا مع عمرو بن أمية الضمرى(١) فقال للنجاشي يا أصحمة إن علىّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شئ قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك . الانجيل بيننا و بينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفى ذلك الموقع الحزّ واصابة المفصل والا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم وقد فرّق النبي ﷺ رسله الى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمّنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشى أشهد بالله أنه النبىّ الأمىّ الذى ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم كتب النجاشى كتاب جواب النبى ﷺ الى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، سلام عليك يا نبىّ الله من الله ورحمة الله و بركات الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ماذكرت ثفروقا (الغلافة بين النواة والقشر) إنه كما ذكرت وقد عرفت مابعثت الينا وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدّقا وقد بايعتك و بايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ﴾

وهكذا تفكر فى كتابه ﷺ الى كسرى ملك الفرس ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ـ لينذر من كان حيا و يحق القول على الكافرين ـ أسلم تسلم فان أبيت فعليك إثم المجوس . فلما قرئ عليه الكتاب مزّقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال مزّق الله ملكه وقد كان ﴾

ثم نقرأ كتابه ﷺ الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام (٢) أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين فان توليت فان عليك إثم أهل القبط ـ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ـ الآية ، وقد بعث به ﷺ مع حاطب بن أبى بلتعة فلما دخل على المقوقس قال له إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال (٣) الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب ندعوك الى دين الاسلام الكافى به الله فقد ماسواه . إن هذا النبىّ دعا الناس فكان أشدّهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك الى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل وكل نبىّ أدرك قوما فهم أمّته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوّة باخراج الخبء (٤) والاخبار بالنجوى (٥) وسأنظر وأخذ كتاب النبىّ ﷺ فجعله فى حق من عاج وختم عليه ودفعه الى جارية له ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب الى رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك

---

(١) بفتح الأوّل

(٢) دعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى اليها أهل الملل

(٣) النكال العقاب الذى يزجر الغير (٤) المختبئ (٥) السر

وفهمت ماذ كرت فيه وماتدعو اليه وقدعلمت أن نبيا بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك و بعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم و بكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام عليك ولم يسلم ﴾

وهكذا تقرأ كتابه ﷺ الى هرقل ملك الروم وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هِرَقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين فان توليت فان عليك إثم الأريسيين (١) ـ ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلاالله ولانشرك به شيأ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ـ ولما قرأ هرقل الكتاب فكر فى الأمر ثم جمع عظماء الروم فى قصر له بحمص (بكسر الحاء) ثم أطلّ عليهم فقال « يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبىّ فحاصوا (٢) حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال ردّوهم علىّ وقال إنى قلت مقالتى آنفا (٣) أختبر بها شدّتكم على دينكم فقد رأيت » فسجدوا له ورضوا عنه ﴾

فاذا تتبعت أمثال هذه المكاتبات والخطب ألفيته ﷺ يخاطب الأمراء فى بلاد العرب بأسلوب غير الذى يخاطب به الملوك و يعطى كل ذى حق حقه . ألا تراه يقول لملك الحبشة ﴿ وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم ﴾ ولكنه يقول لملك عمان وأخيه ﴿ وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوّتى على ملككما ﴾ فانظر الفرق بين الكتابين اللذين اختلفا على مقتضى الحالين

فاذا قرأت هذا وأمثاله هنالك تعرف كيف ترقى الأمم الاسلامية الآن وكيف تتحد مع غيرها فى الأعمال النافعة وانظر تلطف حاطب بن أبى بلتعة مع المقوقس وقوله له ﴿ لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ﴾ وهذا أمر عجيب ووازن بين هذه المعاملة ومعاملة ملك عمان . إن هذه الأحاديث والأخبار تعطينا فكرة عامّة وهى أن نلبس لكل حال لبوسها ونجدّ فى رقى الأمم الاسلامية ونكلم كل امرئ بما يصلح له ولا ننفر أمّة منا إذن دين الاسلام فى مستقبل الزمان سيقوم به قوم أرقى وأعلى من رجال تقدّمونا بعد العصر الأوّل الذى هو خير العصور والعصرين بعده وسيكون اصلاحا لجميع الأمم والحمد لله رب العالمين

(بيان عام فى أمر الجهاد)

لك الحمد اللهم على نعمة العلم و بهجة الحكمة . رأينا جمال صنعك وحكمك البالغة التى نظمت بها الأفلاك فى علاها والحيوانات فى فلاها والأمم فى هداها

يقف المصلى ذاكرا رحمتك بسم الله الرحمن الرحيم يكررّها كل حين و يعترف بأنك أنت ربيت جميع العوالم مع رحمتك التامّة وحكمتك الشاملة وقيامك بالقسط فيها وعدلك فى الحكم وهو قد شاهد نظامك فى حركات الأفلاك ومداب الأسماك فيطلب إذ ذاك هدايتك لصراطك وما صراطك إلا شمول الرحمة وعموم الحكمة والنظام ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ـ فصراط ربى تآلف الطيور فى الهواء والأنعام فى العراء وعيشها بسعادة وهناء وصراط ربى أن يلهم أمثال (بيدبا) كما ذكرناه آنفا أن يصوغ الحكم و يعلم الناس الاتحاد تشبها بالحمامات و بالحمامة المطوّقة مع الفار والسلحفاة والغراب وصراط ربى أن يتحد الناس على المنافع العامّة . اللهم إنك أنت الذى ألهمت النمل فأحكمت نظامها وعلمت النحل فهديتها طرقها ورسمت للحكماء رسما فى عقولهم فنسجوا على منوالك فى إلهامك الحيوان ، ولعمرى ما مكاتبه رسول الله ﷺ

(١) جمع أريسى نسبة الى أريس كفعيل وهو الفلاح
(٢) نفروا (٣) قريبا

الى ملك عمان والحبشة ومصر والروم والفرس إلا على نهج صراط الله فى الهداية فهناك هداية بالغرائز أوّلا وبالعقول ثانيا وهنا هداية بالوحى الذى نزل ليصقل العقول ويجمع الشتات ويؤلف بين القلوب ، سبحانك اللهم وبحمدك لاإله إلا أنت الحكيم العليم

﴿ زيادة ايضاح ﴾

أنت ياالله جعلت صلاة المصلى شاملة معانى عامّة إذ يلحظ نظام الكواكب وتجاذبها ونظام الجسم الانسانى فى دعاء الركوع والسجود فيرى انتظام الوضع بين الكواكب وانتظام الحركات فى سيرها وجمال الترتيب والتنسيق والجندرة والاتساق فى السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وما استقلت به القدم فلايسعه إلا أن يطلب أن يكون الناس فى اتحادهم على مقتضى ماشاهدفى الآفاق وفى جسمه وهنالك يرى أن الهداية للصراط المستقيم هى صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض كما انها هداية الله الذى ـ مامن دابة إلا هوآخذ بناصيتها ـ وإذن يرى المصلى أن الصراط المستقيم فى الفاتحة هوصراط المنعم عليهم لاصراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين فان هاتين الطائفتين لم يخلقوا للنظام العام وسعادة الأمم فان أهل الغضب والضلال متشاكسان وهل يجمعهما إلا المهديون الى الصراط المستقيم وهذا هو الذى حصل أيام النبوّة فانه ﷺ ماكاد يسمع آية ـ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ألانعبد إلاالله ولانشرك به شيأ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ـ حتى أرسل رسله الى الأمصار وخاطب الملوك يريد أن يكون النوع الانسانى على وتيرة واحدة من حيث نظام السياسة ويجعل أولئك الذين على صراط مستقيم مسيطرين على أولئك المغضوب عليهم والضالين. أرسل ﷺ رسله وقوّاده وجيوشه وكان ذلك كله بلذة روحية فكان الصحابة والتابعون لايريدون إلا وجه الله وان من قرأ سير الصحابة والتابعين ودرس محاورات هؤلاء مع الملوك والأمراء كما تقدّم فى محاورة حاطب بن أبى بلتعة مع من أرسل اليه من الملوك ومحاورة عمرو بن العاص كذلك وقرأ ماتقدّم فى (سورة الكهف) محاورات عبادة بن الصامت مع المقوقس وكيف كانوا يفحمونهم فى الخطاب و يذعنون للحق

فالحق والحق أقول لولا هذه اللذة الروحية ماتوغل المسلمون فى بلاد الله شرقا وغربا . إن الله جعلهم رسل نظام عام على شريطة أن يكونوا رحمة للأمم على مقدار ماتتحمله هذه الطبيعة الطينية . ياسبحان الله بقيت هذه الخصلة (٣٠) سنة كما قال ﷺ ﴿ الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضوضا نخلف من بعد الخلفاء ملوك لم يكونوا كالخلفاء ﴾ . إن الخلفاء كانوا يعلمون مقصود النبوّة فحرّموا على أنفسهم مال المسلمين علما منهم أن الأمّة اذا انغمست فى الشهوات زال ملكها فى الدنيا وعذبت فى الآخرة . ناهيك ما تقدّم فى آخر (سورة القصص) من حكاية الربيع بن زياد لما وفد على عمر رضى الله عنه فاقرأه تجد أنه خاف من قوله تعالى ـ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بماكنتم تستكبرون فى الأرض بغيرالحق وبماكنتم تفسقون ـ ماذاكان يخاف عمر ؟ خاف عذاب الهون وخاف عذاب الخزى فى الحياة الدنيا اذا استمتع باللذات ولذلك لم يبح لنفسه أن يتخذ مآكل لمجرد اللذة

هذا هورأى أكابرالصحابة ، حرم عمرعلى ابنته أن يضمخ ثوبها بطيب المسلمين ونظيره فى ذلك أبو بكر و بقية الخلفاء الراشدين ، نخلف من بعدهم خلف بعضهم أضاعوا النخوة والعزّة وتلهوا بالتفنن فى اقتناء الجوارى والانغماس فى اللذات بعد الغزوات فكانوا لايبالون باذلال الأمم ولاباذلال المسلمين وأخذوا ببعض الدين وتركوا بعضه . ذلك ان الله أباح الأسر ولكنه يقول ـ فلااقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أواطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة * أومسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة ـ فالله أوّل ماذكر فى هذه الآية قال ـ فك رقبة ـ إذن فك الرقبة أهم مابه نقتحم العقبة وذكر بعدها الإطعام ثم ذكرالايمان مع الصبر والمرحمة . إذن هنا فك الرقبة

أولا والمرجة آخرا وهكذا دخل العتق فى أكثر أبواب الفقه

إنه ﷺ أرسل لمنفعة الأمم ولما وجد النوع الانسانى قد تأصلت فيه عادة الأسر أبيح له أن يأسر كما تأسر الأمم فلولا أنه حرم أسرهم على المسلمين لانقرضوا فانهم فى الحرب يأسرهم غيرهم اذا غلبهم واذا غلبوا غيرهم لايأسرونهم وهذا هو هلاك الأمم الاسلامية وظلمهم ، لذلك أباح أخذ الاسرى ورغب فى العتق وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة حتى ان المعتق يرث من أعتق كالقريب . ومعنى هذا كله أن يكون الأعداء أصدقاء ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تصبح الأمم المغلوبة مندمجة فى الأمم الغالبة بطريق الولاء الذى هو كالنسب

هذه الأحكام لامندوحة عنها ، فالمسلمون يأسرون غيرهم ثم يعتقونهم وخير من هذا أن يمنوا عليهم فلا أسر ولافداء . وكل هذا كان موكولا للملوك والملوك كانوا يستبدون بالأمر ، ثم تغاضى المسلمون بعد ذلك عما يسمعون من أخلاق أبى بكر وعمر وعلى وأمثالهم فاستباح الملوك لأنفسهم كل أنواع الزينة والفسوق وجهلوا تلك الأخلاق الفاضلة ، واذا سمعوا قوله تعالى ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ أوسمعوا الآية المتقدمة التى أخافت عمر رضى الله عنه وهى ـ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ـ الخ يقولون هذه وردت فى الكفار فأصبح فهم المتأخرين غيرفهم المتقدمين فانغمسوا فى اللذات فذهبت نخوتهم ودولهم وعزهم والله لايظلم الناس شيأ

إن رسول الله ﷺ كان هو الذى يقتبس منه الصحابة الحقائق ثم انكمش المسلمون وتركوا هذه الفضائل واقتصروا على الفقه وظنوا أن الحرام والحلال كافيان فى الاسلام وتركوا آيات كثيرة جدا ظنوها نزلت فى الكفار أوفى المنافقين ، فبهذا صار الاسلام غريبا وكيف لا يكون غريبا وآيات العبر ونظام الأمم قد تركت وجعلت خاصة بقوم غيرنا . إذن بعض المسلمين صدق عليهم قوله تعالى ـ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ـ فالمترفون فى الآية هم أنفسهم الذين قال الله فيهم ـ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ـ الخ . سر فى بلاد الاسلام شرقا وغربا فانك لاتجد لهذه المباحث العامة رواجا اللهم إلا فى هذا الزمان فان النهضة قد سرت بين المسلمين وسيتم أمرها ، واعلم أن المسلمين فى زماننا لاملجأ لهم إلا أن يقوم فيهم مجددون مصلحون ينيرون السبل و يوضحون الطرق ، وانى أحمد الله عز وجل أن يكون هذا التفسير قد جعل فيه روح الاصلاح ، وهناك كتاب فى بلاد الاسلام معروفون يسيرون على منهج الاصلاح وهذا زمان النهضة وسيأخذ حظه و يرقى الأمم التى تدين به ان شاء الله

﴿ جهاد بعض المتأخرين من الأمم الاسلامية السابقة جهاد خذلان وانتكاس ﴾

لقد طال الأمد على أممنا الاسلامية فقست القلوب وكثر الفسق والفجور فأين الجهاد ؟ والجهاد يراد منه الاصلاح ، وكيف تصلح أمم انغمست فى الشهوات وقل فيها المصلحون بعد العصور الأولى وكلما تمادى الزمان ازداد العصيان بسبب الترف والجهل العميم . فوازن رعاك الله بين أزمان النبوة إذ أريد جعل أهل الأرض أمة واحدة و بين أيام انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها فى كلام العلامة (سديو) الفرنسى وهذا نصه

﴿ الباب الرابع فى انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها ، وفيه « خمسة مباحث * المبحث الأول » فى وقوع عدة ممالك اسلامية من اسبانيا تحت حكم ملوك النصارى ﴾

نعود الآن الى ما سلف من تاريخ عرب اسبانيا فنقول ﴿ لما أغارت الأهالى على عساكر الموحدين المحافظين باسبانيا أوقعوا بهم أول نكبة وأخطها لكنهم أماطوا عنهم جورا يلزمهم أن يستعدوا عقبه لصد النصارى بتجديدهم للحكومة مركزا عموميا تنبنى عليه المصالح العامة لكنهم عدلوا عن ذلك وأخذ كل ينظر فى مصالحه الخاصة ، ولذا انقسمت الحكومة الاسلامية الى عدة دول صغيرة مستقلة عن بعضها لم يكن منها ذات شوكة فى الجملة إلا مملكتا (والنسة) و (الجرو) ومملكتا (ابن هود) و (محمد الحمار) وكان ذلك التفرق مساعدا

للفرنج

للفرنج على أخذهم عدة ممالك واحدة بعد أخرى ﴾

ثم قال ﴿ وسلك (فريندد) مسلك السياسة بتوليته محمدا الحمار على جميع بلاده الرحبة الممتدة من حدود الجزيرة الى المرية بين جبل طارق وهو يسقه بشرط أن يؤدى له جزية كل سنة وجنودا زمن الحرب ويذهب الى المشورة التى تنعقد فى (قسطيلة) ثم حاصر فريندد ومعه محمد الحمار مدينة اشبيلية التى كانت كرسى سلطنة المراوية والموحدين فقاومه أهلها زمنا طويلا لورود مدد اليهم من الوادى الكبير وعبورهم قنطرة من سفن على هذا النهر الى مدينة تريانة المشتملة على لوازمهم فجهز (فريندد) فى جون بسقاية ومينيات اقليم جاليسة سفنا صغيرة استولى بها على مصب نهر الوادى الكبير ثم ألقى سفنا كبيرة كسرت تلك القنطرة بشراعها فكان لأهل اشبيلية مجاعة سلموا بها المدينة الى فريندد سنة ١٢٤٨ بشروط توافقهم لبيع أملاكهم ميعادها أطول من ميعاد أهل (والنسة) وقد تيسر لهم بأخذ (مدينة اشبيلية) سرعة انقياد جميع البلاد التى على ميمنة نهر الوادى الكبير وجالوا حين استيلاء البرتغال على مدينتى لولة وأيامنتة سنة ١٢٤٩ بسواحل البحر التى بين نهر الوادى الكبير والوادى اليانع جولة منتصر مؤيد فأخذوا مدنا بعضها للمسلمين ﴾

فانظر كيف ترى (فريندد) مع محمد الحمار يحاربان (أشبيلية) وقد سلمت لفريندد أى ان الأمير المسلم يساعد الفرنجى على أن يملك بلادا اسلامية ، ذلك لأن الترف والنعيم هما اللذان يقعدان بالأمم عن المعالى ثم تأمل ماتقدم فى المجلد الثالث عشر فى (سورة الشعراء والنمل) فانك تجد تاريخ القوم وانمحا وانهم غرقوا فى بحار الفسوق والفجور والله عاقبة الامور

ولأختم هذا المقال بما لم أذكره فيما مضى مما أنتجه التخاذل الذى سببه الانغماس فى الشهوات وشيوع الغزل والتغنى والتفاخر بالخمر وانحراف الأمة عن العلوم والمعارف ورضاها بالقشور فتفرقت وذاق بعضها بأس بعض ، ذلك عبرة لمعتبر وتبصرة لمذكر

جاء فى تاريخ (زينى دحلان) صفحة (٣٠١) مانصه ﴿ من الممالك التى فى شرق الأندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الأعلى ومدينة طايطلة ومرسية وبلنسية وغيرذلك والمتغلبون عليهامن ملوك الطوائف بنو سليمان ابن محمد بن هود الجذامى من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانتزعها منهم بنو هود فى السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الاردمليش وحاصرها وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ووكل أهلها الى نفوسهم فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها ، وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجى ثم اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من أنهار الى المدينة تحت الأرض فى سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الأمان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الأموال مالايحصى حتى إن الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ومن وقار الحلى والكسوة مايحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والأسرى مائة ألف نفس . ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أولولدها فيقول لها اعطنى مامعك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها ، وكان السبب فى قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع فى قتلهم ، فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى ، وأمر أن يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب الى

أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الأسوار بالحبال خشية الازدحام فى الأبواب ومبادرة الى شرب الماء وقد كان تحيز فى المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا فى نفوسهم وانتظروا ماينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك فى الزحمة نودى فى تلك البقية أن يبادر كل منهم الى الى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله فى منزله اقتسمهم الافرنج بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برؤس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم و برزوا فى صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينماهم فى الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقى أجله ، وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الامور والأحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن و بلغ الكفرة منهم مالايمكن أن يوصف على الحقيقة ، ولما عزم ملكهم على القفول الى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم ألوفا حملهم معه ليهديهم الى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببر بشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين

ومما كان فى هذه الوقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء (بر بشتر) بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصلن فى سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت الى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا فى نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شئ من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات فى خدمته فرحب بى وسألنى عن قصدى فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ما أبذل له فى بعض اللواتى كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبى وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول الى الحصن فلا رأى لى فيه و بقربك أنست و بكنفك اطمأننت فاعطنى بعض من هنا فانى أعطيك رغبتك قال وماعندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشهينى ماليس عندى ، يابابجه ينادى بعض أولئك الوصائف (يريد يابهجة فغيره بعجمته) قومى فأعرضى عليه مافى ذلك الصندوق فقامت اليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أدنى الى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظرى و بهت واسترذلت ماعندى ثم قال لى لقد كثر هنا عندى كل شئ حتى ما ألتذ به ثم حلف لى أنه لولم يكن عنده شئ من ذلك ثم بذل لى أحد مثل ذلك ماسمحت بهذه الجارية التى تطلبها نسى فهى ابنة صاحب المنزل وله حسب فى قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جمالها لأجل أن تلد لى وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا اذا ملكونا حين كانت دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار الى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يافلانة خذى عودك فأخذت العود وقعدت تسويه وأنا أتأمل دمعها يقطر على خدها فسارع العلج ومسحه بيده واندفعت تغنى بشعر مافهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبى والمغنم فطال تعجبى قال فى نفح الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره - إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم - فان أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا فى اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدى الى الهلكة لامحالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل و يغترون بالنعيم الزائل وقد بعدوا

عن

عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سدّ ثغورهم حتى جاس عدوّهم بخلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جيعا فلاحول ولاقوة إلا بالله العلىّ العظيم ﴾ اه

وانما سقت هذه الحادثة لترى أيها الذكى كيف كان اتباع الشهوات سببا فى التخاذل والتخاذل سبب فى انتهاك العدوّ حرمة البلاد وضياع المال والعرض والشرف والجاه ، وانظر كيف أصبحت الفتاة بهجة مملوكة لعلج فى نفس منزل أبيها ، وكيف يأمر تلك الفتاة التى كانت مغنية لأبيها أن تغنى له ، أوليس مما يؤسف له أن يجعل الرجل ابنته مغنية له . كل ذلك دليل على ضياع الأمم . نعم هذه المدينة فى السنة التى بعدها استرجعها المسلمون كما فى نفس التاريخ وفعلوا بالفرنجة مافعله الفرنجة بالمسلمين ولكن ليس المدار على الانتصار المؤقت فى بلدة من البلاد بل المدار على استقامة القلوب وارتقاء النفوس فهو النصر الحقيق

واذا أراد الله ذل قبيلة ✽ رماها بتشتيت الهوى والتواكل

﴿ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خود أمم الاسلام ﴾

لقد ذكرت لك أيها الذكى فيما تقدّم كيف تمزّقت الوحدة الاسلامية بعد القرون الأولى ، وكيف انغمس المسلمون فى الشهوات والمعاصى وفسقوا فسوقا أدّوا ثمنه وهو الأسر والذل والفتك والضنك ، وكيف دخل العدوّ الدار وفسقوا بالبنات والنساء أمام الأزواج والآباء ، وانظر الى الفتاة (بهجة) كيف اصطفاها العلج لنفسه بحجة انها كانت ابنة رجل عظيم وقد استخدمها فى نفس منزل أبيها على فراشه ، وانظر كيف وكل الأمير الأندلسى يوسف بن سليمان أمر أهل بر بشتر الى أنفسهم وقال لهم دافعوا عن أنفسكم

إن أعظم سبب فى فشل الأمم ومنها الأمة الاسلامية أن الأمر يوكل الى أناس يظنّ فيهم الخير فاذا مات الآباء ونشأ الأبناء على الترف والنعيم بقى الناس مسحورين بالابن كما سحروا بالأب فيطبع ذلك الابن وابن الابن الشعب بطابعهم فهو يرتع فى ملاهيه ولذاته وهم يقلدونه ، ولما رأت الأمم الحاضرة ذلك استبدلت مجالس النوّاب والشيوخ بذلك النظام العتيق ، فاذا كان الملك فاسقا جاهلا لم يضرّهم شئ فلهم الحلّ والعقد وعليه التصديق فليكن كما شاء جاهلا أو عالما . هذا هو الذى عليه الأمم الآن ولكنهم لم يصلوا الى هذا إلا بعد جهاد وجهاد وصبر طويل وتجارب هداهم اليها الاسلام ، وانما قلت هداهم اليها الاسلام لأنك اذا رجعت الى تفسير (سورة التوبة) عند آية ـ ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار ـ الخ رأيت هناك أن الانقلاب الاوروبى ماحدث إلا بما قرأه أمثال (فولتير) و(روسو) من كتب المسلمين المنهوبة من الأندلس أو المأخوذة من مصر (اقرأ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت) تحت عنوان « الحضارة الاسلامية والحضارة الاوروبية » فلقد أثبتت هناك ذلك بأجل العبارات ، واقرأ قبيل ذلك كيف كان ظلم القسيسين والباباوات ، ولعمرى لم يكن ذلك إلا للخضوع القبيح الذى يخضعه الانسان لغيره جهلا بقوله تعالى ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ـ و بقوله تعالى ـ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ✽ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ✽ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ✽ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ✽ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين ـ

وفى القرآن من أنواع المحاورات بين الرؤساء والمرؤسين مالايدع عذرا لمعتذر . وقدغفل عن هذا المسلمون واستيقظ له الاوروبيون ، ولقد تقدّم فى هذا التفسير أمثلة كثيرة لاستيقاظ الاوروبيين والموازنة بينهم و بين المسلمين ، ولأكتف الآن بأمر عجيب نشر فى جرائدنا فى وقت طبع هذا المقال لاسعاد هذا التفسير والعناية

الإلهية به يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩ فقد جاء فى جريدة الاهرام مانصه

{ ٤ أغسطس }

(أو يوم اعلان حقوق الانسان)

عنـد ماتشرق شمس هذا النهار ويستقبل الناس يوما جديدا يتم انقضاء مائة وأربعين سنة كاملة على اليوم الذى أتحدث عنه الآن

فنى يوم (٤) أغسطس من عام ١٧٨٩ ذكرى قمينة بالخلود فى نفوس الشعوب الجيدة التى تعتز بالحرية والأمم الناهضة التى تنشدها ، وحقيق بالفرنسيين خاصة أن يبجلوه تبجيلهم ليوم (١٤ يوليو) الذى جعلوه عيدهم القومى وهولايمتاز فى الواقع إلا بهدم حصن الباستيل وقتل حراسه القلائل والتمثيل بهم أشنع تمثيل واخراج بضعة نفر من أقبيته المظلمة لاهم فى العير ولاهم فى النفير

أما فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وان شئت الدقة ففى مساء ذلك اليوم فقد نال الشعب الفرنسى ماكان يصبو اليه ويجاهد فى سبيله وهواعلان حقوق الانسان على أساس المبادئ التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحوالامتيازات التى كانت للأشراف ورجال الدين الذين طالما أثقلوا كاهل الشعب ودفعوا به فى قرار سحيق من الفقرالمدقع والضرّ المفجع واليك البيان

فى مثل يومنا هذا منذ قرن وأربعين سنة بالتمام كان الناس فى باريس فى هرج ومرج على أثر الظفر الذى عقد لهم لواؤه بهدم الباستيل فى (١٤ يوليه) من العام ذاته والفلاحون فى الأقاليم يمعنون هدما وسلبا فى قصور الأشراف التى تمثل الباستيل بينهم حتى لا يكونوا وراء أهل باريس فى ميدان المجد والفخار والبلاد من أقصاها الى أقصاها فى ثورة مروعة انكمش أمامها رجال الادارة خشية أن يحلّ بهم ماحلّ بحاكم الباستيل وزادت الحالة سوأ حين امتنع التجار عن عرض مالديهم من الأقوات خوفا من السلب والنهب ، واذ أدرك الغوغاء مقدارقوتهم صاروا يثورون لأقلّ شئ وينقضون على كل من توهموا فيه العداء لهم ، فتارة يصلبونهم وطورا يقطعونهم إربا وكانت سفليات النساء فى الأسواق فى مقدمة أولئك الفتاك وأكثرهم شرا . ووقف مجلس الأمة (وكان مؤلفا من الهيئات الثلاث الأشراف والقساوسة والعامّة) يراقب الحوادث فى حيرة ووجل خوف سوء العقبى وكل ماتبينه أعضاؤه من الموقف انه لايرجى لذلك الحال من هدوء إلا اذا جرد الأشراف والكنيسة من امتيازاتهم ، على أن ذلك لم يكن محتمل الوقوع إذ وقف الملك لويس السادس عشر يشد أزر هؤلاء وينصاع اليهم بتأثير زوجه الملكة (مارى انتوانت) فظل خطر الموقف مسلطا فوق الرقاب جميعها الى أن كان يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ واذا المعجزة تقع من تلقاء نفسها ، ففى مساء ذلك اليوم وقف فى مجلس الأمة أحد الأشراف وكان فقيرا واقترح النزول عن امتيازات الأملاك ، فماهى إلالحظة حتى دبّ دبيب الغيرة فى النفوس وتبارى الناس فى تنفيذ هذا الرأى ، وما انقضت الليلة حتى كان الأشراف قدنزلوا عن كل امتيازاتهم وكذلك أعلنت حقوق الانسان فى تلك الليلة على أساس المبادئ التى نادى بها (روسو) ومجملها أن الناس ولدوا أحرارا متساوين فى الحقوق وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية والأملاك الشخصية وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم وأن لكل أمة الحق فى وضع القوانين وتقرير الضرائب ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلابارادتها . وحين أعلنت هذه المبادئ أخذ الناس بها وجاءت الجمعية الأهلية بعدئذ فأدخلتها فى صلب الدستور وهكذا تقوضت مظالم العهد القديم وأشرف العالم على عصرجديد ملؤه العدل والحرية والمساواة

ذلك هو يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ الذى يتم بانبلاج شمس هذا الصباح مرور ١٤٠ سنة عليه ، واذا

كانت

كانت حادثات كبار وخطوب جلل أتت بعده فى إبان الثورة الفرنسية حتى شاهد القرن التاسع عشر أياما سوداء ملؤها الدم والدمار فان ذلك كله لايحجب عن الناس نعمة ذلك اليوم المجيد انتهى

(قصة نوح عليه السلام)

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وقد كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وفى ذكر الألف تخييل لطول المدة الى السامع لأن القصد من القصة تسلية النبى ﷺ وتثبيته ومجاهدته لما يكابده من الكفرة ، وإياك أن يصدك عن هذه القصة ماتراه من طول الأعمار التى لم نعهدها ولم يظهر فى التاريخ المعروف نظيرها فان التاريخ القديم مجهول جهلا تاما ، وليس المقصود من مثل هذه أن نبحث فى السنين كيف كانت وأمثال ذلك فانك اذا ظننت أن ذلك هوالمقصود لم تنتفع بالقصة . إن الانسان اذا قرأ أن قوما قاسوا شدائد وطالت المدّة عليهم وهو يعلم أن مدّته قصيرة اطمأن وصبر وجاهد لينجو ويهلك عدوّه كما هلك أعداء نوح (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى طوفان الماء وهو يطلق على كل ماطاف بكثرة من سيل أو ظلام وما أشبه ذلك فلتعتبر بهذا ولاتضع وقتك فتقول كما يقول البعض ﴿ إن السنة عبارة عن دورة الأرض حول الشمس مرة ﴾ فربما عبر هؤلاء فى أيامهم بالسنين عن دورة القمر حول الأرض وهو شهر عندنا واذن يكون عمر نوح كالأعمار المعتادة التى لاتبلغ مائة سنة ، أقول لك لاتضيع وقتك فى هذا فانا نلجأ اليه عند القطع بعدم حصول ذلك والمقام ليس مقام تاريخ بل المقام مقام جهاد وصبر وأدب ولم ينل أحد السعادة إلا بالاجتهاد والجهاد ومقارعة الخصوم ، فاذا طالت المدة كان ذلك أدعى الى التأسى والاقتداء (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى أنجينا نوحا ومن ركب السفينة معه (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة (آية للعالمين) يتعظون بها ويستدلون بها

﴿ جوهرة فى قصة نوح وسفينته ﴾

إقرأ ماتقدم فى (سورة هود) وفيه بيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى وهناك تقرأ المقام مفصلا على مقتضى الكشف الحديث ولكن اطلعت بعد ذلك على تفصيل أوفى فى كتب حديثة مختلفة ، فمن ذلك ماجاء فى بعض المجلات العلمية بتاريخ يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٤٨ — ٢٢ يوليه سنة ١٩٢٩ وهذا ملخصه

« يرى بعض العلماء اليوم أن قارة تسمى (ليموريا) كانت فى الاوقيانوس الجنوبى وتتصل بآسيا من جهة وبافريقيا من جهة أخرى وان قارة أخرى تسمى (اتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت قدر أفريقيا وآسيا معا ثم غطاها ماء الاوقيانوس فغرقت . وأن قارة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى على بعد ألفى ميل وأربعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية وقد أغرقها الماء وذهبت كأمس الدابر ، فهذا طوفان أغرق قارات فى أزمان قديمة لايعيها التاريخ وهناك قصص للطوفان بعضها فى التوراة وبعضها جاء فى مجموعة ﴿ سجلات جلجميش ﴾ فى النصوص البابلية وبعضها عن أهل الصين وبعضها عن أهل الهند ، أما قارة (ليموريا) فهذا ملخص ماجاء عنها فى هذا المقال بذلك التاريخ وهذا نصه

﴿ جغرافية العالم القديم . القارات الضائعة وكيف اختفت . الحيوانات الباقية والمنقرضة ﴾

تذهب الى (جزيرة مدغشقر) بعثة علمية لدرس حيوانات هذه الجزيرة وأحافيرها ولتعليل بعض الظواهر البيولوجية الغريبة فيها ومن جملتها قلة الارتباط النسبى بين الحيوانات التى فيها والتى يختلف بعضها عن بعض الى حدّ مدهش ، ومع ان هذه الجزيرة لاتبعد عن سواحل افريقيا أكثر من ثلثمائة ميل فان بينها وبين حيوانات القارة الافريقية بونا شاسعا ، من ذلك انها خلو من ذوات القوائم الأربعة الكبيرة الأجسام ماعدا

بقرالماء (فرس البحر) ولكنها موطن حيوانات كثيرة لم توجد فى موضع آخرمن العالم ، وليس ذلك فقط بل ان أحافير الجزيرة تدل على انها كانت فى الأزمنة الغابرة موطن حيوانات وطيور وزحافات لاوجود لها إلافى الخرافات ، من ذلك طير (ايبورنيس) ولعله أكبرالطيورالتى حلقت فى جوّالكرة الأرضية وكان يضع بيضا هائل الحجم يبلغ طول محوره ثلاث عشرة بوصة وثخانتها عشر بوصات أى بحجم بطيخة كبيرة مستطيلة وكان هذا الطير أكبر كثيرا من النعامة و يشبه طير (الموا) من طيورنيوز يلندا المنقرضة ويزعم الكثيرون أن طير (ايبورنيس) المذكورهوطيرالرخ الذى ورد ذكره فى روايات « ألف ليلة وليلة » وأن واضعى تلك الروايات نقلوا وصف الرخ عما سمعوه من العرب الذين ساحوا فى أفريقيا ووصلوا الى (مدغشقر) ورأوا طير (ايبورنيس) وفى مدغشقرأيضا طائفة من الزحافات الهائلة من فصيلة الضب أوالعظاية وكان فيهاقديما عظايات يبلغ طول كل منها ستين أوسبعين قدما وكان ذلك فى الزمن الذى كانت فيه الزحافات سيدة جميع المخلوقات على الأرض ، ومن الظواهرالبيولوجية الغريبة أنه مع قرب جزيرة مدغشقرمن الساحل الافريقى فان حيواناتها تختلف عن حيوانات أفريقيا كل الاختلاف حالة كونها تشبه حيوانات آسيا مع بعد الشقة بينهما ، وقد حاول بعضهم تعليل ذلك بقوله ﴿ انه كان فى الحقب الغابرة قارّة فى الاوقيانوس الجنوبى تتصل بكلتا آسيا وأفريقيا وقد أطلقوا عليها اسم (ليموريا) أى بلاد الليمور وفيها نشأ هذا الحيوان ثم انتقل الى مدغشقر و بتمادى الأحقاب غارت (ليموريا) فى قاع الاوقيانوس و بقيت فصيلة الليمور فى جزيرة مدغشقر ﴾

﴿ قارّة اتلنتس وقارّة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى ﴾

وعلى ذكرهذه القارّة المزعومة نقول إن كثيرين من الكتاب والمؤرخين يعتقدون أن جغرافية العالم القديم كانت تختلف عن جغرافية هذا الزمن وأنه كان ثمة غارات و بلاد ضاعت لأن مياه البحارطغت عليها ، من ذلك قارّة (اتلنتس) وقد أشاراليهاأفلاطون قديما وكان الأقدمون يقولون بوجودها وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) ويزعمون أنها أكبر من آسيا وأفريقيا معا ولايزال بعضهم يقول بوجودها قريبا حتى هذا اليوم ، بل إن بعض علماء الجغرافيا يزعمون انه كان فى الاوقيانوس الباسفيكي أيضا قارّة غارت بطغيان البحر عليها ، وهم يؤيدون زعمهم هذا بعدّة براهين من جلتها وجود نقوش على بعض صخور (جزيرة يستر) وهى جزيرة من الاوقيانوس الباسفيكى على بعدألفين وأر بعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية ، وفى الواقع أن فى هذه الجزيرة مئات من النقوش والتماثيل المتقنة الصنع ومعظمها تمثل رؤسا بشرية لايفوقها فى دقة الصنع أجل تماثيل اليونان القدماء ، وفى تلك الجزيرة الصغيرة أيضا دلائل كثيرة على حضارة بائدة وأهالى هذه الجزيرة لايجاوزون بضع مئات يتناقلون قصة الطوفان أبا عن جدّ ، ومن المحتمل جدا أن تشير هذه القصة الى طغيان مياه الباسفيك على القارة المذكورة

واذا أنكرنا قصتى (أتلنتيس) والقارّة الباسفيكية الضائعة كان لابد لنا من الالتجاء الى نظريات أخرى لتعليل بعض الظواهرالبيولوجية غيرالمفهومة ، ومن جملة تلك النظريات مايزعم بعض العلماء من أن القارات المعروفة فى الوقت الحاضر هى عائمة على وجه المياه وأن قارتى أفريقيا وأميركا الجنوبية كانتا متصلتين معا فى العصورالغابرة ، وفى الواقع اننا لوأمكننا زحزحة هاتين القارّتين ووصلهما معا لكان الاتصال تاما ومتينا من الوجه الطبوغرافى ، ولوأمكننا أيضا زحزحة (مدغشقر) والهند واستراليا ووصلهما معا لكان لنا منها قارّة (ليموريا) التى سبقت الاشارة اليها وحلت هذه النظرية كثيرا من المشاكل التى يصعب اليوم فهمها

وأما ماجاء فى التوراة فهذا نصه ﴿ ورأى الرب أن شرّ الانسان قد كثرفى الأرض فحزن انه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه وقال « امحواعن وجه الأرض الانسان الذى خلقته . الانسان والبهائم والدبابات وطيورالسماء لأنى حزنت انى عملتهم » وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب فقال الرب لنوح نهاية كل بشر

أمامى لأن الأرض امتلأت ظلما منهم ، اصنع لنفسك فلكا من خشب مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل مافى الأرض يموت ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت و بنوك وامرأتك ونساء بنيك ، من كل حى تدخل الى الفلك اثنين لاستبقائها ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صارطوفان الماء على الأرض فدخل نوح ومن معه الفلك وانفجرت ينابيع الغمرالعظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطرعلى الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة فكان الفلك يسيرعلى وجه الماء ، و بعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقر الفلك على جبال اراراط ﴾

﴿ القصة البابلية والصينية والهندية ﴾

هذه هى القصة كما وردت فى التوراة ، أما جبل اراراط فهو فى الشمال الشرقى من أرمينيا فكان أعلى الجبال المعروفة فى العالم اليهودى فى ذلك العهد ، قصة الطوفان هذه لايمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفى والأرجح أن الطوفان الذى نشير اليه كان طوفانا محليا ، واذا رجعنا الى علوم الأقدمين نجد عن الطوفان قصصا كثيرة أقربها الى نص التوراة القصة البابلية كما وردت فى مجموعة ﴿سجلات جلجميش﴾ فقد جاء فيها أن جلجميش (وهو من الجبابرة) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت بالطوفان فأخبره سلفه بقصة بناء الفلك وهى القصة السومرية بعينها و يقال انها أقدم قصة فى هذا الموضوع ، وقد اقتبسها البابليون وعنهم أخذها اليهود لما كانوا فى الأسر ، ومن أشهر قصص الطوفان أيضا القصة الصينية والقصة الهندية وكلتاهما تشير الى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر وهطل الأمطار ، ولاشك أن القصة البابلية أيضا نشأت عن فيضان دجلة والفرات وغمرها البلاد المحيطة بهما ، وفى بلاد (اور) شمالى العراق بعثة انجليزية تنقب عن الآثار وتبحث عما يثبت قصة الطوفان ، وقد كانت (اور) منذ أربعة آلاف سنة مركز حضارة راقية ، والأرجح أن مدينة (اور) نفسها (وهى مسقط رأس الخليل) بلغت أوج ثروتها ورخائها فى سنة (٣٥٠٠) قبل التاريخ المسيحى وكان أهلها ماهرين فى صناعة الادوات المعدنية ولاسيما الفضية والذهبية ، وتقلبت على (اور) أزمنة مختلفة فبعد أن بلغت أوج حضارتها ثار الطمع فى قلوب حسادها فغزوها ونهبوا معابدها وهياكلها و بعد ذلك التهمتها النيران ثم أعيد بناؤها ثم أخربها الغزاة مرة أخرى ثم أعيد بناؤها الى أن طغى عليها نهر الفرات فأغرقها وأهلك أهلها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت (اور) قفرا يبابا ، ومن المحتمل جدا أن الطوفان الذى أهلكها هو الطوفان الوارد قصته فى التوراة . ومما يجدر بالذكر أن بعثة الآثار التى تنقب اليوم فى أنحاء المدينة قد استطاعت ازاحة التراب عن جانب كبير من خرائبها فظهر أن بيوتها كانت مبنية على هندسة تكاد تكون حديثة فقد كانت مبنية من الحجر والآجر (الطوب) ومعظمها ذو طبقتين ولكل منها حوش أوفناء ، كذلك كانت هندسة هذه المدينة فى أيام ابراهيم الخليل وكانت كما سبق القول مسقط رأسه وفيها نشأ وترعرع

ويظهر أن جميع الأمم التى نشأت فى وادى دجلة والفرات كانت تتناقل قصة الطوفان على وجوه شتى ، وليس فى ذلك ما يدهش اذا تذكرنا أن أولئك الناس كانوا يعيشون مهددين دائما بخطر طوفان النهرين العظيمين وقد كانت مخيلتهم تبتكر لهم دائما قصة بطل نجا من الطوفان بأعجوبة إما لفضيلة فيه أو لسبب آخر فجلجميش عند البابليين ونوح عند اليهود و (مان) عند الهنود و (ابتان) عند غيرهم وهلم جرا . انتهى ملخصا مع تغيير يسير جدا لتسهيل الفهم

أقول ، اعلم أن ماتأتى به الكتب السماوية ينزل لكل أمة بحسب مزاجها وعقلها وماجاء فى التوراة يقبله اليهود وماجاء فى القرآن مقبول عندنا ، أما البحث العام فذلك يعوزه دراسة علوم كثيرة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وعلم طبقات الأرض ، وكما ان الانسان ينظر الطعام و يشمه و يذوقه وقد يسمع حركته كما يفعل الناس اذا أرادوا معرفة البطيخة أهى ناضجة أم لا ، هكذا اذا زاولوا مسألة وجب بحثها من وجوه عدة ، فانظر

الى مسألة الطوفان كيف تعددت رواياتها ثم انظر الى علم طبقات الأرض اليوم ، ألاترى انهم وجدوا فحما فى الأقطار القطبية وقد تقدّم فى هذا التفسير حتى إن بعض المهندسين يريد أن يصنع هناك محطة للطيارات لأجل امدادها بالفحم من هناك و بسبب الفحم يمكن تكوين الكهرباء . إن مسألة القطبين وأن فيهما الفحم هذا أمر مجمع عليه وهل يكون الفحم إلا فى أرض حارة . إذن كانت هذه خط استواء ثم تغيرت الحال فى أزمان مجهولة فصارت قطبا ولما صارت قطبا دفنت فيها غاباتها وحيواناتها وطمرت و بقيت الى الآن . ومن المسلم به أيضا أن الأنهار وهى تجرى من اليابسة الى البحار تجرف معها موادّ وتقذفها فى البحر وهذه الموادّ تترا كم جيلا فجيلا ثم يأتى زمن تصير قارة جديدة إذ يحصل هناك انقلاب عام فيصير البرّ بحرا والبحر برا بحادث جائى عظيم لأن الأرض ملتهبة نارا فى باطنها . وانظرماجاء فى كتاب ﴿ اخوان الصفا ﴾ تحت عنوان

﴿ الأدوار والأكوار ﴾

إذ ذكر أن البرّ يصير بحرا والبحر يصير برا فى أزمان وعين لها نحو (٣٦) ألف سنة وأن ذلك تبع تقدّم الاعتدالين ولكن أقول إن هذا ظنّ دليله ضعيف وانما المعروف هو ماقدّمته لك . إذن هذه الأرض تتقلب كما يتقلب الليل والنهار وهذه القارات يوما ماتذهب ويحل محلها قارات أخرى تخلق الآن فى قاع البحر وستظهر بزلزلة عظيمة ، فقصة نوح ونحوها ماهى إلا فتح باب لهذه المفاجآت العظيمة التى أعرب عنها الله بقوله ـ وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أومعذّبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ـ ألاترى رعاك الله أن البراكين اليوم (كماستقرؤه فى أوّل سورة فاطرعند قوله تعالى ـ يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ـ) تأتى لنا من باطن الأرض بمادّة بركانية تكون أصلح للزرع من جميع التربة فوق الأرض ، فكم للبراكين والزلازل من منافع فاذا أتمت قارّة عملها خسف بهاالأرض هى وأهلها وأظهر قارّة أخرى أحسن منها . فالقارات والمدن والأمم أشبه بالأشخاص لكل أجل محدود لمنافع هو يعلمها ولا يعلمها سواه ، وهلاك قارّة أوأمة كهلاك فرد واحد لافرق بين الفرد والأمة والقارّة والمدينة اهـ

﴿ قصة ابراهيم عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) اذكر قصة (ابراهيم إذ قال لقومه) أى حين كمل عقله وتمّ نظره (اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم) مما أنتم عليه (إن كنتم تعلمون) الخير والشر وتميزانهما (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة (إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا) فكيف تعبدونهم إذن (فابتغوا عند الله الرزق) فانه المالك (واعبدوه واشكروا له) لأنه المنعم عليكم بالرزق والشكر يستلزم العلم بما يجب الشكرعليه والذى يشكرعليه كل مافى السموات والأرض مما خلق الله فيجب النظرفيه ومعرفته كل على مقدار طاقته وذلك هوقوله ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ـ الخ فذلك هومفتاح الشكرالذى سيذكر بعد اتمام هذا المقام وهوقوله (اليه ترجعون) فى الآخرة (وان تكذبوا) أى تكذبونى (فقد كذب أمم من قبلكم) من قبلى من الرسل فلم يضرّهم تكذيبهم وانما كان ضررهم على أنفسهم (وماعلى الرسول إلاالبلاغ المبين) الذى يزول معه الشك فأما كونه يصدّق و يتبع فليس عليه ، ثم أخذ يشرح مبادئ الشكرالذى هواخلاص بالقلب لسائرالناس وثناء باللسان على الله وصرف كل نعمة فيما خلقت له وتلك المبادئ هى المعرفة والعلم فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) من مادّة ومن غيرها (ثم يعيده) كما بدأه لأن من قدر على البدء فهو قادرعلى الاعادة (إن ذلك) أى الاعادة أوماذكر من الأمرين (على الله يسير) لأنه اذا قال للشئ كن فيكون (قل) يامحمد أويا ابراهيم (سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) على اختلاف الأجناس والأحوال وسيأتى شرحه (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الأولى التى هى الابداء ومن عرف النشأة الأولى عرف أن الأخرى أهون (إن الله على

كل شئ قدير) والممكنات كلها تتعلق بها قدرته (يعذب من يشاء) تعذيبه (و يرحم من يشاء) رحمته على مقتضى درجته التي استحقها ، ولامعنى للعدل إلا وضع كل شئ فى موضعه (واليه تقلبون) تردّون (وماأنتم بمعجزين) ربكم عن أن يدركم (فى الأرض ولافى السماء) إن فررتم من قضائه بالتوارى فى الأرض أو التحصن فى السماء أوالتلاع الذاهبة فيها لأنه خلقكم ليربيكم فيهما و يديرعليكم دوائرالنحس والسعد والعذاب والنعيم . كل ذلك لتمحيصكم وتربيتكم وتخليصكم من المادّة ورجوعكم الى عالم الأرواح فتلاقوه إن استحققتم وتردّون الى العذاب إن نقصت تربيتكم فأين تذهبون إذن (ومالكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) فلاولىّ يمنعكم ولانصير ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) دلائله الدالة عليه عقلية ونقلية (ولقائه) بالبعث (أولئك يئسوا من رحمتى) أى يئسوا منها فى الدنيا لأنهم ظنوا أن الله خلق هذه الأرواح فأحياها ثم أماتها بلافائدة ولاحياة بعد الموت وهذا عمل من لارحمة عنده ولارأفة كما قال تعالى ـ قل لمن مافى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ـ فجعل من موجبات الرحمة التى كتبها على نفسه أنه يجمعنا يوم القيامة و يقول هنا إن هؤلاء يئسوا من رحمة الله فهذه هى الرحمة حقا ، فأما خلق الناس ثم هدم بنيتهم هدما تاما واعدام أرواحهم لارجعة لها فهذا لارحمة فيه ، ولذلك تجد أكثرالآيات يقرن فيها ذكر الله بذكراليوم الآخر ، وقوله (وأولئك لهم عذاب أليم) أى بكفرهم (فما كان جواب قومه) قوم ابراهيم له (إلا أن قالوا اقتلوه أوحرّقوه) أى قال الرؤساء ذلك ورضى به الأتباع فأسند الى كلهم فقذفوه فى النار (فأنجاه الله من النار) فصارت بردا وسلاما (إن فى ذلك) أى فى انجائه منها (لآيات) كحفظه من أذى النار واخمادها مع عظمها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها (لقوم يؤمنون) لأنهم المنتفعون بها (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا) أى اتخذتم أوثانا سبب مودّة بينكم فتكون ـ مودّة بينكم ـ مفعولا ثانيا بتقدير مضاف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) فيتناكر الأتباع والمتبوعون ويلعن بعضهم بعضا شأن اللصوص وقطاع الطرق اذا وقعوا فى قبضة القضاء (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين (وما لكم من ناصرين) مانعين من العذاب (فآمن له لوط) وهوابن أخيه وأوّل من آمن به لما رأى النار لم تحرقه (وقال إنى مهاجرالى ربى) من قومى إذ أمرنى بذلك فهاجرمن قرية «كوثى» وهى من سوادالكوفة مع لوط وامرأته سارّة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم . و يقال انه هاجر وهوابن خمس وسبعين سنة (انه هوالعزيز) الذى لايغلب وهوالذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لايأمرنى إلا بمصلحة لى (ووهبنا له اسحق و يعقوب وجعلنافى ذرّيته النبوّة والكتاب) يقال انه لم يبعث نبىّ بعد ابراهيم إلامن نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) وهوالثناء الحسن فكل أهل الأديان يحبونه و يصلون عليه والذرية الطيبة والأنبياء من نسله ، هذا له فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرتهم مثل آدم ونوح وادريس

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أرسلنا (لوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين) لم يفعلها أحد قبلكم وفسرها فقال (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرّضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال حتى انقطعت الطرق وكذلك تقطعون سبيل النسل بالاعراض عن مكان الحرث (وتأتون فى ناديكم المنكر) وذلك انهم كانوا يحبقون فيه وكانوا يستعملون الخذف والسخرية كما فى حديث الترمذى ومعنى الحبق الضرط ومعنى الخذف بالمعجمة رمى الحصاة من طرف الأصبع (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فى استقباح ذلك وفى دعوة النبوّة (قال ربّ انصرنى على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بالبشارة بالولد والنافلة

(قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) قرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين) بتماديهم فى المعاصى وكفرهم بلوط (قال إن فيها لوطا) فكيف تهلكونها فيهلك مع الهالكين (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) الباقين فى العذاب أوالقرية (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم طاقته كما يقال ضاقت يده فى مقابلة رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا له لأن طويل الذراع ينال مالاينال قصير الذراع (وقالوا لاتخف ولاتحزن) علينا (إنا منجوك وأهلك) أى إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ونصب أهل باضمار فعل (إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) عذابا منها (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بينة) وهى حكايتها المشهورة وآثار الديار الخربة (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار . هذا واعلم أن الكلام على قرى قوم لوط وأين مقرّها تقدم فى المجلد الثالث عشر عند ذكر القصة فى القرآن فارجع اليه إن شئت تجد هناك للكشف الحديث مجالا واسعا

﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

قال تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) افعلوا ما ترجون به ثوابه (ولاتعثوا فى الأرض مفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فى دورهم باركين على الركب ميتين

﴿ قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (عادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) يا أهل مكة اذا نظرتم اليها عند مروركم بها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) وهى المعاصى وعبادة غير الله (فصدّهم عن السبيل) السوىّ (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستبصار ولم يعقلوا

﴿ قصة موسى عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (قارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين) أى فائتين بل أدركهم أمر الله (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهى الحصا الصغار كما كانوا يرمونها بأصابعهم وهم يأتون فى ناديهم المنكر (ومنهم من أخذته الصيحة) يعنى ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهوقارون (ومنهم من أغرقنا) وهم قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ تعرّضوا للعذاب باستعداد نفوسهم له على مقتضى النظام لذى نظمناه فى سرّ الخليقة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأوّل من السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ـ ﴾

لقد مضى الكلام على هذه الآية فى ضمن الكلام على قوله تعالى ـ إن فى خلق السموات والأرض ـ الخ فى (سورة البقرة) بطريق الاستطراد فلنفصل الكلام عليها تفصيلا الآن

يقول الله ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ـ الخ ثم يقول ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ وهذا أمر صريح يوجب علينا معاشر المسلمين التشمير والجد والطلب الحثيث فى معرفة كيف بدأ الله الخلق . أمرنا الله بالسير فى الأرض والسير ﴿ قسمان ﴾ سير جسمى وسير عقلى ، فالأوّل محتم على الجهلاء والتلاميذ ، والثانى محتم على العلماء والحكماء ولا يكون الثانى عادة إلا بعد الأوّل ولامعنى للسير الثانى إلا الدراسة فأما مجرّد النظر الظاهرى كنظر العامّة ونظر البهائم فهذا ليس بنظر وليس بسير

واعلم أيها الذكي انى فى مبدإ أمرى كنت أقول فى نفسى هذا العالم إما منظم واما مبعثر لا نظام فيه ولا ترتيب فان كان الأول فله إله وان كان الثانى فلا إله له لأنها عبارة عن اجتماع وافتراق بلا ضابط ولا رابط ولا نظام ، ولقد ذكرت هذه القصة فى كتابى ﴿ التاج المرصع ﴾ وقلت ما معناه « انى توجهت الى مبدع هذا الوجود وطلبت منه أن يوقفنى على نظامه ولطالما سألته سبحانه فى الخلوات ودعوته فى الحقول وعلى شطوط الأنهار و بين الأشجار وفى الليالى والأسحار أن يفهمنى ذلك حتى يكون اليقين داخل نفسى لا بمؤثر خارجى وأصبحت بهذه الفكرة مغرما وعليها معوّلا وكنت اذا نظرت الطيور فى وكناتها وهنّ يغرّدن طربات و يطرن فرحات ويربين أولادهنّ صابرات . أقول اذا كان صانع هذا العالم قد أعدّ للطير عدّته وأبان له محجته أفلا يكون لهذا الانسان سبيل الى مايبتغيه وطريق الى ماله حاجة فيه وكان ذلك مبدأ فكرى فى هذه الدنيا وكنت اذا عثرت على شاطئ النهر على بعض حشرات ذات خطوط منظمات وذات زوايا مهندسة وأشكال بهجة أقول ياليتنى أرى هذه الدنيا كلها على هذا النمط فأقرّ بإله نظمها وحكيم أبدعها ولكنى أرى الجبل والقفر والبرّ والبحر والشجر والحجر والأرض والسماء لا نظام فيها مقبول ولا عمل فيها محسوب

أليست هذه المرأة تضع حب الذرة فى الأرض التى شقها المحراث وزوجها واضع يده على قائمة ذلك المحراث يسوق دابتين فأين النظام ؟ بهائم ليست مستقيمات الرؤس الى أعلى وانسان رأسه مشرئب الى العلا وماء يجرى فى الحقول وحب ينثر فى الطين ، أمور غير مضبوطة وأحوال ليس لها قانون ولا نظام مسنون ثم توجهت وتوجهت ودعوت ودعوت وقلت لوأن صانع هذا الكون علمنى نظامه لأودعت ذلك بطون الكتب وتركته لمن بعدى من الحائرين وخلفته للأذكياء المفكرين كيلا يشكوا كما شككت ولا يهنوا كما وهنت ولا يضلوا كما ضللت ، ثم صنفت كتبا مختلفة المقاصد والحمد لله إذ وفقنى لهذا التفسير . إن هذا غاية مطلبى من هذه الحياة ونهاية مأربى من هذه الدنيا ، فهل تحب أن أريك جمال الوجود والنظام المشهود لتعرف قوله تعالى — قل سيروا فى الأرض فانظروا — ، فانظر ماسأضعه بين يديك واعجب من حكم عالية وجواهر غالية ووجوه باسمة وعيون ساحرة وشموس ساطعة وأنوار باهرة فهاك مبادئ الوجود وأوائل العالم المشهود ولنبدأ بالعوالم العلوية ونتبعه بالعوالم السفلية

(١) فترى أوّلا نظام الكواكب

(٢) ثم نظام العوالم الأربعة الانسان والحيوان والنبات والمعادن

(٣) ثم نظام العناصر

(٤) ثم بيان أن الانسان خاصة دعى الى معرفتها

(٥) و بيان ذلك فى أدعية الصلاة نفسها وكيف كان المسلم فى صلاته وأدعيته يكرّر صباحا ومساء نفس هذه المبادئ و يتلوها وهو غافل عن معانيها وهو بتلك التلاوة و بتلك الأدعية مأمور أن يبحث فى هذا العالم وكيف بدأ الله الخلق

(٦) ثم تبيان أن الله ماترك الناس سدى بل أعطى الجهلاء ظلال هذا النظام وألقاه على ألسنتهم وفى أعمالهم بصورة مصغرة

ومتى قرأت هذه الصور اتضح لك العالم ورأيته كقلادة الحسناء أوكمنزل نظمه بانيه وأحكم نظامه أوكحديقة غناء رتبت أشجارها وانتظمت مزارعها ، أوكمدينة أحكمت طرقها و بيوتها أوكبيوت الشطرنج انتظمت طولا وعرضا وفيها أمهر اللاعبين وأذكى الحاسبين

(١) ﴿ نظام السموات ﴾

سأتلو عليك من نبأ السموات مايناسب المقام ولأوضحنه على قدر الامكان لتعرف كيف وضعت الكواكب

وضعا محكما بحيث كان بينها مسافات منتظمات وكان يكفيني أن أحيلك على ماكتبته لك فى (سورة البقرة) وغيرها مثل (الأنعام) ولكن سأعيد هنا مافيه الكفاية

إن فى علم الحساب متوالية هندسية ومتوالية عددية ، فالأولى مثل قولك (١ - ٢ - ٤ - ٨ - ١٦) وهكذا و (٣-٦-١٢-٢٤-٤٨ الخ) والثانية مثل (٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ الخ) فانظر كيف وضع الله الكواكب وجعل نظامها بالنسبة للشمس على الطريقة الأولى بحيث اذا فرضنا بعد الزهرة (٣) يكون بعد الأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مهشم بقيت آثاره تجرى كما كان يجرى وقد كشفه العلماء (٢٤) والمشترى (٤٨) وزحل (٩٦) وأورانوس (١٩٢) ونبتون (٣٨٤)

هذا هو القانون الذى استخرجه العلماء فى العصر الحاضر لأبعاد الكواكب السيارة عن الشمس بحيث يكون بعد كل كوكب ضعف بعد الكوكب الذى قبله ، فكأن هذه الكواكب مصابيح وضعها صاحب البيت على أوضاع لاخلل فيها ناطقة بلسان الحال ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ إنا كل شئ خلقناه بقدر ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ـ إن الله سريع الحساب ـ

أليس من السار اللذيذ انى حييت فى هذه الدنيا حتى كتبت هذا ، اللهم انى أحمدك على نعمة العلم والحكمة أيها الذكى ، أنا لا أريد فى هذا المقام كثرة العلم لأن المقام يقتضى الأمثلة السهلة المقبولة فكفى ماذكرته فى الفلك وأما تحقيق تلك الأعداد فارجع اليه فى نفس هذا التفسير فى سورة البقرة والأنعام فان ماذكرته اجمال وهناك تفصيل ومساحة بآلاف الآلاف من الأميال

(٢) ﴿ نظام الانسان والحيوان والنبات والمعادن ﴾

هاأنت ذا رأيت نظام الكواكب من حيث وضعها ، فهل نظام هذه المواليد على الأرض كنظام الكواكب فى الابعاد . كلا . وانما نظامها بحال مخالفة لتلك ، إن هذه المواليد سلسلة واحدة متصل أعلاها بأدناها

(١) التراب
(٢) الجص . الزاج . الشب . أدنى المعادن
(٣) الذهب . الياقوت . والجواهر النفيسة كلها أعلى المعادن
(٤) خضراء الدمن والكمأة وهى أدنى النبات
(٥) النخل والكشونى وهما من أعلى النبات
(٦) أنبوبة تنبت على الصخور فى سواحل البحار فيها دودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة الحلزونية . هذا أدنى الحيوان
(٧) القرد . الحصان . الفيل . هذه متصلة بعالم الانسان
(٨) أدنى الانسان سكان أطراف المعمورة لامعرفة لهم ولاعلم
(٩) أعلاه الأنبياء فالحكماء
(١٠) الملائكة
(١١) الله فوق الجميع

هذه هى السلسلة التى شرحها القدماء ولقد شرحتها مرارا فى هذا التفسير بطرق شتى ، فترى الجص والشب والزاج معادن أقرب الى التراب ليست شريفة كالذهب ولا الياقوت ولاتزال المعادن فى ارتقاء حتى تصل الى الفضة التى هى أرقى من النحاس ثم الذهب ، فهذا الأعلى من المعادن يليه أدنى النبات وهو اللاصق بالأرض ينبت صباحا ويذبل ضحى يراه الناس كل يوم فى الغدوات أيام الربيع ثم ينتهى ضحى وهكذا كل يوم ويرتقى النبات

الى أن يصل الى النخل والكشوثى ، أما النخل فقد امتاز الذكر فيه عن الأنثى كأنه حيوان ، وأما الكشوثى فهو نبات يعيش على غيره من النباتات و يمتص منه فكأنه حيوان ، فالنخل قارب الحيوان فى انفصال الذكر عن الأنثى والكشوثى فى استقلاله وعيشه عيشة حيوانية على النبات لاعلى التراب والماء والعناصر الأرضية ثم يلى ذلك دودة الحلزون التى تكون على شاطئ النهر والبحر إذ لها حاسة اللمس وليس لها حاسة غيرها فهى قريبة من النبات . انه يحس بالضوء فيميل اليه باحساس ضعيف جدا و يرفع غصنه الى أعلى و يمد فروعه فى الأرض نحو المواضع الندية و يتجافى عن المواضع اليابسة ، فإذن بين النبات و بين أدنى الحيوان مناسبة والحيوان يرتقى من الأدنى الى الأعلى وهو الانسان وهو درجات من أدنى الى أعلى وأعلاه الأنبياء ومن نالوا حكمة وعلما و بعد هؤلاء عالم الملائكة وفوق ذلك الله فهو منزه عن هذه المادة والمخلوقات . فهنا إذن نسبة كاملة والعالم سلسلة منتظمة

(٣) ﴿ النظر فى المعادن ﴾

إن المعادن كثيرة منها الاسفيذاج والاسرب والاسفندرى والتنكار والجص والتوتيا والدر والذهب والرصاص والرماد والزاج والزنجار والزئبق والزرنيخ والزبرجد والزنجفر والزمرد والشب والعقيق والعنبر والفضة والفيروزج والقير والكبريت والكحل وملح الطعام والمرجان والمغناطيس والموميا والنورة والنوشادر والنحاس والنفط والياقوت * قال العلماء ﴿ إن من المعادن الألماس وهو لايحتك بجسم من الأحجار المعدنية إلا هشمه إلا جنسا من الاسرب فانه يؤثر فيه ويكسره و يفتته مع رخاوته ولينه ونتن رائحته ﴾ ومامثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهين فى هذا الجوهر الشريف إلا كمثل (البقة) تسلطت على الفيل القوى فآذته ، فالألماس قام فى المعادن مقام الحديد فى الخشب والياقوت مسلط على أكثر المعادن . ثم إن الماس يتكون فى معدن الياقوت وتخرجه الرياح والسيول من معدنه وهو ضربان أبيض كالبلور و يسمى البلورى وأبيض يخالط بياضه صفرة ومن خواصه انه يقطع كل حجر يمر عليه واذا وضع على الحديد ودق بالمطرقة لم ينكسر وغاص فى وجه السندال والمطرقة . والياقوت لاتعمل فيه المبارد لشدة صلابته إلا الألماس والسنباذج بالحك فى الماء . والمغناطيس يجذب الحديد . فانظر كيف كان الياقوت يعمل فى أكثر المعادن وهو مسلط عليها والألماس مسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن والاسرب الذى هو جنس من الرصاص ولكنه غير ناضج مسلط على الألماس المسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن . ثم إن هذه المعادن تجمع من أقطار المسكونة فى أماكن مختلفة ومع ذلك نراها متحدة الوجهة بحيث تتحد على المنافع العامة ولها نظام فمنها الجاذب ومنها المجذوب ومنها الحاكم على الجميع ومنها ماهو ماتحته . وهذا الحاكم وهو الألماس له مؤدب من رعيته وهو الاسرب وكأنه قاض يحكم على الملك واذا رأينا العلماء والحكام فى الناس على مقدار الحاجة هكذا نرى المعادن لايحكم فيها بالقطع إلا قليل على قدر الحاجة ونرى ما كان منها نافعا فى أكثر الأحوال يكثر كالجص والنوشادر وما كان متوسط النفع يكون متوسط الوجود كالنحاس والرصاص وما كان للزينة أوللتعامل كان وجوده أقل كالذهب وما كان لمجرد الزينة والجمال ندر وجوده كالألماس والياقوت . فهذا نظام يشبه نظام الكواكب فيما تقدم فتلك نظمت أوضاعها وكالمواليد الثلاثة فانها متسق نظامها متقارب وضعها . وهذه أيضا رتبت على مقدار الحاجة اليها وهى وان دخلت فيما قبلها أردت أن أفصل الكلام فيها تفصيلا توطئة لما سيأتى فى القسم الرابع وهى

(٤) ﴿ العناصر عند علماء العصر الحاضر ﴾

إنى أحمد الله إذ وصلت الى هذا المقام فأريد أن أطلعك على نظام بديع فى العناصر التى عرفها علماء العصر الحاضر وهو فوق السبعين عدا . قد كان القدماء يقولون إن العناصر (٤) وهى الماء والتراب والنار والهواء ولكن علماء العصر حللوا هذه فأصبحت فوق السبعين وسأوضح بعضها ولكن ليس المقام مقام علم العناصر

ولامقام تحليلها وانما المقام مقام نظام وحساب . إن هـذا الأمر أعجب ما رأيت فى العلم ولـكنى لا أقدر أن أشرحه كما يجب . إن معرفة الدقة فى الحساب والنظام بين العناصر والنسب بينها لايعرفها إلا أكابر العلماء فى هذا الفن وهم لم يعرفوها إلا بعد ماعرفوا الخواص الطبيعية والـكيمائية و بعد تلك الخواص يعرفون النسبة والجمال فـكيف يمكن أن نفهم ذلك ونحن فى تفسير القرآن ونخرج عن جمال موضوعنا الى مجاهل مقفرة وطرق يضلّ فيها السارون . أقول إن الله يضرب الأمثال للناس فلأقدّم لك ضرب مثل يشرح صدرك وتعرف به هذا المقام الجيل ، تصوّر رجلا مثريا عنده نحو ثمانين رجلا يزرعون فى حقوله فأقبل عليه علماء بلاده ضيوفا فأحبّ أن يريهم عجيبة فقال إن هؤلاء الرجال اذا أنا أوقفتهم صفوفا فى أماكن معينة من هذه الأرض بحيث يتكوّن منهم صفوف طولية وصفوف عرضية فان كل رجل أرتبه مع مابعده بحسب الوزن فـكل رجل يزيد عما قبله وقيتين فى الصف الأوّل الأفقى وهكذا الصف الثانى والثالث الى الصف الرابع عشر وذلك من اليمين الى الشمال بحيث يكون آخر واحد أكثر من أوّل واحد بعدد الرجال مرّتين من الوقيات ، وهنا يكون العجب العجاب تجد كل واحد من كل صف أفقى أعنى من اليمين الى اليسار أكثر مما قبله وقيتين وأقلّ مما بعده وقيتين كما قدّمنا اجمالا وأيضا يكون هو نفسه بالنسبة لمن هو فوقه أقل (١٦) وقية وبالنسبة لمن تحته أكبر (١٦) وقية فى الخط الرأسى ومع هـذا كله تجد كل صف أفقى قد اتحدت أفراده فى ثمانية أشياء كالعرض والطول وطول الشعر بحسب الطبيعة ومقدار ما يأكلون بالوزن ومقدار مايشربون كـذلك والمرض يكون فى وقت واحد والنوم فى وقت واحد والفرح والحزن كـذلك لايختلفون البتة

هذا من جهة الصف الأفقى . أما من جهة الصف الرأسى فان الرجل مع من خلفه ومن أمامه يتفقون فى الصفات الباطنة فيعرف الصف الواحد علوما متفقة فتى عرف واحد منهم علم النحو والصرف والفقه والتفسير والشعر والعروض والأدب وعلم الموسيقى تجد الصف كله يعرف تلك العلوم . إذن لـكل واحد خصال يشترك فيها مع الصف الأفقى وخصال يشترك فيها مع الصف الرأسى ، واذا مات واحد من هؤلاء فان صفاته معلومة لأن صفاته الجسمية بالنسبة للخط الأفقى وصفاته العقلية بالنسبة للخط الرأسى مفهومة معلومة فيمكننا أن نعرف صفاته ونوقن بأننا نجد فى قريتنا أطفالا يولدون بهذه الصفات فلومات ثلاثة من صفوف مختلفة فاننا نوقن أنه سيولد أطفال يحلون محل الذين ماتوا بشرط أن كل طفل يخلق متصـفا بتلك الصفات المعروفة عنـدنا ويحل محل من مات بصـفاته التى لاخلل فيها . ولقد مات عشرون رجلا وصفاتهم معروفة وهانحن أولاء نرتقب المولودين حـديثا ونضع كل مولود فى مرتبته ومتى كبر رأيناه بهذه الصفات فى الأماكن الخالية . هذا هو المثل الذى أردت ضربه ليقرّب لنا موضوع النظام فى العناصر فصاحب الضيعة جعل رقعة من أرضها وقسمها مربعات وجعل المربعات صفوفا منتظمات وأوقف كل رجل فى مكان مرتبين بترتيب الوزن من اليمين الى اليسار وهذا الترتيب بعده تظهر خواص عجيبة حتى ان كل رجـل يشارك صفه الأفقى فى صفات نحو ثمانية وهكذا هو مع من أمامه ومن خلفه تـكون له صـفات اخرى خلقية وكلما مات واحـد يولد آخر ويكون له نفس تلك الصـفات واذا مات منهم عدد جاء بدله ويمكنهم أن يصفوا كل من يخلق قبـل وجوده . فاذا رأينا وجودا على هذا النمط كان فى غاية النظام . واذا تصوّرنا أن هنا موجودات على هـذه النسبة كما ستراه الآن فى العناصر فان العقل يدهش لذلك أشدّ الدهش وتصبح هذه العناصر فى أوزانها وأوصافها أشبه بالجدول الآتى فى الصفحة التالية

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

فاذا صعب عليك التمثيل بالرجال فى الضيقة فيما قدمناه فانظر هذا الجدول فهو يقرب لك المقام . فكل صف من صفوفه الرأسية وصفوفه الأفقية وهكذا القطران عدد (٦٥) فاجمع أى صف تجده على هـذا النمط وهذه الأعداد من (١) الى (٢٥) وضعت على هذا النظام فـكان هذا الاتحاد فى الجمع . اذا عرفت هذا فقس عليه نظام العناصر الآتى ولـكن هذا تقريبى إذ نظام العناصر الآتى يكون نسبة كل عنصر الى صفه الأفقى غير نسبته الى صفه الرأسى كما رأيت وأيضا الصفات هناك كثيرة ولـكنها هنا فى الجدول ليست متعددة ، ولقد أطلت ليسهل عليك ما سأذكره (انظر الجدول الآتى فى الصفحة التالية)

(الصفوف أو الخطوط الرأسية)

(الصفوف أو الخطوط الافقية)

الايدروجين ١ر٧											
هليوم ٣ر٩٩	ليثيوم ٦ر٩٤	جلينوم ٩ر١	بورون ١١	كربون ١٢	ازوت ١٤	اكسوجين ١٦	فلور ١٩				
نيون ٢١	صوديوم ٢٣	ماغنيسيوم ٢٤ر٣٢	الومنيوم ٢٧ر١	سلكون ٢٨ر٣	فوسفور ٣١	كبريت ٣٢ر٠٧	كلور ٣٥ر٤٦				
ارجون ٣٦ر٨٨	بوتاسيوم ٣٩ر١	كالسيوم ٤٠ر٠٩	انكليديوم ٤٤ر١	تيتان ٤٨ر١	فاناديوم ٥١ر٠٦	كروم ٥٢	مانجنيز ٥٤ر٥٣	حديد ٥٥ر٨٥	كوبلت ٥٨ر٩٧	نيكل ٥٨ر٦٨	
	النحاس ٦٣ر٥٧	خارصين ٦٥ر٣٧	جاليوم ٦٩ر٩	جرامانيوم ٧٢ر٥	زرنيخ ٧٤ر٩٦	سيلينوم ٧٩ر٢	بروم ٧٩ر٩٢				
كريبتون ٨٢ر٩	روبيديوم ٨٥ر٢٥	استرانتيوم ٨٧ر٦٣	ايتريوم ٨٩	زركينيوم ٩٠ر٦	نيوبيوم ٩٣ر٥	موكبدين ٩٦		روثينوم ١٠١ر٧	روديوم ١٠٢ر٥	بلاديوم ١٠٦ر٧	
	فضة ١٠٧ر٨٨	كوديوم ١١٢ر٤	انديوم ١١٤ر٨	قصدير ١١٩	انتيمون ١٢٠ر٢	تللوريوم ١٢٧ر٥	يود ١٢٦ر٩٢				
زينون ١٣٠ر٢	سيزيوم ١٣٢ر٨١	باريوم ١٣٧ر٢٧	انتال ١٣٨ر٩	سيريوم ١٤٠ر٣	... ١٤٤	...	سماريوم ١٥٠ر٣				
				اربيوم ١٦٦							
			اتيربيوم ١٧٢		تانتال ١٨١	تونجتن ١٨٤		اوسيميوم ١٩٠ر٩	ابريديوم ١٩٣ر١	بلاتين ١٩٥ر٢	
	ذهب ١٩٧ر٢	زئبق ٢٠٠ر٦	ثاليوم ٢٠٤	رصاص ٢٠٧	بزموت ٢٠٨						
		اوديوم ٢٢٦ر٤		ثوريوم ٢٣٢ر٤		اورانيوم ٢٣٨ر٥					

ههنا آن أن أشرح لك جدول العناصر السابق . أشرحه لك لتعجب من عجائب هذه الدنيا البديعة الجميلة ألست ترى أن الايدروجين وحدة يقاس عليه كما رأيته فوق الجدول وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا وهكذا الليثيوم وجلينيوم و بورون وكربون وأزوت واكسوجين فهذه مع الايدروجين ثمانية كان وزن آخرها وهو الاكسوجين (١٦) فكان لكل واحد اثنان فى الجملة وان اختلف بعض أفرادها وتجد أن وزن ذرة الكبريت (٣٢) وكسر وهى تمام الثمانية الثانية وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبى قد يختلف ، ثم لننظر الى الصفوف الرأسية التى يسمونها الطوائف ، فاننا نجد أن الليثيوم فى الصف الرأسى (٦ر٩٤) والصوديوم تحته (٢٣) والفرق بينهما (١٦) ثم ان البوتاسيوم تحته (٣٩ر١) فالفرق بينهما (١٦)

ألست أيها الذكى تتعجب من هذا النظام البديع ، كيف رتبت العناصر اثنين اثنين عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد (٢-٢-٢) الى آخرها ثم وجد بينها تناسب فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت باثنين أفقيا وتفاوتت رأسيا بمضاعف اثنين وهو (١٦) وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذى هو عدد الشطرنج المعروف وكأن هذه رقعة شطرنج والله وضع العناصر فيها ورتبها ليرينا كيف بدأ الخلق بنظام ، وهل كان يدور بخلدك قبل هذا أن هذا العالم الذى خلقنا فيه قدجعلت أصوله التى يحلل اليها الانسان والحيوان والنبات بينها تناسب فى أوزانها كتناسب مسألة الشطرنج إذ أن الملك الهندى لما اخترع الفيلسوف الشطرنج طلب منه أن يتمنى شيأ ليكون كالمكافاة فقال اعطنى قمحا بحيث لوجعل فى البيت الأوّل من الأربعة والستين بيتا من الشطرنج حبة يكون فى الثانى (٢) وفى الثالث (٤) وفى الرابع (٨) الى آخره فلما حسبوه لم يكفه القمح الذى فى الدنيا مئات السنين وقد كتبتها فى كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وتقدّم فى سورة مريم . هذا نظام العناصر حسابيا

﴿ نظام العناصر الطبيعى والكيمائى ﴾

انك ترى أن كل صف رأسى تشترك أفراده فى الخواص الطبيعية (١) كاللون (٢) والطعم (٣) والرائحة (٤) والذوبان (٥) والانصهار (٦) والغليان (٧) والحرارة النوعية (٨) والكثافة

فأما الصفوف الأفقية كالهليوم مع الليثيوم فانها تشترك فى الصفات الكيمائية مثل (١) الاحتراق وكونه فلزا أوغيرفلز (٢) وهل يتفاعل مع الاودروجين (٣) والوزن الذرى (٤) والوزن المكافئ بالنسبة للأودروجين ومعنى ذلك أن يقال هذا العنصر اذا حلّ محل الاودروجين فى التفاعل مع الاكسوجين مثلا فكم درهما تقوم مقام الايدروجين فتطرد الايدروجين وتحل محله (٦) ثم مع أى عنصر يركب (٧) وخواص المركبات وتركيبها (٨) وتأثيره فى الأحماض ﴿ مثال ذلك ﴾ الالومنيوم تأمّل تجد أن له نسبة عددية الى ماقبله وما بعده ونسبة هندسية الى مافوقه وماتحته فههنا اجتمعت النسبة العددية والنسبة الهندسية وهذا هو عين الموسيقى والنغمات والشعر ، فهذا العالم كله موسيقى وشعرونظم وتجده يشترك فى خواصه الطبيعية المذكورة مع مافوقه وهو البورون وماتحته وهو انكليديوم وخواصه الكيمائية يشترك فيها مع ماقبله فى الخط الأفقى وهو المغنيسيوم ومابعده فيه وهو السليكون فاذن تكون الصفات (١٨) صفة منها اثنتان عدديتان و (١٦) طبيعية وكيمائية

﴿ معجزات العلم فى هذا الجدول وعجائب القرآن وفهم قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وقوله ـ إن الله سريع الحساب ـ وهو كله معنى قوله ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ ﴾

إذن يسهل عليك أيها الذكى أن تفهم كيف أخبر (مندلييف الروسى) سنة ١٨٦٩ مخترع هذا الجدول بما سيحدث وهو أن الطبيعة تحتوى على معدن جاليوم وجرمانيوم ومعدن آخر وعين فى هذا الجدول محلها الذى رأيته وذكر الخواص الطبيعية والكيمائية ونسبها الحسابية التى هى من الصفات الكيمائية أيضا ثم جاء العلماء بعده فكشفوا هذه المعادن الثلاثة على وزان ماقرّره فتأمّل وتعجب ، وعليه سيكشف الناس كل عنصر وضع فى مربعه شرطه سوداء أونقط فى هذا الجدول وقد عينوا مواضعها وخواصها كما فعل (مندلييف) سنة ١٨٦٩ فههنا أحد وعشرون عنصرا قد عينها الناس متربصين كشفها فى الزمان المستقبل والعناصر التى كشفت الى الآن (٨٦) والباقى المنتظر (٣٤) تقريبا فتكون العناصر كلها (١٢٠)

ولعمرى أىّ فرق إذن بين نظام الكواكب ونظام العناصر ، فههنا (مندلييف الروسى) أخبر بعناصر قبل وجودها وأبان أوصافها فكانت كما ذكرنا وكذلك فى علم الفلك فانهم كشفوا أيضا ان بعد كل كوكب سيار مضاعف لبعد ماقبله عن الشمس وبهذه الطريقة قالوا إن بين المريخ والمشترى فراغا كان يجب أن يكون فيه سيار فى المسافة (٢٤) لئلا تختل النسبة المحفوظة ، فانظر الجدول فى (سورة البقرة) وقد ذكرناه فى هذا

المقال اجمالا قريبا ، وقد كشف العلماء كواكب كثيرة فى نفس ذلك المكان الذى عينه العلماء وهى عبارة عن قطع صغيرة من ذلك الكوكب الذى كان فى ذلك البعد ثم جاء أجله وقامت قيامته فصار هشيما وهاهى الكواكب الصغيرة التى اشتقت منه تدورحول الشمس ولكن لايعرفها إلاعلماء الرصد ومن أجزائه سيريس

﴿ الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها ﴾

لقد عرفت كيف كانت العناصرمنظمة تنظيما بديعا بهيجا وهذا النظم فيها أبدع وأبهج من نظام الجدول المخمس الذى رأيته آنفا وانى أحمد الله عزوجل إذ كنت أيام التعلم أبحث فى هذا العالم عن نظامه وقد اطلعت على أوفاق كذلك الوفق المخمس فكنت أقول ياليت شعرى إن الله كان يقدرأن يجعل العالم منظما كنظام هذا الجدول ، إذن يكون هذا العالم بديعا و يستدل الانسان به على ربه ، أماالآن فانى أقول إن هذا الترتيب أعجب وأبدع من ذلك الجدول الذى يعجب منه المبتدئون ، ماكان ليخطر ببالى أن يكون هـذا العالم على هذا النظام ، وماكان يخيل لى انه حق كما رأيت الآن ، ياعجبا كل العجب ، كواكب منظمة أبعادها حيوانات ونباتات ومعادن مسلسلة صفاتها منظمة متتالية عناصرمرصعة مرصوفة محسوبة منظومة ، هذا هوالشعر، هذا هوالنظم ، هـذه هى القصائد ، هذه هى الأغانى ، لا ، بل هذه هى السعادة والنعمة و بهجة جنان الخلد ، إن أهل الجنة اذا لم يتعلموا يودّون لو يعرفون هـذا معرفة أجلّ من معرفتنا ، جلّ الله ، ما أبدع هذه الجواهر وأقرّها للنواظر وأسرها للخواطر وأشرحها لصدورالأكابر

﴿ نظام النفوس الانسانية والملائكة ﴾

إن فى هذه الجواهرعجائب أخرى . ألاترى الى الذهب والحديد والرصاص وأمثالها كيف نظمت كماقدّمناه فى وجودها بحيث تكثرالنافعة للعموم وتقل غيرها كما شرحناه فى الكلام على المعادن . ألم يقلّ الذهب لأن فائدته يجب أن يكون هو على مقتضاها . ألم يكن الروديوم الذى قد كشف حديثا قد قلّ وجوده جدا جدا بحيث ان الذى كشف منه لا يصل إلا الى دراهم معدودة . ألم تر أن هذه القلة تناسبه حتما ، لماذا ؟ لأنه هو الحاكم على المعادن . انظركيف كان الألماس فيما قدّمنا يحكم على المعادن و يسلط عليها و يكسرها أماهوفلايحكم عليه إلا الأسرب كما علمت فأما هنا فان الروديوم تسلط أشعته على بعض المعادن فيحيلها الى البعض الآخر حتى أصبح الناس يرون أن العناصر من أصل واحد بسبب هذا التأثير . ألست ترى أن هذه الأشعة قد أثرت فى العلم تأثيرا كبيرا . ألست ترى أن قلة هـذا المعدن لابد منها ولوكثرلأحدث تغيرا فى عالمنا الأرضى . ألست ترى أن الذهب كالحكماء والنحاس والحديد والاكسوجين والاودروجين وغيرها كبقية الناس . أولست ترى أن هذا المقام هوالذى شرحه أفلاطون فى جمهوريته إذ جعل الناس قسما كالذهب وقسما كالفضة وقسما كبقية المعادن وهم الحكام والجيوش و بقيـة الأمة . أولست ترى معى أن الأنبياء أشبه بالروديوم . أولست ترى أن هذا هوقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ﴾ أولست ترى معى أن هـذا النظام فى العناصر يخيل للانسان أن هناك نظاما أدق منه فى عالم الأرواح الانسانية وانها ربما كان بينها نظام كهذا النظام أوأدق بحيث لو بحث الناس فى عقولهم المختلفة لوجدوا هناك نظما تتفق وتختلف بنظام بحيث تقوم تلك القوى الكامنة بحاجة البشر . أولست ترى أن الناس يجهلون نظام عقولهم وانهم لايزالون أشقياء حتى يعرفوا نظام عقولهم . أولست ترى أن نظام عقولهم يكون أدق من حيث نسبه من نظام الذرات لأن الأرواح أرقى من المادة والأرقى تكون فيه النسب أدق . أولست ترى أن الناس سيبحثون عن هذه الغرائز فى طباعهم ولكنى لا أدرى هل ينالونها فى المستقبل على هذه الأرض أم ذلك مؤجل ليعرفوه بعد موتهم فى العوالم التى سيمرون بها فى عوالم البرزخ وهناك يدرسون أنفسهم دراسة أدق من دراسة هذا الجدول . ألست ترى أن هذا يناسب قوله تعالى ـ ومامنا إلا له مقام معلوم ـ واذا كان المقام المعلوم بالنسبة

للذرات

للذرات عجيبا فما بالك بالمقام المعلوم للملائكة . أوليس هذا كله يناسب نظام الشمس والكواكب فى شروقها وغروبها لأن لها جداول لا خلل فيها . يا ألله عجبت من صنعك وابداعك وفهمنا على قدر طاقتنا قولك - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق - . هذا هو بدء الخلق وهو عجيب جدّ عجيب

﴿ اللطيفة الخامسة فى أن حاجة الناس دفعتهم الى هذه العلوم ﴾

أيها الذكى هاأنت ذا اطلعت على نظام هذه العوالم وعلى بدء الخلق ورأيت كيف حضّ عليها القرآن أفلا تنظر معى كيف اتفق الشرع والحاجة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ انظر كيف أمر الله بأن نعرف كيف بدأ الخلق ولم يكتف بذلك بل أحوج الانسان وحكم عليه أن يبحث فى ذلك كله لأجل أموره المعاشية . انظر كيف ترى العالم الروسى يبحث عن نسبة العناصر وهو لم يبحث عنها إلا وهو مجدّ فى طلب علوم الدنيا لأجل الحياة الحاضرة والله يقول لنا أيضا انظروا ، ايه ، ما أجهل الانسان ، ما أجهل أمّة الاسلام ، أبعد هذا يا أمة محمد ﷺ تنامون ، أمركم ربكم ودعت الحاجة الى معرفة حقائق الدنيا وأنتم نائمون ، ألستم أنتم الذين وعدتم وأمرتم أن تكونوا خير أمة أخرجت للناس وأن تكونوا رحمة للعالمين وتخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، أأنتم ورثة السلف الصالح . كلا . كلا . والله أنتم ورثتهم ولكن فى تحمل الشريعة وستصيرون ورثتهم فى هداية الأمم بعد ظهور هذه الحقائق فى هذا التفسير وغيره وستقودون نوع الانسان بعد الآن . افاتكم أن هذه الحقائق والدقائق والنظم البديعة استخرجها الناس لأجل حياتهم الدنيا ولم يفعل الله ذلك معهم إلا لأن طباع أهل الأرض لا تتحرّك إلا بمحرّك قاسر قاهر وهو الامور الحيوية ليدافعوا عن أنفسهم الأعداء و يجلبوا لأنفسهم الغذاء ولعمرى لم يجعل الله هذا فيهم إلا ليكمل نفوسهم بقدر الامكان فان علاج الصناعات وممارسة الزراعات والتجارات ونظم السياسات وما أشبه ذلك وكذلك أعمال الحرب كلها مما تدعو لرقى العقول والاطلاع على العجائب ، وأهل الأرض لولا ما ابتلاهم الله به من ذلك ما اطلعوا فهم مقهورون مأمورون بالاطلاع والمسلمون قد دعاهم دينهم للاطلاع فناموا لأنهم لم يعلموا أنهم مأمورون بالتدقيق لهذا الحدّ فعليهم من الآن أن يجدّوا و يقرؤا العلوم التى عرفها الناس ثم يسيطروا على سائر العلوم

﴿ ذكر البارود والعناصر التى ركب منها عند الأمم ﴾

قلنا إن الله حكم على الأمم بالحرب وغيره لتعرف دقائق العلوم وقلنا إن المسلمين جهلوها فعوقبوا بأن الفرنجة دخلوا بلادهم وأذلوهم بالأسلحة والغازات الخانقة ، وأقول الآن إن النوع الانسانى الذى خلقه الله على هذه الأرض ركب تركيبا مناسبا وليس يتحرّك للمعارف غالبا إلا بمؤثرات بليغة والمؤثرات كما قدمنا ﴿ قسمان ﴾ دينية ودنيوية ، والدنيوية إما لجلب رزق كالزراعة والتجارة والصناعة ومنها الطب ولا جرم أن العناصر وتحليلها ومعرفة ذراتها ومعيارها لابد منها للأدوية الطبية وللزراعة والتجارة وهذا أمر معلوم ، فهذا جعل لجلب المنفعة ماعدا العقاقير الطبية فانها لدفع مضرّة المرض . واما لدفع ضرر وذلك أن علم صناعة الحرب تقدم تقدما عظيما ومعرفة العناصر ومقاديرها أمر واجب لذلك

انظر الى صنع البارود فهو مخلوط من ملح البارود والكبريت والفحم ، فمن الأوّل (٧٥) ومن الثانى (١٢٫٥٠) ومن الثالث (١٢٫٥٠) وهذا عند الفرنسيين و(٧٤) و(١٠) و(١٦) على هذا الترتيب عند الألمانيين و(٧٦) و(١٠) و(١٤) عند الانجليز على الترتيب

ومن أراد تلوين السواريخ بالبياض فليأت بنحو (١٦) من ملح البارود و (٤) من الكبريت و (٣) من البارود الناعم

(نيران زرقاء) كلورات بوتاسيوم (٢٦) كبريت (١) أوكوسى كلورور النحاس (١٤) وهناك مقادير

للنار الحمراء والبنفسجية

وللنيران الخضراء كلورات بوتاسيوم (٢٨) أزوتات باريوم (٣٥) أوكسى كالورور النحاس (١) صمغ لك (١٠) كالورور الرصاص

للون الصفرة (٥) كلورات بوتاسيوم (١) صمغ لك (٢) أوكسالات صوديوم

هذه نبذة من التركيب وفوائده وكيف كان وزن العناصر أصبح ضروريا لنوع الانسان حتى فى دفاعه عن نفسه وكيف استطاع أن يركب من الكبريت والفحم وملح البارود أنواعا ثم كيف قدر على التلوين بالخضرة والصفرة والحمرة وغيرها ، ذلك كله بوزن وحساب كما صنع الله عزّ وجل فى نباته وحيوانه إذ استخرج من أجزاء معلومة مالايتناهى من أشكال بديعة وصور عجيبة و بدائع وغرائب . إن الانسان خليفة الله فى الأرض فتراه يسير على سنن حكمته وان لم يعلم . سلط الله الناس بعضهم على بعض بالقتال والحرب فاضطروا لمعرفة المادّة وتحليلها وحسابها كما اضطروا لذلك فى أمور معاشهم فهم مضطرون للعلم وللتحليل وللتركيب فى الحالين حال جلب المنفعة وحال دفع المضرّة . فهذه العلوم تقوّى أجسامهم وترقى نفوسهم و يسيرون فى الأرض و يركبون السفن الحربية ويحاربون فى الجوّ ويمزّقون الأجسام فتنشط الأمم وتقوى الهمم وتدفن الرمم و يبقى الأحياء مجدّين . إن الله بالحرب والضرب يريح أرواحا من هذه الأرض فتخرج منها الى عالم البرزخ والأرواح الباقية تستفيد عبرة واختبارا . أيها الذكى لاتظنن أنى أبيح الحرب .كلا. وانما كلامى فى الحكم الكونية التى فهمتها من عمل الله فى الأرض . انه سلط بعضهم على بعض لأن هذه الأرض ليست محل اقامة بل هى دار صناعة وتعليم وتنشيط . جهلت هذه الأرواح الأرضية التى تمرّ بأرضنا علوما ومعارف فأنزلها فى الأرض وسلط عليها هذه الأخلاق وأرسل لها أنبياء وحكماء ثم قال افعلوا فكل ميسر لما خلق له فتطاحنوا وتضاربوا وتقاتلوا كل ذلك ليستيقظوا للنتيجة وهى أن تعرف نفوسهم نظام هذا العالم وتصل الى الجمال فاذا وصلوا الى الجمال وعرفوا الحقائق يدخلون فى دار أخرى تكون العلوم فيها بالشوق لا بالحرب والضرب والفقر ومبادىء العلوم هناك ماتراه هنا من الجمال . ولعلك تقول أى جمال هنا

﴿ الجمال فى هذا العالم ﴾

اعلم أن نهاية هذا العالم الجمال ولا يمكن ادراكه إلا بالحكمة والناس يفهمون الجمال العادى فى الوجوه وجمال الوجوه فى ﴿ أربعة أشياء ﴾ الخدّين والعينين والأنف والفم . هذه الأربعة متى كانت منتظمة سائرة على النسب الصادقة فانها تكون جميلة ومتى تنافرت قبحت وظهرت مكروهة الطلعة . وليس فى الأرض انسان إلا وهو يدرك هذا الجمال اجمالا ولكنه لايدرك سببه والسبب هو النسب التى قرّرها العلماء لأعضاء الانسان وليس هذا مقام بيانها ، ومرجع الجمال فى الزهر والنبات والحيوان هو النسب العددية والهندسية ، وليس فى الأرض ولافى السماء جمال إلا بهذه النسب ، وترى الناس يطربون للشعر وللموسيقى وليس ذلك إلا للنسبة العددية والموسيقية والشعر والموسيقى من واد واحد فان السبب والوتد والفاصلة المشروحة فى ذينك العلمين ترجع كلها الى حركة وسكون فى علم الموسيقى وحرف ساكن وحرف متحرك فى علم الشعر ، فالشعر والموسيقى يرجعان الى هذين ، فترى الأبحر الستة عشر التى جعل لها الخليل دوائر حسابية منظمة لم تخرج عن النسبة الحسابية والهندسية وهكذا جميع الأغانى وضروب الموسيقى على هذا النمط كما نرى فى الماخورى من علم الموسيقى مثل بحر البسيط من علم الشعر وكلاهما (٤٨) مابين ساكن ومتحرك ففى كل منهما (١٢) سببا و (٨) أوتاد ومعلوم أن السبب متحرك وساكن والوتد متحركان وساكن فتكون الأسباب (٢٤) حرفا والأوتاد (٢٤) وهناك تظهر النسب الهندسية والنسب العددية كما هو واضح فى ذينك العلمين . إذن ظهر لك أن الناس لايفرحون بالجمال المحسوس إلا للحساب والنسبة وان كانوا لايعلمون ذلك وكلما كان التناسب أتم كان السرور أعظم ،

هكذا فى الجمال العقلى الذى لامعنى له إلا تلك النسبة ، ومن وازن ماذكرناه فى الجمال الظاهرى وفى الشعر بما أنبأناه هناك فى الجدول الذى اخترعه العالم الروسى يرى فرقاعظيما ، يرى التناسب هناك أبدع ، إذ يرى الخواص الطبيعة والخواص الكيماوية مضافة الى الأوزان الذرية ، فالشعر والموسيقى والجمال الظاهرى لم يدخل فيها شئ سوى الحساب ، أما فى أوزان الذرات فهناك (١٦) صفة تزيد على النسبة المذكورة ولذلك نرى لذة العلماء والحكماء أضعاف أضعاف لذة الجهلاء لأن الجاهل لايعرف إلا ما أحسّ به والعالم ترقى وأدرك ما لايفهمه الجاهلون ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ـ

أقول وكأن هذا الجمال الذى يظهر فى هذه الذرات وأمثالها هو مبدأ لنظام أجل تدركه النفوس اذا خرجت من هذا العالم والشوق هنا يؤهلها للرقى هناك ، لذلك تجد النفوس الانسانية مجدّة على الأرض فى طلب العلم للجلب وللدفع * والدليل على ذلك ماتراه فى تعريف حكماء الشرق للتربية قديما وحديثا

(١) قال ابن المقفع ﴿ مانحن الى ماتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الأدب الذى هو لقاح عقولنا ﴾

(٢) قال أفلاطون ﴿ الغرض من التربية هو امداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجمال ومن رأيه أن يربى قليل من أبناء الخاصة لأجل نظام الحكومة ﴾

(٣) وقال ملتون ﴿ التربية الصحيحة الكاملة هى ماتؤهل المرء للقيام بأىّ عمل خاصا كان أوعاما بمهارة واخلاص تام أثناء السلم والحرب ﴾ وهذا التعريف يقرب مما قرّرناه

(٤) وقال جيمس مل ﴿ التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملا من عوامل السعادة لنفسه أوّلا ولسائر مخلوقات الله ثانيا ﴾

(٥) وقال جون استوارت مل ﴿ التربية تشمل كل ما يفعله المرء أو يفعله غيره له لغرض تقريبه من درجة الكمال ﴾

(٦) وقال هربرت سبنسر ﴿ مهمة التربية هى اعدادنا لحياة كاملة ﴾

(٧) وقال بعض علماء بروسيا ﴿ التربية إنماء جميع القوى الانسانية إنماء تتعادل فيه جميع القوى ولكن ميول البشر واستعدادهم مختلفات فقد يكون من الحكمة الاهتمام ببعض القوى فى انسان أكثر منه فى آخر ﴾ ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم فقال بطريقة مبنية على طبيعة العقل ﴿ فكل قوى العقل يجب أن تفحص ثم تقوى وتنمى على حسب طبيعتها ﴾

(٨) « القرآن » ألست ترى أن هذه التعاريف كلها جاءت فى هذه الآية ، وهل ترى انى الآن أنقلها لغير فائدة التفسير ، انى نقلتها لأنها فى نفس الآية ، فقوله تعالى ـ قل سيروا فى الأرض ـ والسير حركة وهى ترجع للقوّة الجسمية ، وقوله ـ فانظروا ـ راجع للقوّة العقلية فكأن الله بهذه الآية يأمرنا بنظام الجسم و بنظام العقل و بهذا دخلت التعاريف السابقة كلها فى الآية والآية شملتها ، فالحركة للتجارة وللحج وللقتال ولطلب العلم وللسياحة كلها سير فى الأرض وكل حركة للتمرين وللأعمال العامة تقرب من السير لأنها حركة على وجه العموم ، وكل صناعة فبدؤها بالعلم ونهايتها بالعمل فهى مشتركة بين الجسم والعقل ، فصناعة البارود مثلا مبدؤها التعقل فى المعامل والمدارس ونهايتها السير فى الأرض واطلاق النار ، فأوّلها تعقل وآخرها عمل وجميع القوى العقلية تنمو بالنظر . إن الآية قرنت بين التمرين الجسمى والتمرين العقلى فهى تعطى الجسم حظه والعقل حظه وهذه كانت صفة نبينا ﷺ فانه كان فى أثناء الجهاد يوحى اليه ويعظ الناس ويعلمهم . فحركة العقل وحركة الجسم متقارنتان . ومتى تذكرت ماجاء فى (سورة التوبة) من أن كثيرا من آياتها أوحى بها فى سفره الى غزوة تبوك عرفت تفسير قوله تعالى ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا ـ الخ وكذلك غزوة أحد

وغزوة بدر . فكان الجسم والعقل مشتركين فى تنمية العقول . إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد فى تربية النفوس بل ان أدعية الصلاة مؤيدة لذلك

﴿ اللطيفة السادسة . مقاصد الصلاة فى الاسلام العلوم والحكم وارتقاء العقول بها ﴾

ذكرت لك أن ديننا يأمر بالعلوم وأن الفطر الانسانية والحاجة الدافعة اضطرت الناس الى العلوم وأذكر هنا أن الصلاة تبعث على العلوم ، فكما أن القرآن كله حث على النظر فى هذه الدنيا نجد المؤمن فى أقطار الأرض يقرأ كلمات تحثه على العلوم وأكثر الناس لايعلمون ، انظر الى الفاتحة فهى مبدوءة بالحمد ثم الدعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وتقدم هذا . وانظر الى الأدعية فى الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والتشهد وأنواع المحامد والثناء ، إن المحامد عند الرفع من الركوع تحث على معرفة العوالم العلوية والسفلية عامة والمحامد فى الركوع والسجود تحث على علوم الطبيعة بأجمعها ، انظر الى هذه العجائب فى العبادات ، انظر الى دين جاء لأمم أرقى من الأمم الحاضرة . ياالله إنك أمرت المسلم أن يقول عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شئ بعد » وهل للحمد اللفظى معنى إلا بالعلم بالمحمود عليه وما المحمود عليه إلا هذه العوالم التى ذكرناها ودخلت فى قوله تعالى هنا ـ فانظروا كيف بدأ الخلق ـ أىّ معنى للحمد بدون علم . إن المسلم يصلى ولايعلم أن الصلاة تدعوه للعلوم . إن المسلم اذا صلى وقلبه غافل لاصلاة له واذا صلى وقلبه حاضر وعرف المعنى فاما أن يقف عند الألفاظ وهو متجه لله فيشتاق اليه ثم يموت فيرجع اليه وهو عابد فى درجة خاصة ولكنه لايرتقى الى درجات رفيعة ، فأما اذا فهم المقصود من الصلاة فانه يتغلغل فى العلوم إذ يعلم أن الصلاة تحثّ على الجدّ فى معانى هذه الكلمات ومعانيها هى جميع العلوم . يرفع المسلم رأسه قائلا « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ » فكأنه يشير الى علم الفلك ومانحا نحوه وبقية العلوم اجمالا ، أما فى الركوع فانه أوّلا ينزّه الله أن يكون كالمخلوق فيقول « سبحان ربى العظيم » فكأنه قبل أن يخاطبه ينزّهه أن يكون كمن يخاطبهم ثم يقول « اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت » وهذا اقرار بالايمان وهى أوّل مرتبة ولكن الوقوف عندها جهالة وكسل ثم يقول « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » وهذا عبارة عن علم التشريح وأن المسلم عليه أن يعرف شيأ من التشريح حتى يدرك السمع والبصر والمخ الخ وقد تقدم بعض ذلك فى هذا التفسير وكذا السمع والبصر فى (سورة آل عمران) والمؤمنين ويقول فى السجود بعد التسبيح « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ففى السجود ذكر الايمان والتسليم كما فى الركوع ولكن المصلى يتوغل هنا فيقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره » فالتعبير بالخلق والتصوير وشقّ السمع والبصر يقتضى زيادة العلم بالتصوير وبعجائب طبقات العين وعجائب الأذن وغرائب المخ وذلك يدعو الى علم التشريح ويقرب منه معرفة أنواع الحيوان والنبات والعناصر التى خلقت هذه منها . ولست أقول ان المصلى اذا لم يدرس تكون صلاته باطلة ولاأخالف مانص عليه الفقهاء ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ ولكن المقام مقام مزايا الاسلام فى التربية ، فانظر كيف دعانا الى معرفة العوالم العلوية عند رفع رؤسنا الى أعلى ودعانا لمعرفة أجسامنا ويقاس عليها ماهو نظيرها فى التغذى والتركيب وهو الحيوان والنبات وهكذا العناصر المركبة هى منها . ولما كان العبد وهو ساجد أقرب الى ربه كما فى الحديث وكما فى الآية كما قال تعالى ـ واسجد واقترب ـ رأينا الدعاء فى السجود يوضح تشريح الجسم ويشير الى الجدّ فى مسائل الجسم الانسانى . واذا ضممنا ذلك الى ذكر الحمد على جميع النعم فى الصلاة ومبادئ النعم كلها ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية وكذلك قول المسلم فى قنوت الصبح فانه يدعو بطلب الهداية ويحمد الله ويشكره فى آخر الدعاء . ولامعنى للحمد ولاللشكر إلا هذه العلوم وكذلك

التشهد

التشهد فان المسلم يقول « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله » وهـذا فى معنى الحمد ويختم ذلك بقوله « إنك حميد مجيد » والحمد لامعنى له كما قلنا إلا بمعرفة العلوم المتقدمة والا كان حمدا ناقصا . أقول اذا ضممنا ذلك كله الى ماذكرناه ظهر أن الصلاة فى جميع أحوالها عبارة عن درس لهذه العلوم وحث عليها ومجرد أدعية الصلاة كاملة كافية لشوق المسلم الى هذه العلوم وان لم يسمع من القرآن حرفا ، وسيأتى فى هـذه الأمة من يعرّف الناس مقاصد الصلاة و يعرّف الناس مقاصـد القرآن و يعرّف الناس حكمة الله فى خلق الناس على الأرض و يعرّف الناس أن الله لم يدع وسيلة لتنمية العقول إلا وضعها فى هذا العالم الأرضى وأن المسلمين لما جهلوا جماله ونظامه ولم يعرفوا مافى القرآن وأن الرسول ﷺ شكا من طائفة فقال ـ يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ـ ولم يعرفوا ماترمى اليه الصلاة أرسل سبحانه الفرنجة ليكون هذا آخر سهم يرمى به المسلمين حتى يرجعوا الى رشدهـم و يتعلموا وعسى أن يقوم فيهم من يفهمهم أن الاسلام أرقى مما أنتم عليه وأن هذه هى العلوم التى يرضاها الله فهى خـير من ضياع الوقت فى فروع فقهية ينقضى الدهر ولا يسأل عنها أحد . اللهم إنى نصحت وأفرغت جهدى فى النصح ، وانى أسألك أن تلهم هـذه الأمّة الرشد وتسعد بالها وتلهم الأذكياء منها أن يرفعوا من شأنها و يسعوا لاصلاحها و يهدوها الصراط المستقيم

سيعلم الدعاة والمصلحون فى الاسلام أن ماذكرناه فى هـذا المقام ترمز اليه الصـلاة على الترتيب الذى سطرناه . فالثناء فى الرفع والاعتدال وفى الفاتحة والدعاء بالهداية فيها وفى القنوت وفى الجلوس بين السجدتين موجه لعموم العلوم فإذن يبتدئ المتعلم بقراءة العلوم كما فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الأمم الراقيـة ثم يأخذ فى علوم التخصيص حتى يتقن فنا خاصا كما قرّرناه مرارا . فالثناء فى حال الرفع والاعتدال ومامعه غير مايذكر فى الركوع وفى السجود من ذكر نوع خاص كالسمع والبصر والمخ والعصب فهذا خاص والمذكور فى الاعتدال عام . فالصـلاة نسخة من صفحات العلوم أوحى الله بها الى نبيه ليقرأها الناس صباحا ومساء وقد اهتدى بهذه الصحيفة البيضاء قوم وسيهتدى به أكثر المسلمين فى مستقبل الزمان

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

اعلم أن الله عزّ وجل كما حثّ المسلمين فى صلاتهم وفى دينهم وفى جميع أحوالهم على العلوم ثم سلط علينا الفرنجة لما سبق فى علمه اننا جامدون حث الأمم الأخرى التى سبقتنا على ذلك فيما كانوا يتعبدون به لأنه رحيم عام الجود . ولأذكر لك ما كان يصنعه قدماء المصريين للتقرّب الى الكواكب التى كانت معظمة عندهم كما ذكره أستاذنا العلامة على باشا مبارك فى كتابه ﴿ خواص الأعداد ﴾ قال ماملخصه

« كان المصريون يعتنون بالاوفاق وأخـذ عنهم فيثاغورس وجماعته وسميت بالاوفاق لأنهم نسبوها الى الكواكب السبعة فانهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن الموافق للكوكب الذى يريدونه وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضـلاعه بقدر مايشتمل عليه ضلع المربع ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكوكب المطلوب ومرسوم عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة اشارات منطقة فلك البروج وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معـه . وكيفية انتساب تلك الجداول الى الكواكب هو انهم كانوا يجعلون لزحل المربع المنقسم الى تسع خانات جذر عددها (٣) ومجموع أعداد صـفه (١٥) والى المشترى المربع المكوّن من (١٦) خانه جذرها (٤) ومجموع أعداد صفه (٣٤) والى المريخ المربع المركب من (٢٥) خانه وضلعه (٥) ومجموع أرقام صفه (٦٥) وقد تقدّم قريبا والى الشمس المربع المكوّن من (٣٦) خانه وضلعه (٦) ومجموع أعداد صفه (١١١) والى الزهرة المربع المشتمل على (٤٩) خانه وضلعه (٧) ومجموع أعداد صفه (١٧٥) والى عطارد المربع المشتمل على (٦٤) خانه وضلعه (٨) ومجموع أعداد صفه (٢٦٠) والى القمر المربع المشتمل على (٨١) خانه

وضلعه (٩) ومجموع أعداده (٣٦٩) وكانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على (٤) خانات وضلعه (٢) والله الواحد الأحد المربع المكوّن من خانة واحدة وضلعه (١) بحيث انه لوضرب فى نفسه لايتغير أبدا . وقد تقدم الوفق المخمس . ولأرك شكلا واحدا آخر وهو المسبع ثم أذكر الحكمة فى وجود هذا فى العالم الانسانى

(المسبع)

٤	٣٥	١٠	٤١	١٦	٤٧	٢٢
٢٩	١١	٤٢	١٧	٤٨	٢٣	٥
١٢	٣٦	١٨	٤٩	٢٤	٦	٣٠
٣٧	١٩	٤٣	٢٥	٧	٣١	١٣
٢٠	٤٤	٢٦	١	٣٢	١٤	٣٨
٤٥	٢٧	٢	٣٣	٨	٣٩	٢١
٢٨	٣	٣٤	٩	٤٠	١٥	٤٦

ولأكتف بهذا المسبع وبالمخمس الذى ذكرته سابقا وأشرح موضوع هذه الأوفاق . إن هذه الأوفاق كانوا يعتنون بها ويدعون أدعية للكواكب وكان ذلك على مقتضى ما عندهم من العلم . ولاجرم أن دين قدماء المصريين كان دخله التحريف فصاروا يتقرّبون بهذه الأوفاق . والسرّ فى التقرّب بها أن أعدادها منتظمة تحير فكر الذى يتلو العزيمة إذ يجد أعدادا منتظمة تحير العقل وتدهش اللب وتدخل فى عقل الناظر للأعداد نوعا من الحيرة وحب الاتقان فأصل وضعها كان لارشاد الشعب الى حبّ الجمال وهو النظام وذلك يدعوه للبحث فى السموات والأرض على ذلك النظام فى عالم السموات والأرض وربما كان ذلك من رجال الدين ثم تمادى الناس فيه فجعلوه لطلب قضاء الحاجات من الأصنام التى كانوا يزعمون أنها ملائمة للكواكب التى تحفظها الملائكة لأن دين القدماء هكذا ﴿ الله خلق العالم . الملك موكل بالكوكب . الصنم سبيل للكوكب الأوفاق تقرّب العابد من الكوكب الذى هو يمثل الملك المقرّب من الله ﴾ فهذه سلسلة طويلة أملاها عليهم رجال الدين تحصل عند طول الأمد بعد نزول الأديان فيحصل الانقطاع الى الامور المادية ويترك الأصل الذى قصده الأوّلون فعكف الناس على الاستغاثة والاستعانة بهذه الأوفاق ونسوا ما لأجله وضعت الأوفاق عند الكهنة ورجال الدين وان كانوا هم أيضا غيرموقنين بتطاول الزمن عليهم فتطاول الزمن على رجال الدين وعلى العامّة جعل تلك الأوفاق أدعية للرزق والجاه والشهوات كما أن كثيرا من جهلة الأمّة الاسلامية وبعض الخواص يجعلون القرآن فى أكثر الاوقات لطلب أمور الدنيا لغرض الدنيا وهذا انتكاس على الرأس . والمقصد الأوّل من ديننا ارتقاء النفوس بالعمل والعلم فاتجه كثير من الناس الى جعل الدين مفتاحا لباب الشهوات . وأصل الاوفاق عند قدماء المصريين تذكير النفوس بالعلم والحكمة وجمال الله فجعلها المتأخرون منهم باب مرتزق وتبعهم على ذلك جهلة المسلمين الى الآن ، فانظر كيف جعل الله فى القدماء قبلنا من وجهوا الهمم الى معرفة حسن النظام فى العالم بطريق الدين ثم نسيه أهله فذهبت دولتهم فأصبحوا خاسرين ، ذلك أن الله عزّوجل لم ينس عباده ولم يترك أحدا من خلقه بل هو عليهم مهيمن يذكرهم كل حين ولاينال العزّ إلا من سبقت له الحسنى . ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن (فيثاغورس) كان مغرما بعلم العدد ويقول إن العالم مركب من العدد وهذا لشدّة ولوعه بالله تعالى لأن هذه الاوفاق التى نقلها عن المصريين قد قرأها وعرف أسرارا وراءها لانعلمها نحن ففنى فى الخالق واشرأبت نفسه الى ذلك الجمال الأسنى ــ وأن الى ربك المنتهى ــ

ويقرب من ذلك جدول العناصر المتقدم بل هو مدهش ومدهش لأنه يعرف جمال الله فى صنعه بأبلغ

حجة

حجة وأقطع برهان . واعلم أن قدماء المصريين لما جهلوا المقصود من دينهم نسخه الله هكذا المسلمون لما نسوا مقصود القرآن سلط الله علينا الفرنجة وسيجعل الله بعد عسر يسرا ويرتقي الاسلام — وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب — انتهى الكلام على القسم الأول من السورة

(القسمُ الثاني)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى الأصنام يتكلون عليها فى نصرهم (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون) أى مثل المشرك الذى يعبدالوثن بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما ان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان ـ لوكانوا يعلمون ـ أى لوكانوا يرجعون الى علم لعلموا أن هذا مثلهم (إن الله يعلم مايدعون من دونه من شئ) هذا توكيد للمثل أى ان الله يعلم أن الأصنام التى يدعونها ليست شيأ فما نافية ومن زائدة وشئ المجرور بمن الزائدة مفعول تدعون (وهو العزيز) الغالب الذى لاشريك له (الحكيم) فكيف يعبد الناس ماليس شيأ و يذرون عبادة العزيز الحكيم (وتلك الأمثال) الأمثال بدل (نضربها) نبينها خبر (للناس) وان ضحك من هذا المثل سفهاء قريش وقالوا محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت (ومايعقلها إلا العالمون) ورد « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » (خلق الله السموات والأرض بالحق) محقا غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الخير وايجاد كل ممكن تعلق به العلم (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) لأنهم يستدلون بالآثار على مؤثرها (اتل ماأوحى اليك من الكتاب) تعبدا وحفظا وفهما لمعانيه واستكشافا لغوامض مافيه (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وذلك لأنها حال الاشتغال بها تشغل المصلى عن الاشتغال بغيرها ، وأيضا تورث النفس خشية من الله * روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله ﷺ ولايدع شيأ من الفواحش إلاركبه فوصف له فقال إن صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب (ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسميت ذكرا لأنها مشتملة على ذكره تعالى وهو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح (إلا

الذين

الذين ظلموا منهم) بالافراط فى العناد كأن يقتلوا الولد أو يقولوا يد الله مغلولة أو ينبذوا العهد ، واذا استعمل السيف فى بعض الأحوال فذلك انه كالـكى آخر الدواء فالمدار فى نشر الدين أصالة على اقامة الحجة لاسيما فى هذا الزمان ، ثم أبان طرفا من تلك المجادلة فقال (وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) مطيعون له خاصة وفيه تعريض بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله * وروى عن النبى ﷺ أنه قال ﴿ لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم ﴾ وقوله (وكذلك أنزلنا اليك الكتاب) أى وكما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) كعبد الله بن سلام وأحزابه (ومن هؤلاء) ومن العرب وأهل مكة ومن فى عهد النبى ﷺ من أهل الكتاب (من يؤمن به) بالقرآن (ومايجحد بآياتنا) مع ظهورها وقيام الحجة عليها (إلا الكافرون) أى المتوغلون فى الكفر كاليهود عرفوه ﷺ وكفروا به وكفرهم هو عين الجحود إذ الجحود بعد المعرفة (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك) فان ظهور كتاب جامع لهذه المزايا يستحيل أن يأتى به أمىّ فإذن هى معجزة (إذا لارتاب المبطلون) أى لوكنت تكتب أوتقرأ قبل الوحى اليك لارتاب أهل مكة واليهود فقال الأوّلون إنه يقرأ من كتب الأوّلين وقال الآخرون إن صفته فى التوراة انه لايقرأ (بل هوآيات بينات) أى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يحفظونه لايقدر أحد على تحريفه (ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون) المتوغلون فى الظلم المكابرون (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل العصا وناقة صالح (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها كما يشاء لست مالكها (وانما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الانذار (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فهو معجزة دائمة على مدى الزمان وليست كالعصا لأنها لاتدوم ، وقد جاء فى ﴿سورة طه﴾ أن أمثال هذه الآيات الحسية تلتبس ولذلك كفر بنو اسرائيل لما رأوا عجل السامرى وقد تقدّم ايضاح هذا هناك (إن فى ذلك) الكتاب الذى هو حجة دائمة (لرحمة) لنعمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) يشهد لى أنى رسول الله ويشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه (يعلم مافى السموات والأرض) فلاتخفى عليه حالى وحالكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو مايعبد من دون الله (وكفروا بالله) منكم (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم لأنهم اشتروا الكفر بالايمان (ويستعجلونك بالعذاب) كالنضر بن الحرث لما قال فامطر علينا حجارة من السماء (ولولا أجل مسمى) وهو ماوعدتك انى لا أعذب قومك ولاأستأصلهم (لجاءهم العذاب وليأتينهم) العذاب (بغتة وهم لايشعرون) باتيانه (يستعجلونك بالعذاب) أعيدت الجملة تأكيدا (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ستحيط بهم وتجمعهم جميعا (يوم يغشاهم العذاب) يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاءه (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فاياى فاعبدون) أى اذا لم تسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتمش فيه أمر دينكم فلتهاجروا عنه الى بلد تكونون فيه أصح دينا وأكثر عبادة * وعن سهل « اذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين » ويقال أيضا « إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها » (كل نفس ذائقة الموت) يريد بذلك تهوين الهجرة من بلد المعاصى ويقول اذا كانت النفوس تجد مرارة الموت وكربه فكيف يهمها المهاجرة من الوطن (ثم الينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) علالى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى أجرهم (الذين صبروا) على أذية المشركين والهجرة للدين والمحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) فلايتوكلون إلا على الله (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) لاتطيق حمله لضعفها أولاتدخره فتصبح ولامعيشة عندها (الله يرزقها واياكم) فأنتم مع قوتكم وهى مع

ضعفها سواء فى أن الله يرزقكم جيعا فهو المسبب لها فلاتخافوا على رزقكم من الهجرة إذ قال بعضكم كيف تقدم على بلدليس لنا فيها مرتزق (وهو السميع) لقولكم (العليم) بنياتكم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر) أى ولئن سألت أهل مكة ذلك (ليقولن الله) لأن العوالم منتهية اليه (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيده بعداقرارهم بذلك (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى لمن يشاء أى يوسع ويضيق لواحد فى وقتين مختلفين ويوسع لزيد ويضيق لعمرو (إن الله بكل شئ عليم) يعلم مايصلح العباد وما يفسدهم * وروى « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وان من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولوأغنيته لأفسده ذلك » (ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله) أى هم مقرّون بذلك (قل الحمد لله) على عصمتك من مثل هذه الضلالات وعلى تصديقك واظهار حجتك (بل أكثرهم لايعقلون) فيتناقضون فانهم يقولون إنه خالق كل شئ ثم يشركون به سواه (وما هذه الحيوة الدنيا) الاشارة للتحقير (إلا لهو) اشتغال بما لايعنى وتمتع باللذات وفرح (ولعب) عبث و باطل لايبقى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة أى ليس فيها إلاحياة مستمرة دائمة لاموت فيها فكأنها فى ذاتها حياة ، وأصل حيوان حييان من حي على وزن غليان فقلبت الياء الثانية واوا (لوكانوا يعلمون) حقيقة الدارين ما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباق ثم قال إنّ هؤلاء دائبون على ماوصفوا به من الشرك (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) فهم والحالة هذه لافرق بينهم و بين المؤمنين فى صورة الاخلاص لله لعلمهم أنه لايدفع الشدائد سواه (فلما نجاهم الى البرّ اذا هم يشركون) أى فاجؤا المعاودة الى الشرك والمؤمنون ثابتون على إيمانهم (ليكفروا بما آتيناهم) أى يشركون حتى يكفروا بما آتيناهم من النعمة (وليتمتعوا) أى سيتمتعون بهذه العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم وهذا تهديد ويصح أن تكون اللام للأمر فى ليكفروا وليتمتعوا (أولم يروا) أى أهل مكة (أنا جعلنا حرما آمنا) أى جعلنا بلدهم ممنوعا مصونا يأمن داخله (ويتخطف الناس من حولهم) يستلبون قتلا وسبيا (أفبالباطل يؤمنون) أى أبالشيطان والأصنام يؤمنون (وبنعمة الله) المذكورة الواضحة (يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن زعم أن له شريكا (أوكذب بالحقّ لما جاءه) يعنى الرسول أوالكتاب وفى التعبير بلما إيذان بسفاهتهم إذ سارعوا الى التكذيب بلاتروّ لمجرّد السماع (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم ، ولما كان أوّل هذه السورة مسوقا للجهاد العام لجهاد النفس والجهاد مع الوالدين والجهاد مع الأعداء ومع الأصحاب ختم السورة كما ابتدأها و بشر المجاهدين بالهداية فقال (والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا سواء أكان جهاد الأعداء الظاهرة أم الباطنة فيشمل سائر المعاصى حتى جهاد الكبر والحسد والحرص وكل مرض قلبى (لنهدينهم سبلنا) لأنا خلقنا السموات والأرض بالحق (وانّ الله لمع المحسنين) بالنصرة والاعانة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ـ)

لأذكر لك ما كتبته فى كتابى ﴿ جمال العالم ﴾ من عجائب العنكبوت تحت العنوان الآتى ونصه

﴿ العنكبوت ﴾

خلق العنكبوت ذا ثمانية أرجل وعلمه الله بالإلهام من الصغر فى إبان حياته حتى انه ينسج بحيث تتساوى كبارها وصغارها والأمهات وأولادها فى الغزل والنسج ، فلاعنكبوت إلاوقد أوتى هذه الصنعة بلاتعلم

ولا

ولاتعليم ولامدرسة كأمّهاتها ولاتخريج ولادرس ولاتنقيب كما فطرت صغار البط على العوم فى الماء عقب كسر بيضها وهكذا جميع الطيور والحشرات ، ولما كان هـذا التعليم غريزيا إلهيا لم يدخله الغلط ولا السهو بخلاف النوع الانسانى ولذلك احتجنا الى قول نبينا ﷺ « رفع عن أمّتى الخطأ والنسيان » فلايقع من العنكبوت فى نسيجه ولاغزله غلط بل تراه يحكمها باتقان مع التأنى والتثبت ، فترى خيوطا متينة وشبكاتها محكمة الوضع هندسية الشكل ، وقدقال علماء العصر الحاضر ﴿ لواجتمع كل نساج وغزال فى الدنيا وقوبلت صناعتهم بصناعات العنكبوت لفاق الثانى الأوّلين والآخرين وغلب الحيوان الأعجم هذا الانسان ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ـ

﴿ العنكبوت البناء ﴾

كل عنكبوت فى الدنيا غزال ونساج و بعض الأنواع بناء يبنى منازل يشاهدها الناس فى أماكن كثيرة فى حجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه حتى يأمن من دخول عدوّ مهاجم أوسارق فتأمّل كيف أعطى قوّة وحكمة عجز عنهما الانسان فى البناء كما أوتى النحل فى بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أوالبرد ، كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرّة الى أكبر كوكب ، وما ألذ النظر فى هذه العوالم والعلوم ، وما أجلّ الحكمة وأبهجها ـ إن ربك هو الخلاق العليم ـ ألا فليبتهج بهذا العالمون وليفرح الحكماء المدققون

﴿ عنكبوت البساتين ﴾

وهناك نوع يسكن البساتين وماشابهها ، تراه مضطرا الى الانتقال من شجرة الى شجرة ومن غصن الى غصن ، فماذا يصنع ياترى ؟ ألهمه الله أن يبنى قنطرة بين الشجرتين أوممشى بين الغصنين كما يصنع نوع من القرود فى أمريكا قنطرة كما تقدّم ، ولكن طريقة العنكبوت فى قنطرته أعجب ، فتلك بالأجسام وهذه بخيط واحد يخرج من فمه مخلوقا من لعابه اذا لامس الهواء جمد فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولايزال الطرف الآخر يغدو ويجىء حتى يمسك بورقة أوغصن فتمر عليه العنكبوت ، وبهذه الطريقة نجا عنكبوت من الموت فى حكاية واليك بيانها

حكى أنه وضع حيوان العنكبوت عنكبوت على عود فى ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزل من أعلى العود الى أسفله فوجد الماء محيطا به فرجع الى أعلى ثم أخذ يفكر فى حيلة اهتدى بها الى أن غزل خيطا وأثبت أحد طرفيه فى رأس العود ولازال الطرف يغدو ويروح حتى أمسك بغصن من الشاطئ الآخر فسار عليه حتى نجا سالما ، وهذا النوع البستانى ينسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة يقتنص بها الذباب وغيره فيتخذ بها مركزا يقيم فيه ويمد خيوطه الى جميع الجوانب ، فتشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها ، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة (البسكليت) فاذا أحكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطا أخرى فأدارتها على هذه وربطتها ربطا وثيقا محكما عليها مع التناسب فى الوضع والاحكام والهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جيلة الوضع ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وفى الأرض آيات للموقنين ـ وهذه الشبكة قلدها الانسان فى صيد السمك للقوت وفى صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة بالذهب مرصعة بالحلى اهتدى لها الانسان المتمدين بعد الآلاف من الدهور والعصور والسنين تفتخر به الفتيات الافرنجيات فى اتقان الصنعة وحسنها فانظر كيف كانت نهاية الانسان بداية الحيوان . لعله يهولك غرائب العنكبوت اذا عاينت أثرها وانها تنسج ماتنسج بمؤخر أرجلها فلاتحتاج الى النظر بعينها ، فاذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق

الشمس فى اليوم الثانى رأيت شبكتها نسجت كما كانت مع صبره وتؤدته وتثبته وانه يأتى بقطع صغيرة من الحجارة والخشب يضعها على نسجه ليثبته حافظا له من التكسر واطاعة الرياح الهائبة والأعاصير والزعازع وانه يبحث عن صمغ وغراء من أماكنها فى أشجارها و يلطخ بها خيطانه وشبكته ليكسبها لزوجة فلا تمزّق اذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير واذا مرّ بها الذباب التقطته بمادّتها اللزجة ولا يؤثر على الشبكة حركته ، فتأمل كيف صلحت بالغراء ﴿ لأمرين ﴾ إمساك الذباب والتمدّد باللزوجة لئلا تتقطع ، ومتى أمسكت الذبابة بالشبكة التى صنعت لهذه الغاية أسرع العنكبوت فى الحال اليها فعضها وجرى السم فيها فماتت فأكلها ، ومنه نوع يقرب من اليمام فى الحجم يصطاد الطيور كما يصطاد الصغير من الذباب والحشرات وقد تمر النحل بشبكته فيرجو أكلها ويخاف لسعها فيصبر عليها حتى تتعب ثم يأخذ فى أن يديرها بخيط يلفه عليها و يدور سريعا سريعا حتى لايبقى بها حراك ثم يقتلها بسمه و يأكلها

فهذه عجائب العنكبوت غفل عنها أكثر الناس وهم لايشعرون . انتهى ماجاء فى كتابى ﴿جمال العالم﴾ ولأذكر لك ماجاء فى كتابى ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾

(العنكبوت أيضا)

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذى اذا تعرّض للهواء انقلب الى مادّة أشبه بالقطن أوالحرير فيغزلها خيطا دقيقا و ينسج تلك الخيوط نسيجا محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات ﴿ إن هندستها التى رسمتها فى نسيجها ونظامها البديع الذى توخته فى عملها أدق ماصنعه المهندسون وأبرع مانظمه البارعون حتى انها لم تخطئ يوما فى نظمها ولم تغلط يوما فى نسجها وان أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا فى المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون فى تقديرهم و يشذون فى عملهم ويحيدون عن سواء السبيل ﴾ وهذه الحشرات لاتخطئ فى نظمها ولا تضلّ فى هندستها ولاتخيب فى احكامها ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلم العنكبوت خالق المهندسين ، فتلميذ الله لن يخطئ وتلميذ المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلاتعليم ولاتدريب ولاتهذيب ولاتدريس ولامدارس ولامعلمين بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التى أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

ولقد ذكر الله العنكبوت فقال ـ وانّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ـ فاذا كان أوهن البيوت على نظام أتمّ وحكمة أبهج فمابالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاما ـ وماكنا عن الخلق غافلين ـ

﴿ لطيفة ﴾

إن العلماء بحثوا فى تجزئة المادّة حتى وصلوا الى مايدهش العقول و يحير الأفكار فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا فانها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت ، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من (٤) فى (١٠٠٠) يساوى (٤٠٠٠) ومن عجب أن بعض علماء الالمان قال انه اذا ضم أربعة بلايين خيط(٤٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) الى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته . ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط ، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوى غلظه $\frac{١}{١٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ واحدا من ستة عشر تريليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط ، أليس ذلك من العجب ، أوليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه

فيخيل

فيخيل للرائى انه خرج بلاحكمة فاذا انضمت الخيوط الى بعضها كوّنت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا وكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول ـ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ـ وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله ـ لوكانوا يعلمون ـ فانظر كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت ، أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف فى الدقة وتناهت فى التجزئة ، فذكر الوهن هنا اشارة الى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لايمتنع عنها وهو متماسك ، ذلك هو السر فى قوله ـ لوكانوا يعلمون ـ فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن مجرّد اشارة إلا بعلم الطبيعة ، ولايدرى المسلمون ماالسرّ فى تسمية سورة باسم العنكبوت إلابالتفرّغ لدراسة الحشرات واذن يعرفون لماذا سميت سورة فى القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل وهى حشرات وسورة باسم البقرة وسورة باسم الأنعام وهذه من ذوات الأربع ، والذى أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة انما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التى سيوقظها أمثال هذا التفسير ويخرج جيل اسلامى لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور وهم خلفاء الله والنبى ﷺ وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين

ومامثل العنكبوت فى ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل إذ نظم بيوتا مسدّسات ذات أضلاع متساوية متقنة ، ومن العجيب أن الأشكال المسدّسة كل ضلع يساوى القطر المارّ مابين ضلعين من أضلاعها كما قرّره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة فى اختيار المسدّس دون باقى الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه فى كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحا أتم و بيانا أكمل فى كتابنا ﴿ جمال العالم ﴾ وكذا ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وغيرها وهذا التفسير انما جعلناه تذكرة عامّة للأمة الاسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم وليعلموا أن الله عزّوجل ماوصف هذه الحشرات ولاذكرهذه الآيات ولاأخذيصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا اليها وليحثنا عليها فانظر مسألة النمل الذى تقدّم الكلام عليها فانها فضلا عمافيها من بدائع الصنعة الالهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق واتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثرا عظيما فى الزراعة . إن تربية النحل فى البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذى يربو اذا كانت الخلايا فى وسط الأزهار ويقل بل يموت النحل اذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرّها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها سمى الله عزّوجل سورا من القرآن باسمها فسمى النمل والنحل والعنكبوت . أفليس ذلك نبراسا يهتدى به المسلمون فيرقون صناعاتهم و يبنون مجدهم ويدرسون كل مادب وكل ماطار وكل حيوان ونبات ـ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ـ كما قرّرناه . انتهى ماجاء فى كتابى ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ والحمد لله رب العالمين

هذا ما أردته عند تأليف هذا التفسير ثم إنى وجدت بعد ذلك أثناء تقديمه للطبع فى الكتب الفرنجية عجائب و بدائع فى العنكبوت والذباب ونحوه فآثرت ذكرها هنا تبصرة وذكرى للمسلمين

مامن امرئ إلا رأى نسج العنكبوت . إن العنكبوت ليست من الحشرات وان كان ظاهرها يوهم أنها منها . إن نوع العنكبوت ونوع الحشرات يتفقان فى أن كلا منهما له آلتان فى مقدمه يستعملهما كما نستعمل نحن أصابعنا وهو بهما يتفاهم كما يتفاهم الأصم الأبكم من الناس بحاسة البصر ولكن العنكبوت لها ثمانية أرجل والحشرات جميعها لها ستة أرجل . إن الحشرات والعنكبوت كلاهما تضع بيضا وانما الفرق بينهما أن

الحشرات يتحوّل بيضها الى دودة والدودة تنقلب الى (فيلجة) أى شرنقة والشرنقة تنقلب حشرة تامّة كما فى مسألة دودة القز ففيها هـذه الصفات والنحل والنمل وأشباهها وقد تقدّم فى سورة النمل ، ومن الحشرات ماتعتنى بنسلها كالنمل والنحل ومنها مالاتعرفه كحشرة أبى دقيق إذ تموت ولاترى أولادها وهكذا الجراد ولـكن هذا النوع يعتنى بوضع البيض فى مكان صالح بنسله . أما العنكبوت فمثله كمثل الدجاج فان بيضتها متى فقست خرج ولدها صورة طبق الأم كما فى السمك والضفادع

﴿ كيف تعيش العنكبوت ﴾

إن العناكب تعيش على الحشرات ، إنها نافعة جدا ومفيدة للفلاح ولصاحب البستان لأنها تقتل الآلاف من الحشرات اللاتى تفتك بالزرع فى الأرض

﴿ نسج العنكبوت ﴾

إن العنكبوت تغزل خيوطا دقيقة حريرية آتية من (مقر الغزل) فى جسمها الذى فيه مسام دقيقة جدا وهذه المسام الدقيقة تخرج منها خيوط تجتمع وتكون خيطا والخيوط تجعلها العنكبوت نسيجا . إن هـذه الخيوط لزجة وأىّ ذبابة وصلت اليها تلتصق بها

﴿ أنواع المصنوعات العنكبوتية ﴾

إن العنكبوت لاتقتصر على جعل خيوطها أشبه بالخيمة . كلا . بل انها تجعلها قنطرة تمرّ عليها من مكان الى مكان وتارة تجعلها عشا تضع فيه بيضها ومسكنا نظيفا لها يسرالساكنين . إن من العنكبوت نوعا تغزل الخيوط الحريرية المذكورة وتجعلها أشبه بسحاب وتطاير عليه فى الهواء . ويرى الناس مئات من هذا النوع طائرات فى الهواء على هذه الطريقة فى يوم ثائر الهواء . وهناك نوع من العناكب يجرى على سطح الماء ، وكيف ذلك ؟ انه يؤلف بعض الأوراق الجافة مع خيوط حريرية من جسمه ويجعلها (قاربا) يعوم فيه على وجه الماء ويسبح به وهوقريرالعين وهذا القارب جعله للصيد فهما لاحت له ذبابة أسرع بقاربه اليها وأخذها الى فيه فأكلها

ولما وصلت الى هـذا المقام جاء صاحبى العالم الذى حادثنى فى (سورة النمل) فاطلع على ماكتبته هنا فقال ، لقد قرأت كتبك كلها فسلنى كما تشاء فى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وفى ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفى ﴿ جواهر العلوم ﴾ وفى ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وفى ﴿ جمال العالم ﴾ قرأتها وفهمتها وقرأت هذا التفسير الى هذه السورة فاسمح لى أن أسأل هنا ماعنّ لى فى قولك نخبرك أن أحاورك من أن أدع هذا لقرائك والمطلعين على هذا التفسير . فقلت ذلك يسرّنى . فقال أوضح الفرق بين الحشرات والعنكبوت ، ولماذا أراك تشرح هـذه الحيوانات هنا حتى جعلتنى أسألك المزيد ؟ وهل هذا يوافق مساق الآية ومساق الآية لايقتضى هذا الشرح فقلت أما الفرق بين العنكبوت والحشرات فقد ذكرت بعضه الآن وهو تعداد الأرجل وطريقته نحو الذرية وأزيد عليه أن جسم العنكبوت مركب من ﴿ قسمين ﴾ وأجسام الحشرات مركبة من ﴿ ثلاثة أجزاء ﴾ كما تقدم فى (سورة النمل) وأيضا لغالب الحشرات أجنحة والعنكبوت لا أجنحة لها ، ثم ان القسم الأعلى من العنكبوت فيه العيون والفكان وهذان فى الرأس وفيه الأرجل الثمانية وهى فى الصدر ، أما القسم الأسفل ففيـه البطن والمؤخر ، وأما أقسام جسم الحشرات فاقرأها فى (سورة النمل) كما قلت لك . فقال النمل من الحشرات وهل لها أجنحة ؟ فقلت تخلق لها أجنحة ولـكن عند ماتكبر وتزاول الأعمال تكسرها لتتفرّغ للأعمال . قال فما تقول فى عدد العيون . فقلت عيون العنكبوت تختلف من زوج واحد الى ستة أزواج موضوعة مثنى فى مقدم الرأس و يتحركان من اليمين الى اليسار و بها يفترس الذباب ، أما الحشرات فانها لها أعين تقدّم شرحها فى سورة النمل وأن بعضـها قد بلغت العين الواحدة فيه (٢٧) ألف عين أى ان العين

الواحدة

الواحدة مكوّنة من عيون مستقلة تبلغ هذا المقدار ولو تلفت واحدة منها لم تتلف البقية كما شرحه علماء النمسا وألمانيا فى هذا القرن فاقرأه هناك وانظر كيف ذكرت لك هناك أن أصدقائى أهل العلم فى مدارسنا المصرية عارضونى فى ذلك وفيهم من كانوا فى أوروبا بل بعض الأطباء أنكره فى أول الأمر ، ولما ألفت الرسالة التى تقدّمت فى (سورة النمل) أقرّوا وصدّقوا ، والسبب فى ذلك أن أمّتنا المصرية قد كانت تعرف هذه العلوم قبل هذه الأيام فى القرن التاسع عشر ثم لما دخل الفرنجة بلادنا حذفوا تلك العلوم الطبيعية من بلادنا فصار المتعلمون يكرهونها وكثير ممن ذهبوا الى أوروبا لايقرؤنها ، أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فان هذه العلوم أخذت ترجع تدريجا وصار الأطفال اليوم يقرؤن ما كان يجهله آباؤهم منذ خمس سنين وهذا يدلك أن العلوم الطبيعية مرقية للأمم ولولاذلك ماحذفها الفرنج قبل استقلالنا الظاهرى بمصر ، هذا ثم إن النملة كما قدّمت العين الواحدة من عينيها مركبة من مائتى عين والذبابة عينها الواحدة مركبة من أربعة آلاف عين ، فقال صاحبى أربعة آلاف . قلت نعم . قال أنكر ذلك . قلت له هـذا يدرس فى جميع مدارس العالم ، وهل تريد أن تفعل معى مافعله المدرسون منذ سنين كما أخبرتك ؟ قال لا ، قلت فدعنى أتمّ لك الحديث ، فقال ياعجبا كل العجب ، أتكون الذبابة أكثر عيونا ويصطادها العنكبوت مع ان عيونه محدودة ، فقلت له لاتعجب وكيف تعجب من آية الله فى الأرض ، فقال وأى آية ، قلت إن كثرة الآلات والقوى لاتمنع من الهلاك ، ألاترى الى قيصر الروس وغيره من ملوك الأرض فانهم مع كثرة جيوشهم وعددهم وآلاتهم قدسلط الله عليهم من طردوهم من ملكهم بل قتلوا بعضهم ، وهوقيصر الروس الذى أثار الحرب الكبرى فى زماننا واتحد مع انكلترا وفرنسا ، قام للحرب بعد أن دبر المكائد فماذا جرى ؟ كانت هذه الحرب شؤما عليه ويتبعه نحو (١١٠) مليون من الناس ومن هؤلاء (٢٠) مليونا يعملون فى حقوله ، فهذا كان من ضحايا الحرب فعزل ثم قتل . إذن كثرة العدد والآلات لاتدل على البقاء ، فهذا الذباب كثرت عيونه التى تعدّ بالآلاف ولكن نوع العنكبوت الذى لاتزيد عيونه على ستة أزواج قام فافترس الذباب على كثرة عيونه

إن الله حكيم فى صنعه ، ألاترى أن هذا الذباب (وان كان ينظف جوّنا بابتلاعه الرطوبات التى فيها أنواع الحيوانات الذرّية الصغيرة الفاتكة بنا القاتلة بأنواع الحيات والوباء) يرجع هو نفسه مهلكا لنا فينقل الأمراض ويأتى بالوباء ، فهو نفسه لما تغذى من المواد الضارّة بنا ليصلح جوّنا أصبح هو ضررا لنا ، فخلق الله العنكبوت لتصطاده وتصطاد غيره من الحشرات الفاتكات بنا وبزرعنا ، فالذباب باحداث العدوى وغير الذباب بأكل الزرع ، فجعل الله هذه العناكب مساعدة لنا فمن جهل بعض المسلمين انهم لايعلمون أن هذا مساعدهم ونافع لزرعهم وحافظ لهم ولقوتهم

يعيش المسلم ويموت وهو لايعلم أن الله أنعم عليه بالعنكبوت ، يعيش المسلم ويموت وهو لايعلم أن الطيور من القنابر والعصافير والغربان وأبى قردان والبوم تساعده فى أكل الدود والحشرات الفاتكات بزرعه وقد أوضحت أكثر هذا فى هذا التفسير فراجع بعضه فى (سورة المائدة)

انه ليحزننى والله أن تكون أمّتنا أجهل الأمم بهذه العلوم التى تمتعت بها أوروبا ونحن عنها غافلون ، أذكر اننى وأنا مدرّس بدار العلوم كنت أرقب نسج العنكبوت فى حديقة المدرسة وأنظر له كل يوم فلحظ ذلك وكيل المدرسة وهو من المتعلمين فقال ماهذا الذى تحافظ عليه قلت إن هذا النسج فيه عجائب فهو نسج محكم يدل على حكمة بالغة أبدعها صانع هذا العالم فتبسم ضاحكا وقال لاقيمة له وهذا لأن المعلمين لايشوّقون التلاميذ الى الجمال وهذه أكبر مصيبة فى الاسلام وقد ابتدأت تزول وهذا التفسير من دلائل النهضة ومن أوائلها

فقال صاحبى كم عدد الحشرات على وجه الأرض . فقلت إن الحشرات التى من بعضها غذاء العنكبوت قد بلغت فى تعداد أنواعها أكثر مما بلغته سائر الحيوانات ، واذا كانت الخنافس وحدها تبلغ (٨٠،٠٠٠)

نوع فما بالك بغيرها من الحشرات وأنواع الحشرات المعروفة (٢٠٠,٠٠٠) ويتوقعون انها تبلغ ألف ألف فقال هذا مدهش ، إنى قرأت فى كلام أسلافنا أن فى البحر (٤٠٠٠) أمة وفى البر كذلك . فقلت له الأمر فوق ماقالوا والله يقول - ويخلق مالاتعلمون - ويقول - سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - وآيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ابتدأ ظهورها الآن وهذا التفسير من المنبهات لها وأن المسلمين بعدنا لاينصبون ولايتعبون فى تحصيل العلم وسيقوم فيهم هداة ومصلحون ينشرون هذه العلوم بين الناس فلا يكون فيهم من يقاسي ماقاسيت مما ذكرته فى كتابى ﴿ التاج المرصع ﴾ فانى ذكرت هناك انى كنت أقرأ فى كلام (الامام الغزالى) أن عجائب الله تعالى فى نسيج العنكبوت وأعمال النمل لاتتناهى . فأما عجائب النمل فقد كانت واضحة لى وأما العنكبوت فقد كنت أود أن أرى شكلا منظما فى الكتب لأرى حسن النسق والنظام فيه فلم أوفق لذلك حتى قرأت الكتب الانجليزية فوجدت الرسم فيها فعجبت كل العجب من أمة نائمة لاتعرف نعمة الله ولاتسير على خطوات علمائها ، فلاجال الله أدركوا ولا آراء علمائهم اتبعوا

﴿ هل يجوز رسم الحيوان فى التفسير ﴾

فقال لى صاحبى ، ههنا قامت عليك الحجة ، فقلت وأى حجة ، فقال أذكرك بأنك فى سورة النمل وعدت أن ترسم أشكال الحيوان الذى يحتاج للايضاح ، فلم لاترسم لنا العنكبوت حتى نطلع على الوصف الذى وصفته ولم لم ترسم لنا النملة التى وصفتها هناك ولم نر رسمها ، ألم تقل ان رسم ذلك ليس مباحا فقط بل هو واجب لأن التعليم واجب ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذا التأليف واجب عليك وجوبا عينيا ويجب قراءة هذا على من احتاج اليه وهو قادر إما شكرا لله واما لزيادة التوحيد ، وقد يجب وجوبا كفائيا كما أوضحته أنت فى سورة المائدة عند مسألة الغراب وفى غيرها . فقلت له سأرسم شكل نسج العنكبوت . فقال لا يكفى لابد من رسم نفس العنكبوت ونفس النملة والا عد هذا منك خوفا من صغار العلماء . فقلت لا أقدر أن أرسم ذلك إلا بعد شرح المقام فى السنة حتى يوقن كل مطلع على التفسير أن النبى ﷺ يجيز ذلك . فقال ياعجبا . إن التصوير الشمسى لم يرد تحريمه فى كتاب ولافى سنة وما ورد فى التصوير من تحريم أوتحليل راجع لفعل الانسان إما مجسما واما غير مجسم بالرسم المعروف . قلت هذا حق . قال واذا كان حقا فلماذا تريد أن تطيل المقام أوتراوغ فلاترسم هذه الأشكال ، وانى أذكرك بأنك فى كتاب ﴿ جمال العالم ﴾ قلت مامعناه ان العنكبوت لها ستة أرجل كسائر الحشرات مع ان العنكبوت غير الحشرات ولها ثمانية أرجل ، فاذا رسمت الصورة لم يحصل هذا اللبس . فقلت فلنورد الأحاديث حتى لايقع لبس فى المقام وتنقطع المعاذير وهاك بيانها

(١) روى قتادة قال كنا عند ابن عباس رضى الله عنه وهم يسألونه ولم يذكر النبى ﷺ حتى سئل فقال سمعت محمدا ﷺ يقول « من صور صورة فى الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » اهـ

(٢) روى الأعمش عن مسلم قال كنا مع مسروق فى دار يسار بن نمير فرأى فى صفته (بتشديد الفاء) تماثيل قال سمعت عبد الله قال سمعت النبى ﷺ يقول « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون »

(٣) روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم » هذه الأحاديث ونحوها وردت فى فعل التصوير بمعنى ايجاد الصورة ، أما ما كانت رقما فى ثوب أو ورق فهاك ماورد فيها

(١) روى زيد بن خالد رضى الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبى ﷺ قال « لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة » قال بسر فرض زيد بن خالد فعدناه فاذا نحن فى بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الخولانى ألم يحدثنا فى التصاوير فقال انه قال إلا رقما فى ثوب ألاسمعته قال لا قال بلى فذكره اهـ

(٢) روى الترمذى بسنده عن عتبة انه دخل على أبى طلحة الأنصارى يعوده فوجد عنده سهل بن حنيف قال فدعا أبوطلحة انسانا ينزع نمطا تحته فقال له سهل لم تنزعه قال لأن فيه تصاوير وقال النبى ﷺ ماقد علمت قال سهل أولم يقل « إلا ما كان رقما فى ثوب » فقال بلى ولكنه أطيب لنفسى ، وقال الترمذى حسن صحيح

(٣) روى أنس رضى الله عنه «كان قرام لعائشة رضى الله عنها سترت به جانب بيتها فقال ﷺ أميطى عنى فانه لاتزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » اه

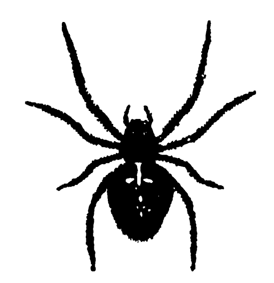
هذه الأحاديث تدل على إباحة الرقم ، فأما الفوتوغراف فشئ آخر وانما هوصور جاءت من ضوء الشمس وضوء الشمس ماهو إلا تصوير الله ومن ذا يقدر أن يحرّم تصوير الله * وقال الخطابى ﴿ إن المصوّر الذى يصوّر شكل الحيوان فانى أرجو ألايدخل فى هذا الوعيد لأنه ليس إلا رقما ﴾

فتبين بهذا أن رسم الصور بيد الانسان ليس محرّما بنفس نص الحديث الحسن الصحيح وكلامنا أيضا ليس فيه بل إن الصور الشمسية كلها من تصوير الله ، فاذا رأيت صورا فى هذا التفسير فانها كصور الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات

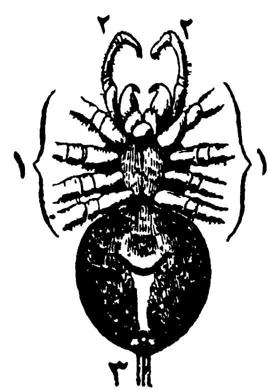
فلما سمع ذلك صاحبى قال هذا حسن جدا وواضح لجميع المسلمين وانما سقط المسلمون فى مثل هذا للجهل الذى غشى على العقول فبدل أن يسيروا فى رقى الأمّة رجعوا القهقرى وفتحوا باب الكفر والنوم والجهل وأقفلوا أبواب جمال الله تعالى ومعرفة عجائبه التى لانهاية لها جهلوا علوم الكائنات ولما أردتم إيضاحها خفتم من الجهلاء فأوردتم الأحاديث خيفة أن يقفلوا أبواب العلم فى وجوه القارئين

﴿ تذكرة ﴾

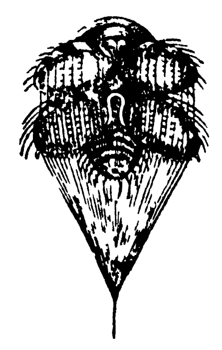
ثم إن هذا الموضوع قد كتبته أثناء التأليف ولكن أثناء الطبع كتبت ما هو أجل هناك من هذا فى (سورة يونس) فاقرأه (انظر الأشكال الآتية



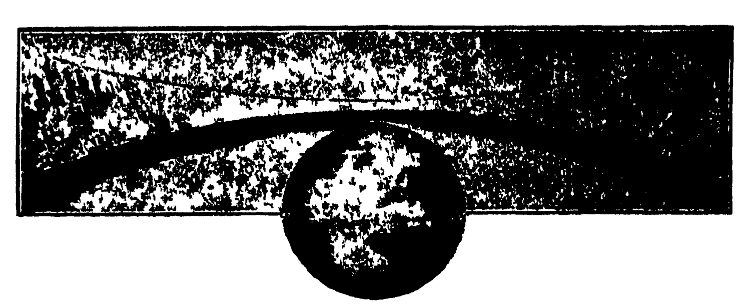
(شكل ٦ ـ صورة العنكبوت واضحة)



(شكل ٧ ـ صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسيج)

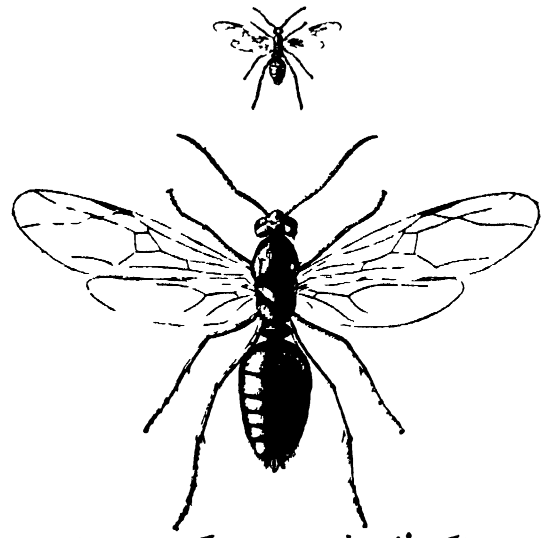


(شكل ٨ ـ صورة جهاز الغزل)



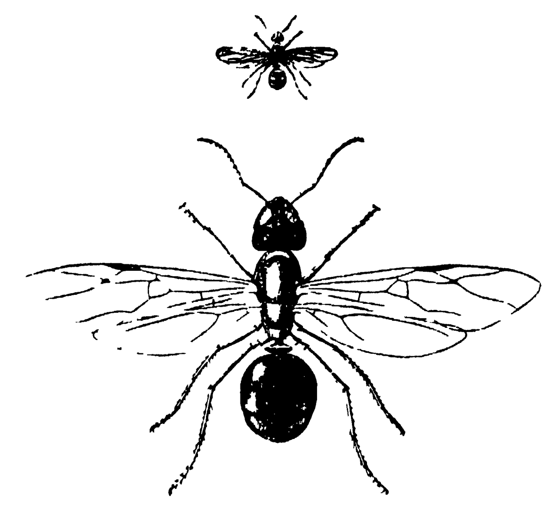
(شكل ٩ ـ صورة نسيج العنكبوت مع بيان حسن لها)

(يفرز العنكبوت مادّة سائلة تجف بمجرّد ظهورها فى الهواء وتكون على شكل خيوط رفيعة ويستعملها العنكبوت كحبالة لاقتناص فريسته من الذباب أوغيره من الحشرات الصغيرة ولينزل بواسطتها من المحال المرتفعة كى لايسقط فيتأثر بالسقوط ، ومادّة هذه الخيوط خفيفة للغاية من حيث الوزن حتى ان مايبلغ وزنه أوقية واحدة من هذه الخيوط يمكن أن يصل بين نيو يورك فى أمريكا و باريس فى أورو با أى بين عمارة ولورث فى الأولى و برج ايفل فى الثانية ، واذا أخذ من خيوط العنكبوت مايزن رطلا أمكن أن تطوّق به الكرة الأرضية مرّتين)

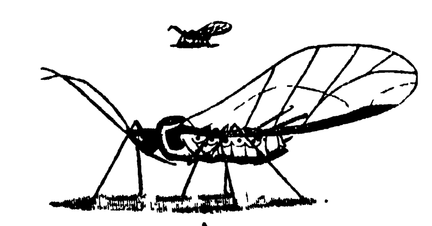


(شكل ١٠ ـ صورة ذكر النمل الحقيقى ، صورته مكبرة جدا لموازنتها بصورة العنكبوت)

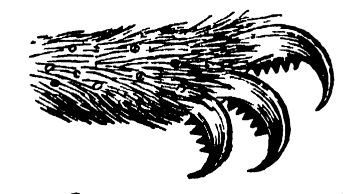
شكل



(شكل ١١ – صورة أنثى النمل ، صورة الأنثى على حقيقتها ، صورتها مكبرة)



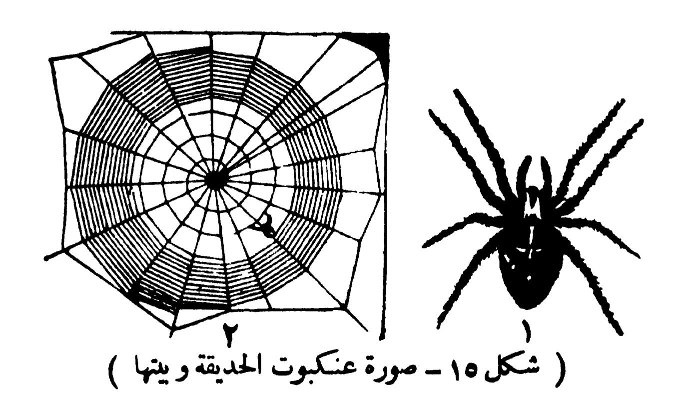
(شكل ١٢ – صورة بقرالنمل المسمى « افيز »)



(شكل ١٣ – صورة مخلب العنكبوت)



(شكل ١٤ – صورة اجتماع الخيط)



(شكل ١٥ ـ صورة عنكبوت الحديقة و بيتها)

(شكل ١٦ ـ صورة أكبر بيت للعنكبوت)

شكل



(شكل ١٧ ـ صورة عنكبوت الحديقة صائدة)



(شكل ١٨ ـ صورة عنكبوت المنازل)



(شكل ١٩ ـ صورة العنكبوت المائى)

فلما اطلع صاحبى على هذه الأشكال سر غاية السرور وانشرح صدره وقال لقد قمت بما وجب عليك وهذا أصلح ماوقع فى كتبك من الخطأ فانك ذكرت عن المتقدمين أن ريق العنكبوت اذا لامس الهواء صارخيطا فظهر الآن أن الكشف الحديث أبان أن هناك غدة ظهرت فى الشكل أخرجت لنا هذا النسيج الذى صارتارة طيارة كطيارات الناس فى هذا العصر وتارة سفينة فى بحرلجى وتارة تكون عشا ومنزلا وشبكة صيد فهذه القوة المرسومة أمامنا منبع عجيب جدا للسفن العنكبوتية ومنازلها ومهد أولادها وشبكات صيدها وسفنها وطياراتها وقناطرها التى تعبر عليها واذا كانت هذه حال العنكبوت التى بيتها أضعف البيوت فكيف

﴿ لطيفة ﴾

لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال . لقد مرّ على الأمم الاسلامية قرون وقرون ولم يظفروا فى تعاليمهم بأمثال هذه الصور ولكن هذا الزمان هو الذى ظهرت فيه العلوم وتقدّمت الفنون فساعدت على ظهور هذا التفسير بهيئة جديدة ولكن ليس معنى هذه الصور انها تصدّنا عن المباحث العامّة . فقلت سل ما بدا لك . فقال إن الله ضرب العنكبوت مثلا لما يعبد الكافرون من الأصنام وقرّر أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت وقد رأينا من الاتقان فيه والابداع مالاحدّ له ؟ فهذا عجب كيف اجتمع نهاية الابداع مع نهاية الوهن ، إن الوهن لايجامع الاتقان . فقلت اذا كان بيت العنكبوت أوهن البيوت مع انه عجيب الصنع بديع الاتقان فان هذا هو المعروف فى هذا العالم ، فأنت ترى فيما تقدّم فى آخر سورة النمل فى تفسير قوله تعالى ــ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ــ أن مقدار الماء الذى يملأ ملعقة الشاى يحتوى على مقدار من الهيدروجين وهذا المقدار فيه كهرباء لو استخرجها العلماء فى المستقبل لأصبح عندنا منه مائة ألف كيلو من الكهربائية وقوّتها تساوى (١٣٣) ألف حصان وماهذا كله إلا من الهيدروجين الذى فى ملعقة الشاى ، ماهو الهيدروجين فى تلك الملعقة ؟ إن هو إلا جزء من (٩) من الماء وذلك أن الماء مركب من الاكسوجين والاودروجين والاودروجين فى الوزن لايساوى أكثر من واحد من (٩) من الاكسوجين إذن تسع ملعقة الشاى هو الذى يعطينا قوّة (١٣٣) ألف حصان ، فهذا الماء فى الملعقة شئ لايؤبه له فضلا عن جزء من تسعة من هذا المقدار . إذن الله أتقن القليل وأدهشنا من اتقانه ، واذا كان هذا عمله فى القليل فما بالك بالكثير ؟ وهذا قوله تعالى ــ الذى أحسن كل شئ خلقه ــ فالقلة لاتمنع الاتقان لأن القدرة والعلم لاحدّ لهما وهذا على حد قول الشاعر

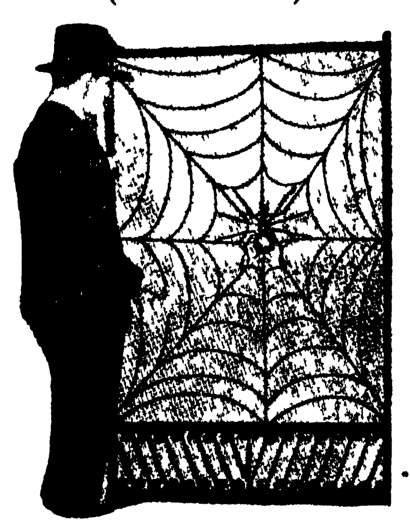
له همم لامنتهى لكبارها ❋ وهمته الصغرى أجل من الدهر

فما قاله الشاعر فى ممدوحه يقال هنا إن جميع البيوت فى العالم سواء أكانت انسانية كبيوتنا أم كانت للحيوان والطير أمتن وأقوى من بيت العنكبوت ، ألاترى منازل الناس وأجحار الضب والغزال والذئاب وأضرابها ثم الى أعشاش الطيور التى تبنيها فى الأشجار ، فهذه كلها أقوى من بيت العنكبوت ، فهكذا الأصنام وان كانت ماثلة أمام الناس يرونها بأعينهم لاقوّة ولاعمل لها ونسبة الأصنام من حيث عبادتها الى خالق العالم الحكيم كنسبة بيت العنكبوت الى بيوت الانسان ونحوه ، فبيت العنكبوت اذا نسبناه الى بيوتنا و بيوت حيواناتنا كان أوهن البيوت هكذا عبادة الأصنام يتوهم الناس أنها تنفعهم وماهى بنافعة وانما يتخيل عبادها بوهمهم نفعها لهم ، فهذا التخيل الذى لايرى أشبه ببيت العنكبوت من حيث ضعفه لامن حيث حسن اتقانه فهذا مقام وذاك مقام آخر بل اذا تمادينا فى الفهم ونظرنا بعين الحقيقة رأينا هذه الدنيا كلها أشبه بالأصنام بل المعبود حقيقة عند كثير من الناس انما هو الهوى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ الناس يحبون الدنيا كالمال والولد حبا جما وهذا الحب هو العبادة الحقيقية ، واذا كانت الدنيا لاثبات لها بل هى زائلة بل ظهر كما تقدّم فى سورة النور عند قوله تعالى ــ الله نور السموات والأرض ــ أن قطرة الماء فيها جواهر صغيرة تكاد تصل فى العدّ نجوم السماء التى عرفت فى الكشف الحديث ، ومع هذا كله نرى هذا العدد لايملأ من فراغ تلك القطرة إلا جزأ واحدا من مئات آلاف آلاف و بناء عليه أصبح هذا العالم عند العلماء عالما أجوف والمادة فيه تكاد تكون متوهمة . إذن هذا العالم عالم الوهم فليس الحكم على المادّة بأنها كبيت العنكبوت خاصا بالأصنام بل هذا الحكم يعم المادّة كلها والحياة فيها وهذا هو قوله تعالى ــ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ــ وقوله تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان ــ وقوله ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ

وأهم ماتقدّم أن بيت العنكبوت من حيث اتقانه له حكم غيره من حيث ضعفه فضرب المثل به جاء من حيث ضعفه لامن حيث اتقانه وهذا الضعف له نظير فى المادّة كلها وفى الأصنام فالمادة أشبه بالوهم والخيال كما وضح فى قطرة الماء فى (سورة النور) ولاجرم أن هذا الايضاح ليس يعقله جميع الناس بل يعوزه علم وحكمة لهذا قال تعالى ـ لوكانوا يعلمون ـ وقال ـ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ـ

فالجاهل يظنّ أن ضرب المثل بالعنكبوت أمر سهل لأنه مفهوم والعالم يدرسه دراسة تامّة ويفهم ماكتبناه فقال لقد أجبت بما شفى صدرى ولكنى أريد أن أسألك سؤالا آخر ، هل قلد الناس نسيج العنكبوت لجماله وابداعه واتقانه وهندسته . فقلت نعم فقد جاء فى مجلة «كل شئ» مانصه (شكل ٢٠)

﴿ محاكاة الطبيعة ﴾

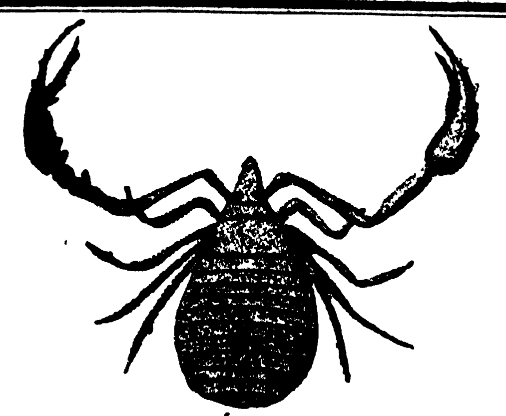


(شكل ٢٠ ـ باب من حديد مصنوع بهيئة نسيج العنكبوت)

«كل منا يعرف نسيج العنكبوت ويعجب به كما أننا نضرب المثل به فى الضعف والوهن ولكن أحد الصناع الانجليز رأى أن يقلده فصنع بابا من الحديد بهيئة نسيج العنكبوت وعرضه حديثا فى لندن فنال اعجاب كل من رآه »

﴿ لطيفة ﴾

لقد تقدّم فى (سورة الفرقان) عند قوله تعالى ـ وخلق كل شئ فقدّره تقديرا ـ أن العنكبوت تأكل الذباب وبهذا يخلو الجوّ للانسان والحيوان . إذن العنكبوت نافع للزراعة لأنه آكل الحشرات ذبابا وغيره فاقرأ هذا الموضوع هناك ، وانى أزيد المقام حكمة بما رأيته اليوم من أن العقارب التى شاركت العنكبوت فى أرجلها الثمانية وفى الهيئة شاركتها أيضا فى قتل الحشرات فانظر (شكل ٢١ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢١ – صورة عقرب تأكل العث والسوس)

« هذه عقرب صغيرة تعيش بين الأوراق والكتب والأخشاب فى البيوت القديمة وتقتات بالعث والسوس وسائر الحشرات التى تأكل الثياب والأقمشة والأوراق لها ثمانية أرجل مثل سائر العقارب ولها كلابتان اذا قبضت بهما على الحشرة أزهقتها ، وهى تبيض نحو (٢٠) بيضة تحملها فى طية من طيات بطنها حتى ينقف البيض وتخرج الصغار – إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم – »

والى هنا انتهى القول فى السؤال الأوّل وماترتب عليه من الشروح فى الحشرات والعنكبوت فقدا كتفيت أما جوابى لك أيها الأخ عن السؤال الثانى وهو لماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا وهل هذا يوافق مساق الآية ؟ فانى أقول لك ما الذى دعاك الى هذا السؤال ؟ فقال غيرتى عليك لأنى رأيت أن هذه العلوم أنت مغرم بها ومساق الآية لايعطى ذلك ، انما مساقها لذم عباد الأصنام وأن عقولهم وقفت عند أمر ضعيف كضعف نسج العنكبوت ، ومامثلك فى هذا إلا كما جاء فى ﴿ الاتقان فى علوم القرآن ﴾ للعلامة السيوطى أن العلامة الرازى غلب عليه أقوال الفلاسفة فأكثر منها وقال أبوحيان فى ﴿ البحر ﴾ جمع الرازى كل شئ إلا التفسير وهكذا أبوحيان نفسه وقع فيما وقع فيه الرازى فقد غلب عليه قواعد النحو ومسائله فأكثر من ذلك كالواحدى فى البسيط والزّجاج ، ثم إن الثعلبى غلبت عليه الأخبار ، والفقيه يكاد يجعل القرآن كله للفقه كالقرطبى ، فانى أخاف أن تفسيرك يكون بحسب ماغلب عليك واشتهرعنك فى كتبك . فقلت له أما من ذكرت من الشيوخ فهم أساتذتنا ولولاهم ماعلمت شيأ . وأما قولك ان تفسيرى خارج عن مساق الآية فهذا هو الذى أجيبك عنه وستعلم أن هذا زمان ظهور الحقائق القرآنية ، فاعلم أيدك الله أن مساق الآية كما ذكرت أنت انما هو تشبيه هؤلاء الكفار من حيث انهم اتخذوا غير الله إلها بالعنكبوت اتخذت بيتا ، ولاجرم أن بيت العنكبوت بالنسبة لبيوتنا كمعدوم لاوجود له ، ومامثل العنكبوت بالنسبة للمنازل فى القرى والمدن أوللاهرام بمصر الذى يقارع الأجيال وهو باق على كرّ الدهور إلا كنسبة العدم للوجود ، واذا كان نور الشمس لما وازناه فى سورة الأنعام بنور أضعف الكواكب بلغ مئات ألوف ألوف الالوف فهكذا هنا نسبة الهرم الى بيت العنكبوت أبعد وأبعد جدا ، إذن عقول هؤلاء الكافرين بعبادتهم الأصنام أصبحت نسبتها الى من يعرف الله ويدرك مصنوعاته كنسبة بيوت العنكبوت الى اهرام الجيزة بمصر ﴿ و بعبارة أوضح ﴾ ان عقول الكفار لما وقفت عند المحسوسات وانحصرت فيها وعبدت الأجسام وانحصرت وانحبست فى صور محدودة وهيا كل معدودة كانت نسبتها الى عقول الأنبياء والحكماء والأولياء كنسبة بيوت العنكبوت الى أقوى الأبنية أوكنسبة أضعف كوكب الى ضوء الشمس الذى شبه به الرسول ﷺ فقيل فى القرآن – وسراجا منيرا – فإذن تكون المسألة راجعة الى قوله تعالى فى سورة أخرى – أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون – فأوّل الآية يمثل انحصار العقول وغفلتها بالوقوف على ماتنحته الناس وآخرها يمثل انطلاق العقول الى باحات الجمال واشراقها بادراك سرّ هذا

الوجود بقدر الطاقة البشرية . إذن أصبح هذا التمثيل داعيا الى انطلاق العقول وعدم حبسها فى أشياء خاصة بل يراد بذلك درس هذه الموجودات لمعرفة مبدعها وارتقاء العقول فى هذه الدنيا ونظام المدن ، فاذن هـذا المثل حوى ﴿ أمرين ﴾ ـ صنع الله الذى أتقن كل شئ ـ وصنع المخلوق الضعيف ، فصنع الله هو الذى يجب البحث فيه ووقوف العقل عند حدّ مخصوص هو الذى يذم ، فالنفوس التى وقفت عند عبادة الأصنام نفوس ضعيفة فآراؤها أشبه ببيت العنكبوت بالنسبة لأقوى الأبنية فهى لامحالة واهية ذاهبة * والدليـل على ذلك أن كفار مكة لما جاء الاسلام خضعوا له طوعا لقليلهم وكرها لأكثرهـم فهم اتخذوا مايشبه بيت العنكبوت فلم يحفظهم بل غلبهم المسلمون فى الحرب وهكذا يوم القيامة يعذبون ، وهكذا ترى المسلمين فى الأعصر المتأخرة ناموا وعكفوا وجهلوا كل شئ فى الدين فغلبهم الفرنجه فى السياسة وفى الحروب

والحاصل أن كل من وقفت عقولهم وجدوا فانهم لامحالة مقهورون فالمدار على العلم فى كل موطن فى الدين والدنيا ، فاذا رأينا العلوم فى هـذا الزمان قد جلت الناس وألبستهم وأطعمتهم فمن ترك ذلك فهو كالعنكبوت اتخذت بيتا ، واذا رأينا المسلم يقرأ فى علم التوحيد كلمات جدلية و يقتصر على الفقه و يترك مواهبه وعقله وتفكيره ونعمة ربه فى سمواته وأرضه وحيوانه وحشراته وعنكبوته وهوائه ومائه وهو يرى الأمم تحيط به وتعلم هذا كله ثم هو لايفكر قلنا إن مثله كمثل العنكبوت وهو آثم لأنه ترك مايجب عليـه إما وجوبا عينيا أو وجوبا كفائيا

إن هذا المثل عجيب جدا وكيف لايكون عجيبا وهو قد ذكر بيت العنكبوت والعنكبوت فبيت العنكبوت شبه به الأصنام المعبودة والعنكبوت نفسها من صنع الله وصنع الله يطلب النظر فيه شكرا لله وتوحيدا له ، ومن أعجب وأبدع ماصنع الله خلق العنكبوت ، فانظر فها أنت ذا رأيت عجائبها ، رأيت مراكبها وطياراتها ومساكنها وقناطرها فكيف كان هـذا الحيوان الضعيف قد أتمّ الله خلقه وأكمل صنعه وجعله آية للعالمين وكيف كان أعجوبة الدهر ومثال الجمال والكمال وكيف اخترق الآفاق فى الهواء بصناعاته وأبدع منسوجا خيوطه خارجات من جسمه بلا ارشاد مرشدين ولا تعليم معلمين فساح فى الهواء وجرى على الماء و بنى القناطر وربى الذرية وطارد الجيوش الجرارة من الحشرات فاقتنصها وأراح منها زرعنا اللهم اشهد

إنى أسجل على المسلمين جهلهم بهذه المصنوعات التى صنعتها والعجائب التى أبدعتها والطرق التى لنا أهديتها. اللهم إنك أنت الجميل الذى أبدعت الجمال وأظهرته فى هـذه الحشرة التى أتقنت الصنعة وأحكمتها والمسلمون لايعلمون . اللهم إنى أذكر بهذا التفسير كل من اطلع عليه أن يبين للمسلمين حكمة ربهم وصنعه و يفهمهم انه لامعنى لشكر الله ولا لحب الله ولا للاهتداء بآيات الله إلا بهذه العلوم ومعرفتها

انظر كيف كان المثل مضروبا لسخافة عقول الكافرين المحصورة فجاء فيه الأمران بيت العنكبوت ونفس العنكبوت . ولما كان النظر فى أمر العنكبوت نفسها لايخطر بالبال بل يقول الانسان إنه خارج عن الموضوع أفاد ذلك فقال ـ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ بكسر اللام ، فهو يقول إن العلماء هم الذين يفهمون هذه الأمثال ، ومعنى هـذا أن العلماء بهذه العلوم كالحشرات مع ما ينضم اليها هم الذين يعقلون هذا المثل والا فلماذا يأتى بهذه الجملة بعد مسألة العنكبوت ، ولماذا يختص هذا المكان بأن هذا لايعقله إلا العالمون (بكسر اللام)

اللهم إن المثـل من حيث انه يراد به أن الأصنام كبيت العنكبوت واضح للصبيان والعجائز لايحتاج الى علماء ولا حكماء ، ثم زاده إيضاحا فقال ـ خلق الله السموات والأرض بالحق ـ وأتبعه بذكر انه آية للمؤمنين ثم تلاه بأمره بتلاوة القرآن و بالصلاة لماذا يصلى لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والفحشاء والمنكر يمنعان القلب من معرفة جمال هذه المصنوعات الإلهية وأعقبه بقوله ـ ولذكر الله أكبر ـ ومعلوم أن التفكر فى الصنعة أشرف الذكر وهو الذى رمز له بالعنكبوت ونسجه

هنا تبين الأمر وظهر فكأنه يقول هذه الأصنام المعبودة تشبه بيت العنكبوت لاثبات لها والذى ينفع الناس هوالنظرفى السموات والأرض ويمثل ذلك كله نفس الحشرة ، فالحشرة العنكبوتية فى المثل من أبدع ماخلق الله فى السموات والأرض ودقة نسجها وعجائب صيدها وقنصها واتقان الغددالتى فى جسمها حتى تخرج خيوطا وغير ذلك دال على جمال الصانع وحكمته ، فالمثل فيه ضعف الصنعة واتقانها ، ضعفها من حيث مقارنتها ببيوت الناس واتقانها وقوتها من حيث نظام الله العام ، ولاجرم أن هذا لايعقله إلا العلماء والجهلاء يكتفون بظواهر القول

الله أكبر ، الله أكبر ، جل العلم الذى أرانا أن هذه الحشرة خلقت لتأكل الحشرات الضارة بزرعنا وهى تكون نموذجا لما يفعله الله فى الأمم ، إن الأمم التى تقل فائدتها فى الوجود وان كثر سلاحها وصحت أجسامها لابد من سقوطها كدولة الرومان وكدولة الأندلس الاسلامية التى غاب عنها عقلها وعلمها وعشقت الشعر وحده وكان الرومان قد شرهوا وقتلهم الترف والبطنة فأخذتهم الأمم وان كانت عندهم الأسلحة وافرة وهانحن أولاء نرى الأمة العربية كيف فتحت مصر بآلاف تعد على الأصابع مع قلة العدد والعدد وقد كان فى مصرمائة ألف من الجند الرومانى فضلا عن جنود القبط بمصر مع وفرة العدد ، إن الله جعل الأمم التى يقل نفعها أشبه بالذباب فهى مهما كثرت جيوشها وعددها مقهورة مصروعة مخذولة بأمم أقل منها سلاحا كما ترى فى العنكبوت الذى قات عيونه وفى الذباب الذى تعد عيونه بآلاف

فلما سمع صاحبى هذا قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، أما أنا الآن فانى أعتقد أن هذا من أسرار القرآن التى كانت مخبوءة لهذا الزمان و يظهر لى أن هناك مالايتناهى وقد حجب عنا لقوم بعدنا ، لقد ذكرنى هذا مافى ﴿ كتاب الاتقان ﴾ للسيوطى الذى حدثتك عنه آنفا فانه جاء فيه ما يأتى فى النوع الرابع والستين

« إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة وهى إما حسية واما عقلية وأكثر معجزات بنى اسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لأن هذه الشريعة باقية خصت بالمعجزة العقلية ليراها ذووالبصائر كما قال ﷺ ﴿ مامن نبى إلا أعطى مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا ﴾ أخرجه البخارى * قيل ان معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة وخرقه العادة فى أسلوبه و بلاغته واخباره بالمغيبات فلايمر عصرمن الأعصار إلا و يظهرفيه شئ مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه » انتهى من كتاب الاتقان

قال صاحبى بعد أن قص ماتقدم ، فأنا أرى أن ماتذكره أنت فى التفسيرمن الذى لم يظهر إلافى العصر الحاضر ، كيف لا ونحن نرى أن مثل العنكبوت ماكان ليحتمل هذا كله و يدخل فى أبواب العلوم والزراعة والسياسة وفوق ذلك . يستبين فى هذا التفسير أن المثل مقصود به ذلك بدليل انه قال ـ ومايعقلها إلا العالمون ـ بكسر اللام وهذا بلاشك يفيدنا أن ماذكرته أنت من العلم فى تفسير الآية كله مقصود القرآن ، فقلت الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اهـ

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ـ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ ﴾

قدمت الكلام عليها فى (سورة البقرة) عندقوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ـ ولكن أذكر هنا جوهرة وهى

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ وفى حكم خطرت لى فى الصلاة صباحا يوم السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٩ ﴾

إن هيئة الصلاة فى ديننا الاسلامى موافقة أيما موافقة لهذه الدنيا فاننا نرى ليلا ونهارا وشروقا وغروبا

فاذا كان النهار سعى الناس لمعاشهم وتردّدوا فى مهامهم ، واذا كان الليل استراحت أجسامهم وسكنت حركاتهم فهكذا فى الصلاة يقول المصلى - إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم - الخ إذن المصلى يعبد ويستغيث بربه فى كل شئ فهذا أشبه به أثناء النهار وهكذا يقول ﴿ رب اغفرلى وارحمنى الخ ﴾ وذلك بين السجدتين فهوفى هاتين الحالين عامل كعمل الناس نهارا ولكنك تسمعه يقول فى الرفع والاعتدال ﴿ اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولارادّ لما قضيت ، ولاينفع ذا الجدّ منك الجد ﴾ ويقول فى الركوع ﴿ خشع لك سمعى و بصرى الخ ﴾ وفى السجود ﴿ سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه و بصره فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فهوفى هاتين الحالين مابين واصف للنظام الجيل فى جسمه وساكن خاشع لاطلب له ولاعمل ، ففى الأحوال الثلاثة للمصلى قد سكن لعمل ربه فى سمواته وأرضه وفى أعضاء جسمه ، إذن هو مستغرق فى ذلك الجمال فهو يلاحظ الفاعل فى فعله فان رفع رأسه من الركوع تذكر النعم العامة فى السموات والأرض فنطق بالحمد عليها وقال ﴿ لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ ﴾ وليس ينطق بهذا إلا بعد أن بهره جمالها فلم يبق بعد ذلك إلا أن يغيب عن شهود نفسه ويشهد صانع هذه العوالم فيقول ﴿ لامانع لما أعطيت الخ ﴾ ذلك لأننى لما رأيت أن جسمى ماهو إلا ذرّة من السموات والأرض ونعمك قد شملتهما سكنت اليك لأنك تربينى فى الدنيا تربية ألهمت المرأة نظيرها فى تربية ولدها والاستاذ كذلك فى تعليم تلميذه فبينما المرأة تعلم ولدها الجلوس تارة والقيام أخرى اذا هى تلقمه ثديها تارة وتنيمه فى المهد أخرى . وهكذا الاستاذ بينما هو يعطى التلميذ دروسه ويلقنها له من تلقاء نفسه اذا به يقول له فكر فيما لقنتك واكتب عليه موضوعا انشائيا . إن نظام الله واحد نهار وليل وحركات الطفل بتعليم أمه ثم انامته واراحته وعمل التلميذ بنفسه فى التعلم ثم إلقاء المعلم له الدرس واراحته عقب الدرس هكذا فى الصلاة تسليم لله فى الرفع والاعتدال ودهش من نظام السموات والأرض وهكذا تعجب من نظام الجسم فى الركوع والسجود واستغراق فى ذلك الجمال ثم الاجتهاد فى العبادة وطلب الهداية وطلب المغفرة والرحمة فى حالى القيام وفى الجلوس بين السجدتين

وملخص هذا كله أن هذه التربية فى الصلاة موافقة كل الموافقة لنظام هذا العالم ولنظام التعليم فى مدارس العالم قاطبة فتربية الانسان فى صلاته كالتربية المدرسية ، فليجعل المسلمون الدروس منتظمة وقتا للجدّ ووقتا للراحة كما تفعل الأمم وكما يفعل المصلى إذ يستغرق تارة فى جمال الله وتارة يفكر بنفسه ويطلب منه الاعانة ، فاذا وجدنا رجلا ترك العمل وقال انى مستغرق فى حب الله وجب تأديبه لأن هذا ينافى التربية ، واذا وجدنا آخر لايفكر فى نظام هذه الدنيا وجمال خالقها بل أصبح مكبا على عمله قلنا له قد أخطأت ان هنا ليلا وان هنا نهارا وأنت جعلت حياتك كلها نهارا وقد خالفت نظام الصلاة الذى يجعلك تارة مستغرقا فى نظام السموات والأرض ونظام جسمك ، وآونة تستفيق فتطلب المعونة والهداية تارة والمغفرة تارة أخرى ، وهذه نفسها حال رسول الله ﷺ ونظام القرآن ، فكان ﷺ يعمل جميع الأعمال ويكل نتائج العمل لله ، هكذا فليفكر المسلمون وليجدّوا فى أعمالهم على شريطة ألا يذروا علما ولا نظاما ولا كمالا إلا أتقنوه ثم يطمئنون لما تجرى به المقادير ، وهذا هو التوكل بعينه عمل تام واطمئنان قلب لكل ماتأتى به المقادير انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ ايضاح الكلام على الصلاة وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

اعلم أن العلم الذى ينزله الله على القلوب كالماء الذى ينزل من السماء على الأرض فكما أن الماء لاتظهر أنواع تصرفاته ولافنون أعاجيبه إلا باختلاطه بأجسام النبات والحيوان ونحوهما ، فهكذا الوحى الحق الذى ينزل على الأنبياء لاتظهر فنون أعاجيبه ولاصنوف حكمه إلا بأن تتناوله عقول العقلاء وتفكر فى معانيه . إذن تظهر أعاجيبه وتبتهج بها القلوب . ومسألة الصلاة فى الآية وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر يعوزها البحث والتنقيب فى آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والاوروبيين وحكماء الهند وحكماء الاسلام . فاذا درسنا

ماقاله هؤلاء فى هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها فى فهم هذه الآية . ومتى تمّ ذلك لنا أدركنا سرّ نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لأن القرآن آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . وعليه تكون آراء الفلاسفة فى جميع الأمم أشبه بتفسير للقرآن لأنه آيات بينات فى صدورهم . وعليه يجب على المسلمين أن يفوقوا الأمم فى الفلسفة حتى يظهر سرّ هذا الدين الذى لاتظهر ثمرته حق ظهورها إلا بدراسة علوم الأمم المعبر عنها بالآيات البينات فى صدور الذين أوتوا العلم وإذن فلنبدأ بدراسة حكماء اليونان فنقول . اقرأ ماتقدّم فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى — وإذا مرضت فهو يشفين — إذ ذكرت هناك عن طيماوس الحكيم أمراض البدن وأمراض النفس وأن الثانية تابعة للأولى وأن أمراض النفس ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ فمنها مايتبع إفراط اللذة ومايتبع افراط الألم ومايتبع افراط الأخلاط كالمرارة والبلغم لأنها تعطل سريان النفس فى البدن فيكون ذلك سببا للتهوّر والجبن وجود القريحة والنسيان وهكذا

وملخص كلامه أن الشرّ غير اختيارى وله ﴿ علتان ﴾ فساد المزاج وسوء التأديب ولاسبيل للخروج من هذه المآزق إلا بحفظ النفس والبدن معا وذلك بر ياضتهما معا ور ياضة البدن بالحركات البدنية ور ياضة النفس بالموسيقى . هذا ملخصه فاقرأه هناك

واذ أشرت الى آراء علماء اليونان فلأتبعه بآراء علماء أوروبا وهوماتقدّم فى (سورة البقرة) عندقوله تعالى — ولاتقربوهنّ حتى يطهرن — وهذا نص ماذكره العلامة (بنتام) الانجليزى فى أصول الشرائع

﴿ ان هناك علاقة بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية وهذا الارتباط لاحظه كثير من المؤلفين فان النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرّز فى أفعاله والتمسك بالوقار فى أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا حتى إن شرائع المسلمين حثت عليها حثا كليا وجعلتها من الواجبات الأوّلية وقد ذكر فى نفس كتابه أن هذا من محاسن الدين الاسلامى وقد رتب على هذا ﴿ أمرين ﴾ وجوب نظافة المسجونين ووجوب وضعهم فى عمل من الأعمال لأن المذنبين عنده هم القذرون أجساما الذين لاعمل لهم ، فمتى نظفوا وعملوا قلت جرائمهم . انتهى مانقلته عن بنتام الانجليزى

وأما ماقاله علماء الهند فذلك انى قرأت فى كتاب ﴿ راجا يوقا ﴾ المترجم من الهندية الى الانجليزية سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ أن الانسان يجب عليه أن تكون له رياضة خيالية بحيث يتذكر فى كثيرمن الأوقات الصور الجميلة التى لاتثيرشهوة يريد بذلك الأزهار والكواكب وجمال الابداع والنظام وأن ذلك يقوّى النفس ويرقيها . وأما ما قاله علماء الاسلام فهو ماذكره العلامة ابن سينا فى أواخر كتاب الاشارات أن الذى يرقى بالنفس الى معاليها الصوت اللطيف والعشق العفيف والعبادة مع الفكر ، ومعنى العشق العفيف عشق الصفات والكمال والأخلاق لاعشق الصور. هذا ما أردت نقله لأشرحه فأقول

تبين من هذه الأقوال أن هذه النفس مع الجسم لايتركان سدى ، ذلك انهما نتجا من عوالم كلها متحركة فالملائكة المحركات للعوالم العلوية لاتفتر لحظة والسموات المرسلات أنوارها لاتنام والعالم كله حركة ونظام ، فههنا نفس وههنا جسم يطلبان كمالهما ، فأوّلا لابد من النظافة كما قال (بنتام) وهذه النظافة قد أصبحت ركنا فى تربية الأمم وتعليم المسجونين لتدفع عنهم الكسل وسوء الخلق وبها تقل الجرائم والذنوب وهذا السر ظهر فى قوله تعالى — إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين — لأن بين التوبة والطهارة علاقة متينة كما تقدم ، ثم إن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسلم وهذه الأفعال حركات وهذه الأقوال دالة على معان . فهنا رياضتان لطيفتان رياضة جسمية ورياضة عقلية . واذا وضعت قول ابن سينا مع قول طيماوس الحكيم نتج لنا أن رياضة النفس لاتقتصرعلى الموسيقى كما قاله طيماوس بل تشمل الفكر الذى تحويه العبادة كما قاله ابن سينا وتشمل الصور البهجة السماوية كما قاله علماء الهند وعليه تكون الصلاة مبدأ

﴿ لأمرين ﴾ رياضة البدن ورياضة النفس فكل منهما لابد له من حركات والصلاة اشتملت على مبادئهما فاذا أتمّ المسلم الصلاة فليتمم رياضة الجسم بكسب المعاش أوفليمش نحوساعتين كل يوم كما يقول الأطباء فى زماننا . فاذاكان الطبيب يأمرنا بالمشى الذى لاتعقل فيه فهاهىذه الصلاة اجتمع فيها حركة الفكر وحركة الجسم وهذا أفضل . ألاترى الى مايقوله علماء الطب وقدتقدم فى هذا التفسير أن التمارين الجسمية والألعاب الرياضية التى شاعت فى الأمم الآن أدنى مراتب الرياضة البدنية لأنها لافكرمعها . فأما العمل فى البساتين والحقول فانه أعظم الرياضات ويليه المشى وأسفل الجميع تلك الألعاب

إذن ظهرأن الصلاة أعطتنا ﴿ درسين ﴾ درس رياضة الجسم ودرس رياضة النفس ومتى انتظم هذان الأمران أصبح الانسان قليل الذنوب قليل الشروروفان الشرورلاتنجم إلامن قذرالأجسام والطهارة فى الصلاة تمنع ذلك ومن عدمالرياضة البدنية والرياضة النفسية كما قاله طيماوس وهاتان الرياضتان اشتملت عليهما الصلاة بحركات الجسم وحركات النفس إذ يقف المصلى فيفكر فى السموات والأرض حين يقرأ ـ وجهت وجهى للذى فطرالسموات والأرض ـ الخ فهمنا تحضرفى نفسه تلك العوالم الجميلة فتقوّى روحه وتشرحصدره وهكذا يفكر فى العوالم العلوية والسفلية عند آية ـ الحمد لله رب العالمين ـ ويتعجب من الرحمة الواسعة عند قوله ـ الرحمن الرحيم ـ وهذه الرحمة لاحدّ لها فى كل حشرة وطير وأنعام . وهكذا يفكر فى خلق جسمه وأعضائه وسمعه وبصره عند الذكر فى الركوع والسجود إذ يقول ﴿ خشع لك سمعى وبصرى الخ ﴾ ويقول ﴿ سجد وجهى الخ ﴾ فاذا أتمّ المسلم صلاته اتجه للأعمال فى حياته الدنيوية فتكون على منوال مافى الصلاة وتنصرف نفسه للعمل الجسمى والعمل العقلى وهنالك تنصرف عن الشرّ الى الخير

﴿ بهجة هذا المقال ﴾

اعلم أن أفلاطون فى جمهوريته يقول ﴿ إن حكام الجمهورية لايكونون عادلين إلا اذا انفتحت عيون بصائرهم ولايتم ذلك إلا بعشق العلوم والمعارف لأن النفوس مغرمة بالشهوات البدنية أوّلا وبالذات كالمطاعم والملابس والمشارب وبالشهوات الغضبية كالفتك بالأعداء ، فهاتان القوّتان هما المسيطرتان على نفوس الناس فاذا لم يفتح للحكام باب اللذة العقلية بعشق العلوم فانهم لامحالة ينصرفون الى اللذتين السابقتين فيشاركون المحكومين لهم فى أعراضهم وأموالهم ، ولاخروج للحكام من ذلك الظلم إلابتلك الخلة الشريفة ﴾ هذا ملخص كلامه فى جمهوريته

وأنا أقول ﴿ إن ملخص الصلاة مفتاح لجميع العلوم فاقرأه فيما كتبناه فى (سورة آل عمران) فان المسلم فى الرفع والاعتدال يذكر السموات فيقول « ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما الخ » وعند الركوع والسجود يفكرفى أمرجسمه وتشريحه . فاذا كان المسلم فى كل يوم يتذكر هذه العوالم فليس لهذا معنى إلا حب البحث فيها وهذا هوالذى يخرج نفسه من حبس الشهوتين الى حب العلم وهوصفة القوة العاقلة كما يقوله أفلاطون

الله أكبر . ظهر سرّ هذه الآية الآن . فالنظافة تمنع الذنوب وأذكار الصلاة تفتح أبواب العلم المانعة من الشهوة والغضب وهكذا ، فظهر إذن قوله تعالى ـ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ أى بنظافتها وحركاتها الجسمية وحركاتها العقلية

﴿ تطبيق على ماتقدّم ﴾

(سبب اسلام الاستاذ عبد الله كويلم الانجليزى)

لقدكان لإسلامه تاريخ وضعه هو فى كتاب وقد ذكر لى بعض الأصحاب ملخص ذلك الكتاب . قال « لقداعترانى مرض فعرضت نفسى على الأطباء فقالوا لى لابد من انك تسافرالى أقطارحارّة كبلاد الجزائر فتوجه اليها وخالط أهلها فوجدهم يتوضئون ويصلون فسألهم ماهذا ؟ فقالوا هذا أمر واجب شرعا فترك العامّة

وأخذ يسأل العلماء عما يفعل المسلمون فعلموه قواعد الدين الاسلامى فدهش وقال ياعجبا ، إن هذا الوضوء خمس مرات فى اليوم انما هو نصف اغتسال لأنه غسل أطراف الجسم ولم يبق من الانسان بلاغسل إلا الجذع هنالك أخذ يدرس هذا الدين وقال ان هذه النظافة هى الصحة بعينها وسلامة الجسم بعينه والأطباء يجعلون هذا أوّل علامة على قوّة الأجسام وسلامة العقول ، وما كاد يرجع الى بلاده حتى أخبر زوجته وأفهمها حقيقة الاسلام و بين لها فوائد الاغتسال والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وقال ان هذا صالح لرقى الانسانية جمعاء فأسلمت معه ، ثم قال لها لنعرض هذا الرأى على فلان وفلانة من أصحابهما فعرضه عليهما فقبلا وهكذا اجتمع له من أصحابه طائفة وأعلنوا اسلامهم ، فلما سمع بهم الجيران سطا عليهم الغوغاء وصاروا يقذفونهم بالحجارة و يعيرونهم بأنهم مسلمون ، ولما كان هو من رجال القانون المشهورين رفع دعوى على الملكة فكتوريا يقول فيها أنت ملكة انكلترا ، فهل ملكك خاص بالنصارى أم هو شامل لأهل جميع الأديان ؟ فما كادت الدعوى ترفع فى المحكمة و يصل الخبر الى الحكومة حتى بادرت الشرطة فحافظوا عليه وعلى أصحابه ومنعوا الغوغاء عنهم »

ثم قال « و بعد ذلك سمع بنا أمم الاسلام فأخذوا يرموننا بالنفاق والرياء واننا انما أسلمنا لنغش المسلمين باسلامنا فندخلهم تحت حكم دولتنا ، قال فقلنا لهم ، أيها المسلمون . نحن لم ندخلكم تحت حكمنا بنفاقنا بل حكمناكم بمدافعنا وجيوشنا »

هذا ماعرفته من ملخص سيرة الاستاذ (عبد الله كويلم) الذى يعتبره الناس شيخ الاسلام فى بلاد الانجليز وقدكان اسلامه قبل اسلام صديقنا (اللورد هيدلى) الذى كان سبب اسلامه انه قرأ الاسلام والديانات فرآه خيرها فأسلم ونشر اسلامه فى أوروبا ودعاها الى الاسلام . وقد نقلت من كتابه قطعة فى سورة مريم قد ذكر فيها أن الألمان كشفوا سنة ١٩٠٣ كتابة فى بلاد العراق ملخصها أن الكشف الحديث أثبت أن الصلب وابن الله البكر وأمثال ذلك ماهى إلا خرافات سرت للأمم المسيحية من ديانات كانت فى العراق وهكذا فاقرأه هناك والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩

(الصلاة اليوم فى بلاد الاسلام)

لأقصنّ اليوم أيها الذكىّ عليك قصص ماعلمته من الصلاة فى بلاد الاسلام وسأجعل ذلك فصولا وهاك بيانها

(١) فأوّلا أذكر مادار من الحديث بينى و بين التلاميذ بالمدرسة الخديوية

(٢) أذكر ماكتبه كاتب انجليزى أيام النهضة المصرية ومطالبة البلاد المصرية بالدستور أيام الخديوى السابق عباس حلمى باشا

(٣) وحكاية معلم ولىّ عهد البلاد المصرية أيام كانت تحت حكم الخديويين

(٤) وماقصه علىّ أستاذى الشيخ حسن الطويل

(٥) حديث عن أهل سيلان

(٦) وماذكره (هنرى الفرنسى)

(٧) وصدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات فى بلادنا لهذا الدين

(٨) وطريقة الوهابية ببلاد نجد والحجاز

﴿ الفصل الأوّل فى ذكر مادار من الحديث عن الصلاة بينى و بين تلاميذ المدرسة الخديوية وأنا مدرّس لهم ﴾

ذلك أنى يوما مّا سمعت أن وزير المعارف جمع المدرسين وأخذ يكلمهم فى أمور عامّة علمية فتصادف أن أحد المدرّسين قام ليصلى المغرب إذ حان وقت صلاة المغرب فقال ماهذا ؟ أتريد أيها الاستاذ أن تظهر أنك أنت

المتدين

المتدين ونحن لادين لنا ، ماهذا ؟ ولماذا لانؤخرها . وقال فى مجلس آخر « إن الصالحين فى الاسلام يسهرون الليل ليصلوا وهو مخالف للصحة » فلما سمعت هذا القول خطرلى أن أحادث التلاميذ فى هذا الموضوع فقلت « أيها الأبناء اننا اليوم أرقى ممن قبلنا فالحمد لله الذى رفع عنا الاصر وأزال عنا الضرفأصبحنا بفضل المدنية الحاضرة أعلى كعبا فى المدنيـة وأعز ناصرا وأكثر عددا ومالا وولدا ، كيف لا ونحن نحافظ على صحتنا وننام طول الليل كما يقتضيه علم الصحة ، أما تلك الطائفة القديمة من أمم الاسلام فانهم كانوا لايحافظون على صحتهم و يسهرون طول الليل تعبـدا ويأكلون ماخشن من الطعام ولايسعدون سعادتنا التى نلناها على يد الاورو بيين المتمـدينين أولئك الذين فتحوا لنا المطاعم والمشارب وأنواع اللذات فأكلنا وشربنا وتمتعنا بكل لذة وأصبح النابغون وغير النابغين فى بلادنا يكرعون الخمر نهارا جهارا وهم فى فرح وسرور ولا ينهى أحد أحدا ولا يخجل الشارب ولا الزانى ولا غيرهما ، كل ذلك للحرية الواسعة النطاق بفضل هذه المدنية المباركة »

كل هذا وهم سكوت كأنما على رؤسـهم الطير ، ثم قلت ولـكن عندى مسألة واحدة وهى كيف نـكون نحن على هذا المقام من العظمة والأبهة ونرى اننا عبيد لـكل الأمم فان جميع أورو با لهـا امتيازات عندنا ومن قتـل منا لادية له لأن محاكمهم هى التى تحكم ولاراد لحـكمها لضعفنا وقوّة تلك الأمم ، أما هؤلاء فقد حكموا أكثر تلك الأمم وهابها الجميع . أما أنا الآن فانى متحير فى المسألة . أما الرق فنحن والحمد لله راقون وأما الذل فهو نصيبنا والعز نصـيبهم . ههنا يا أبنائى حار فكرى . نحن لا نتقيد بقيد من شرع ولادين ثم نذل وهـم لايتمتعون مثلنا ولـكنهم أعزاء فما قولـكم ؟ فقام شاب فيهم يسمى (بهنساوى) فقال إنك قد فتحت هـذا الباب وقد أثرت فى نفوسنا تأثيرا عظيما ولـكن هل تظن أن مجلسا واحدا كهذا يغـير أخلاقا وعادات ورثناها عن الآباء والأمّهات والمدرّسين ونظار المدارس . نحن تعلمنا فى الابتدائى ولاصلاة هناك ثم تعلمنا فى التجهيزى الآن وها نحن أولاء معك ولاصلاة أيضا . وكيف نصلى والصلاة عندنا عار . إن التلميذ الذى يصـلى يسخر منه اخوانه ألا وان النساء فى المنازل يفعلن مانفعل تماما . فالمرأة المصلية يعدّونها أقلهنّ كمالا وشرفا لانتسابها للدين

هنالك نظر اليه التلاميذ جميعا نظر الشزر وردّوا عليه وقالوا اسكت لقد كذبت فى قولك . فقال لهم وهـل تظنون أن الاستاذ لايعلم ذلك ؟ ألم يرهو المصلى هنا وقت الظهر لا يصلى فيها عدد الأصابع من التلاميذ والمدرسة فيها مئات ومئات . فقلت دعوه فقد نطق بالواقع وماقاله هو الذى أعرفه فى بلادى

هذا ماجرى بينى و بين التلاميذ بالمدرسة الخديو ية فى حصة يسمونها المحادثة (أو الانشاء الشفهى) الذى يذكر الاستاذ موضوعا يجعله حديثا بينه و بينهم . و بهذا تعرف أيها الذكى حال بلادنا المصرية فى هـذا الزمان

ولقد كان هذا قبل كتابة هذه الأسطر بنحو (١٤) سنة . أما الآن فقد تحوّلت الحال قليلا حتى ان الشبان جعلوا لهم ناديا سموه ﴿جمعية الشبان المسلمين﴾ وانتشرت هذه الفـكرة من مصر الى بلاد الاسلام وأنا والحمد لله صليت معهم وقد أصبح رقيبها بمصر من أحـد تلاميذى بالمدرسة الخديوية . ومن عجب انه موقن بالاسلام ومحب للصلاح ويصلى بالليل والناس نيام وله حكم عجيبة واسمه (يحيى الدردير) وقد مكث فى ألمانيا (١٢) سنة يكرع من موارد العلم ورجع مغرما بالاسلام غراما لاحدّ له . انتهى الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى فيما كتبه كاتب انجليزى أيام مطالبة بلادنا المصرية بالدستور ﴾

ذلك أن البلاد من أقصاها الى أقصاها فى أوّل القرن العشرين تحركت لطلب الحرّية الداخلية وأخـذت الجرائد فى انكلترا تنقل عن جرائدنا ما يقوله المصريون فـكتب كاتب انجليزى يقول « لا يصح للانجليز أن يخرجوا من مصر إلا اذا أصبح الخاصة والسياسيون وأهل الرأى فى البلاد فى الأخلاق والعواطف كالفلاحين انى جبت هذه البلاد فرأيت طبقة الفلاحين والجهلاء والخدم عندهم عطف على الأرحام والمساكين وذوى الحاجة و يوقنون بالعقيدة ويخافون ربهم ، أما هذه الطبقة المتعلمة بمصر فانها تذر الدين وتتركه والتلاميذ

دائما يقلدون أساتذتهم والأساتذة ﴿ قسمان ﴾ قسم من شيوخ دار العلوم ، وقسم من متعلمي المدارس الأخرى أما الشيوخ فانهم حين يلقون الدرس الديني لايلتفت اليهم التلاميذ لأنهم يرون ناظر المدرسة لايبالى بهذه الامور والعبادات و يضرب بها عرض الحائط وهو لها من الكارهين فكيف نسلم البلاد لأقوام لاخلق لهم ولا كمال »

أقول وهذا مغالطة فان هذا التحوّل عن الفضائل انما جاء لمجاراتهم واتباع نصائحهم وكيف يصلى الوزير أوالأمير أمام حاكم اذا رآه كذلك حقره وأضمرله السوء طول الحياة . انتهى الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فى ذكر ماقصه علىّ والد أحد المعلمين لولىّ عهد الخديوى عباس ﴾

قال إن ولدى قد اختاره الخديوى مربيا لولىّ العهد وقدقص علىّ حديثا فقال « كنت يوما جالسا مع فيلسوف بوذى عند ناظرمدرسة فرنسى فقدّم لنا ذلك الفرنسى القهوة فلم أشرب فسألنى ناظر المدرسة قائلا لماذا ؟ فقلت لأنى صائم . فقال وهل أنتم لاتزالون خاضعين لهذه الأوهام . أىّ صيام وأىّ صلاة . دعوا هذه الأوهام ليرتقى الشرق والشرقيون وما أضرّ أهل الشرق إلا الأديان ومثلك راق مهذب فعليك أن تنصح اهل بلادك بنبذ هذه الترهات وانظروا الى أوروبا تركت الدين فملكت رقاب العالمين . فلما أراد القيام قال له الفيلسوف البوذى قابلنى ياسيد أفندى يوم الأحد عند كنيسة كذا . فلما قابله يوم الأحد دخل الكنيسة فرأى قوما يصلون و بقيا هناك نحوساعة فلما خرجا معا قال له الفيلسوف البوذى قد لاحظت هنا شيأ فقال من أى وجه قال ألم تر ناظر المدرسة يصلى مع المصلين فقال إى وربى إنه لحق فقال أليس هوالقائل لك دعوا هذه الخرافات فقال السيد أفندى له نعم فقال أتدرى لم قال لك ذلك قال من فمك أحلى فقال إن هؤلاء القوم يريدون أن يذمّوا لنا أديان الشرق لنتركها ومتى تركناها انحلت قوانا وذهبت رابطتنا وحينئذ يحتلون بلادنا فهؤلاء القوم عقدوا الخناصر على هذا فهم له أبدا ساعون . انتهى الفصل الثالث

﴿ الفصل الرابع فيما قصه علىّ أستاذى الشيخ حسن الطويل فى هذا المقام ﴾

وقبل أن أذكر حديثه رحمه الله تعالى أقدّم مقدّمة فأقول

إن البلاد المصرية قد حكمها المرحوم محمد على باشا ولم يكن فى البلاد أكثر من ثلاث ملايين وهؤلاء كانوا يصلون و يصومون وكانت المدارس كلها أستاذ أوتلميذ قائمين بشعائر الدين فى بلادنا وفى أوروبا وأمكنه بهذا العدد القليل أن يملك بلاد الحجاز ونجد وأكثر بلاد العرب وهكذا بلاد السودان وزحف بجيوشه على بلاد الترك لولا توسط أوروبا ، فلما مات المرحوم محمد على باشا وابراهيم ابنه ملك البلاد بعده بعض عقبه فغيروا الأوضاع وترك بعضهم الصلاة واتبعوا الشهوات فانحلت العصبية وكان هذا تمهيدا لاحتلال الانجليز هذه البلاد . فانظر لما حدّثنى به أستاذى الشيخ حسن الطويل

قال رحمه الله تعالى ﴿ لقد كانوا أدخلونى فى زمرة الجند وارتقيت الى جاويش وقدكان أستاذى بالأزهر علمنى دعاء أدعو به لتفريج الكرب ، قال فلما كنت بالجيش فى الاسكندرية أخذت أقرأ هذا الدعاء وأدعو الله أن يخرجنى من زمرة هذا الجيش ، قال وكانت هناك أوامر من الخديوى أن كل من صلى أوأظهر العبادة يعاقب فلما علموا بأنى أدعو الله بهذا الدعاء أنزلونى درجة وعاقبونى بأن أحمل سلاحى وعتادى وأرجع من الاسكندرية الى مصر ثم رفتونى ، قال رحمه الله وقدجهل هؤلاء أن هذا الرفت هومطلوب الدعاء الذى كنت أدعو به ﴾

أقول هذه حال الجيش وحال المصريين بعد أيام المرحوم محمد على باشا فكان ذلك توطئة لما نحن فيه الآن وقد كانت هذه الفكرة آتية لهم من أهل فرنسا إذ قالوا لهم إن الديانات تؤخر الأمم ـ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ـ انتهى الفصل الرابع

(الفصل

﴿ الفصل الخامس فى حديث محمد بك عرابى نجل المرحوم أحمد عرابى باشا عن أهل سيلان ﴾

لما رجع المرحوم أحمد عرابى باشا الى مصر بعدالنفى وقد هرع اليه الناس يسلمون عليه قابلت ابنه ودار الحديث بيننا على أهل سيلان فقال ﴿ إن صلاة الجماعة أمر حتم على كل مسلم والرئيس الدينى هناك يتفقد كل مسلم فى صلاة الجماعة فإذا تأخر شاب عن الصلاة أحضره أكابر البلد وأنذروه أوّل مرة فان عاد عادوا الى الانذار فاذا كانت الثالثة حكموا عليه بالاعدام . قلت وهل ينفذ . قال نعم . قلت وماذا يفعل الانجليز ؟ قال لودخل عند (الملكة فكتوريا) واحتمى بها لأخرجوه وقتلوه ولا يردّون أمر الشرع ﴾ فعجبت وكنت أظنّ أن بلادنا اذا تركت الصلاة فما هو إلا مجاراة للأوروبيين واذن تمثلت بقول من قال

دواؤك فيك وماتشعر * وداؤك منك وماتبصر

﴿ الفصل السادس فيما قرأته فى كتاب « خواطر وسوانح فى الاسلام » للعلامة (هنرى الفرنسى) الذى ترجه المرحوم الاستاذ فتحى باشا زغلول ﴾

قال كنت ضابطا على جنود من أهل الجزائر وكنا يوما مسافرين لأعمال الدولة ، قال فبينما الجند راكبون وهم يغنون غناء عربيا ويشيرون نحوى بالمحبة والاجلال فى أثناء النغمات اذا أنا بالعصر قد حضرت صلاته فترجلوا عن خيولهم ونزلوا واستقبلوا القبلة وقالوا بلسان واحد ﴿ الله أكبر ﴾ فسمعت كأن الخيل والجبال والأودية والأنهار والرمال كلها تقول ﴿ الله أكبر ﴾ واعترانى الخجل أن أسمع قوما كهؤلاء يعظمون الله ويقولون فى أنفسهم انى كافر بالله فكدت أنطق وأقول لهم ياقوم أنا أيضا أعبد الله . قال وهنالك تغيرت حالى وأخذت أبحث فى دين الاسلام وتوجهت الى المساجد فوجدت عليها نورا وبهجة وجمالا وبسطة تشرح الصدر فأخذت أدرس هذا الدين فراعنى جماله وبهجته ، ولولا ضيق المقام لقلت منه فصولا تليق بالمقام ولكن عسى أن أذكره فى مقام آخر . انتهى الفصل السادس

﴿ الفصل السابع والثامن فى صدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات لحقائق الدين فى زماننا وفى طريقة الوهابية ببلاد الحجاز وبعض بلاد الاسلام ﴾

اعلم أن ماسمعته الآن عن بلاد (سيلان) له نظير فى بلاد (بلوخستان) فلقد قرأت فى بعض الجرائد عن سائح ألمانى قال ﴿ لم أجد سعادة أوفى ، ولاعزا أبهى ، ولا كمالا أرفع ، ولاراحة أعظم ، مما رأيته فى بلاد (بلوخستان) قال فهؤلاء يعبدون الله على مذهب الامام الشافعى ، فاذا كانت صلاة الصبح حضر الرجال والنساء والصبيان الصلاة وأخذ الاستاذ يلقى النصائح الدينية ثم اذا طلعت الشمس رجعوا وهم مستبشرون ﴾ قال ﴿ والمرأة هناك مكبة على عملها قائمة بالواجب لميها بيتهانظيف وعرضهانظيف وزوجهاعفيف ولم نسمع بالزنا فى بلادهم سنين وسنين بخلافنا نحن فقد يجد الرجل منا أن ابنه يشبه جاره ولايقدرأن ينبس ببنت شفة . وأقول ثم إن الوهابيين بنجد والحجاز اليوم يقيمون الصلاة فى أوقاتها وهم بالدين موقنون ، واعلم أن هذه كلها تدرس فى الجامع الأزهر الشريف ، ولكن الطالب الذى يقرأ هذا فى درسه يخرج فيجد عادات بلاده تخالفها فى زماننا فلايقدر على تغيير الأحوال فيصبح على طبع أهل بلاده ﴾

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام تبصرة وذكرى لأولى الألباب والحمد لله ربّ العالمين . انتهى يوم الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٩

(الأحاديث النبوية فى فضائل الصلاة)

جاء فى كتاب « إحياء علوم الدين » للامام الغزالى مانصه

﴿ فضيلة المكتوبة ﴾

قال الله تعالى ـ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ـ وقال ﷺ ﴿ خمس صلوات كتبهن

الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيأ استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عندالله عهد إن شاء عذبه وان شاء أدخله الجنة ﴾ وقال ﷺ ﴿ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لاشئ قال ﷺ فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن ﴾ وقال ﷺ ﴿ إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ﴾ وقال ﷺ ﴿ بيننا و بين المنافقين شهود العتمة والصبح لايستطيعونهما ﴾ وقال ﷺ ﴿ من لقى الله وهومضيع للصلاة لم يعبأ الله بشئ من حسناته ﴾ وقال ﷺ ﴿ الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين ﴾ وسئل ﷺ أىّ الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها * وقال ﷺ ﴿ من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا و برهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان ﴾ وقال ﷺ ﴿ مفتاح الجنة الصلاة ﴾ وقال ﴿ ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبّ اليه من الصلاة ولوكان شئ أحبّ اليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد ﴾ وقال النبىّ ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد كفر ﴾ أى قارب أن ينخلع عن الايمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة انه بلغها ودخلها * وقال ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمّة محمد عليه السلام ﴾ وقال أبوهريرة رضى الله عنه « من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا الى الصلاة فانه فى صلاة ما كان يعمد الى الصلاة وانه يكتب له باحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة ، فاذا سمع أحدكم الاقامة فلاينبغى له أن يتأخر فان أعظمكم أجرا أبعدكم دارا ، قالوا لم يا أبا هريرة قال من أجل كثرة الخطا » * ويروى أن أوّل ماينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فان وجدت تامّة قبلت منه وسائر عمله وان وجدت ناقصة ردّت عليه وسائر عمله * وقال ﷺ يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لاتحتسب * وقال بعض العلماء مثل المصلى مثل التاجر الذى لايحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلى لاتقبل له نافلة حتى يؤدّى الفريضة * وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول « اذا حضرت الصلاة قوموا الى ناركم التى أوقدتموها فاطفؤها »

﴿ فضيلة إتمام الأركان ﴾

قال ﷺ ﴿ مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ﴾ وقال يزيد الرقاشى « كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة » وقال ﷺ إن الرجلين من أمّتى ليقومان الى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان مابين صلاتيهما مابين السماء والأرض وأشار الى الخشوع * وقال ﷺ ﴿ لاينظر الله يوم القيامة الى العبد لايقيم صلبه بين ركوعه وسجوده ﴾ وقال ﷺ ﴿ أما يخاف الذى يحوّل وجهه فى الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار ﴾ وقال ﷺ ﴿ من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولاسجودها ولاخشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى اذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه ﴾ وقال ﷺ ﴿ أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته ﴾ * وقال ابن مسعود رضى الله عنه وسلمان رضى الله عنه « الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طفف فقد علم ما قال الله فى المطففين »

﴿ فضيلة الجماعة ﴾

قال ﷺ ﴿ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ﴾ وروى أبوهريرة أنه ﷺ فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم * وفى رواية أخرى ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم

الحطب ولوعلم أحدهم انه يجد عظما سمينا أومرماتين لشهدها يعنى صلاة العشاء * وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا ﴿ من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة ﴾ وقال ﷺ ﴿ من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة ﴾ * وقال سعيد بن المسيب ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد * وقال محمد بن واسع ﴿ ماأشتهى من الدنيا إلا ثلاثة ، أخا إن تعوّجت قوّمنى ، وقوتا من الرزق عفوا بغير تبعة ، وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها ﴾ * وروى أن أبا عبيدة بن الجرّاح أمّ قوما مرة فلما انصرف قال مازال الشيطان بى آنفا حتى أريت أن لى فضلا على غيرى لاأؤم أبدا * وقال الحسن ﴿ لاتصلوا خلف رجل لايختلف الى العلماء ﴾ وقال النخعى ﴿ مثل الذى يؤم الناس بغيرعلم مثل الذى يكيل الماء فى البحر لايدرى زيادته من نقصانه ﴾ وقال حاتم الأصم « فاتتنى الصلاة فى الجماعة فعزّانى أبواسحق البخارى وحده ولومات لى ولد لعزّانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا » وقال ابن عباس رضى الله عنهما « من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به خير » وقال أبوهريرة رضى الله عنه « لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خيرله من أن يسمع النداء ثم لايجيب » * وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له إن الناس قد انصرفوا فقال ـ إنا لله وانا اليه راجعون ـ لفضل هذه الصلاة أحبّ الىّ من ولاية العراق * وقال ﷺ ﴿ من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لاتفوته فيها تكبيرة الاحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار ﴾ ويقال انه اذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدّرى فتقول لهم الملائكة ماكانت أعمالكم ؟ فيقولون كنا اذا سمعنا الأذان قمنا الى الطهارة لايشغلنا غيرها ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان فى المسجد * وروى أن السلف الصالح كانوا يعزّون أنفسهم ثلاثة أيام اذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزّون سبعا اذا فاتتهم الجماعة

﴿ فضيلة السجود ﴾

قال رسول الله ﷺ « ماتقرّب العبد الى الله بشئ أفضل من سجود خفى » وقال رسول الله ﷺ « مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحطّ عنه بها سيئة » وروى أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة فقال ﷺ أعنى بكثرة السجود * وقيل ﴿ أقرب مايكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا ﴾ وهومعنى قوله عزّوجل ـ واسجد واقترب ـ وقال عزّوجل ـ سيماهم فى وجوههم من أثرالسجود ـ فقيل هومايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود * وقيل هونورالخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح * وقيل هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثرالوضوء * وقال ﷺ «اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول ياويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار » ويروى عن علىّ بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد * ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لايسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن اسباط يقول ﴿ يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فمابقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك ﴾ * وقال سعيد بن جبير ما آسى على شئ من الدنيا إلا على السجود * وقال عقبة بن مسلم ﴿ مامن خصلة فى العبد أحبّ الى الله عزّوجل من رجل يحب لقاء الله عزّوجل ، ومامن ساعة العبد فيها أقرب الى الله عزّوجل منه حيث يخرّ ساجدا ﴾ وقال أبوهريرة رضى الله عنه ﴿ أقرب مايكون العبد الى الله عزّوجل اذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك ﴾

هذا نص ماجاء فى ﴿ الإحياء ﴾ ومعلوم أن فى الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء ايراد الضعيف فى فضائل الأعمال اه

﴿ الفاتحة وعلوم الحكمة ﴾

(سانحة يوم السبت ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩ صبحى)

لم يكن ليخيل الى يوما ما أن تصبح الفاتحة بالنسبة للقرآن ولعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة ولكن هذا الخاطر فاجأنى اليوم مفاجأة بهجوم عقلى أوجب على أن أشرحه فأقول

إنى لأعلم أن النادر من قراء هذا التفسير يعرفون المقولات لأن المقولات انما جاءت فى الفلسفة القديمة والفلسفة القديمة مهجورة بل الذين درسوها من المسلمين ينظرون للمقولات المذكورة نظرهم الى مستصعب الامور فهى غامضة المعنى ولكنى قد شرحتها فى كتابى المسمى ﴿ بهجة العلوم ﴾ فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة وهذا الكتاب تحت الطبع الآن ، وليس هذا المقام مقام الأطناب فيها ولكنى سأريها لك الآن بطريق سهل ثم أقفى بعدها بمقاصد الفاتحة وهنالك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها فهى فاتحة القرآن والعلوم وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة باجماع حكماء الشرق والغرب وهى الآن تدرس فى جميع أنحاء أوروبا للخواص هناك بلغاتهم المختلفة . المقولات هى كلمات عشر وتلك الكلمات العشر يرجع اليها كل علم من علوم الرياضة والطبيعة وسائر العلوم وهى الجوهر والكم والكيف والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال

(١) فالجوهر يشمل كل ماتراه من المادة كالانسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا

(٢) والكم يشمل علوم المقادير من الحساب والهندسة والجبر والفلك وعلوم المساحة وهكذا كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها ، فعلم المعدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر

(٣) والكيف يرجع الى كل ما نحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات والملموسات وهكذا كل مانحس به فى نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا

(٤) والإضافة كل شيئين يلازم أحدهما الآخر كالابوة والنبوة وهكذا

(٥) و (٦) والمكان والزمان يشملان علوم الجغرافيا وحساب السنين والأشهر والدهور

(٧) والوضع مثل هيئة الانسان فى جلوسه ونومه وهيئة الهواء والضوء والماء والأرض وانتساب كل واحد منها الى الآخر بهيئة خاصة

(٨) والملك مثل كل مايملكه الانسان

(٩ - ١٠) والفعل يشمل كل مؤثر فى غيره كاحراق النار وتبريد الثلج الماء وهكذا والانفعال كاحتراق الحطب وبرودة الماء وهكذا

هذه هى المقولات التى شرحت معناها شرحا وجيزا وقد علمت انهم أجمعوا أنه لاعلم من العلوم إلا وهو مندرج فيها ويقولون انها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الغصون والأزهار والأثمار

كلمات عشر عبر بها الحكماء عن جميع العلوم حتى ان الصناعات كلها ترجع الى مقولة الفعل والأمراض والفرح والحزن ترجع الى مقولة الانفعال وهكذا ، فهذه المقولات العشر نظيرها سورة الفاتحة ، وأنت خبير أن معانى الفاتحة قد تقدمت عند تفسيرها ، وهناك قد دخلت كل علوم الأمم مثل ان (العالمين) يشمل العالم العلوى والسفلى ولفظ (رب) من - رب العالمين - يشمل كل علوم التربية فى العالم كله وهكذا فارجع الى تفسيرها هناك فانك تجد الفاتحة أشمل لجميع العلوم من فن المقولات ، وعليه أصبح المسلم يتلو صباحا ومساء كلمات هى

مفاتيح

مفاتيح العلوم . المسلم فى قراءته الفاتحة تعبدا وهو غافل عن علومها أو بعضها خير ممن يقرأ المقولات العشر
و يقول فى كل وقت من الأوقات ﴿جوهر . كم . كيف . الخ﴾ وهو لايعقل معناها ، ولوأن رجلا أخذ يتلوهذه
الكلمات العشر صباحا ومساء على مسمع من الناس لعدّوه قليل العقل لأنها غيرمعقولة ولامفهومة إلا للنادر
من الناس . أما الفاتحة فمعناها الظاهر يكفى العابد فى عبادته بل توجهه لله بها وان كان لايدرى معناها كاف
فى العبادة ، والحكماء حين يتلون الفاتحة يحضر لهم اجمال العلوم كما تحضرالعلوم كلها فى المقولات العشر .
إذن وضع الفاتحة أرقى فى جمع العلوم من وضع الفلاسفة . الفلاسفة يضعونها فى كلمات لايعقلها إلا الخواص والفاتحة
تفيد العامّة عبادة والخاصة تذكرة للعلوم كلها والحمد لله رب العالمين

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ـ الخ ﴾

تقدّم فى (سورة النحل) عند قوله تعالى ـ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى
هى أحسن ـ أن الناس ﴿ ثلاثة أصناف ﴾ صنف هم العامّة وهؤلاء لاينجع فيهم إلاالوعظ وذلك بما يرغب
و يرقق القلوب و يفرحها بضرب الأمثال وذكر الحوادث والمشوّقات والمخيفات من الجان والنيران ومافى معناها
وصنف هم العقلاء وأرباب الفكر وهؤلاء لاتكفيهم المواعظ بل لامندوحة من إعطائهم البراهين القولية
والأقوال الحكمية حتى يستقر إيمانهم و يثبت يقينهم ، وصنف هم قوم لاهم مع العامّة ولامع العقلاء والحكماء
وهم أهل الجدل كأهل الكتاب فانهم قوم مقلدون لامفكرون لأن كل من نشأ على دين يعسرعليه الاقلاع
عنه فهؤلاء لاتنفعهم المواعظ ولاتقام لهم الحجج وانما يكون القول معهم باستنباط الأدلة من كتابهم لأنهم
عليه يعوّلون و به يثقون فيقال لهم ان النبى ﷺ مثلا ورد ذكره فى كتابكم فجاء فيه كذا وكذا فهذا هو
الجدل فهو حجة لاهى يقينية ولاهى وعظية بل هى اقناعية تستند لما يعتقده الخصم غالبا ، واعلم أن القائمين
بأمر الأمم ﴿ أربعة أقسام ﴾ أنبياء ووعاظ وحكماء وأمراء ، و بيانه أن الوعاظ هم الذين لاحكم ولاسلطان لهم
إلا على قلوب الجهال والعامّة كخطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين المعتادين فى الأمم ، فهؤلاء جميعا لايؤثرون
إلا على قلوب العامّة لأنهم يقومون بتذكيرهم بآيات الله بحسب ظواهر الكتاب والسنة والاخبار بدون كثير
بحث ولاتدقيق والعامة لهم مصغون وعلى قولهم معوّلون

﴿ الأمراء ﴾

و بعكس هؤلاء الوعاظ الأمراء ، فاذا رأينا الواعظ قد خلب قلب العامى وخضع لقوله واتعظ وليس لهذا
الواعظ من قوة جسمية تخيفه بل قوّته روحية فاننا نرى الملوك والأمراء ورجال الادارات فى الحكومات من
قاض وحاكم وجندى فكل هؤلاء لاسلطان لهم إلا على أجسام الناس وظواهرهم لاعلى عقولهم وأحلامهم

ألا ترى رعاك الله أن فرنسا تحكم فى تونس والجزائر ومراكش وايطاليا فى طرابلس والانجليز لهم بعض
السلطان فى مصر ، ومع هذا ترى هذه الأمم لاتتبع هؤلاء الفاتحين إلا من خوف العقاب ، أما القلوب فانها
مع هؤلاء الوعاظ . إذن هنا جسم يحكمه الأمراء وعقل يحكمه الوعاظ

﴿ الحكماء ﴾

فأما قسم الحكماء فهؤلاء قوم خصهم الله عزّ وجل بنور البصائر وازدياد الفهم وقوّة الادراك وسرعة
الخاطر فهم لايصلحون لتعليم العامّة والجهلاء ولاسطوة لهم على الناس فيحكمون أجسامهم بل سلطانهم يختص
بالعلماء والوعاظ ، فكما خضع العامة للوعاظ بعقولهم وللأمراء بأجسامهم وظواهرهم هكذا يخضع العلماء والوعاظ
للحكماء وهم أولئك الذين امتازوا بسموّ المدارك فهؤلاء يقودون بواطن العلماء و يذكرونهم بما نقصهم من
العلم ، وهذه الطائفة إن لم يخلقهم الله فى أمة فذلك عنوان على ضياعها وهلاكها ، ولقد قام فى أممنا الاسلامية
من هؤلاء كثير وأذكر منهم العلامة الغزالى بالشرق وابن رشد فى بلاد الأندلس فآذاهما المسلمون وأحرق

قوم كتب الامام الغزالى و بصق آخرون فى وجه ابن رشد وكفروه . فهذان وأمثالهما انما خلقا لارشاد العلماء فلما آذتهما الأئمة وقامت فى وجههما أذلها الله وعوقبت قرونا وقرونا ودخل التتار من الشرق نخربوا الدولة العباسية وذهب مجد العرب ودخل أهل أسبانيا الأندلس فأذلوا الأمم العربية وأهلكوهم وفرّ منهم من فرّ ومن بقى تنصروا وهم فى نظر القوم مرتدون مذنبون ، ذلك مثل المسلمين السابقين

﴿ الأنبياء ﴾

أما الأنبياء فهم يعظون العامّة كالوعاظ والخاصة كالحكماء و يحكمون على أجسامهم بالحبس والقتل وغيرهما كالملوك والأمراء . ألاترى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يعظ كالوعاظ وأمر أن يدعو الى سبيل ربه بالحكمة وهذا شأن الحكماء وأمر أن يحكم بين الناس بالعدل وهذا شأن الأمراء والملوك . كتب ليلة الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٩ قبيل الفجر

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ـ وفى قوله تعالى ـ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ـ الخ ﴾

سبحانك اللهم و بحمدك أنت الذى أنزلت القرآن ، وأنت الذى خلقت أمم الشرق والغرب ، وأنت الذى جعلت هذا القرآن آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ووعدت بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به ، اللهم إنك أنت أنرت بصائر الأمم الحاضرة المعاصرة لنا وأبرزت فى أوروبا أناسا برعوا فى العلم وحذقوا ودرسوا الديانات وهم من الذين أوتوا الكتاب الذين ذكرتهم و بعد ذلك أيقنوا بأن القرآن حق وصدق كما وعدت فى كتابك ، اللهم إن هذا وحده برهان ، اللهم إنك قد تكفلت بحفظ هذا العالم ونظامه وتكفلت بحفظ القرآن وتكفلت باظهار علماء من أمم أهل الكتاب يؤمنون به ، اللهم إن ظهور ذلك فى زماننا أتمّ لكثرة العلم وانتشار الحكمة ، إذن يجب علينا نحن الذين خلقنا فى هذا الزمان أن نذكر المسلمين فى أمثال هذا التفسير بمادبجه بعض أولئك العلماء من أوروبامصداقا للقرآن ، فنهم صديقنا (اللورد هيدلى) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير مرارا ، ومنهم (الكونت هنرى ديكاسترى) ومنهم العلامة (توماس كارليل) فلأقتصر على نقل نبذ من أقوالهم ، فهؤلاء منهم مؤمنون ومنهم علماء أيقنوا بالقرآن لأنه آيات بينات فى صدورهم وليكن ذلك فى ﴿ ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الأوّل ﴾

فى الكلام على صديقنا (اللورد هيدلى) الانجليزى رئيس الجمعية البريطانية الاسلامية فى كتابه المسمى (ايقاظ الغرب للاسلام) الذى لقب بحضرة (سيف الرحمن رحمة الله فاروق) وقد ترجمه اسماعيل أفندى حلمى البارودى العضو بالجمعية البريطانية الاسلامية وهذا نصه

﴿ مقدّمة ﴾

لكى أقدم الصحائف المقبلة الى القراء لا أجدا خيرا من إعادة نشرى هنا لمقالة صغيرة من قلمى ظهرت فى إحدى جرائد (لوندرا) الأسبوعية فى نوفبر سنة ١٩١٣ وهذا نصها

ظهرت فى جرائد عديدة قطع تشرح معتقدى الدينى وانه ليبهجنى أن أرى أن كل ماوجه الىّ من الانتقاد لغاية الآن لم يكن إلا بلطف متناه ، انه لاينتظر أن تخرج خطوة معلومة عن خط سير مألوف دون أن تستلفت النظر . ورد لى فى أحد الأيام خطاب من أحد المسيحيين المتدينين يخبرنى فيه بأن الدين الاسلامى انما هو دين لذة وأن النبى صلى الله عليه وسلم كانت له زوجات عديدات وأن ذلك قاعدة فى الاسلام فما أغرب هذه الفكرة عن الاسلام إلا انها فكرة راسخة فى عقول تسعة وتسعين فى المائة من البريطانيين الذين لم يعنوا ببحث الحقائق الواضحة لديانة ماينوف عن مائة مليون من رعاياهم ولودرسوا تلك الديانة لتبين لهم أن نبىّ بلاد العرب صلى الله عليه وسلم

كان مشهورا فى كبح النفس عن الهوى وردّها عن الشهوات وكان مخلصا لزوجته الوحيدة (السيدة خديجة) التى هى أكبر منه بخمس عشرة سنة والتى كانت أوّل من آمن برسالته السماوية و بعد وفاتها تزوّج بالسيدة (عائشة) وقد تزوّج أيضا ببعض أيامى متبعيه الذين استشهدوا فى إعلاء كلمة الله وذلك لابدافع الشهوة بل لكى يعولهن و يمنحهن مساكن و ينزلهن منزلة ماكن ليحصلن عليها لولاه (يقول مؤلف هذا التفسير وسيتضح لك هذا المقام فى سورة الأحزاب)

نحن معشر البريطانيين نعجب بأننا نحب العدل والانصاف ، ولكن ماذا أعظم جورا وحيفا من الحكم الذى يصدره كثير منا على الدين الاسلامى دون أن يجتهد أو يحاول أن يعرف ولو مجملا بسيطا من عقائده حتى انهم لايفقهون معنى كلمة الاسلام

إنه من المحتمل أن يظن بعض من أصدقائى أننى قد غلبت على أمرى أو تسيطر على المسلمون إلا ان ذلك ليس بحقيق لأن اعتقاداتى الحالية ماهى إلا نتيجة بحث سنوات عديدة وان كانت مناقشاتى الحقيقية مع متعلمى المسلمين فى موضوع الديانة لم تبتدئ إلا منذ زمن قريب ، وانى لمحتاج الى القول بأنه قد غمرنى الفرح عندما وجدت أن كل نظرياتى واستنتاجاتى كانت مطابقة مطابقة تامة للاسلام . إن أخى خواجا كمال الدين لم يحاول بتاتا أن يتسلط على فؤادى ولو قليلا فانه كان دائما مثال الأمانة والصدق إذ قد شرح لى فى ترجمة القرآن الكريم الذى ما استطعت أن أفهم معناه من الترجمة المشوهة المنتشرة بين المسيحيين فأنار من هذه الوجهة المحجة الواضحة التى تسير فيها (جمعية التبشير الاسلامية) فانها ما احتالت ولاخدعت أحدا قط فالهداية كما جاء فى القرآن الشريف يجب أن تكون بمحض الرغبة والاختيار ومن تلقاء النفس ، لذا لم يرتكب خواجا كمال الدين أى صفة من صفات الاحتيال والخديعة ، وقد أراد عيسى نفس تلك الصفة عند ما قال لحوارييه « وكل من لايقبلكم ولايسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذى تحت أرجلكم شهادة عليهم »

وقد علمت أمثلة كثيرة جدا من (البروتستانت) المتعصبين الذين ظنوا أن من واجباتهم أن يغشوا بيوت الرومان الكاثوليك فيحتالوا على من يقطنها لنقله الى دينهم ، ومثل هذا العمل المثير الذى لايليق بكرامة جار هو طبعا عمل كريه جدا أدّى الى اثارة العواطف وايجاد النزاع الذى جرّ عليهم الازدراء والاحتقار وانى لأتألم جدّ الألم عند مايعرض لفكرى أن أولئك المبشرين المسيحيين حاولوا ذلك مع المسلمين أيضا وان كان لايوجد هناك باعث يدعوهم الى هداية هؤلاء الذين هم أصحّ منهم مسيحية وأفضل منهم أنفسهم فى مسيحيتهم وقد عجزت تماما عن أن أعرف لم فعلوا ذلك ، انى لم أقل أصحّ منهم مسيحية جزافا بل بعد اعمال العقل والروية لأن المحبة والألفة والتسامح فى الدين الاسلامى أقرب جدا لما أتى به المسيح مما عليه رجال المسيحية فى الكنائس المتنوّعة ، خذ مثلا العقيدة (الاثانسيانية) التى تختص بالثالوث بحالة مشوشة لايقبلها العقل ثم أنه من الواضح جليا أن هذه العقيدة المهمة عندهم للغاية والتى تعتبر إحدى العقائد الرئيسية للكنيسة تمثل المذهب الكاثوليكى واننا اذا لم نعتقدها نهلك هلاكا أبديا وهكذا نؤمن بوجوب اعتقاد الثالوث إن أردنا الخلاص أو بطريقة أخرى نقول إن الله رحيم وقادر على كل شئ وفى الوقت نفسه نتهمه بالظلم والقساوة اللذين لانستطيع ولانرضى أن ننسبهما الى أفظع سفاكى الدماء من الظلمة الآدميين كأن الله الذى هو أمام الجميع وفوق الجميع يتغلب عليه اعتقاد مخلوق ضعيف فان فى الثالوث

هذا مثل آخر يدل على عدم وجود الحسنى لديهم ، وصلنى خطاب لمناسبة اتجاهى نحو الاسلام أخبرنى فيه كاتبه بأننى اذا لم أعتقد ألوهية المسيح لايمكننى الخلاص . إن مسألة ألوهية المسيح ماظهرت لى قط انها مهمة ، هل أرسل المسيح رسلا من البشر برسالات إلهية ؟ لو كان عندى الآن أى شك فى تلك النقطة الأخيرة لآلمنى ذلك جدا إلا انى أشكر الله سبحانه وتعالى لعدم وجود هذا الشك وأتعشم أن يكون اعتقادى فى المسيح وتعاليمه ثابتا

جدا كاعتقاد أى مسلم أومسيحى حقيقى آخرلأنى سبق لى أن قلت مرارا أن الديانة الاسلامية والديانة المسيحية كما علمت بالمسيح نفسه هما أختان ولم يفصلهما عن بعضهما إلا المذاهب والاصطلاحات المسيحية فقط التى يمكن الاستغناء عنها بكل سهولة وارتياح

يميل الناس فى هذه الأيام الحاضرة الى الكفر والإلحاد عند ما يطلب منهم أن يعتقدوا هذه المذاهب والعقائد التى لاتفهم وهناك بلاشك رغبة واشتهاء الى ديانة تقبلها العقول والميول ، فمن سمع بمسلم ارتد الى الكفر والالحاد ؟ ربما كانت هناك حالات من هذه إلا انى أشك جدا فيها . إنى أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضامسلمين قلبا ولكن يمنعهم خوف الانتقادوالرغبةفى الابتعاد عن التعب الناشئ من التعيير تآمرا على منعهم من اظهار معتقداتهم . انى خطوت هذه الخطوة ولوانى أعلم علم اليقين أن كثيرا من اخوانى وأقاربى ينظرون الىّ الآن كروح ضالة و يصلون من أجلى ، إلا انى لست فى الحقيقة فى اعتقاداتى اليوم إلا كما كنت منذ عشرين سنة تماما ولكن صراحتى فى القول هى التى حرمتنى حسن ظنهم بى

الآن وقد شرحت بعضا من الأسباب التى جعلتنى أتبع الدين الاسلامى وقلت إننى أعتبر نفسى الآن إنى أصبحت باسلامى مسيحيا أفضل مسيحية مما كنت عليه من قبل ، فآمل أن يتبع الآخرون مثالى و يعتقدون أحقية الاسلام الذى أقرّ بكل شهامة وفخر انه أصحّ الأديان وانه ستصل السعادة لأى امرئ ينظر الى هذه الخطوة كخطوة متقدمة لا كخطوة مضادة للمسيحية الحقة بأى وجه

﴿ سلم الاسلام ﴾

ينظر فى هذا العصر للديانة كأنها شئ مزعج والناس إما ملحدون واما متبعون اتباعا أعمى لصفوف عقائد من الأفكار التى لاتقبلها عقولهم وتقاومها ، إلا انهم يعترفون بها ظاهرا لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وانه يؤدّى المطلوب . أكد لى رجل من أحسن الرجال الذين عرفتهم (زوج فاضل ووالد) انه ملحد ولاينظر لشئ غير فناء الخليقة ومع ذلك كان سعيدا جدا ولم أجد بوسعى شيأ أستطيع أن أعمله معه ويكون له أقلّ تأثير فى تغيير معتقده الفظيع . وسمعت برجل آخر أخذ الديانة بروح فرحة جدا وكان غنيا للغاية ، ناقشه صديق له يوما من الأيام فى أسلوب حياته الحلول وسأله ألم يفكر قط فى الحالة المستقبلة وفيما ستكون عليه نفسه فى الحياة الثانية فأجاب كلا لم أتعب نفسى وراء هاتيك الأشياء ؟ انى أدفع لطبيبى كذا فى السنة ليعتنى بصحتى الطبيعية وأعطى الكاهن نحو ستمائة جنيه فى السنة ليعتنى باحتياجاتى الروحية ، فلم إذن أصدع رأسى ، وهذا الرجل كان مسرورا أيضا بطريقته وتوفق لأن يدفع مبلغا معينا سنويا لينجو من التفكير ومن كل مايشغل رأسه أو يتعبه . اذا كان يمكننا فقط أن نجد فكرا قويا خاليا من العقائد لكى ينتخب لنا الدين الحق الذى يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدا نحو الاتجاه الصواب . اننا اذا ذهبنا الى القسس والرهبان أوغيرهم ممن يقدمون أقوالا توافق مشاربهم لانجد لديهم أى مساعدة لأن العقائد أوالمذاهب المتعددة تناقض بعضها على خط مستقيم . خذ مثلا الكنيسة المسيحية فقط تجد بها أن الارشادات السماوية التى تدهش وتحير العقول تختلف عن كنيسة انكلترا وكنيسة روما وهما تختلفان أيضا حتى اننا نخرج من ذلك بلافائدة أصلا . إذن فكل مانرغبه هو مساعدة بعض المتفرجين خارجا عن هؤلاء وهؤلاء ومن الغير متعصبين الذين عندهم فرص وقدرة على التأمل والتفكير الذين ليس لهم أى صالح أو ربح من وراء إبداء رأيهم بصراحة وشرف . كل مانريده فى الواقع هو دين يعرف و يؤيد قوانين المملكة لأنه فى هذه الأيام أصبحت القوانين مما يجلب السخرية والضحك وهناك فى الخارج شعور و بيل مبك من كل أشكال المظالم والجرائم تقريبا . ضعوا هناك عدلا تاما فى الديانة لأن سلسلة المملكة الفقرية لانت من وضعها فى هذا التظاهر بالشفقة والحنو الذى لاهو انسانى بأى حال ولاهو خليق بأن يرقى أخلاق الأمة . مالرحمة إلا سفك دماء عندما تكون سببا فى العفو عن القتلة ، يطبق ذلك على هذا الميل

لارتكاب

لارتكاب الآثام ، واننا وان كنا نشعر بحزن عميق من أجل الجرم الذى جعلته تربيته والبيئة الحقيرة التى نشأ فيها يتسبب لنا التعب والشغب إلا انه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه من العودة . انه لمن أفظع الأعمال أن نديرله الخد الآخر ، نعم إن ذلك لمريع جدا لأنه يشجع الشريرين على السير فى تيار جرائمهم بينما يتألم باقى أعضاء المجتمع من سوء استعمالنا للرحمة ، اذا لم أك مخطئا فالعدل اللين الممزوج بالماء (المغشوش) الذى يوزع فى هذه الأيام فى هذه المملكة مسؤل عن نصف الشرور التى نشكومنها بمرارة زائدة وانه لخيرلنا أن نرجع الى (قانون الثارات) القديم عن أن نسير فيما نفعله الآن

لايمكننا بتاتا أن ننظر للمسيح كمشترع أو واضع قانون فانه لم يستن للعالم إلا سننا ونواميس وديعة ظريفة حالة أن ابليس الذى يمشى اليوم لايمكن قمعه بأجوبة ناعمة وادارة الخد الآخر له فيجب إذن أن نتخذ أشدّ الاجراآت مع كل رسل الشر

كان موسى مشترعا وواضع قانون ، وكان محمد مشترعا وواضع قانون ونحن الآن فى احتياج شديد الى بعض من العدل المطلق الثابت للنبىّ المقدّس (محمد) . انه أى القانون والتشريع الاسلامى شديد إلا انه خال جميعه من توحش انتقام العهد القديم

تعاقب الحكومات الحزبية التى عملت لازدياد القوّة لالصالح الأمّة أوقعنا فى هذا المأزق الذى لايمكننا فيه ولو أن نعتنى ونحفظ نظام نسائنا ، حقا انها لحالة مفجعة لنسل سادة البحار ووطنى أعظم امبراطورية رؤيت فى العالم . قوانيننا حسنة إن هى نفذت وعمل بها . الخضوع الى الرذيلة يقود الى أكبرمنها . لانريد الرجوع الى طرق التعذيب من أى صنف أوالفظاعة ، ولانريد أن نريق نقطة واحدة من الدماء انكره الناس على قبول آرائنا فى الدين أوالسياسة بل نرغب أن نرى القوانين مطاعة والعدل مكيلا للجميع

اننى لأعتقد اعتقادا راسخا بأنه لواتبعت الشريعة المحمدية التى أتت فى القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدا حكم الشعب ولا يكون ذلك غريبا ما دام أكثرمن نصف رعايا جلالته فى ملكه الشاسع هم من المسلمين . مرّ العصرالذى كان يمكن أن يجتهد فيه لاقامة أى دين بقوّة الأسلحة . إننى لمتأكد من أن المسلمين أولئك القوم المتشبعون بالاخلاص والوفاء ماحاولوا قط أن يقيموا الدين الاسلامى بالطرق العنيفة . الفتنة والتمرّد يحرّمهما القرآن ولا إكراه فى الدين فى إحدى مبادئ الدين الاسلامى

لفت الأذهان واصغاء الآذان هوكل ما يرغبه المسلمون وانى لمتأكد من أنه اذا فهم رجال انكلترا تماما المعنى الحقيقى للاسلام (العقل والتمييز والالتجاء الى النهى والشعور) لسعوا فى أن يخفوا سوء فهمهم المخجل السائد فى الوقت الحاضر

ينظر الاوروبيون دائما الى الاسلام كأنه وحشية وهمجية فلوعلموا كل مافعله محمد ﷺ لازالة التوحش والهمجية التى لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكارحالا . انهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدّخروا وسعا فى تحريف الديانة الاسلامية وان هذا لأعظم الكذب الذى يخزيهم وان كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن ، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدى للحقيقة و بين الحالة التى يسيرعليها المبشرالمسلم فى عمله

كثيرا ماأزعجت الهيئات الحاكمة فى هذه المملكة لقبول طلبات الهيئات الدينية ، فكنيسة انجلترا وكنيسة الرومان الكاثوليك وحزب المعارضين وكثيرغيرهم معتبرون جدا لأنهم ذوو نفوذ عظيم ولازال الكل يقولون هل من مزيد ، ولكن ليست هناك (بأقصى مايمكن للانسان أن ينظر) أى فصيلة دينية من الفصائل المحمدية تطلب أى سلطة دينية إذ عظمة الاسلام أرفع من أن تسيطرعليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة ، وكل متبع اتباعا حقيقيا للنبىّ العظيم يتطلع الى جزاء أرقى بكثيرمن الغنى والفوائد الدنيوية كرقى ضوء الشمس عن ضوء الفوسفور . ليس هناك باباوات ولاأساقف ولارهبان ولاقسس يطلبون هبات أوأرباحا لأن الله نفسه هورأس

هاتيك الفضائل الروحية . أنبأ التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائما بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية ويمكننا هنا أن نشير الى بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة بدون جور أوحيف كى نبين فظاعة الأحوال المريعة التى كان يجب أن تكون أفضل ماتطمح اليه النفس ، وكيف اختلطت باعتبارات لمكاسب دنيوية محضة سافلة . إننا لانذهب بعيدا اذا قلنا بأن القسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يعتبرون أن الديانة هى محض نظام أيام آحاد محترمة وحسنة لأنها تقدم لهم فرصا استثنائية لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم والتكلم عن جيرانهم ، وهذا الدين العجيب ينوى أخذهم الى بعض من الجنة ، ويتوقف مركزهم فى هذه الجنة على المبلغ المدفوع على نظام دخول الناس دور التمثيل تماما ، يجلسون بأجرة معينة فى الألواج والطابق الأول وبأجرة أخرى فى الصالات والكراسى الخ

معظم ديانة الغرب ماهى فى الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم موسى أوالمسيح ، ففى تلك الأوقات المظلمة المكفهرة بين القرن الثالث والقرن الخامس وبعد ذلك عند ماكانت أوروبا ميدانا شاسعا للمصارعات يتبارى فيه الرجال المتوحشون ومن طبعوا على حب القتال مع بعضهم ونشروا الرعب والدمار فى كل الجوانب وكان الحكام العظام للمالك كبارونات ولوردات انكلترا رجالا مشهورين بالمهارة فى استعمال السيف وبلطة الحرب واحكام الدفاع عن أملاكهم وعقارهم وبيوتهم أكثر من شهرتهم فى التعليم والتهذيب وكانوا لأجل أن يحفظوا ادارة ونظام شؤنهم الداخلية يستخدمون الكتبة والاكايروس الذين كانوا بتعليمهم العالى قادرين على أن يجعلوا لهم نوعا من الوكالة على هذه الممتلكات وأن يحفظوا سجلات الحوادث الجارية الخ

أصبح هؤلاء الاكايروس بعد مضى مدة من اللوازم الضرورية التى لا يمكن لهذه الممتلكات الشاسعة أن تستغنى عنها وأصبح لهم سلطة عظيمة وسلطان قوى وسنحت لهم فى ذلك الوقت فرص زادت سلطانهم باستعمالهم أسرار المجهول لدى البارونات أواللوردات كمركز عتلة وضعوا عليه عتلات طويلة وتلك العتلات هى الرعب من جهنم والخوف من العقاب المستقبل ، نقل تلك المرعبات بينهم بمهارة فائقة أحدث فى عقول السذج شعورا لايمكن ازالته من الهلع الذى كان مع ذلك يلطف ويخفف بالتأكيدات من أنه باعتناق شكل معين من الدين وابتلاع بعض عقائد وضعت بمكر زائد ينال الخلاص ولكنه اخترع بوجه ما أن الطمأنينة التامة بخصوص النجاة والمركز العالى فى الآخرة لاينال إلا بالعطايا الفاخرة جدا للكنيسة وهذه العطايا أخذت شكل منح واسعة من الأراضى والقصور والابرشيات وهبات عظيمة ، ومن هنا نرى أن ولادة وابتداء الكهنوتية والقسوسية وطلب السلطة الدنيوية المقصودة قد عرف من ذلك الوقت ، فجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريبا كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار كالتفكير والتوسط الكهنوتى والتوسل الى القديسين وكل هذه الطرق الملبكة المحتوى عليها التقرب من المولى جل وعلا

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية ، ومهما كانت ظرافة ورقة تلك المبادئ الصفوحة التى أتى بها نبى الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التى احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التى تقف فى طريق السالك الى الله

هناك آيات فى القرآن لاتترك شكا فى معناها وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون فى دائرة السيادة الكهنوتية ويتخذون مخلوقات بشرية لارشادهم ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لاإله إلا هو سبحانه عما يشركون ـ وقال ـ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ـ

ديانة المسيح ليست تماما ، ديانة (سانت بولس) الذى أضاف اليها وغيرها تغييرا فاحشا وقد ترجمت هيئات

مختلفة هاتيك التعاليم وغيرت فيها من وقت لآخر ، وليس هناك فى الحقيقة تناسق فى تلك المسيحية المزعومة ولكننا نجد فى الاسلام ما يكفى رغبات المخلوقات من الاتصال بالخالق مباشرة ، الله الموجود أبدا القادر على كل شئ والحافظ لجميع المخلوقات ، ليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، انه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ورؤية أبيهم القهار المتصل دواما بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين ، مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ويمكن إدارته بأذل وأقل المخلوقات دون أى مساعدة من نبى أو كاهن أو ملك ، انه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله ، أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك مادعاهم الى هذا العمل إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسس أو بعض فوائد دنيوية أخرى ، ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة المسيحية لأبين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية التى هى خالية فى نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جليا فى كثير من الديانات الأخرى

إن الدين مسؤل عن كثير من الآلام والفظائع وسفك الدماء وتلك حقا لحقيقة مبكية ، أيمكن إذن أن يوجد دين يمكن العالم الانسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى الذى هو فوق الجميع وامام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك ؟

فكر لحظة وذلك التفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة ، انه اذا أصبح كل فرد فى الأمبراطورية الانكليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه أصبحت ادارة الأحكام أسهل من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيقى ولن تبقى هناك جمعيات كنائسية ولامنشقون كى يوفق بينهم ولاضرائب ثقيلة تدفع للمرور فى الطريق الموصل الى الفردوس . إن الديانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمد سهلة جدا إلا أن الخلط الذى أتاها من الآخرين الذين سعوا فى أن يحسنوا الوحى الإلهى جعلها معقدة يرتبك وييأس منها من يستعمل عقله فى السعى وراء الحقيقة بجد ونشاط . استفز صنف من أصناف هذا الدين الحروب الصليبية التى ضحى فيها أسلافنا عشرات الآلاف من الأرواح البشرية ، فلم ذلك ؟ معركة معيبة نشبت من أجل ضريح يعتقد أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، هل كان يستحق ذلك أى اهتمام ؟ وصنف آخر من أصناف هذا الدين علمنا أن نعذب كل من يخالفنا ولو على أقل نقطة من نقط هذا الدين وأن نحرقهم أحياء ، هل يستحق ذلك أى اهتمام ؟

وهناك صنف آخر من أصناف هذا الدين وهو شائع ومعلوم للجميع ، ذلك بأن هؤلاء المتعصبين الشديدى التعصب (القسس) يحكمون على تابعيهم بالهلاك الأبدى اذا لم يبتلعوا آراء مذهبية معينة ، فهل يستحق ذلك أى اهتمام ؟ أتريدون أن تتصفوا بضد الاحسان الذى هو أبغض شئ عند الله رب الرحمة والذى يلعنه كل من المسيح ومحمد الى حد ليس له نهاية * قال الجنرال غوردون { لم أر طبقة الفريسيين بين المسلمين الذين لايتخذون كل مايتخيلونه أويعن بيالهم كما يفعل فريسيونا من الحكم على زيد أو عمرو بأن نصيبه النار ، إنك لاترى منهم أبدا عدم الأنس والبشر اللذين تراهما من فريسيينا }

إن (غوردون) عاش طويلا فى الشرق ولم يفلت جلال الشريعة الاسلامية من ملاحظته الدقيقة ، ولاشك فى أنه عند ما كتب ماتقدم كان يشعر حقيقة بأن هناك إحسانا مسيحيا حقيقيا عند المسلمين أكثر مما هو عند المسيحيين أنفسهم فى بلادهم ، وكتب (غوردون) أيضا بنفس هذه الروح مايلى

« ليست هناك سلوى فى العالم أوراحة تعادل تلك التى يملكها من لايعرف غير الله مدة بقائه ولايؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق وأن كل الأشياء دبرت لتحدث ولابد من حدوثها ووقوعها ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد قد ماتوا وتخلصوا من هذه الحياة المتعبة »

واجابة على ماتقدم يمكن أن يقال بأن الأفكار الشرقية لاتتحد مع الآراء الغربية ، ولا يمكن أن يقال أن بينهم أى امتزاج وأن محاولة حكم الشعوب الشرقية للشعوب الغربية حينما اعترف بديانة شرقية وتسيطرت هذه الديانة على عقول الرجال وأفعالهم لم تكن لائقة وكانت خارجة عن المقصود ، والمؤلف يريد أن يشير الى أنه مضى ألفا سنة تقريبا وكل مملكة فى أوروبا محكومة بديانة الشرق أى اليهودية والنصرانية . روح الاسلام تحلق فوق أشياء أرق وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية فى الشرق والغرب ، واذا كانت المسيحية الشرقية التى علمت بنبيّ الناصرة العظيم قد سارت سيرا حثيثا فى إضاءة طريق العالم الانسانى ، فلماذا لايستمر الدين الاسلامى الأوسع والأسهل (كما أتى به النبيّ العربىّ الكريم) فى أعماله الحسنة مادام ليس هناك سبب جوهرى يمنع ذلك

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لكل باحث فى حياة محمد كما ان دراسة دقيقة للقرآن تظهر أنه حقا ليس فى الاسلام شئ يتعارض مع الديانات السابقة وارشادات وشرائع محمد كما جاءت فى الكتاب تقوّى وتعزّز تعاليم الانجيل تعزيزا تاما وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر . إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لاتعرف عنه شيأ كما انه من الظلم أن تفعل مايفعله تسعة وتسعون من المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمدى دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة (اسلام) فقاعدة ترك الامور تأخذ مجراها هى شعار هؤلاء الذين لايريدون أن تنار عقولهم لأن إنارة عقولهم معناها عندهم تعب وازعاج فيفضلون أن يظلوا يتخبطون فى ديجور العمى والظلام عن أن يمدوا أيديهم ليفتحوا الباب الموصل الى النور . ماحصلت عليه فيه الكفاية لى لا أريد أن أنظر لشئ آخر . ذلك مايقولونه رافضين أن يبذلوا أى مسعى ليتقدموا حتى ولو فى معرفة الله ورسالاته للجنس البشرى

من عدّة سنين خلت كان أحد أفكارى الرئيسية هو « كيف يمكن الاسلام أن يتغرّب (يصبح غربيا) حتى يمارس بالأمم الاوروبية ؟ » أو « بعبارة أخرى » كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعدّ أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الاسلام الحقيقى ؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو « كيف اننا لم نشك من جنسية المسيح الذى نعتقد انه كان أسيويا محضا ؟ كانت أمه العذراء مريم أسيويه وكان موسى وكل الأنبياء الموحى اليهم شرقيين وكان النبيّ الكريم محمد ﷺ شرقيا مثل الآخرين وأنزلت عليه الشريعة من الله ، فالقرآن هو من كلام الله عزّوجل كما كان الانجيل وباقى الكتب المنزلة الأخرى وهو القرآن يثبت ويحق الكتب المقدسة الأخرى والوحى السابق . القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية تلك التعاليم الماضية وفوق ذلك فهو يحرّم كل أنواع العبادة الوثنية وروح الوحى هى أن لايقرن اسم الله القوىّ العليم الرحيم بأى اسم آخر

روح الشكر هى خلاصة الدين الاسلامى والابتهال أصل فى طلب القيادة والارشاد من الله . انه وان كان شكرى لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فىّ من صغرى وأيام حداثتى إلا أننى لاأستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التى قرع فيها الدين الاسلامى لبى حقا وتملك رشدى صدقا وأقنعنى نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى إذ التقيت بسعادة وطمأنينة مارأيتهما قط من قبل ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت تلك النجاة كما أستنشق هواء البحر الخالص النقى و بتحقق من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار

عند ماقرّرت نهائيا أنه لايمكن الحصول على أى راحة من التعليمات الكهنوتية أتتنى الفكرة بأنه من المؤكد أن الله يلاحظ و يدبر كل ارادة وكل حركة وعمل . انه يفعل ذلك حقا إلا أن التعليمات المجموعة من صحائف القرآن مكنتنى من أن أفقه معنى تلك الفكرة المريحة راحة عجيبة بطريقة كانت تستحيل علىّ سابقا

اذا كانت كل حركة فى الحياة لاتحركها إلا القوة الإلهيـة تـكون هناك راحة حقيقية لا لهؤلاء ، المتألمين والمعاقين عن السير فى هذه الحياة فقط بل ولهؤلاء الذين ذهبت أنفسهم حسرات على أعمالهم العديدة الشيطانية والجنونية . كل هؤلاء الذين أتوا أعمالا سيئة يجب أن يؤملوا فى أن الله بحكمته غير المحدودة وجلاله سيجعلهم مثلا للآخرين كى يريهم مايجب أن يقلعوا عنه . إنه لفكر مخيف إلا ان المؤمن الحقيقى يواجه كل محنة وخزى وانحطاط فى الدرجة فى سبيل المولى عزّ وجل

روح الاسلام تشير الى خلاص البائسين والتعساء والشريرين إن تبنا وأطعنا وتركنا الشرور والآثام وسعينا فى مساعدة المخلوقات بكل مافى وسعنا حتى بين الآلام العظيمة يجب علينا أن نكون مسرورين جدا بأن جعلنا الله واسطة للارشادات السماوية

دمّر التعصب الدينى الأعمى الكنائس المسيحية فى تنافسها إلاان ذلك لايمكن أن يقال عن الاسلام الذى هو كتلة متحدة ، فما أحسن ذلك اذا كنا نحن معشر الغربيين نهجر فى هـذا الوقت تلك الأصناف الدينية المليكة ونتخذ الدين الاسلامى !

مذ سنين مضت وجد عنـد حكام إحدى الأمم المتنورة جدا فى الشرق الأقصى شك كبير فيما اذا كانت طريقة الدين التى يتبعونها صحيحة أم لا ، لذا عينوا رجالا عقلاء مخصوصين ليدرسوا كل الديانات الرئيسية فى العالم ويضعوا تقريرا عنها ، فكر الرجال الحكماء وتشاوروا وفعـلوا كل مايلزم ثم وضعوا النتيجة بأن دياناتهم هى حسنة كباقى الديانات الأخرى ، لذا ليس لديهم أى ميل لينصحوا بتغييرها

انى لأعتقد اعتقادا راسخا أنه اذا اتبع هـذا الرأى وكلف أحسن الأذهان وأنبـه العقول الاوروبية بالبحث عن دين مبنى على الاعتبارات الدنيوية والعقلية ولايخرج عن الوحى السماوى الذى أتى به الأنبياء ما وجدوا باجماع الآراء غير الاسلام دينا فسهولته وعظمته مما لايختلف فيه اثنان

أليست هذه من أعظم النعم أن تسنح لك الفرص بأن تعتنق دينا يتفق والحجا ويرضى الفؤاد والضمير ورغبات المرء الداخلية كما انه خال فى نفس الوقت من القسوسية والكهنوتية وباقى التلبيكات الأخرى ؟

لازال يعيش على ظهر هذه البسيطة فى كلا الشرق والغرب هؤلاء الذين اتضح لهم الوحى المؤسس لحقيقة الدين الاسلامى وتعاليمه بأوضح وأجلى معانيه ، وربما كان الوقت الذى يريد الله أن يتضح الوحى فيه وينجلى لكل عباده الموجودين فى هذا العالم ليس ببعيد إلا أن ذلك يختص بهداية المولى سبحانه وتعالى لأنه لايوجد من يعرف الميعاد . الكنائس المسيحية الكثيرة تناقض إحداها الأخرى مناقضـة عظيمة ومعلمو لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقدة التعاليم المسيحية التى لاتحل ووضعوا تلك العقائد التى تدهش العقول دهشة عظيمة حتى ان العقول السليمة الصافية والقلوب المبصرة تتوق الى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد

مذاهب الكنيسة المسيحية سواء كانت رومية كاثوليكية أو بروتستانية طردتنى مذ طفولتى وانى لأعرف اذا ما كانت عدم ثقتى وأنا غلام صـغير بهذه العقيـدة كما وضعت بسانت اثانسياس أقلّ قوة من ازدرائى واحتقارى اليوم لهذا الرجل الذى يضع القوانين من أعلى منصة الخطابة ويحكم على الملايين من الرجال بالهلاك الأبدى لأنهم لايوافقونه ، وقد ظهر لى دواما انه من المهم جـدا أن السادة الأشراف المتعلمين اذا أرادوا أن يدخلوا الكنيسة يجب عليهـم أن يشتركوا بسرور وابتهاج فى التسع والثلاثين مقالة المخيفة وهـم يعلمون فى قلوبهم انهم لايستطيعون أن يصدقوا نصف مايضعون أسماءهم تحته

فكرت وصليت أربعين سنة كى أصل الى حلّ صحيح والرأى السائد عندى هو أن كل تراكيب هذا الدين المزعوم هى من عمل الانسان لامن عمل الله ويجب علىّ أن أعترف أيضا أن زياراتى للشرق ملأتنى احتراما عظيما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لافى أيام الآحاد فقط

الاسلام دين السهولة العظيمة ، انه يرضى أشرف رغبات النفس ولا يناقض بأىّ حال من الأحوال تعاليم موسى أو المسيح عليهما السلام . انتهى الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى فيما ذكره العلامة الكونت هنرى دى كاسترى ﴾

(مقدمة)

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية (حوران) بين زرقوم وسجير وخلفى ثلاثون فارسا كريما من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه التالى يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه الى الوراء ويضرب بأرجله فى الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام الكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لايهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مديح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ماحفظ الشرق من أسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات وكنت أصغى الى أشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الأطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين إدراك مراميها ، وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء ويومنا يوم جيل تنشط الأبدان حرارته ويبلغ ضوءه حدّ البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعرا بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك إحساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويغدو فى أقوال أولئك الشجعان ، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن « سيدى الآن وقت العصر » هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين ، أما أنا فقد ابتعدت عنهم وكنت أودّ لو انشقت الأرض فابتلعتنى ، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع ﴿ الله أكبر . الله أكبر ﴾ فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين ، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظا يعبر عنه سببه الحياء والانفعال ، أحسّ بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم أرفع منى مقاما وأعزّ نفسا ، ولو انى أطعت نفسى لصحت فيهم « أنا أيضا أعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد » فما أجل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسانها على الأرض وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة ، تلك هى الخيل التى كان يحبها النبى ﷺ حبا ذهب به الى انه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام ، وكنت أرى نفسى وحيدا فى عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يبرم فيه الجسم الانسانى بغير احتشام تلوح علىّ سمات عدم الايمان فى مكان هو مسقط رأس الديانات كأننى من الجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وايمانا ، وبينما أنا كذلك إذ جال بخاطرى ما ورد فى التوراة من أن الله يسكن خيمة سام ويكثر من أولاد يافث ، وقد كان الفريقان مجتمعين فى ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم ، الله الذى دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذى يمتذكره بالحرب والفتوح ، ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتى جعلت أكتب ما علق بذهنى من الأفكار فأحسست اننى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها أوّل مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الأكوان وذكرت خيام النصارى حيث لامتعبد فيها غير النساء وأخذنى الغضب من كفر أبناء العرب وقلة إيمانهم

كنت فى سنّ يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الأشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء فى الامور بغير قيد وهو سنّ لو أنصف أهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت أرى أن جمال الدين

أصدق شاهد على أنه الدين الحق وصرت أكتب فى الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد

ولوانى اتبعت مجرّد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمّل وتدقيق لجاء كتابى مذموما ورمانى المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفى الجزائر من الاوروباويين ، ذلك ان المشتغلين بالاسلام فى هذه الأيام ﴿ فريقان ﴾ المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج أيضا ، ومما لاشبهة فيه أن القسم الأوّل قد أفاد العلم أكثر من القسم الثانى فان أعمالهم أنتجت كثيرا من العناصر والمواد التى يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لأن ذلك التاريخ لايزال مع ماتقدّم فى عالم الغيب و بعدهم يأتى مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادّة فى العلم وسلامة النظر فى الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين و يفقهون غور أفكارهم و يعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياناتهم معرفة لاتحصل لأحد فى غير تلك البلاد ، و بهذا يرون أن لهم الحق فى أن يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين ، نعم انهم لم يقفوا على جميع ماألفه المسلمون فى الحكمة وعلم الكلام ولكنى لا أرى ذلك نقصا كبيرا إذ معرفة حقيقة الاسلام فى هذا العصر لاتحتاج الى سعة اطلاع دينى ، على أن مطالعة جميع الكتب التى وضعت فى مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرّخ أكثر من غيره لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثانى عشر حيث أصبح الدين الاسلامى قويا متينا لاتؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت بأصول الديانات الأخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا إيمانا لا احتياج لتحكيم العقل فى تحصيله بل هو إيمان وجدانى بسيط قوىّ فى النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد فى الأمم المسيحية إلا عند الفحامين

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التى تخوّلنى حق الكتابة عن الاسلام قبل أن أنشر كتابى هذا ، أنا عاشرت العرب أزمانا طوالا واشتغلت كثيرا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبى مذهب مستعربى الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوى الاعتبار عفوا ولينا وأطلب منهم قبل كل شئ أن لايجمعوا بينى و بين أولئك الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ماتلقفوه أثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولا شعريا حتى إن الموسيو (لوازون) لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات فكان ممن يرى كل شئ فى الشرق جيلا وجاء رأيه فى الاسلام رأى قوّال لا رأى باحث حكيم ، وعليه فلست أقصد بكتابى هذا أن أمجد الاسلام ولكنى لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التى اشتغلت بها أذهان الباحثين فى العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية فى باريس نال بها المسلمون نجاحا أدّى الى أن المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه الى بعض أغلاط علقت بالأفكار عندنا من حيث النبىّ العربىّ ودينه الاسلامى وهو عمل شاق وموقف حرج إذ من المعلوم كما قيل انه لايرسخ فى الاعتقاد أكثر من خطأ الاعتقاد كذلك أرى انه لا يكفى لأمّة مسيحية متمدينة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها أن تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغى فنحن نضحك اشفاقا من سماع الأقاصيص التى نقرأها عن بغض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون وانهم فى بغضهم لنا مخطئون إلا ان المسيحيين هم كذلك فى بغضهم للمسلمين لايعدلون وأشدّ الأوهام رسوخا عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبىّ ولذلك قصدت أن يكون بحثى أوّلا فى تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علنى أجد فى هذا البحث دليلا جديدا على صدقه وأمانته المتفق تقريبا عليها بين جميع مؤرخى الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحى

﴿ صدق سيدنا محمد ﷺ ـ محمد والأغانى المعروفة بأغانى الاشارات ـ محمد والتاريخ ـ أصل الاعتقاد ﴾

(الوحى بالقرآن ـ ليس محمد مبتدعا ـ هل كان على الدوام صديقا ـ وفاته)

كنت كلما بحثت فى الديانات مع صاحب لى من طلبة العلم فى (تلمسان) وأراد الهرب من الجدال يجيبنى

« هم يقولون إن لله ولدا وان محمدا لمن الساحرين » إجابة مملوءة بالاحتقار كما يجيب المعتقد اعتقادا وثنيا يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغته فى احترامى وحسن الصلات بيننا ، وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وأن المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لاينبغى الجدال معهم ولست أدرى ما الذى يقوله المسلمون لوعلموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتى فى أغانى القوال من المسيحيين فجميع أغانينا حتى التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب فى الحرب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلى بديانتهم وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص فى العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط فى الأذهان ولايزال بعضها راسخا الى هذه الأيام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين ، وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم (ماهوم) و يقال ماهوم و بافوميد وماهوميد وهو محمد ﷺ ثم (أبلين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى أن محمدا وضع دينه بادّعائه الالوهية ومن المستغربات قولهم ان محمدا الذى هو عدوّ الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوقنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدّوهم الى أسوار (سرقسطه) عادوا الى أصنامهم لحطموها كما طنطن به أحد منشدى ذلك العصر حيث قال ﴿ وكان أبلين إلههم فى مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه فى أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه ، وأما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب إلها قبله ﴾ و يظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور (كارلوس) بابادتها لما دخل (سرقسطه) كما جاء فى قول ذلك الشاعر وقد أمر الأمبراطور الفرنساوى بين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع و بأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها (ماهوميد) وجميع الأوثان والأصنام ، وكذلك يقول (ريشار) فى أناشيده وهى جيلة ﴿ لاشئ من الخراف فيها إلا انها زور و بهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم ﴾ ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدّسة و ينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين ﴿ قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدّموهم الى ربكم ﴾ وذهبوا الى أن صورة (ماهوم) كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان . ومن قرأ وصفه فى أناشيد رولان كاد يحلف أن ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان . يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لوشاهدتها لأيقنت بأنه لايمكن للعقل أن يتصور أجل منها ، عظيمة الشكل ، لطيفة الصنع ، تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالأبصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجل المصنوعات خاويا من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار المضيئة ، يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عزّ عن المثال والنظير ، ولما كانت الآلهة تنزل الوحى وقت الشدائد وانهزم المسلمون فى إحدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه ، قال الراوون فجاء الإله محمد فى موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف و بعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذى وصفه بالتجويف وأن لاشئ فى باطنه إلا ويرى من الخارج فقال ﴿ وقد وضعوا فى جوفه عفريتا استحضره السحرة وصار ينط و يعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون ﴾ ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامى كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى ، فروى (بودوان) فى نشيده على الكونتسه (بونتيو) لما أرادت أن تعتنق الاسلام أمام صلاح الدين انها قالت ﴿ أريد أن أعبد محمدا فائتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة

اليه

اليه ﴾ ويأخذ القارئ من نشيد آخر يظهر أنه وضع تتمة لأناشيد (بودوان) وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (بارتوان) و (جوبين) إلا ان الثلاثة الأولين هم الرؤساء ، ولما ردّ أحد قوّاد المسيحيين جيش المسلمين الذى خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين فقال ﴿ وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم ياترفاجان ياماهوم ومع ذلك يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى لايرى فيه القارئ رمزا الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندروديون) ألفه سنة ١٢٥٨ ميلادية أخذا عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار وعدّ الناس تلك القصة تاريخا صحيحا عن ذلك النبى وقد جاء فيها ﴿ انه من المعلوم أن محمدا كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع ﴾ ثم شبهه بأحد الأمراء المحاط بأتباعه ينشر دينه على أبسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل لأن تاريخ اسكندر المذكور لم يزلها ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه

ولو سأل سائل هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة مايقولون لأجبناه جواب أهل (نورمندة) لا ونعم إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته ولكنهم ماكانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم فاحتاجوا فى ذلك الى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالأوصاف التى تؤثر فى نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم وأميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين الباحثين فى علم التوحيد الذين يظهر على كتبهم فى ذلك الزمن أنهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم فى نبىّ المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان أيام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحى) أشدّ تعصبا ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهانا على مانقول غير توجيه نظر القارئ الى مطالعة ماجاء فى مقدّمة كتاب (ريلان) الذى ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان ﴿ ماهو السبب فى أن الناس عامّة لايعرفون من الديانة المحمدية إلا شيأ يسيرا ؟ ﴾ حيث يقول ﴿ لو أراد الباحثون أن يصموا مذهبا أوطريقة بوصمة الخزى والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدى اوطريقة محمدية وهكذا ﴾

وألف القس (دون مارتينو الفرنسوقيقالدو) كتابا سماه ﴿ سراج الكنيسة المقدّسة الذهبى ﴾ جاء فيه أن كتاب محمد لاتلزم قراءته بل يجب أن يسخر به وأن يحتقر ويرمى فى النار أنى وجد ، ولايليق أن يحفظه الناس لأنه عمل بهيمى ، وبعضهم كان لايقول بحرقه ولكنه يرى من العبث أن يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة منشؤها خيالات شخص اختلّ عقله واضطربت قواه

وأما المسلمون فمن أسمائهم فى تلك الكتب البلدة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والممقوتون الذين يملؤن المنزل بالنساء فى الليل ويطلقونهنّ فى النهار ، ولو أردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين وهو (پروشار) وسماه مرشد السياحة وقدّمه الى الأمير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكر فيه الأسباب التى تحمله على الدعوى الى حرب صليبية فقال ﴿ من ذا الذى لايذرف عبرات الدمع عند مايعلم أى الرجال هم القابضون اليوم على تلك البقاع التى هى ميراثنا ، أولئك قوم لارب لهم ولادين يهديهم ولاشرع يرجعون اليه ولاعهد ولاحنان ، أولئك قوم أخساء أدنياء وهم أعداء لكل حقيقة فى الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون فى نسائهم ، الفاسقون بالأطفال ، الظالمون لحجم الحيوانات ، المخالفون لطبائع البشر ، القتالون للفضائل ، المميتون للأخلاق . الغارقون فى القبائح والخطايا . أولئك هم أولياء الشيطان . وأنصار الدنايا . ذوو حقد وبغض .

ذوو أفكار سافلة . وأعمال سخيفة . وعيشة دنيئة . وأقوال بذيئة . وعشرة سوء معدية . لا تنصرف إرادتهم ولا تتجه هممهم إلا الى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع وآذونا فى هذه البقعة الصغيرة التى نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التى هى مهبط شرعنا ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة

ولم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى ان المستشرق (بريدو) الانكليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتابا فى سيرة النبىّ عنوانه ﴿ حياة ذى البدع محمد ﴾ وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال ﴿ إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد ﴾ أولئك كتاب ماقصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سبا وشتما وأن يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا وأراد (داماسين) أن يخالفهم فى التأليف لكونه تربى فى دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عدّه بدعة فى الديانة المسيحية تقرب من بدعة (أريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته فى رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات فى النبى وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائما فى تأييدها وتمكينها من الأذهان وهى سياسة جعلت الناس عندنا يهزؤن بالدين الاسلامى وأغنت الباباوات عن حربه حربا صحيحا فقد كانت الكنيسة اللاتينية فى القرن الثامن مشتغلة بامور أخرى لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين . ضربين هما أحزاب النفس الواحدة فى جسدين وأحزاب النفس فى جسم واحد . ولم يبدأ فى البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع إلا فى زمننا هذا ، ففى القرن التاسع عشر أخذ الباحثون ينظرون الى المسألة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك أن افترق الناس فى القرآن الى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لانزال نرى فى لسان هذا القسم الأخير ماتشم منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية * قال المسيو (دروختى) فى سياحته فى بلاد العرب التى نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبى (انه عربىّ خائن دنىء) وقد نسى أن هذه الألفاظ التى يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى . وأول مادار البحث فيه مسألة صدق النبى فى رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة و بين كون القرآن كتابا منزلا ، ولسنا نحتاج فى إثبات صدق النبىّ الى أكثر من اثبات انه كان مقتنعا بصحة رسالته وحقيقة نبوّته ، أما الغرض من تلك الرسالة فى الأصل فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التى كانت عليها قبيلته مدة ظهوره . و بيان ذلك أن اسماعيل لما حنقت عليه (سارة) وطرد من عائلة أبيه توجه الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة أبيه ابراهيم إلا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شئ قليل يشبه الخيال إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكا كما حصل ذلك لبنى اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيأ فشيأ وتحل محله عبادة الآلهة التى كانت معروفة فى أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماما ثم دخلت اليهودية فى بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق فى تلك البقاع حتى ان (تيث) قس البصرة اعترف فى القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة فى بحيث جزيرة العرب الى أن قال

ثبت إذن مما تقدم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب اليه (اسكندريون) حيث يقول ﴿ انه كان يعرف فى دين اليسوع قراءة وكتابة ﴾ نعم إن البحث عن معرفة المصادر التى عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التى جاءت بين القرآن و بين التوراة إلا أنه بحث ثانوى إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الأخرى لبقى الأمر مشكلا كما كان عليه فى معرفة حقيقة ما اختلج

بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ولقد نعلم انه مر بمتاعب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ، ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدّد الآلهة الذى ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بابرة فى جسمه ﷺ ولكى ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانيـة الله تعالى اعتكف فى جبل حراء وأرخى العنان لفكره يجول فى بحار التأمّلات عابدا متهجدا ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التى تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها فى لسان العامّة أن الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الأرض اعجابا بجمال الليل فيها وشوقا الى صفاته وجلاله

ولعمرى فيم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين وهو فى ريعان الذكاء ، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيل وقوّة الادراك لا بوضع المقدّمات وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقول مرارا ويعيد تكرارا هـذه الكلمات ﴿ الله أحد . الله أحد ﴾ كلمات ردّدها المسلمون أجمعون من بعـده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر فى كلامه على صور مختلفة جاءت فى القرآن ــ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ــ وكانت مترادفات اللغـة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دلّ عليه ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام ﴿ لا إله إلا الله ﴾

ذلك هو أصـل الاعتقاد باله فرد ورب صمد منزّه عن النقائص يكاد العقل يتصوّره وهو اعتقاد قوىّ يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهـم من القبائل والشعوب ، أولئك حقا هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم ، ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبى ﷺ من مطالعته التوراة والانجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوّته

وأما مسألة الوحى بالقرآن فهى أكثر اشكالا وأكبر تعقيدا لأن الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلا مرضيا والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار فى جمالها وكفى رفيع عباراتها لاقناع عمر ابن الخطاب فآمن برب قائلها ، وفاضت أعين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب (سورة آل عمران) وماجاء فى ولادة يحيى وصاح القسس ﴿ إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى ﴾ قال ناقل هذه الرواية (كوزان دى بيرسوفال) فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفرا وأشار اليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل فى أمه مريم ثم تناول قضيبا دقيقا كان أمامه وقال لجعفر ﴿ إن الفرق بين ماسمعناه منك الآن عن عيسى و بين ماتقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هـذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن كما هى لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا غير أنه لا ينبغى أن يكون ذلك سببا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب ﴾ ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول ﴿ من الناس من يتعلم قليـلا من العربية ثم يقرأ القرآن و يضحك منه ولو انه سمع محمدا ﷺ يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المقنع المشبع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى القلوب والتفت إلى انه كلما بدت أحكامه أيدها بقوّة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجدا على الأرض وناداه أيها

النبيّ رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار ﴾ * قال (بولاتقيلير) ﴿ إنى لأعترف بأنه من الصعب أن يظنّ الانسان ولا يتحير فى أمره أن قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصا انها تصدر عالية بغير ضعف أبدا وتتجدّد رفيعة معجزة إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء ﴾ وقد أشار المؤلف فى كتابه الى الآية الآتية - أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو -

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو بنبيّ سلاب كما يقول المسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع إلا ان سببه ميسور المعرفة ، ذلك أن محمدا كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما اذا كان مذهبه صحيحا أو موضوعا اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هى ولكن لا نسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذ لا عجب اذا تشابهت تلك الكتب فى بعض المواضع خصوصا اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما ان النبى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبيّ المسلمين فى الديانات الثلاث فنقول ﴿ إن دين الأنبياء كان كله واحدا فهم متحدون فى المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت ﴿ ثلاث كتب ﴾ سماوية وهى الزبور والتوراة والقرآن والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمدا بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الأمر الذى تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوى ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبيّ بعد محمد ﷺ ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا ، اذا تقرّر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدّمه ولذلك كان يصرّح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله وكان يسمع صوتا من السماء يقول له - إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق و يعقوب والأسباط وعيسى وأيوب و يونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما - وقال تعالى - وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون - على أن بعض المشابهات لا تحتاج الى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى اسرائيل وكان يعبد الله الذى عبدوه فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرّعات وتجانست أنواع الدعاء . إذن لا يمكن أن ننكر على محمد ﷺ فى الدور الأوّل من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه ، فأما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرّة من قلبه فى الدور الثانى وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقوّيه على الايمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغا لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان ما نسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشئ على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحا بل كان كما قال أبو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب و يرتق ثيابه ونعاله بيده و يلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعا خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرّة فى حياته

هذا هو النبيّ الذى قال عنه المنشدون من النصارى ﴿ إنه كان منهما يأتى المغنيات فى الحانات ﴾ تجرّد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ولكنه لم يجنح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيرا ولا حشما وقد حاز الرفعة والمعالى و بلغ من السلطان منتهاه

ومهما

ومهما اجتهدنا فى ادراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون فلقد وعد ملوك بنى اسرائيل أن يرسل المسيح من أصلابهم ورأينا أن عيسى ولد على غير ماعهدوا . على أن محمدا ﷺ كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران ، وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع ومابه من هول رسالته عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته فى السنين الأولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالأمين . وأما حاله فى بقية مدته بعد أن صار رئيسا سياسيا فالاستدلال عليه أدق وأدعى الى طول البحث والتنقيب * قال ريناردوزى ﴿ يكاد أن يكون من المستحيل الجزم بأن محمدا كان فى آخر حياته يعتقد بصدق رسالته . أما فى الدور الأول فاعتقاده وصدقه لاشك فيهما والأدلة كثيرة من الجانبين ووضع المسألة على هذه الكيفية هو الذى فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى وحجة تبع أمياله ومايشتهى إلا ان الناقد المنصف لا يصح له عليه أن يرجح قولا على آخر بدون ملاحظة القرائن التى تتبع الاثنين ، ولكن الناس كما وصفهم المسيو (مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم فى احتياجهم هذا يميلون الى من يلقى عليهم المسائل كلها كأنها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشئ أونفيه مطلقا بغير تثبت ولادليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير انى أقول انه بفرض صحة المذهبين وان صدق النبى فى آخر حياته وعدمه سيان فى الوضوح والدليل فلايزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أوالقرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التى تزيل كل شبهة علقت بالأفكار لكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر للباحثين أن يجزموا بشئ فى أمرهم كأن يؤكدوا أنهم صادقون أوانهم جروا فى أعمالهم على مايخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون ، ومامن كاتب ولاباحث يستطيع أن يجزم بأن الأمبراطور (كونستنتان) الذى رفعه القسس مكانا عليا فى المعابد واختصوه بالمواهب الإلهية كان صادقا بعد انتصاره فى قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمدا قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها و بين عبادة الواحد الأحد كما فعل الملك الرومانى وايمانه كان حقا ثابتا على الدوام ، لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولوانه جال بفكره ساعة من زمانه شك فى صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلا لهذه الغمة ومؤيدا له فى صحة صبوته وصدق رسالته ﴾

وفى الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطؤن ، ولقد عانى محمد ﷺ كثيرا مع بنى قومه إذ كانوا منكرين ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين ، نحن لا نصدق بما يقولون بل نرى أن قومه كانوا فى استعمال أمانته من المتطرفين ، ولئن أعجم لهم القول حينا فى مخاطبتهم فذلك لأنه يعز وجود من يحب الحق ولاتلجئه الحوادث الى الاعجام طلبا لتقريره فى ذهن قوم جامدين . إن الذين ينكرون صدق محمد فى آخر حياته لايستطيعون أن ينكروا عليه انه بقى الى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا موقنا بأداء رسالته فلقد اتفق مؤرخو العرب طرا على الحوادث التى تخللت أيامه الأخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لايتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وأمانتهم فى نقلهم ، ولولا زيغ المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا ﴿ إن محمدا قد مات تنهشه الخنازير إذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير ﴾ تلك جريمة لا تغتفر ، ومما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح فى تاريخ الحرب الصليبية الأولى لمؤلفه (جيبيردى نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التحريف غير انه أتى بهذه الاكذوبة وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبى فى كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة فى شهر مارس سنة (٦٣٢) ميلادية وهى حجة الوداع .

وخطب فى الناس على منبر المسجد المقدس فقال ﴿ رب انى أديت رسالتى و بلغت أمانتى اليوم قال الله تعالى ـ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون * اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ـ ثم رجع الى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجتـه المصطفاة برضا من زوجاته ، ولما أحس بقرب الأجـل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع اليه شيأ منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مقدارا يسيرا لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب فى سنة ولما أفاق سألها عما اذا كانت أنفذت أمره أم لا فأجابته ـ كلا ـ فأمر بالنقود وأشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال الآن استراح قلبى فانى كنت أخشى أن ألاقى ربى وأنا أملك هذا المال ، وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هوالثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضـل بن العباس وعلى بن أبى طالب وقصـد منبرالخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال « أيها الذين تسمعون قولى إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضربه ، وان كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وان كنت سلبت أحدا ماله فاليه مالى فليقتص منه وهو فى حل من غضبى فان الغل بعيد عن قلبى » ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهـم دينا له فأداها على الفور قائلا « لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة » ثم دعا لمن حارب معه فى (أحد) وسأل الله لهم الرحمة والغفران ، وكان مشهدالنبى بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهـم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك انه لما كان فى واقعة خيبرقدمت اليه يهودية اسمها (زينب) شاة مشوية أضافت اليها سما فأخذ منه النبى ﷺ قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول « مازالت تعاودنى أكلة خيبر » وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول « هلا افتدينا روحك بارواحنا » ثم أوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعبا مهزولا وصار المرض يشتد عليـه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قدجاء وقت الظهرفأشار الى أبى بكرليصلى بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبى بكر بعد النبى ﷺ وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضارفقالت كانت رأس رسول الله ﷺ مسندة الى صدرى و بقربه قدرماء وكان يقوم ليضع فيها يده و يمسح جبينه و يقول « رب أعنى على تحمل سكرات الموت أدن منى ياجبريل ، رب اغفرلى واجمع بينى و بين أصدقائى فى السماء » ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدرى

أما مخلفاته فبيت بناه بيده و بضع نياق آلت الى بيت المال لأنه عليه الصلاة والسلام قال « نحن معاشر الأنبياء لانورث » والى هنا نقصرالقول عن ذات النبى فما أردنا أن نطيل فيها إلالنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين إذ الدين يدعوالى الدين وكان من الواجب دقة البحث عن اعتقاده ﷺ قبل أن نتتبع دينه كيف انتشر ولايزال ينتشرفى الوجود

﴿ الاسلام فى زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

قال القديس (بولس) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان أدلة ليؤمنوا ، وأما العرب فاهـم آمنوا بغيرمعجزات ولاأدلة إذ النبى كان يقول لجلسائه على الدوام انه آدمى مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل سلطان فى المعجزات ـ قل إنما أنا بشرمثلكم يوحى الى أنما إلهكم إله واحد ـ قل لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا إلاماشاء الله ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلانذير و بشيرلقوم يؤمنون ـ

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالأمة التى بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام

فى

فى واقعة بدرسنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الأنصار إلا ثلثمائة وأربعة عشر نفرا فلم يمض عليه قرن واحد حتى اجتازجبال (الالب) وتوسط البلاد الفرنساوية ، وقد أسلمت الشام والعجم ومصر و بلاد الغرب من مراكش الى الجزائرالى تونس الى طرابلس ، نعم قد سبق هذا الانتشارالعظيم عناء شديد واضطراب فى العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامّة فى مبدإ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث أن تغلب على أكبر العثرات فمهد الصعاب حتى صارلايعرف حاجزا ولامانعا

وما أشبه الدين فى انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهونتيجة ﴿ مؤثرين ﴾ مؤثرداخلى يسمى المقاوم ومؤثرخارجى وهوالمحرّك والأوّل خفىّ لايظهر أثره وان كان هو الذى يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء المؤثرالخارجى فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدّد الجسم العظيم الذى يسمى تبخرا وقد احتاج الاسلام فى الانتشارالى التغلب على قوّة العوائد والتقاليد التى وجدها وهومانع يصادف كل دين جديد إلا انه كان قويا للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جدا أن يعتنقوا دينا يرى آباءهم غيرمطهرين ، ومن الموانع التى قوّت العرب فى استعصائهم على الاسلام ما اشتمل عليه من مبدإ قهرالنفوس وتذليلها للواحدالمعبود ، فالقول بالمساواة بين الناس طرا أمامه كان ثقيلا على آذان العرب مخالفا لتقاليدهم الأوّلية حتى يدينوا اليه بغيرعناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٢٣ ميلادية أيام وفاة النبى لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب إلا انه كان بين المسلمين الأوّلين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الأب (بروغلى) حيث قال ﴿ إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء فأحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدّة عزيمة وكانا أرفع قدرا وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما ﴾

ومن الغريب أن الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات إلاماقابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدّمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحرّيتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنثورة . وهم رحل فى الوديان غيورون على اطلاقهم فى الفلوات . لايعرفون من الحكم إلا سواق الماشية على المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن وتكوين أمّة واحدة منهم أكبرعقبة قامت فى وجه النبى ﷺ ولولا قوّة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمنا طويلا إلاأنها لم تدم إلا وقتا وعادت بعد ذلك الى التفرّق والانقسام ، غير أن القبائل بعد تفرّق وحدتها لاتزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذا المقام الأوّل بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصاركل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصا عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع ، وهذا هوالسبب فى اطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدّن كذا عربى مع انه لا جامعة بينها و بين بلاد العرب سوى الاسلام . انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فيما ذكره العلامة توماس كارليل ﴾

لقد أصبح من أكبر العارعلى أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصل الى مايظنّ من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خدّاع مزوّر وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التى أدّاها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحومائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظنّ أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصروالاحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أماأنا فلاأستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا واذا كان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج و يصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فماالناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لاتخلق

فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة (و بعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة مّا فى علوم الكائنات أن لايصدّق شيأ البتة من أقوال أولئك السفهاء فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعلّ العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا و ينشره ، عجبا والله إن الرجل الكاذب لايقدر أن يبنى بيتا من الطوب ، فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وانما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائة مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وانى لأعلم انه على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، كذب والله مايذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقا وزور و باطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل وانما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزوّرة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأىّ مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة »

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا فانى أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومحمدة ، وعندى أنه مامن رجل كبير (ميرابو) أو (نابليون) أو (بارنز) أو (كرمويل) كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أوّل باعثاته على محاولة مايحاول أعنى انه رجل صادق النية جادّ مخلص قبل كل شئ بل أقول إن الاخلاص (الاخلاص الحر العميق الكبير) هو أوّل خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه . كلا . فان هذا حقير جدا وأيم الله ، هذا اخلاص سطحى وقح وهو فى الغالب غرور وفتنة انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لايستطيع أن يتحدّث به صاحبه . كلا . ولايشعر به بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم إن الرجل الكبير لايفخر باخلاصه قط بل هو لايسأل نفسه أهى مخلصة ﴿ أو بعبارة أخرى ﴾ أقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لايستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أوّل أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة وهذه الحقيقة لاتفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لاشك فيها ولاريب هاهى هاهى

فاعرفوا هداكم الله أن هذه هى أوّل صفات العظيم وهذا حدّه الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها

مثل هذا الرجل هو مانسميه رجلا أصليا أى الجوهر كريم العنصر فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا ، ثم قال بعد ذلك بكلام هذا نصه بالحرف الواحد كالذى قبله نحن نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم هو يرى باطن كل شئ لايحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء ، وكيف وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يغشى لنورها ، ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نبيا أو فارسا أو ملكا ، ألا تراها ضربا

من الوحى والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دلّ الله على وجوده بعدّة آيات أرى أن أحدثها وأجدّها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى اليه قبل كل شئ . وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرّع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أوسلطان أوغير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التى أدّاها إلا حقا صراحا ، وما كلمته إلا صوتا صادقا صادرا من العالم المجهول . كلا . ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطرعنها قلب الطبيعة فاذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين

كانت عرب الجاهلية أمّة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم و بين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء وكان الاعرابى صامتا لايتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القمرليله

رأت رجلاما اذا الشمس عارضت * فيضحى واما بالعشى فيخصر

ولاأحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة و يناجون أسرارها الا انهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر واذا صح أن الفرس هم فرنسو يو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوّة ادارتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه و ينحر له فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لايحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص ، وكان العربى أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح ، و يزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة انهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد عليه السلام منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد و يجدون لرناتها أى لذة فينهافتون على المنشد كالفراش و يتهالكون

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائيليين واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ألاوهى التدين فانهم مذ كانوا مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله مابرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . ألسنا كما قدّمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أوأسرار الجمال الشعرى كما اصطلح الناس على تسميته . وقد كان لهؤلاء العرب عدّة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة مايثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدّد . وأى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين . وقد اتفق النقاد أن (سفر أيوب) أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدّس قد كتب فى بلاد العرب ورأيي فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه انه من أشرف ماسطر يراع ودوّنت يد كاتب . ولا يكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لمافيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموّها عمومية تخالف التعصب والتحيز

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد النبي محمد عليه السلام عام (٥٨٠) ميلادية وكان من أسرة

هاشم من قبيلة قريش وقدمات أبوه عقب مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جدّه شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا بارا ، وكان ابنه عبدالله أحب أولاده اليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحبّ اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قدفاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه (وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل) على أحسن نظام عربىّ

ولما شبّ محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية ومأشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهمّ أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين (رحلة الى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره) أعنى الديانة المسيحية وانى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ، ولاماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السنّ الصغيرة من أى راهب ما فان محمدا لم يكن يتجوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولاشك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولايفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤن فأقامت فى ثنايا ضميره ولوغير مفهومة ريثما ينضجها له كرّ الغداة ومرّ العشىّ وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة

ثم لاننسى شيأ آخر وهوانه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب ويظهرلى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هوعيشة الصحراء وأحوالها وكل ماوفق الى معرفته هوما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلق بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية . وعجيب وأيم الله أمّية محمد . نعم انه لم يعرف من العالم ولامن علومه إلاماتيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضرّه ولم يزربه انه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولاحديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نورأى انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء (أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور) من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه (الأمين) رجل الصدق والوفاء . الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا انه مامن كلمة تخرج من فيه إلاوفيها حكمة بليغة . وانى لأعرف عنه انه كان كثير الصمت . يسكت حيث لاموجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة . لايتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنارشبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثاردفينته وهكذا يكون الكلام والافلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدإ صارم العزم بعيد الهمّ كريما برا رؤفا تقيا فاضلا حرا . رجلا شديد الجدّ مخلصا وهومع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلوالايناس بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله . هؤلاء لايستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىّ الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلألآن . وانى لأحبّ فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينتفخ ويسود فى حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا النبى حادّ الطبع نارى المزاج ولكنه كان

عادلا

عادلا صادق النية ، كان ذكيّ اللبّ شهم الفؤاد

لوذعيا كأنما بين جنبيـه مصابيح كل ليـل بهيم

ممتلئا نارا ونورا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنيّ عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدّى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء

الى أن قال ﴿ ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا . وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير (ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وإربة ونهى) أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادّين ، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة و يسيرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمدا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة و بحقائق الامور والكائنات ، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروانقه ومباهره لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « ها أنا ذا » فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هـذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء وكل قول جفاء ومازال منذ الأعوام الطوال منذ أيام رحله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار ، ماذا أنا ؟ وماذلك الشئ العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وماهى الحياة ؟ وماهو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعـل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء أوشماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات . كلا . ولا قبة الفلك الدوّار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سره ، وهذا ماينبغى لكل انسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحسّ ذلك الرجل القفرى أن هذه هى كبرى المسائل وأهم الامور وكل شئ عديم الأهمية فى جانبها ، وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أوفى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص البطل وأوّل صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن. فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أورديئة وكان يقول فى نفسه « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شئ ماهى إلا رمز له واشارة اليه والافهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع » وما لهذا الرجل والأصنام وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير . أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه فى واد وهم فى واد . هم يعمهون فى ضلالهم وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة فإما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد . أجب لابد من أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره . حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أىّ فائدة لمثل هـذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أوفى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة . كلا . إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل ان محمدا كاذب ونعدّ موافقتهم عارا وسبة وسخافة وحمقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ما أجلّ وأنفع ولاسيما لرجل كمحمد لقد كان يخلو الى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية .

أجل حبذا تلك عادة ونعمت . فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا الى نفسه فى غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى اذا هو قد خرج الى (خديجة) ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر وانه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لاشريك له فهو الحق وكل ماسواه باطل، خلقنا ويرزقنا ومانحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى ، الله أكبر ولله الحمد ثم الاسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه وأن القوة كل القوة هى فى الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته ، أية كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه باسم ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لاخير إلا هو ، ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جايتى) « اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا إذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم » وقدما قيل « إن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة (فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها) بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هى خير مايقع للانسان وأفضل مايناله وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وانه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله بل عليه أن يعتقد أن الكون قانونا عادلا وان غاب عن ادراكه وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكوت وتقوى »

الى أن قال « وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جحودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وانه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة انه ذاك النصير والظهير . ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبوطالب عم محمد وأبو على ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أوصى فى قاتله « إن أعش فالأمر الى وان أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وان تعفوا أقرب للتقوى »

الى أن قال « فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر الى (يثرب) حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن (المدينة) أى مدينة النبى ﷺ وهى من مكة على (٢٠٠) ميل تقوم وسط صخور وقفار ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق (٦٢٢) ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد فترون انه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا وكان أصحابه يموتون واحدا بعد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر

بعزمه

بعزمه ينبوع أمل بين جنبيـه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحـدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات وهكذا شأن كل انسان فى مثل هذه الأحوال وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حـتى أرادوا أن يسكتوه فلاينطق بالرسالة عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول « واما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن » وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرّم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والاناة فأبوا إلاعتوّا وطغيانا ، فليجعل الأمر إذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم والى كل مسرودة حصـداء وسابحة جرداء وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشرسنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولامدرّ فواق وكانت النتيجة ما تعلمون﴾

﴿ ولقد قيل كثيرا فى شأن نشرمحمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون « ماكان الدين لينتشرلولا السيف » ولـكن ماهو الذى أوجد السيف ؟ هو قوّة ذلك الدين وانه حق والرأى الجديد أوّل ماينشأ يكون فى رأس رجل واحد ، فالذى يعتقده هوفردٌ، فردٌضد العالم أجمع ، فاذا تناول هـذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أولم تروا أن النصرانيـة كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا وحسبكم مافعـل (شارلمان) بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشارالحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تـكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ماكان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط أن تفنى ماهوخيرمنها بل ماهو أحط وأدنى فانها حرب لاحكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط وماكان أعمق جذرا فى الحق وأذهب اعراقا فى الطبيعة فذلك هوالذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده ﴾

الى أن قال ﴿ نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولونظرنا الى ماكان من سرعته الى القلوب وشدّة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا ، على انه قد كان فيها عنصرمن الحق ولـكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعىّ بين الاصلاء ولـكنها ضرب حىّ على كل حال ذوحياة قلبية وليست مجرّد قضايا قفرة ميتة ، ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ، نظرابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه « الوثنية باطل وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضرّ ولاتنفع وهى منكر وفظيع وكفر لوتعلمون ، انما الحق أن لاإله إلا الله وحـده لاشريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهوأرأف بكم منكم وما أصابكم من شئ فهو خير لـكم لوكنتم تفقهون »

وأن دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجديرأن يكون حقا وجديرأن يصدق به وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشئ الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به وهذا الشئ هو روح جميع الأديان ، روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شئ واحـد ، وباتباع هـذه الروح يصبح الانسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر (الـكون) جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السيرعلى منهاج

الدنيا فان الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر . أما انه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها وانما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل مالم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لاعجب اذا قلت ان الأوروبى يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لايزال يقطع فى صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة . أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته و بين أذواقهم من الملاءمة ولأنه لاترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه أتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع فى شؤن الحياة ومسائلها والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى وكذلك مابرح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الالوف من خلق الله وفى قلوبهم اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة * ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة . اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم (براديه) وأمثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذارا له عما كان يرتكب و يقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل ، والقرآن لوتبصرون ماهو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال فى الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تترا كم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لاتكاد تجد مخرجا وقل مانطق به فى جانب ماكان يجيش بنفسه العظيمة القوية

هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتميق الكلم ، و يالها من خطوب كانت تطيح به وتطير فقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ، حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثورانها ، كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد و يرسب وتدور بها دوامات الفكر حتى اذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه (كذا) . يزعم الأفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال . كلا . ثم كلا . ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور و يتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة . والاخلاص المحض الصراح يظهر لى انه فضيلة القرآن التى حببته الى العربى المتوحش وهى أوّل فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهى منشأ فضائل غيرها بل لاشئ غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر (١) يجرى فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات . نظرات نبى وحكيم .

(١) أى البلاغة

اجل

أجل لقد كان لمحمد فى شؤن الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع فى أذهاننا كل ما أبصره ذهنه . أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبها ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الامور فهذا أعظم مايلذنى و يعجبنى وهوما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء

وكان محمد ﷺ اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال « حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائه و يهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحوّل الكلأ لبنا وهى نخو لكم ، والسفن (وكثيرا مايذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح ، و بينا تسير اذا هى قد وقفت بغتة وقد قيض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأىّ معجزات بعدها تريدون . ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ثم لكم جمال وقوّة وعقل ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات وتهرمون و يأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غيرموجودين ثم وهبكم الرحمة ، لقدأدهشتنى جدا هذه الجلمة فان الله ربما كان خلق الناس بلارحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ » هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ، وكذلك أرى فى محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلاقويا عبقريا ، لوشاء لكان شاعرا فحلا أوفارسا بطلا أوملكا جليلا أوأى صنف من أصناف البطل . نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة أىّ معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو أن هذا الكون الصلب المادّى انما هوفى الحقيقة لاشئ . انما هوآية على وجود الله ، منظورة ملموسة . وهوظلّ علقه الله على صدر الفضاء لاغير . وكان يقول « هذه الجبال الشامخات ستحل وتذوب مثل السحاب وتفنى » وكان يقول « الجبال أوتاد الأرض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شئ وامتلاء كل مكان بقوّة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هوالقوّة الصادقة والجوهر والحقيقة » وهذا مايسميه علماء العصر (القوى والمادّة) ولايرونه شيأ مقدسا بل لايرونه شيأ واحدا وانما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية فسرعان ماتنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سرّ الله وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبرهذه الغفلة إثما ؟ واذا نسينا ذلك فأى الامور يستحق الذكر . إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة . نعم وماأحسب العلوم لولاذلك إلاخشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولابالغابة الكثيفة الملتفة التى لاتبرح تمدك بالخشب أثر الخشب فيما تمدك وتعطيك . ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أوّلا الى العبادة أعنى انه لاعلم إلا لمن عبد والا فما العلم إلاشقشقة كاذبة و بقلة كما قلت ذابلة

الى أن قال « وماكان محمد أخا شهوات برغم مااتهم به ظلما وعدوانا . وشد مانجور ونخطئ اذا حسبناه رجلا شهويا لاهمّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا . فما أبعد ماكان بينه و بين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقدبداره نار . وانهم ليذكرون ونعم مايذكرون انه كان يصلح و يرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دئبا فى نشردين الله غيرطامح الى مايطمح اليه أصاغر الرجال من رتبة أودولة أوسلطان غيرمتطلع

الى ذكر أوشهرة كيفما كانت . رجل عظيم ور بكم والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما واكبارا واعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم و يعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه و يجاهدون حوله ، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة و بادرة وعجرفية وكانوا حماة الانوف ، أباة الضيم ، وعرالمقادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولاأذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ، وظنى انه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ماناله محمد فى ثو به المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال ، وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد الى ر به ولاتحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله . كلا . بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزىء غلامه « العين تدمع . والقلب يوجع . ولانقول مايسخط الرّب » ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) فى فى غزوة (مؤتة) قال محمد « لقد جاهد زيد فى الله حقّ جهاده وقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها . وجدت الرجل الكهل الذى دبّ فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا فقالت ماذا أرى ؟ قال صديقا يبكى صديقه

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال تر ينا فى محمد أخا الانسانية الرحيم . أخانا جميعا الرؤف الشفيق وابن أمّنا الأولى وأبينا الأوّل . وانى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لايعوّل إلا على نفسه ولايدّعى ماليس فيه ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا فهوقائم فى ثو به المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لايعتذر من الأولى ولايفتخر بالثانية إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولاشعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لايؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر (يوم تبوك) إذ أبى رجاله السيرالى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد و بالحر فقال لهم الحصيد انه لايلبث إلا يوما فماذا تتزوّدون للآخرة والحر ؟ نعم انه حر ولكن جهنم أشدّ حرا (ور بما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية) إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم و يوزن لكم الجزاء ثم لاتبخسون مثقال ذرّة

وما كان محمد بعابث قط ولاشاب شيأ من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء و بقاء ولم يك منه إزاءها إلا الاخلاص الشديد والجدّ المرّ . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل مايستنكر من مثل هذا الانسان هوأن جميع أقواله وأعماله أكاذيب بل انه هو نفسه أكذو بة . وأرى خصلة المروءة والشرف (شعاع الله) متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطر با بين عوامل الحياة والموت فهو رجل كاذب لا أنكر انه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لاتؤذيك بادرته لين الملمس رفيق الملمس كحمض الكر بون تراه على لطفه سما نقيعا وموتا ذريعا . وفى الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس فى الاسلام سواء والاسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدّرها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزأ من أر بعين من الثروة تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكو بين . جميل والله

كل هذا وماهو إلاصوت الانسانية . صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل (ابن القفار والصحراء) . وينكر البعض تغلب الحسية والمادّية على جنة محمد وناره فأقول « إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لاعلى ماجاء فى الكتاب فان القرآن قد أقلّ جدا من اسناد الحسيات والمادّيات الى الجنة والنار ، وكل مافيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولاعذابا بدنيا وألما جثمانيا حتى أسندوه الى النار ، ثم لاتنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال ـ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ـ فالسلام والامن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشئ الذى عبثا يتلمسه الانسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا ـ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين ـ وأىّ رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شئ أهنأ من التآلف والتصافى ، وأى دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها . وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ، ولعلّ أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وأن لايجعل من لذاته سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه اذاهمّ أن يصدعها بل حليا وزخارف متى شاء فلاأهون عليه من خلعها ولاأسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أوكان وحى الغريزة وإلهامها فطاريا فهو والله نعم الأمر . ويمكننا القول على كل حال أن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثل ماصادفت فى القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها ـ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ـ ماذا ترون كل هذه إلاظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب وجسامة أمره ، لقد كان هذا النبى يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لكل عمل انسانى ، مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سيء فله من السوء نتيجة أبدية وماكان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار . وكل ذلك قد حاول فى أشدّ اخلاص وأحدّ جدّ أن يخرجه للناس ويصوّره لهم فأخرجه وصوّره فى صورة تلكم النار والجنة . وأىّ ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلاتزال أولى الحقائق مقدّسة فى أى أسلوب وأى صورة . وعلى كل حال فهذا الدين فيه للبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ولاتبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارّة (من السائر ؟) فيجيبه السائر (لاإله إلا الله) وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاى فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم مايفعلون . ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة وهل كانت إلا فئة من جوّالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لايسمع لها صوت ولاتحسّ منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوّة والشرارة حريقا . وسع نوره الأنحاء وعمّ ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب

والمشرق بالمغرب . وماهو إلاقرن بعد هـذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنورالفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهـدى على نصف المعمورة ، وكـذلك الايمان عظيم وهومبعث الحياة ومنبع القوّة ، ومازال للأمّة رقى فى درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان ، ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لايبصر بها فضل ولايرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وماهى برمل ميت واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى . ولطالما قلت ان الرجـل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا و يلتهبوا . والى هنا تمّ الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين

(من هو توماس كارليل)

(من كتاب السيد عبد الرحمن البرقوقى مترجم هذا الفصل)

ولد (توماس كارليل) فى قرية (اكلفكان) باقليم (اناندال) بجنوبى (اسكوتلانده) لأربع خلون من شهر تشرين سنة ١٧٩٥ وذلك قبـل نهضة (نابليون) لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة (روبرت بارنز) شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ولوأنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لـكان رجلا انكليزيا وكان أبوه بناء و بيديه بنى البيت الذى ولد فيه ابنه . دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوّة نفسه . وكان قليل الـكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولـكنه ليس بفظ ولاغليظ فـكأن قلبه بئر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه أن تجاور

* خلائق اصفار من المجد خيب *

﴿ جوهرتان ﴾

﴿ الجوهرة الأولى ﴾ فى ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات التى نحن بصددها

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى ثناء المؤلف على الله وحده له على نعمة العلم

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

إن الآيات التى نحن بصددها هى قوله تعالى ــ وكـذلك أنزلنا اليك الـكتاب ــ الى قوله ــ أولئك هم الخاسرون ــ فقوله تعالى ــ وكـذلك أنزلنا اليك الـكتاب فالذين آتيناهم الـكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به ومايجحد بآياتنا إلا الـكافرون ــ قد ظهرت آثارها فى هؤلاء المؤمنين من المسيحيين وهم (اللورد هيدلى) و (الـكونت هنرى دى كاسترى) و (توماس كارليل)

وأما قوله تعالى ــ وما كـنت تتلو من قبله من كـتاب ولاتخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون ــ فهذا قد ظهر ظهورا واضحا فى كلام العـلامة (الـكونت هنرى) إذ قال ﴿ إن محمدا ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا « نبيا أميا » وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولاشك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العـلم بحيث لايعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والـكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أوكاتب سوى رجل واحد ذكره (جانسين دى تاسى) فى كـتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ م ﴾ الى أن قال ﴿ ثبت إذن مماتقدم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كـتابا مقدسا الخ ﴾ وانظر الى ماقاله (توماس كارليل) قال ﴿ ثم لاننسى شيأ آخر وهوأنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا ﴾ الى آخر ماتقدم وقوله تعالى ــ بل هوآيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولاأنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى و بينكم شهيدا

يعلم مافى السموات والأرض ـ الخ فان هذا ظاهر فى كلام هؤلاء المؤمنين من علماء النصارى . ألاترى الى ماذكره (توماس كارليل) فيما تقدّم قال ﴿ وكان محمد اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهومسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائه ليحيي أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا ، أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحوّل الكلأ لبنا وهى فخرلكم ، والسفن (وكثيرا مايذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح و بينا تسير اذا هى قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هـذه ، وأىّ معجزات بعدها تريدون ، ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوّة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتهرمون و يأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين . ثم وهبكم الرحمة . لقد أدهشنى جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خالق الناس بلا رحمة فماذا يكون أمرهم . هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ﴾ اهـ

أليس هذا بعينه هوقوله تعالى ـ قل انما الآيات عندالله ـ وقوله ـ أولم يكفهم أناأنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ـ الخ

﴿ يامعشرالمسلمين ﴾

أليس هذا هوالذى قلته لكم فى هذا التفسير . هذا التفسير ميزته الخاصة أنه يوجه هممكم الى معرفة هذه الدنيا ومخلوقات الله تعالى فأنظر فأجد هذا العالم الفرنجى يقول إن معجزة محمد هوهذا الكون والنظرفيه . إن هذا العالم لم يقيد عقله كما قيدت عقول آبائنا المتأخرين فى الاسلام الذين تركوا الكون ظهريا وراءهم واكتفوا بعلم الفقه . أليس هذا هوالذى أناديكم بهفىهذا التفسير . امتاز هؤلاء العلماء بأنهم ينظرون للقرآن نظرا مجردا فحكموا بأن معجزة النبى ﷺ هوالكون أما نحن فى القرون المتأخرة فقد أغمضنا أعيننا ولم ننظر للكون واكتفينا بكلمات جدلية فى علم التوحيد والحمد لله قد آن لنا أن نرجع الى القرآن كما قدّمت وقد بينت فى هذا التفسير أن فى القرآن (٧٥٠) آية فى وصف الكون وهذا كله هوالمعجزة الحقيقية لاالاكتفاء بما جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض وغيره . فنظر المسلمين فى الكون هوالذى يجب العناية به

ياسبحان الله . هل نبينا ﷺ يحتاج فى أداء رسالته الى جميع تلك الخوارق وان كان حصل بعضها بل معجزاته باقية هى القرآن والكون

ومن أعجب العجب انك ترى صديقنا (اللورد هيدلى) يشكو مرّ الشكوى من القسيسين و يقول هم يأكلون أموال الناس بالباطل و يقرأ ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ـ فهذا هوالعجب أن نرى حقيقة أن دين الاسلام قد جاء لاصلاح الأمم جميعها بشهادة هؤلاء الأفاضل الذين عرفوا حقائق لم تكن لتخطر بالبال . هذه هى المعجزات التى لاتفنى بل تتجدّد بتجدّد الزمان اهـ

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة وأشهد انك أجبت دعائى وأعطيتنى أجل ما أتمنى فى الحياة . فهل كان يدور بخلدى وأنا شاب أطوف على شواطئ الأنهار وفى الخلوات وفى الحقول وأبحث فى هـذه الدنيا الجميلة . دنياك المملوءة زينة و بهجة وجمالا . أقول هل كان يدور بخلدى أن السؤالين اللذين كنت أسألكهما قد أجبتهما إجابة تامة وهما هل العالم منظم حتى أعرف أن له صانعا وماذا يقول أهل أوروبا فى وجودك . هل هم يقولون إنك موجود لأنى رأيت لهم تفوّقا على المسلمين . فهل هؤلاء الذين فاقوا الشرقيين يعرفون أن للكون صانعا . هذان هما السؤالان اللذان كنت فى شبابى أثناء انقطاعى من الجامع الأزهر فى شغل بهما كما ذكرته مرارا فى هذا التفسير . وهناك سؤال ثالث وهو لماذا تأخرت أمم الاسلام . هـذه هى

الأسئلة الثلاثة التي كانت ترد على خاطري وذهبت بلبي وأقضت مضجعي وحرمتني النوم فى أكثر الأوقات والآن أقول وأصرّح بأعلى صوتى انى عرفت أن العالم منظم وله صانع وهذا التفسير هو الذى جمع أجل ما اطلعت عليه ووثقت به ، وما أسعد حظى إذ كتبت فيه ماسمعته الآن أيها الذكى من آراء علمائهم وكيف أدركوا أن الديانات التى تقدمت الاسلام مرتبكة ضائعة ، أفلا أكون الآن سعيدا اذ كتبت فى هذه الآيات ما أبان أن المسيحيين يعتنقون الاسلام و بأى سبب أسلموا ، وكيف أدركوا حقائق الاسلام ، وكيف يقول اللورد هيدلى انه الآن سعيد لأن الله معه فى كل حركاته وسكناته ، وكيف يبرهن الاستاذ (توماس كارليل) ومثله (هنرى) الفرنسى أن دين الاسلام هو الحق وهو يعلو ولايعلى عليه ، وكيف نرى أن المسيحيين فى زماننا قوم لايفكرون مطلقا فى حقائق الديانات و يسيرون تبع القسيسين بلاتفكير . إنى أعلن اليوم أنى قد نلت ماكنت أطلبه من الله وهو الوقوف على حقائق نظام الدنيا بقدر طاقتى البشرية واطلاعى على آراء الأمم المحيطة بنا فى الديانات وما الحق منها ثم ادراجى فى هذا التفسير بذور الاصلاح والاسعاد لأمم الاسلام وأنا موقن أن الذى نصرنى فى أدوار حياتى وأنالنى ما أتمنى من تلك الآمال الثلاثة هو الذى سينصر أمم الاسلام بعد قراءتهم أمثال هذا التفسير وستتغير خريطة الأرض ذلا وعزا وسعادة وشقاء ، ثم أقول من ذا الذى كان يظن أن أوروبا التى ملأت الآفاق بمدارسها وعلومها تكون عقول رجالها نائمة الى هذا الحدّ ، فانظر مايقوله (اللورد هيدلى) فيمايلى

﴿ التحريف العمدي ﴾

كنت أطلع من وقت لآخر على كتابات (الارساليات المسيحية) التى يطبعونها بشكل كراسات صغيرة و يدّعون فيها انهم يعطون معلومات حقيقية عن الدين الاسلامى ، وانى لفى شدّة الأسف لأن أعترف بأنى أشعر بذلة عظيمة وخجل كبير عند ما أجد أن أحد رجال وطنى ينحنى للرياء والتمويه والتحريف لكى يعزز آراءه نحو الدين . إن الدين الذى يمكن أن يدعى انه دين يجب أن يعلم العدل الدقيق والحب للحق وانه ليذهل جدا الى أى مدى تسير (التعصبات الدينية المسيحية)

انظر الى وجه الصورة الآخر ، ألاتدهشك رؤية مظاهر روح الحسنى التى يقرّرها القرآن وملاحظة الهدوء الذى يلاقى به المجتمع الاسلامى الشاسع الحملات عديمة القيمة التى تحمل عليهم وعلى دياناتهم باسم عيسى الكريم أحد أنبيائهم . اننا لانجد كما أعلم أى جور أو تحريف فى أعمال محمد لأنه حتى وان كانت هناك كلمات شديدة من جهة المسلمين (يعذرون من أجلها) إلا أنهم لم يلجؤا الى مثل هذه التهم المكذوبة كى يكوّنوا منها أهم أسلحتهم التى يهاجمون بها خصومهم . انى وان لم أبين أسماء هذه الكراسات المشار اليها آنفا إلا أنه يمكن الحصول عليها بسهولة من الناشرين الذين أخذوا على عاتقهم طبع مثل هذا النوع من الأدبيات

انى سأذكر الآن بعض قطع من كراسات وضعت خصيصا لتشويه أخلاق النبى الكريم وسوف يرى كل شخص ذو عقل مستقيم أن سفالة الحقد وطلب الانتقام هو السلاح الذى استعمل وليس فى تلك الكراسات حجج ولااشارات الى حقائق تاريخية بل ولاشئ أكثر من تقارير مثيرة متوالية يعرف المؤلف لها بأنها ليست ولايمكن عدّها تقارير جوهرية أو مبنية على أى أساس ، وسيرى القارئ منها هنا بعض أمثلة مقيتة إلا انى أعتذر اليه لذكرى مثل هذا الهذيان الغير الصحى وعذرى فى ذلك أنه يجب أن يعرف العالم مقدار تعصب وغرابة شكل الهجمات التى توجد ضد المسلمين المتألمين من زمن بعيد والذين لاتسمح لهم حسناهم وصبرهم وطول اناتهم وحسن ذوقهم بأن يقابلوهم بنفس هذه السفالة والأعمال المبتذلة ، وهاهى تلك القطع التى ظهرت فى جريدة (نورآفشو) وهى جريدة مسيحية أسبوعية تطبع فى (لوديانا)

(١) الوحى الذى نزل على محمد أتى من عند الشيطان

(٢) المحمديون فى الواقع حجر وأعمالهم كأعمال الجحوش
(٣) محمد كان غلما يعجب بجمال النساء وحبيبا
(٤) المسلمون مربوطون بحبال الشيطان من رقابهم
(٥) كل نساء بلاد العرب المتزوجات زانيات
(٦) إن إله القرآن والحديث ، هو الذى خلق رجالا مملوئين بالخطيئة والذى ليس فقط لا يدلهم على الطريق السوى بل يضلهم دائما
(٧) خلاص المسلمين مبنى على ارتكاب الخطايا وجعلت الأعمال الطيبة عندهم كوسيلة للحرمان . أما الخطيئة فقد نظمت كغرض وحيد لحياتهم الطبيعية
(٨) أسس محمد أمة جعلت ارتكاب الخطايا ديدنها وعلامتهم أن قوادهم يتعمدون الكذب و يسفكون الدماء و يرتكبون السرقة وقطع الطرق و يظنون أن الزنا من البشائر المفرحة وكل منهم مصحوب بالشيطان ومصيرهم الى جهنم جميعا

والآتى أيضا قد جمع من مصادر مختلفة وظهر فى المجلة الاسلامية تحت العنوان التالى

﴿ اتباقى كفاره ــ بقلم ت . هو يل راعى الكنيسة الانكليزية بلاهور ﴾

(٩) قال الكاتب مخاطبا المسلمين بتعيير وتو بيخ « ذلك لأن قوادكم مجرمون شريرون وعقولهم ضعيفة » (صحيفة نمرة ٣)
(١٠) بذور الجريمة التى تدعى نصيب الشيطان نبعت فى كل وقت وآن من عقل محمد (صحيفة نمرة ١٠)
(١١) من محض رغبته أوغوايته الشيطانية شكر محمد الأصنام وسجد لها (صحيفة نمرة ٢٠)
(١٢) انه (أى محمدا) ظل خاضعا دائما للشيطان والسحر (صحيفة نمرة ٢٠)

﴿ حضرة محمد ــ بقلم القس . ج . ه . راؤس ــ دكتور فى الكهنوت ﴾

(١٣) هناك أشياء كثيرة تبرهن على أنه (محمد) مجرم أثيم (صحيفة نمرة ٦)
(١٤) الطمع والغضب كانا من الشرور القوية الغريزية فى محمد (صحيفة نمرة ١٠)
(١٥) كان مجرما (صحيفة نمرة ١٤)
(١٦) انه نفسه (محمد) مفتقر الى الخلاص (صحيفة نمرة ١٤)
(١٧) انه (محمد) لا يستطيع أن يتخلص من جهنم بأى طريقة (صحيفة نمرة ١٧)
(١٨) كان مجرما وسيلقى فى جهنم كباقى الخاطئين الآخرين (صحيفة نمرة ١٤)

﴿ حجرا شفيق كون هاى ــ بقلم القس ه . راؤس . دكتور كهنوتى ﴾

(١٩) كان محمد مجرما ورغب فى أن يمدح بعدم الخطيئة (صحيفة نمرة ٥)
(٢٠) سيحتاج محمد الى شفيع ومخلص كباقى الخاطئين العاديين (صحيفة نمرة ٦)

﴿ دفع البهتان ــ بقلم القس روكلين ﴾

(٢١) لانستطيع أن ندعو محمدا إلا نفس الرجل الغنى . يقصد الرجل الغنى الذى كان (كقول سانت توما) من نسل ابراهيم وعاش عيشة فاخرة ولما مات ألقى فى جهنم (صحيفة نمرة ٦٩)
(٢٢) أصحاب محمد (الصحابة الكرام رضى الله عنهم) يوصفون بأنهم سفاكو دماء وظلمة متوحشون وزناة وغشاشون ولصوص وقطاع طرق وفاعلو كل أصناف الآثام وهلم جرا (صحيفة نمرة ٨٧)
(٢٣) كان (محمد) رجلا دنيو يا متبعا لشهواته ومثل هؤلاء الرجال عادة يغرقون فى مثل هذه الأشياء ، الويل لكل أمثال هؤلاء الرجال لأن لهم مثل تلك الخاتمة وسيلقون جميعا فى غضب الله أعنى فى بحيرة النار

والكبريت (صحيفة نمرة ١٥٤)

﴿ صراط المسيح والمحمد ـ بقلم القس (ثاكرداس) المبشر الأميركي ﴾

(٢٤) كان محمد فى شخصه مخطئا بل كان مخطئا حقيقيا (صحيفة نمرة ٦)

(٢٥) شكل محمد الحقيقى كما صوّره العرب كان أعظم الغارقين فى الشهوة البهيمية وحب النساء (صحيفة نمرة ١٤)

(٢٦) كان محمد رجلا ضالا جهنميا (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٧) يظهرانه (محمد) اصطيد بالشيطان (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٨) حضرات القراء انتبهوا لئلا تؤخذوا بغش محمد (صحيفة نمرة ٣٥)

﴿ انجيل أندرونا ﴾

(٢٩) حامل علامة المسيح الدجال هو نفس الثعبان القديم الا أنه عند مايفتح فمه يظهره فكاه مشخصا فى البابا ونبى بلاد العرب (صحيفة نمرة ٧٠)

(٣٠) دين محمد ودين البابا هما فكا ثعبان واحد (صحيفة نمرة ٧٤)

﴿ محمدى تواريخ اجمال . بقلم القس وليم من ريوارى وطبعت بمطبعة الارسالية المسيحية ﴾

(٣١) محمد هو زعيم اللصوص والنشالين والسفاكين والغشاشين (صحيفة نمرة ١)

(٣٢) كان محمد من أعظم الخطاه (صحيفة نمرة ٨)

(٣٣) ولوأن جبريل اجتهد فى أن يزيل ظلمة قلب محمد الذى كان يحتوى على بذور الجريمة أوالسائل المنوى أوقسم من الشيطان بالغسيل المتكرر إلا أنه لم يزل أبدا منه ، فمحمد قد سوّد فؤاده بالانهماك فى ارتكاب الجرائم المتعددة دون أن يرجعه عقله (صحيفة نمرة ٢٥)

(٣٤) قد سجن محمد فى داخل بخارجهنم إلا أن كل ذلك حصل له لارتكابه الجرائم التى ظل يمارسها الى أن مات (صحيفة ٢٧)

(٣٥) علماء المسلمين ارتكبوا جرائم من الزنا والسرقة ومثل هاتيك الأشياء وقد أتوا هذه الخطايا والتعدّيات اطاعة لرغبات محمد تحت ستارمبدئه « لا إله إلا الله » (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٦) لم تخلق الشرائع المحمدية الزانيات المحمديات بكثرة زائدة فقط بل حتى الجنة لامتلائها بالحور والغلمان قد أصبحت (كرخانة) منظمة (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٧) ليست فقط الكلمة المحمدية هى التى تشجع المجرم على ارتكاب جريمته بجسارة فائقة بل تخدمه أيضا كحبة (بلبوعة) للهضم يهضم بها جرائمه ويشد بها عزمه لينكب على عيشة الجرائم المتناهية وبركات الكلمة المحمدية تعم وتغمر الكرخانات (صحيفة نمرة ٤٩)

(٣٨) حالة إله القرآن كحالة البلد التى دمرت والراجا الأعمى تماما (صحيفة نمرة ٥٥)

(٣٩) ملعون من لم يعتقد فى كفارة المسيح (صحيفة نمرة ٢٩)

(٤٠) القرآن مجموع من الحكايات التوراتية والانجيلية واليهودية والمسيحية والقرشية الغير موثوق بها وفرائض الجهل وتقليدات غير معتمدة (صحيفة نمرة ٣٩) وهكذا دواليك

ليس فى وسع الانسان فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبجى وناسجى هذه الافترا آت لم يتعلموا حتى ولا أوّل مبادئ دينهم والا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق . إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت وموّرست فى حياة محمد الذى (سواء فى أيام تحمله الألم والاضطهاد أوفى زمن انتصاره ونجاحه) أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لايتسنى لمخلوق آخر اظهارها ، فكل

صفات

صفات الصبر والثبات فى مقصده كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى ثقته بالله وأتم كل واجباته بشمم وحمية

كان ﷺ مثابرا ولايخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكاف بهذه المأمورية من قبل الله ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه وقد أثارت تلك الشجاعة التى لاتعرف الجفول (تلك الشجاعة التى كانت حقا إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة) اعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله ومع ذلك فقد انبهت مشاعرنا وزاد اعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عند ما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثار ولم يفعل بل عفا عن كل أعدائه

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك المكارم كانت ترى منه فى كل تلك المدة حتى ان عددا عظيما من الكافرين اهتدوا الى الاسلام عند رؤية ذلك

عفا بلاقيد ولاشرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه . آوى اليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة وأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه عند ما كانت حياتهم فى قبضة يده وتحت رحمته ، تلك الأخلاق اللاهوتية التى أظهرها النبى الكريم أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم حولتها تلك الأخلاق الشريفة الى محبة وصداقة متينة

فكل المحاولات عديمة القيمة فى تحقير عظمة شريعة النبى العظيم بالبذاءة وسوء الاستعمال والحجج المموهة المتضمنة كثيرا من طمس الحقائق والآثارات المكذوبة تقدمت كثيرا بتعمد القصد فى إضلال الناس وإبعادهم عن الحقائق ، وهؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأساليب يجب أن يتذكروا (اذا كانوا قد نصروا مسيحيين) بأنه يجب عليهم على الأقل أن يقلدوا المسيح فى عدم الكذب الذى كان أكره شئ فى نظر أعظم معلمى الناصره (عيسى) . هناك أصناف عديدة من الكذب . الكذب الأبيض وهو غير مهم حيث انه لايضر وغالبا مايقال لحماية سمعة جار أومساعدة صديق . وهناك الكذب الخبيث الضار الذى يهلك صديقا أوجارا ، الا أن ألعنها مايقال باسم الدين لانه يحمل على تقليل أهمية المولى عز وجل وهى جريمة لايوجد أعظم منها

فى حلقة التمويهات المستمرة سعى فى اظهار أن الدين الاسلامى هو المسؤول عن الآثام والسلب والنهب الذى أتته القبائل المتجولة التى صدف أن كانت مسلمة اسما فقط . انه من العدل أن يلام المسيح مثل ذلك تماما على التعذيب واحراق الأساقف والآخرين أحياء فى بلادنا هذه السعيدة وليس ذلك من سنين بعيدة . حقا إن الديانة المسيحية الصحيحة ماصادقت قط على شرور (محاكم التفتيش) الخبيثة المريعة أوالفظائع التى لا يمكن عدها التى فعلها المسيحيون فى بعضهم وفى اليهود والمسلمين الآخرين الذين كانت لهم أفكار دينية تخالفهم . انى لاأظن أبدا أنه يمكن اظهار أن المسلمين اجتهدوا قط أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية فى حلوق الناس بالقوة والفظاعة والتعذيب . واذا كان هناك مثل هذه الحالات فحينئذ يمكننا فقط أن نقول ان مرتكبى هذه الآثام ليسوا بمسلمين حقيقة لأننا لانستطيع أن نشير الى أن القرآن الشريف يصادق على أفعالهم . إن محمدا كان قانونيا ومحاربا وعند ماامتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط ولم يعتدوا قط إذ كان النبى نفسه وديعا رحيما بأعدائه المقهورين . لكى نستطيع أن نكون الرأى الصواب عن صفات شخص يجب علينا أن ننظر اليه أيام شدته وأيام رخائه فاذا كانت حالته دائما حالة شدة وظل دواما بين أيدى مضطهديه تكون الظروف حينئذ لم تسمح له بأن يفعل شيأ نحو أصدقائه أوأعدائه وهنا يستحيل أن يعرف تماما ما كان يمكن أن يفعله كما ان أرقى الصفات لايمكن أن تدل عليها الوداعة والخضوع فقط بل يجب علينا أن نرى أيضا ضبط النفس وعفو الرجل الذى يتغلب على حواس الانتقام ويصل رفقه الى أقصى منتهاه . حقيقة ان العفو لم يتسع دائما ليشمل أعداء الاسلام الذين جعلوا قصارى جهدهم محاربة واخماد

الدين الاسلامى وأعملوا السيف فى رقاب المسلمين ثورة وعصيانا لأن الرحمة من هذا النوع لاتدل إلا على مد الفظاعة وازهاق الأرواح

قوّة أخلاق الرجل تظهرها المحن والتجارب وصفاته النبيلة الكريمة يستدل على أنها فى أتم كمالها عند مايظهر رحمة وعفوا فى يوم مسرّته بالنجاح والقوّة وليس القلب الرقيق فقط هوالذى يحتاج اليه رجل الله إذ لايستطيع أن يزعم أىّ كان بأنه يمكنه الوقوف ليكون مثالا أونموذجا للجنس البشرى وهو لم يختبر تصاريف الدهر وتقلبات الحياة من فاقة وعزّ وتعاسة وسعادة وضعف وقوّة . لايمكنك أن تكون معلما حقيقيا للصبر مالم يمرّ عليك الغضب أوالألم أوالنصب الذى يحتاج الى ممارسة الصبر . الضيق فقط هوالذى يظهر أعظم المواهب العالية فى الرجل الذى يحب الله من كل قلبه ومثل هذا المخلوق المحزون ينظرلكل نازلة أومصيبة تقطع الفؤاد كأنها تأديب من إله الرحمة وكلما عظمت المصيبة والبلوى ازداد احترام وتذلل وندامة ذى الاعتقاد الصحيح الذى يعرف أن ربه القادر الحفيظ يقوده بذلك الى الصراط المستقيم ، انه يؤمن بالحكمة غير المحدودة والحب غير المحدود والرأفة غير المحدودة التى لهاديه الوحيد فى هذا العالم ، انه يعلم أن خالقه عالم بأنه يبغض الشيطان وحيله الشريرة وهذا الاعتقادفيه الكفاية لشد عزائمه فى أية معركة مع الشيطان مهما كانت شديدة لأنه يعتمد على معونة مولاه فى كل شئ ، فالرجوع الى الله (القدير ذى الجلال والاكرام الرحمن الرحيم الذى لم يقترن اسمه بأى اسم آخر تنزّه عن مثيل أوشبيه) يمدّ المؤمن بثقة تفوق ادراك البشر

كل الأنبياء المقدّسين فى كل الأزمان والأوقات الذين كلفوا بتبليغ الرسالات للبشر قاموا بتبليغها بكل صدق وأمانة إلا انه لم يكن فى كل هؤلاء الرسل من هوأرفع مركزا من محمد ﷺ

انه يفهم ويعرف جيدا أنه لايتمكن من العفو إلا من أصبح قاهرا وله القوّة التى تمكنه من أن يصب جام غضبه وانتقامه على أعدائه الذين كان بين أيديهم ضعيفا حتى يقدّر الظروف التى كان فيها تحت رحمة الآخرين ، لايمكن لأحد أن يدّعى الرحمة وهو لم يقع تحت طائل رحمته أى انسان قط ، وليس هناك فى التاريخ من يمكن أن تنسب له تلك الخاصية كمحمد النبى الكريم الذى رأى أعظم الاذلال وابتدأ حياته يتيما وان كانت عين الله ترعاه ومرّت عليه كل أطوار الحياة المختلفة وهو مستسلم الاستسلام الكلى لمولاه ، ولم تتلوث أخلاقه العذبة أبدا بأى عمل دنىء أوخسيس ، ولم يرتكب الظلم قط

نحن نعتبر أن نبىّ بلاد العرب الكريم هوأخلاق متينة وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطى حياته ولم ير فيها أقلّ نقص أبدا ، وبما اننا فى احتياج الى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة فحياة النبىّ المقدّس تسدّ تلك الحاجة

حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكوّن الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة . خذ أى وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد بأنك تجده موضحا فى إحدى حوادث حياته ، ومحمد وصل الى أعظم قوّة وأتى اليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لاتجارى وكان ذلك سببا فى هدايتهم وتقائهم فى الحياة

إن الغيرة الشديدة التى لاتعرف الكلل التى كان يبذلها مؤسس الاسلام لاخماد عبادة الأصنام قد أثارت معارضة مريعة ضده فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمى ، وقد أشعلت كل قبيلة لظى الحرب كى تؤيد وتحمى أصنامها ، حصل ذلك عند ماكان النبى بالمدينة وفى الواقع قد قضى هناك أياما أصعب من أيام مكة ، ولما كان أعداؤه يشنون عليه الغاره دائما من جميع الجهات أخذ فى كل وقت وآن فى مقاتلتهم أوارسال رجاله لمقابلة التعديات فكانوا طورا ينتصرون وتارة ينهزمون ، وكانت كل حادثة تخلق فرصة مناسبة للنبىّ الكريم ليظهر وجوه أخلاقه العظيمة المختلفة التى لوجمعها الانسان ونسقها لوجد العالم فيهاقوانين وأحكاما

للحرب أكثر انسانية وملاءمة مما يمكن لمروّجي مؤتمر لهاي أن يتصوّروا

ما أشهر السلاح محمد قط إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادّعى بأن الاسلام استعمل السيف فى نشر الدين ولكن ألد أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقل دليل أومثل من الأمثلة التى أثر فيها الحرب على هداية أى قبيلة أوشخص الى الاسلام

إن هذه الوقائع ما أفادت بلاشك إلافى اظهار كرم أخلاق محمد الذى امتلك كل قلوب مواطنيه وكانت أشد تأثيرا فى الهداية من أى شكل من أشكال الاكراه ، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة التى كان يعاملها النبى للمنهزمين عجائب وغرائب فما أتاه ملتمس إلا ونال أكثر مما كان يؤمل أو يشتهى انتهى

﴿ تذكرة ﴾

ظهر الحق واستبان السبيل . أيها المسلمون — الآن حصحص الحق — وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — هاأناذا الآن أقول بأعلى صوتى وأجهر بأن أهل الشرق وأهل الغرب الذين نحن معهم على هذه الأرض جميعا يعوزهم قول الحق والصراحة واظهار الحقيقة فلنجهر لهم جميعا ولنخاطب أوّلا المسلمين فنقول لهم هاهوذا كلام العظماء من أوروبا فى ديننا الاسلامى ، فأى شهادة هذه وأى عظمة لديننا ولنبينا صلى الله عليه وسلم وأى حكمة أبدعت فى القرآن . هؤلاء نظرهم فى الاسلام نظر عال سام شريف لم يطأطئوا رؤسهم عند دراسة الدين ويدرسوا القشور ويدعوا اللب ، لم يتوجهوا لمباحث المعتزلة وأهل السنة والصوفية والثلاث والسبعين فرقة الاسلامية ولاالخلاف فى البيوع والرهن والحج والصلاة والصوم والزكاة وماأشبهها ، بل هؤلاء درسوا نفس الدين ونفس الروح المحمدية فشهدوا بما علموا ورأوا أن هذا الدين يعلو الى سماء المجد والشرف و يبحث فى الأفلاك والكواكب والطبيعة ومركز العلم . أليس هذا بعينه هوالذى حواه هذا التفسير . سبحانك اللهم وبحمدك . نحن قوم محصورون فى جدليات وعلوم جزئية وخلافات مذهبية وآراء سوفسطائية فنقول حنفية أوشافعية أومالكية أوحنبلية أوشيعية أو وهابية ونتسكع فى هذه الجزئيات ونذر الكليات أو يقول المتعلمون تعلما ظاهريا فى المدارس المصرية والفرنجية ، هل ديننا يوافق العلم ، إن العلم شئ والدين شئ آخر وقد جهل هؤلاء هذه الحقيقة التى قالها (توماس كارليل) و (هنرى) وغيرهما وقالها الامام الغزالى وابن رشد قبلهما وهى أن معجزات الاسلام هى نفس العلوم لا انه ضدها إذن الاسلام غير الديانات الأخرى فالاسلام خاصته العلوم وهى برهانه وهل برهان الشئ ضدّه ولولا هذه الحجب التى أسدلت على العقول الاسلامية ماأعوزنا أن نقول فى (سورة طه) ان عبادة بنى اسرائيل لعجل السامرى بعد مارأوا معجزة العصا برهان على أن خوارق العادات لاتكفى فى الايمان فلابد من العلوم العقلية وقد وجدنا الامام الغزالى أوضحها وهاهم أولاء علماء الفرنجة يقولونها و يقولون إن معجزة نبينا هوالكون ، فهذه حالنا التى كان من نتائجها أن المرحوم العلامة (ادوارد براون) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير قال لى ﴿ لقد ذهبت الى تركيا والى بلاد الفرس بأمر حكومتنا الانجليزية لأعرف هل تتحد هاتان المملكتان فوجدت أن أهل ايران مشغولون بقتل الحسين والروس إذ ذاك يجوسون خلال ديارهم ويحاولون احتلالها ذلك أيام حكم القياصرة قبل اليوم بنحو ٢٥ سنة ﴾ ويقول طالب من الطلاب الفارسيين ﴿ لقد حاربت مع الروس ضد الترك الكلاب الكفار لأنهم من أهل السنة الذين قتلوا الحسين ، فقال لى لقد ضحكت من عقول هذه الأمم وقلت الحسين مضى له ١٣ قرنا ولكن الروس يدخلون عليهم الآن ، فمالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، قال وحكمت بأن هذه الأمم لاتتحد ﴾

أقول وقد تغيرت الحال الآن وتعاهد الفرس مع مصطفى كمال باشا بعد أن زالت تلك العقول الصغيرة . هذه حال المسلمين وأنا وأنت أيها الذكي منهم ، فنحن حصرنا فى إبان الصغر وزمن الجهل فى الجزئيات فلم يتضح لنا جمال الله فى سمواته وأرضه ولم نعرف جمال النبوّة ولابهجة الكمال المحمدى بطريقة مشوّقة مثل الذى يقوله

أمثال (هنرى) وأمثال (توماس كارليل) وأغمضنا أعيننا عن كل ماحولنا من جمال وكمال ، ومانحن إلا قوم أشبه بمن حبسوا فى سجن ضيق مظلم فيه قنديل ضئيل النور وفى خارجه أنوار الشمس البهجة الجميلة فهؤلاء الاوروبيون الذين نظروا فى ديننا ، نظروا وهم خارج هـذا السجن فعقلوه وأحبوه وأحبوا نبينا ﷺ و بينوا ظاهره على مقدار طاقتهم ، أما نحن الذين حبسنا فى سجن التقليد والكتب الفقهية والجدلية وأمثالها فان كل من تخلص منامن ذلك السجن الذى لم يستضىء إلا بالضوء الضئيل الخارج من ذلك المصباح الضعيف عده القوم خارجا عن زمرتهم ورموه بالجهالة ومن هؤلاء العلامتان ابن رشد والغزالى ، هنالك بقى المسلمون فى سجونهم وانحصروا فى جلودهم حتى جاءت هذه النهضة المباركة فخرج من السجن جماعة فى أقطار الاسلام ومن هؤلاء قراء هـذا التفسير فهم والحمد لله اليوم تقابلوا مع من خرجوا من ذلك السجن ورأوا ما رآه الخارجون عنه وعرفوا ربهم وجمال نبيهم ﷺ ومرتبة كتابهم وهم لايأبهون بسفاسف العقول الصغيرة المحبوسة الجاهلة النائمة من أمم الاسلام ، هذا كلامى مع أمم الاسلام ، أما أمم الفرنجة فانى أقول ولى الحق ان أقول انهم الى الآن عباد التقاليد ، فلئن حبس المسلمون فى ظلمات التقاليد واكتفوا بالعلوم الدينية الجزئية وهم الآن يريدون الخروج ، فهاهم أولاء الفرنجة محبوسون فى دين قديم قدأكل الدهر عليه وشرب وقدعرف عقلاؤهم الحقيقة ولايقدرون أن يجهروا بها فهم والمسلمون سواء فى المخافة ، المسلم محبوس فى ظواهر الدين والفرنجى محبوس فى دين قد نسجت عليه عناكب النسيان وذلك كله بشهادة هؤلاء العلماء الأوروبيين فيما تقدم ، أليس هذا هوقوله تعالى ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون ـ

أليس هذا أيضا هوقوله تعالى ـ واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوكان آباؤهم لايعقلون شيأ ولايهتدون ـ وآيات كثيرة فى هـذا المعنى ، فأهل الأرض إذن فى الشرق والغرب قوم مقلدون فأين العـقل إذن . الاوروبيون يعرف بعضهم حقيقة الاسلام فيخاف من أهله وذويه والمسلم يتبع منهبا ويخاف مخالفة أسرته وأهل بلدته ولكن الاوروبى فتح له باب العلم . فيارب أنت خالق الشرق وخالق الغرب وخالق كل شئ وأنت عالم بهـم ومقدر هذا عليهم ، ولقد وضـعت كلا فى درجته التى لايستحق سواها ولقد قضت حكمتك اليوم أن تفتح البصائر وتلهم بهذا التفسير الذى سيقرؤه قوم فى أنحاء هذه الكرة الأرضية ويكون هو وأمثاله بذورا لرقى العقول فى الأمم ويصبح الناس فى مسرة وحبور وحكمة ونور . هذا من جهة الدين . أما السياسة فان أهل الغرب وأهل الشرق لم يصلوا حتى كتابة هذه الأسطار الى سياسة تسعدهم وهذه أوروبا لها جمعيات كجمعية الأمم ، ويظهرلى أن أهل الشرق الآن يريدون أن يكونوا جمعية أخرى و يظهر أن الأمم ستتلاقى فى السياسة ولا أدرى متى يكون ذلك . واذا قرأت كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ عرفت ماهى سياسة الأمم الحالية والتى قبلها ، فسياسات الأمم تقليدية لاعقلية ودياناتهم كذلك بالتقليد لابالعقل . ومن درس هذا التفسير ودرس كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ وقف على حقائق الديانات وحقائق السياسات ونفع الأمم الشرقية والغربية فى أديانهم وسياساتهم ، فلتكن أيها الذكى منهم ولما وفقك الله لقراءة هذا الكتاب كان ذلك علامة على انك من المصلحين النافعين للأمم الشرقية والغربية والله عز وجل يحب المصلحين ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ـ اهـ

﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى ـ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم ـ الخ ﴾

قد مرت عجائب كثيرة فى هذا المعنى كالذى فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى ـ إن فى خلق السموات والأرض ـ وكالذى فى (سورة آل عمران) عند قوله تعالى أيضا ـ وترزق من تشاء بغير حساب ـ وكالذى فى (المائدة) و (الأنعام) و (الحجر) وغيرها من السور ، ولكن لابد من ذكر عجائب هنا لم تقدم هناك ليبتهج

بها المفكرون و يفرح بها العلماء العاملون وهى جوهرة يتيمة فى هذه الآية
إن عناية الله بكل حيوان وكل نبات قد تجلت فى هذا التفسير وظهرت أيما ظهور فى (سورة البقرة) و (آل عمران) و (المائدة) و (الأنعام) و (هود) و (النحل) و (طه) و (النمل) و (مريم) وغيرها من سور القرآن ، ولقد جاء فى كل سورة مما ذكرهنا وغيره مافيه حكمة وعبرة ونور وهدى وجمال وبهاء ولكن الذى أريد أن أبينه هنا تلك الغرائز العجيبة التى تفسر لنا قوله تعالى ـ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ وتفسر قوله تعالى ـ والذى قدر فهدى ـ والحق يقال ان الانسان لاسعادة له إلا بأن يقف على جمال هذه العوالم و يعرف أن هنا عناية فائقة وحكمة تامة شملت أدق الحيوانات الذرية وتكفلت بسعادة كل مخلوق ، ولعمرى متى أدرك الانسان أن هناك هذه العناية التامة والحكمة الشاملة فانه لايشك انه مغمور بتلك الرحمة مشمول بتلك النعمة و يصبح و يمسى وقد رأى رحمة الرحيم العليم الحكيم فى كل يابس وخضراء وجبل و بطحاء وكأن صانع هذه العجائب معه أينما حل أوارتحل ، وليس يصده عن تذكره فى غدوه ورواحه إلا ذلك الحجاب الذى ألقى بين هذه العوالم الأرضية و بين مبدعها فاذا ارتقت النفس ونحن فى هذا العالم فانها تصبح وقد أحست بالسعادة الأبدية قبل أن تزور الرمس ، ومن ملكت هذه الآراء فؤاده فى الدنيا سعد السعادة التامة وليس يزحزحه عنها إلا قواطع الفواجع ثم يردإليها وهو فى حبور ، فمن ذا الذى لايدهش إذ يسمع ماجاء فى مجلة مصريه

(١) أن الفار الذى يسكن بيتنا اذا أحس أن البيت الذى نسكن فيه يريد أن ينقض يفر منه حالا قبل سقوطه بساعات ، واذا أحس بذلك فى المركب هرب قبل وقوع الكارثة فيها * روت سيدة انجليزية كانت تعيش فى زمن الحرب فى منزل قديم فى (نورفلك) فى انجلترا أن الجرذان كانت تقلق راحتها كل ليلة بصريرها ففى إحدى الليالى شعرت بضجة خارقة من الجرذان وكان صوت الضجيج يتجه الى خارج المنزل فاستنتجت السيدة منه أن (الجرذان) تبرح المنزل ثم انقطعت الحركة وساد السكون و بعد ساعة واحدة سقطت قنبلة من منطاد ألمانى وأصابت جناحا من المنزل فدمرته ، أما الجرذان فكانت قد نجت كلها

وقد شوهدت الجرذان تبرح إحدى القرى فى زمن الصيف وتقيم على ضفاف النهر المجاورة لها وتحفر هناك أوكارها ، ولكن قبل سقوط الأمطار بمدة قريبة تعود الى أوكارها السابقة فى القرية فعند مايراها الأهالى راجعة يتوقعون هطول الأمطار وفيضان النهر فهى لهم بمثابة ميزان للطقس يصدق كل الصدق فى الدلالة عليه * و يروى عن إحدى المطاحن أن الجرذان برحتها فجأة واتجهت راكضة الى الغابة المجاورة و بعد وقت قريب طغى النهر على المطحنة واضطر صاحبها الى الفرار بنفسه من دون أن يستطيع أن ينقذ شيأ منها (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ ـ فار المنزل يشعر بما يهدد المنزل الذى يسكنه من الخطر فيفر منه قبل وقوع الكارثة)

(٢) إن الجمل فى الصحراء يمرغ رأسه فى الأرض و يشخرشخيرا متواصلا قبل هبوب عواصف الرمال بوقت قصير فيكون شخيره منذرا باقتراب العاصفة من دون أن يظهرفى الجوّ دليل ما على ذلك

(٣) ويعرف الذين ألفوا صيد السمك (بالصنارة) أن هناك نوعا من السمك يختفى من النهر فى أحد الأيام فجأة فلايعثرله أحد على أثر و بعد اختفائه بقليل يطغى ويحدث فيضان كبير ، فاختفاؤه خير نذيرللصيادين بان النهرعلى وشك الفيضان . ثم إن هـذا السمك يمتنع عن الأكل الى أن تصـل اليه مياه الفيضان فـكأنه يتوقع أن تحمل اليه هذه المياه أغذية جديدة تستحق أن يصوم سلفا و يستعدّ لالتهامها

(٤) ويعزى السبب فى مهاجرة كثيرمن أنواع الطيورالى التنبؤعن الطقس فبعضها يتبع الربيع أينماسار والبعض الآخر يتبع الشتاء . ومن المشهورعن الهنود الحمر فى أمريكا انهـم يتنبؤن عن الطقس بدقة عظيمة ، ولـكن ثبت بعد التحقيق انهم يستندون فى تنبئهم الى تنقلات الطيور والحيوانات . ومن المشهورعن الحيوانات التى تسكن الجبال أن لها خبرة عظيمة فى تقلبات الطقس ، فالوعول والأرانب البرية و بعض أنواع الدجاج البرّى تنزل من أعالى الجبال الى منحدراتها قبل حلول عواصف الأمطار و يكون الجوّ عنـدئذ صافيا والسماء مشرقة ولـكن لايكاد ينقضى يوم أو بعض يوم حتى تتلبد السماء والجوّ بالغيوم وتسقط الأمطار . ومن المعروف عن الأرانب البرية التى تسكن الجبال انها تهجرها فى بعض الأحيان وتغيب عنها بضع سنوات فلاتجد فيهاأثرا لأرنب ، ويحدث فى خلال ذلك أن الأمطارتبقى غزيرة ويكون فصل الشتاء قاسيا ولـكن تلك الأرانب لاتلبث أن تعود فتكون عودتها دليلا على توقع طقس حسن وشتاء محتمل . ولاشـك أن أنواع الطيور والحيوان التى لها غريزة التنبؤعن المستقبل كثيرة جدا فلانرى بنا حاجة الى الكلام عن كل نوع منها بمفرده . انتهى ملخصا من تلك المجلة المصرية (انظرشكل ٢٣) و (شكل ٢٤)



(شكل ٢٣ ـ صورة نوع من الأوزالبرّى يرحل عن المنطقة التى يسكنهامتوقعا اشتداد الشتاء وسوء الطقس فيه مع انه لايوجد أى دليل ظاهر على ذلك عند رحيله)

شكل



(شكل ٢٤ ـ صورة انحدار الوعول من الجبال الى السهول)

هـذا هو الذى أردت تلخيصه ورسم صوره فى تفسير قوله تعالى ـ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم ـ أكتبه فى تفسيرها وأنا أعلم أن كثيرا من الناس يطلعون على هذا وهم لايفكرون ولكن بيانه وتفصيله فى تفسير الآية هنا يجعل له رونقا وحكمة يعقلها أولوا الألباب

﴿ خطاب المؤلف لصانع هذا العالم ﴾

(١) اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على العلم وعلى الفهم

(٢) يارب هاأنا ذا أتيت الى الأرض وسكنت فيها وعشت فى أمم ودول وممالك وهم يتقاتلون وأكثرهم لايذكرون

(٣) بحثت عن الحقيقة أمد الحياة فعرفت انك خبأتها فى صور المخلوقات ودفنتها فلم يطلع عليها إلا الطالبون

(٤) علمت من صنعك أن العداء والدواء والأوصاب والقتال والحروب والقضايا وأعمال الأمم ، كل ذلك دخان قد غشيت به عقول الأمم والأفراد فأكثرهم لايعقلون

(٥) يتطاحنون و يتقاضون و يتقاطعون على زاد قليل وهم غافلون

(٦) وفى أثناء ذلك تظهر لطائفة من تلك الأمم جمالك الباهر وعلمك البديع وحسن صنعك الجيل فيبهرهم جمالك و يسحرهم بهجة صنعك ، فهؤلاء لأجلهم خلقت الدنيا ولاسعادهم أنزلت الدين ، هؤلاء هـم الذين يقومون باسعاد أممهم علما وعملا ابتغاء وجهك و يصرفون حياتهم فى فهم سمواتك وأرضك ولا يرون بك بديلا

(٧) يسخرون من الزخرف والجاه والمال والناس حولهم بها لهجون وهؤلاء لايطلبون جزاء على عملهم إلا مايحسون به فى نفوسهم من الجمال والبهجة والنور ، قد استوى الماضى والحال والاستقبال عندهم وهم بذلك راضون ساكنون

(٨) يرون لطفك وعطفك ورحمتك ورأفتك بالجرذان إذ أنت أعلمتها أن قنبلة ستسقط عليها من مدافع الألمان ليلا فهاجت وماجت وخرجت ثم ساد السكون و بعد ذلك سقطت قنبلة الألمان ، فهذه الطائفة اذا سمعت هذا فرحت وانشرحت وعلمت أن لطفك يحيط بالعظيم والحقير والجليل والصغير والانسان والفيران و يرون لطفك بها وقد أعلمتها بأن النارستشب فى مخازن الجمارك التى عاشت فيها فهاجرت وتركت المكان

(٩) وأى عجب أكثر من أن الوعول والأرانب البرية تنزل من أعالى الجبال قبيل هطول الأمطار ولا علامة فى الجو وانما هى حكمة الحكيم الرحيم أعلمتها بما سيكون

(١٠) الجهلاء من الناس لا يعبؤن بهذه الرحمات إلا على سبيل الروايات ، أما الفضلاء من الناس فانهم يرون هذه العوالم فصلت تفصيلا وقد شملها كلها من سموات وأرضين تدبير محكم منظم لا يشغله العظيم عن الحقير ولا الكبير عن الصغير فهو مع الفأر في جحره ومع الطير في جوّه ومع الكوكب في مداره فكأن هذه الدنيا جسم واحد له رأس وقلب وحواس وأحشاء وأعضاء والروح لا تغفل عن الصغير ولا عن الكبير

(١١) فهؤلاء الحكماء الذين ظهرت لهم هذه المعانى وحضرت فى أكثر أوقاتهم هم المصطفون الأخيار ، هؤلاء يدركون فى هذه الحياة انهم فى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمفكرين الذين يعقلون . وأىّ سعادة أكبر من الوقوف على الحقائق ، هذه هى السعادة التى تصغر فى جانبها جميع السعادات ، هذه هى سعادة كلية من نالها فهو الآن فى جنة العرفان ، يرى أن الرحمة والعلم والنعمة تحيط بالعالم الذى هو فيه وهو يحس بها وسواه من الناس بها لا يعلمون . إن فى الأرض حجابا حجب أكثر الناس عن هذا الجمال كما قال تعالى ـ و بينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ـ فالحجاب مضروب على قلوب أهل هذه الكرة الأرضية ، ظهرت لهم الرحمة نقمة والسعادة شقاء ، وذلك لأنهم فى عالم من العوالم المتأخرة هذا قوله تعالى ـ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ـ

بعد أن كتبت هذا حضر عندى قاضى محكمة (دكرنس) من أعمال (الدقهلية) بالوجه البحرى من القطر المصرى ولما اطلع على عجائب هذه الحيوانات وعلمها بما سيحصل لها قال وأنا أحدّثك حديثا شاهدته بعينى رأسى ، ذلك انى كنت قاضيا فى (مديرية سوهاج) من مديريات الوجه القبلى ومن عادتهم هناك أن المدير وأعيان المديرية يحضرون اجتماعا عاما لافتتاح الترعة المسماة ﴿الترعة الصوهاجية﴾ وهذه الترعة لا تفتح إلا أيام تمام النيل ، قال وقد حضر المغنون والمطبلون والزامرون وما حضرت أنا معهم ليلا فمرّ المدير على منزلى صباحا فلم يجدنى فتوجه لى بالمحكمة وقال تعال معى لنفتح الترعة اليوم ، قال فذهبت معه فوجدت أنواع الحشرات والحيات والعقارب وما أشبهها تجرى جريا حثيثا مسرعة لتدخل البلدة فسألت عن ذلك فقيل لى إن هذه الحشرات والزواحف كل سنة قبيل فتح الترعة بساعات نراها أخذت تهاجر من مساكنها التى استقرّت فيها بهذه الترعة اليابسة ، فهذه الحال نراها كل سنة انتهى

هذه هى الحادثة التى حدّثنى بها القاضى وهو أدرك مغزاها ولكن العامّة لم يدركوا مغزاها ولم يعقلوها ولم يفكروا فيها ، فهم رأوها كما يرون شروق الشمس وغروبها ويرون الولادة والموت . إما العبرة والجمال واما الحكمة فلا ، لهذا نرى المسلم اليوم انما ينقل هذه العجائب عن الأمم الفرنجية لأن كثيرا من الناس هناك يعقلون ما يرون ، هذا ما اتفق لى عند كتابة هذا الموضوع ، وهنا يسأل سائل فيقول « كيف ألهمت هذه الحيوانات أمرا غائبا كهذا فأما الانسان فلا » ونحن نجيب عليه فنقول

(١) إن الله قدّر فهدى وأعطى النعم والحكم بقدر ، أعطى الانسان دولا وممالك وحكماء وعلماء فليس من المصلحة أن يشغله بامور قامت بها دولته التى وزعت الأعمال عليها

(٢) إن علم المستقبل لهذه الحيوانات مقدّر بقدر وهو الأمر العام لعمومهم ومستقبلهم بدليل اننا نقتل الحيات ونصطاد الطيور ولا علم لها بما سنفعله معها . فهذا العلم بالمستقبل مقدّر بقدر وهو النظام العام لها لا لأفراد خاصة

(٣) إن الانسان يتنبأ عند التنويم المغناطيسى كما تراه فيما تقدّم فى (سورة البقرة) عند آية السحر هناك إذ ترى رجلا منوّما (بفتح الواو) قد أخبر بسير مرضه ووصف الدواء لدائه ثم فاجأه عارض فمات فاستنتج العلماء أن نفوس الناس فى حال ازالة الموانع الجسمية تعرف كل أحوالها المستقبلة ولكنها لا تعرف ما يصادفها من العقبات الخارجية

(٤) إن العلم بالمستقبل يصرف الانسان عن العمل له و يقعده فى الكسل وذلك لا يرقيه ومارقى الناس

الا

إلا بأن يجهلوا مستقبل الامور و يلهموا إلهامات جزئيـة كالهام أم موسى ثم هم بعد ذلك يبنون على هذا الإلهام علما وعملا . فأما اذا كان كل شئ ممهدا فلاسبيل الى رقيهم إذن الرقى بالعمل ولاعمل إلا لمن حجبت عنـه الامور المستقبلة فسارع لاسعاد نفسه المجهول عنـده ـ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ـ لتجدّوا فى عملكم حتى تلقونى . انتهى صباح يوم الاثنين (٨) يوليو سنة ١٩٢٩ عند طبع هذه السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ـ ﴾

هل لك أيها الذكى أن أحدثك عما خبرته بنفسى وعرفته من أحوال الناس فى زماننا من حيث طول الأمل بسبب الوسواس الخناس فأحدثك حديث وزير عظيم ومدرّس كبير ورجلين فى بلادالفلاحين بالشرقية

﴿ الوزير ﴾

كنت أعرف وزيرا من عظماء الأمة المصرية وكانت لى معه مجالس علمية فحادثنى يوما قائلا « هل أنت موقن ياشيخ طنطاوى بأن كلام الديانات حق وأن هناك جنة ونارا وسعادة وشقاء بعد الموت ، فقلت نعم ، فتعجب غاية العجب وقال وكيف ذلك فأخذت أذكر الحجج المعروفة فقال هو إن العلم الآن ينفى ذلك وماهذه الدنيا إلادار مغالبة ومكابرة ومصابرة وجهاد ، فالغالب فيها هوالذى ازداد بهااستمتاعا كما هومذهب النشوء والارتقاء كما جاء فى كتاب (بخنرالألمانى) شرحا على مذهب (داروين) وملخص المذهب أن العوالم التى نراها آخذة فى الارتقاء وأقواها يغلب أضعفها وهناك يحصل الانتخاب الطبيعى ، فالطبيعة لاتبقى إلاماهوأكمل وتفنى ماهو أقل كمالا وجمالا . خذ لك مثلا . نحن الآن نركب العربات فى الطرقات ولانركب (الترام) كالعامة واذا ركبنا فى قطارالسكة الحديدية تربعنا فى الدرجـة الأولى بخلاف الناس جميعا وهانحن أولاء نسكن فى مساكن جميلة ونتمتع بنعم عظيمة و يضرب العسكرلنا سلاما بالسلاح . هذا هوالانتخاب الطبيعى وهذا هومذهب (داروين) وأنا به أدين . فهذا الوزير لم يوصلـه العلم الى أكثر من أنه يعيش فى نعيم فى الدنيا وليس هناك عالم آخر وهو يكذب جميع الأنبياء . وأنت تعلم أيها الذكى من هذا التفسير أن نفس النعيم الدنيوى عذاب على صاحبـه فمن لم يروّض نفسه و يتعلم القناعة فى المآكل والمشارب الخ أحاطت به الأمراض وذلّ فى حياته ، ولـكن هذا وأمثاله لايعقلون أكثر مما أسمعتكه فى هذا المقام »

﴿ المدرّس العظيم الممتاز ﴾

لقد كان بمدرسة دارالعلوم مدرّس كبير تخرّج على يديه مئات من المدرّسين فحدّثنى أحدهم مفيدة قال ناقلا عن أستاذه ذاك المدرّس العظيم ، قال لقـد كنت فى أوّل حياتى مجاورا بالجامع الأزهر ولم يكن لى مال واذا جاء زمن البطالة توجهت الى قريتنا بالصعيد فكنت اذا أردت أن أذاكر الدروس أجلس تحت شجرات بالقرب من منزلنا ، فلما أن صرت موظفا ومنّ الله علىّ بالثروة والغنى اشـتريت نفس تلك الأرض التى فيها الشجرات التى كنت أجلس تحتها للمذاكرة أيام الفقر ، فلما أن أشتريت هـذه الأرض استأجرها مؤجرون من الفلاحين فزرعوها قطنا فتوجهت يوما لتلك الأرض وأخذت أجوب جنباتها وأجول فى عرصاتها وقد أعجبنى القطن فتذكرت أيام الفاقة إذ كنت أجلس تحت الشجرات ولا أملكها فأخذت من شدّة الفرح أغنى لهذه النعمة التى نلتها . فهذا المدرّس رأى أن غاية نعم الحياة انه يملك هذه الأرض ولما أحسّ بالنعمة أخذ يغنى ونسى انه من الجامع الأزهر وانه كبرت سنه وان الله يقول ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ـ ونسى قوله تعالى ـ إن الله لايحب الفرحين ـ وكان خيرا له حينما رأى هذه النعمة وتذكرها أن يكثر من الاستغفار كما قال تعالى لنبيـه ﷺ ـ اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ـ

فأما الرجلان ببلاد الفلاحين بالشرقية فان أحدهما وكان له مقام واحترام بينهم قال . ما القصـد من

الحياة ، القصد منها انى اذا كنت ألبس قفطانا لاأنزل الى ملابس الفقراء ، وأما الثانى فانى سمعته يقول ما القصد من الحياة عندنا الجاموسة والبقرة وفيهما اللبن وعندنا الذرة فنحن والحمد لله أغنياء

وانما ذكرت هذا لك أيها الذكى لأذكرك بما تعرف من الناس حولك لجميع أهل الأرض لايخرجون عن أمثال ماذكرته الآن ولكن العلم والحكمة والدين تخرج الانسان من فكرة العامة الى مقام العلماء وآداب الحكماء واذ ذاك يعرف الانسان قوله تعالى ــ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ــ

فياليت شعرى ماهى الوزارة قصيرة الأجل وماهى الثروة والمال لاسيما لمن كبرت سنه فهى إن دامت له فرضا فان حياته وصحته لايدومان . انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ خاتمة السورة ﴾

(خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام فى زماننا والذين سيقرؤن أمثال هذا الكتاب ومن بعدهم)

تقول العنكبوت . أيها العلماء إننى آية لكم لا للجهال . ألم تروا انكم تبنون بيوتكم بطين تحرقونه فيصير آجرا وبه تبنون القصور والدور وتلبسون ملابسكم مما تستنبتونه فى الأرض من الكتان والقطن وما تستخرجونه من الحرير الذى ينسجه الدود وتستعينون بالحديد والخشب على اكمال البناء وتشييد القصور وصنع السفن فى البحار والطيران فى الهواء . فأنتم تبنون وتلبسون وتركبون بآلات مختلفات . أما أنا فلى مصنع واحد فى جسمى منه أبنى بيتى وأصنع طيارتى وأصطاد فريستى وأبنى قنطرتى قام مقام الخشب والحديد والطين واحراقه والقطن وغزله ونسجه ومايتبع ذلك من آلات تنسج وتغزل وأخرى لسقى الأرض ولتنقية الحشيش الخ فدنيا كم كلها قد حيزت لى بأكملها وهذا المصنع الذى فى جسمى انما هو من غذائى الذى تستقذرونه . أنا التى أكلت الحشرات الفاتكات بزرعكم الملطفات لجوكم بتعاطى المواد العفنة فأنا أتلقاها وأفترسها بعد أن أدت وظيفتها لكم ولم يبق إلا ضررها . فهذه تنقلب فى جسمى فى محل مخصوص مايشبه الحرير أو القطن أو الكتان . هذا هو المصنع الذى أعطانيه ربى قام مقام آجركم وخشبكم وحديدكم وقطنكم وتيلكم ولم أحتج الى نجار لبناء سفينتى ولا بناء لبيتى ولا مهندس لجراته ولا آلة بخارية لسقى قطنى . بل مخزنى الذى اختصنى به الله هو الذى كفانى كل ما أحتاج اليه وهذا أيها العقلاء فى كتابكم . يقول الله ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ــ فهذه إحدى خزائنه خصنى بها وحرم سواى وهو ناظر الىّ راحمى بها . أفلستم ترون أيها المفكرون فى هذا العالم انى أكفيكم فى معرفة منظم هذا الكون الذى أحسن كل شئ خلقه . أفلا ترون أن هذا هو الحسن والجمال فقد أحسن الله خلقى ولكن لايعرفنى إلا العلماء المفكرون . فان أردتم دليلا على ربى فأنا أكبر دليل بل نظامى وحده كنظام السموات والأرض وان نظرتم الى أمر المدنية والرقى فأنا مع ضعفى وان بيتى أضعف البيوت . بنيت على الشجر فى أرضكم بيوتى واتخذت سفنا فى بحاركم وأنتم تجهلون وظيفتى بينكم ولا تعلمون انى حارسة لحقلكم وطرت فى الجو بطيارتى . أفلا تحاولون أيها المسلمون أن أطير بآلتى المنسوجة من غزل جسمى وقد قلدنى الفرنجة وأنتم لاتقلدون وفى آيات ربكم لاتفكرون

هذا هو بعض معنى قوله تعالى ــ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ــ انتهى تفسير هذه السورة ليلة الخميس الخامس من شهر مارس سنة ١٩٢٥ م والحمد لله ربّ العالمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع عشر من كتاب «الجواهر» فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء الخامس عشر * وأوّله تفسير سورة الروم)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣	١١	فهم كيفية	كيفية فهم
٥	١٤	مع	مع جواز
٧	١١	لازمة	لازمه
٩	٨	طبيباومهندسا	نبيا وملكا
		و إلهيا	وحكيما
١٤	٣	لينذر	لتنذر
٢٠	٢١	مذبذبين	مذنبين
٢٢	٢	ان موسى	ان موسى لماهمّ
٢٢	٤	لما همّ	
٢٨	٣٢	المربعة	المكعبة
٢٩	٢٩	غربية	عربية
٣٢	١٣	بغيرهذه المباحث	
٣٢	٣٣	ه	ها
٣٤	٦	عن	من
٣٩	١٩	حاسة الذوق هى	حاسة الذوق
٣٩	١٩	ليتشاوروا معه	ليتشاوروا
٤٠	١٠	بصناعة يدها	بصناعة اليد
٤٦	٢٢	البطين	الأذين
٤٧	٩	الأعلين	الأعليين
٥١	١١	هذه	هذا
٥١	١٨	تفذوها	تغذوها
٦٦	١٥	بقوله	بتنوء
٦٨	٦	فى المراتين	فى المرائين
٦٩	٢	وجهل	لجهل
٧٢	٢٨	ويحضوهم	ويحضونهم
٧٣	٢٧	وهوذلك	فى قوله تعالى
٧٤	٣٥	ولاتتجزأ	ولا تتجزأ الى
			عناصر أخرى
٧٥	١١	قدمّنا	فدمنا
٨٠	١٤	وامضت	وأقضت
٨١	٢٣	الاستغفار	الاستغفار وسنزيده
			ياناقريبا فى الجوهرة
			الثانية
٨٤	٣٥	مبينا	مبينا كما تقدّم
١٠٠	١٤	ثلاث	ثلاثا
١١٦	١٧	غارات	قارات
١٢٣	٢٥	ماهوماتحته	ماهوتحته
١٢٥	٦	الضيقة	الضيعة
١٢٦	٤	٤ر١٢٦	٤ر٢٢٦
١٣٠	١٣	يريح	يريح
١٣١	٣	الطبيعة	الطبيعية
١٣٩	٧	كريتين	كرتين
١٣٩	٢٢	عنكبوتا	
١٤١	١٨	التفسير	الكتاب
١٤١	٢٠	النمل	النحل
١٤٤	٧	النمل	النحل
١٤٤	٧	النمل	النحل
١٤٩	١١	فهذه القوة المرسومة	فهذه الكرة
		أمامنا	المرسومة المتقدّمة
١٦٤	٤	يحى	نحى
١٦٨	٢٦	الصواب	الى الصواب
١٦٨	٢٩	مختلفان	مختلفتان
١٦٨	٣٠	ومن الغيرمتعصبين	ومن غيرالمتعصبين
١٦٩	١٤	ولو	
١٧٤	٣٣	العرب	الغرب
١٧٥	١٣	ياصول	باصول
١٧٧	٧	المحاط	المحوط
١٧٧	٣٤	الأطفال	بالأطفال

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨٠	١٣	وهي الزبور والتوراة والقرآن الخ (هذا منقول من أصل الترجمة)	وهي التوراة والانجيل والقرآن ، والقرآن بالنسبة للانجيل كالانجيل بالنسبة للتوراة
١٨١	٩	عليه	
١٨٣	٢١	سواق	سوق
١٨٤	١٦	قدنصروامسيحيين	مسيحيين حقا
١٨٥	٥	خقا صراحا	حق صراح
١٨٨	٩	وعظاءهم	وعظمائهم
١٨٨	١٤	السكون	للسكون
١٨٨	٣٤	بعد	بعد واحد
١٩٠	٦	نذهب	تذهب
١٩١	٨	يهضب	يهطل
١٩١	١١	قيض	قبض
١٩١	١٥	شاعريه	شاعر به
١٩١	١٨	المتوجشة	المتوحشة
١٩١	٣٠	أتهم	اتهم
٢٠٧	٢٣	أحدهم مفيده	أحد تلاميذه

﴿ تمت ﴾

فهرست

الجزء الرابع عشر

(من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم)

صحيفة

مستنتجة من آيات هذه السورة تراها مفصلة

١٣ فأما العشرة التي هي من الله فهي الإلهام ، إجابة الدعاء ، شدّ الازر ، النصر والنجاة من الضر ، الهداية حسن السمعة ، القربى من الله ، التمكن من الخلافة في الأرض ، انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ، فهذه من الله في مقابلة العشرة الأولى

١٤ تقسيم السورة وهي ﴿ أربعة أقسام * القسم الأوّل ﴾ من أوّلها الى قوله ـ لعلهم يتذكرون ـ

١٦ التفسير اللفظي لهذا القسم

١٧ ﴿ الفصل الأوّل ﴾ في قوله تعالى ـ إن فرعون علا في الأرض ـ الخ وملخص هذا الفصل علوّه في الأرض . استضعافه حزبا من أحزاب مصر . قتل الأبناء . استبقاء النساء . انه مفسد . فهذه خمسة قابلها بنظيرها وهي (انه يمنّ على المستضعفين . ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين ، ويمكن لهم في الأرض ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

١٧ رأى (سقراط) في السياسة وهي عنده ﴿ خمس درجات ﴾ درجة الفلاسفة فقوّاد الجيوش فالأغنياء فالحكم الديموقراطي أي حكم المجموع فالحكم الاستبدادي

١٨ البولشفية في مصر قبل (٤٠٠٠) سنة مصداقا لهذه الآية ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ـ وبيان أن فرنسا لم تقم ثورتها إلا بعد أن تهيأت لها الأذهان في القرن الثامن عشر وهكذا دولة الروس لم يقتلوا القيصر في زماننا إلا بعد شيوع الآراء البلشفية فيها هكذا حكم الأمة المصرية قديما فالأسرة التاسعة كان فيها مفكرون فزعزعوا العقائد فلما جاءت الأسرة العاشرة هزم فرعون مصر أمام جيوش الخارجين عليه وأصبحت البلاد فوضى . وبيان ما قاله الكاتب (ابفور) للملك وهو غائب « ان الفقراء أخذوا مال الأغنياء وأصبح من كان يلبس الملابس الفاخرة لا يلبس إلا الأهدام البالية » فالأغنياء قديما في حزن والفقراء في فرح . وأبان أن المحاكم بعثر ورقها وخربت وأن الأمراء والأميرات جاعوا الخ هذه هي الحادثة الأولى . أما ﴿ الحادثة الثانية ﴾ التي جاءت مصداقا لهذه الآية فهي أن الأمة الانجليزية اليوم قد انتصر فيها العمال بلاضرب والوزير اليوم عامل منهم كان فقيرا يسمى (ماكدونالد) ومعه من الوزراء عاملة كانت فقيرة تسمى (مس بوند فيلد) . الكلام على اللطائف الإلهية لانقاذ بني اسرائيل

٢٠ وهذه اللطائف (١٣) بتمامها أنقذ بنو اسرائيل من الوحي الى أم موسى والتقاط آل فرعون له وخوف أم موسى وانه أوتي علما وحكمة وقتله القبطي ووروده ماء مدين وسقيه لابنتي شعيب وتزوّجه باحداهما وارسال موسى عليه السلام وظهور المعجزات وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وأن موسى أوتي الكتاب فهذه (١٣) لطيفة

٢٦ بيان أن هذه الحوادث ابتدئت بفكرة خطرت لأم موسى فاتبعتها ولم تيأس من رحمة الله . وبيان أن هذا الخاطر يخطر كثيرا لأمم الاسلام الحاضرة الآن ليخرجوا من الذل ولكن يعرضون عنها ولكن الله معونته عامة ولاينالها إلا من تعرّضوا لها

٢٧ ﴿ نظرة المسلمين في هذا الزمان ﴾ سينظر مسلمو هذا الزمان في القصص فيقولون « اذا نجا بنو اسرائيل بإلهام خطر لأم موسى ولم تتركه فرفع منار أمّتها ؟ فكيف نترك نحن خواطرنا الشريفة للخروج من الذل ؟ أليس هذا يأسا من رحمة الله الذي ملأ العقول بالأفكار الجيلة ولا مثبط للمسلمين إلا بعض الشيوخ الجاهلين فهم كسحب حجبت نور شمس الرحمة وبعض أولئك الذين يضيعون أوقاتهم في تحقيق أصل هذه القصص

صحيفة

٢٨ هنا لطائف مثل ان الناس يتعجبون من أم موسى والوقائع التى بها نجا بنو اسرائيل . وماهذه العجائب بجانب السحر الحلال فى غرائب المخلوقات و بدائعها إلا كواحد بالنسبة لآلاف . ومثل ان الله فى كل زمان أناسا لهم نزعات بها يرفع الضعفاء ويذل الأقوياء مثل مافعل (ماركس الألمانى) الذى قال للناس « إن نظام الحكومات فاسد » فهذه الفكرة سرت فى بلاد الروس وقتلت القيصر وبانقلاب هذا النظام استقلت أمة الفرس التى كانت نهبا مقسما بين انكلترا وروسيا القديمة القيصرية . فهذه فكرة ألمانية امتدت آثارها الى بلاد الفرس وغيرها فهى كامتداد إلهام أم موسى من نجاة ابنها الى نجاة أمتها

٢٩ ذكر البلاغة التى رآها الأصمعى فى كلام الفتاة عند الكعبة وقولها له « أتعد هذا بلاغة بعد قول الله تعالى ـ وأوحينا الى أم موسى ـ الخ » ولكن مانكتبه فى هذا التفسير هو المقصود لا البلاغة اللفظية التى عكف عليها الكثيرون

٣٠ بيان أن البلاغة المشهورة للمبتدئين ووراءها خزائن العلم ومنها ماجاء فى هذا التفسير فالاقتصار على الايجاز والاطناب والجناس نقص وكيف تستوى البلاغة اللفظية والمعانى الكامنة فى مسألة العصا وعجل السامرى وأن ذلك جاء لتعليمنا أن المدار على الحقائق لاعلى الظواهر . إن الاسلام رحمة للشرق والغرب فانظر الألفاظ العربية فى لغات أوروبا مثل العود وأميرالبحر والحبل والمخزن ، وهكذا أخذت أوروبا الأرقام الهندية والجبر والهندسة وهكذا

٣١ جوهرة فى قوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ أنت يا الله رفعت آباءنا العرب فبذروا بذور العلم فى الأمم ثم دالت دولتهم وهاهى ذه تريد الرقى وهذا كتابك أفسره وقد جاء فى زمان اطلعت فيه على سياسات الأمم قديما وحديثا ففهمنا يارب معنى قولك ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ ومعنى ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية ـ الخ وذلك موافق لقولك هنا ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ . أول هذه السورة علو وافساد وآخرها بغى قارون على قومه وفرحه وفساده فى الأرض فأولها كآخرها ، إن إفساد بعض المسلمين فى الأرض جاء فى قوله تعالى ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا ـ الخ وقد جهل كثير من الأمم الاسلامية أمر الغنائم التى أحلت لرقى الانسان فلما اتخذوها للذات أزال الله ملكهم ، ويشير لذلك خوفه ﷺ علينا من فتوح البلدان وقال انه أخوف مايخاف علينا وقد تم ذلك فعلا وقد فهم أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى أمثال قصة قارون هنا وفهموا قوله تعالى ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ـ فلذلك تورعوا عن الأخذ من الغنائم ولم يتورع كثير من الملوك ومن قرأ (الكوخ الهندى) و (لغزقابس) أدرك أن العلم والدين متحدان فى هذه الآداب

٣٣ وهكذا ستقرأ أيها الذكى رسالتى (مرآة الفلسفة) عند قوله تعالى ـ فاعلم أنه لاإله إلا الله ـ اجمال الفلسفة وأن (أفلاطون) و(سقراط) اتجها لترك زينة الدنيا وهكذا (كنت) الألمانى وهذا عجيب

٣٤ ﴿ القسم الثانى ﴾ من قوله ـ ولولا أن تصيبهم مصيبة ـ الى ـ فعسى أن يكون من المفلحين ـ ثم تفسيره اللفظى

٣٨ جوهرة فى قوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول ـ و بيان أنواع التوصيل فان الحرارة والبرودة تصلان بحاسة اللمس والمذوقات بحاسة الذوق والمشمومات توصل بحاسة الشم والألوان والأضواء والأشكال بحاسة البصر والأصوات والموسيقى بحاسة السمع ولكن التوصيل بالوحى أبعد مدى من توصيل الألوان بالبصر لأن نور الكواكب آت من مدى بعيد جدا يصل لنا بطرق البصر ولكن الوحى أبعد مدى لأنه أتى الى الروح من الله تعالى لامن الكوكب فهذه هى الحكمة فى ذكر التوصيل ، ولهذا المقال ﴿ نتيجتان ﴾

صحيفة

أولاهما ﴾ ان العلوم يجب أن تنوّع طرقها كما نوّع الله لنا التوصيل بطرق مختلفة ﴿ثانيهما﴾ ان جسمنا يستفيد من كل مايحيط به وهذا هداية لنا أن نستفيد من كل حادث يحدث لنا

٤١ ﴿القسم الثالث﴾ من قوله ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ الى قوله تعالى ـ وضلّ عنهم ماكانوا يفترون ـ ثم تفسيره اللفظى

٤٣ عجائب القرآن فى هذه الآيات ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ـ وبيان أن حمد كل امرئ على مقتضى إحساسه بالنعمة كالفقير والمريض والذليل اذا أحسّ بالغنى والشفاء والعزّ وهذه صفة عبيد السوء ألا يعرفوا النعمة إلا بضدها ، أما المصطفون الأخيار فليس يتوقف حمدهم على ايذائهم فهم يدرسون الكواكب والعوالم كلها ويفهمون الحمد فى الفاتحة ، ومتى حمد المسلم فى الدنيا حمد يوم القيامة وأغلب حمد الناس اليوم لفظى وبيان معنى الحمد فى الفاتحة فهو على رحمة موجهة للأجسام وأخرى للعقول ، وفى هذه الآيات تقديس وتوحيد وحمد

٤٤ النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها . نمط آخر فى تفسير هذه الآية ، بيان أن الشكر أعمّ من الحمد وأن الشكر يكون باللسان والقلب والعمل وأسّ هذه الثلاثة العلم ومجامع النعم وأضدادها جمعت هنا ، النعمة موهبة والنقمة تسوق اليها ، وهذا كله جمع فى الليل والنهار ، النهار نعمة والليل عدمها ، وهذا كله بالحركة ، فالحركة كان منها الليل والنهار وفيهما الخير والشر ، ونتج من ذلك كله الأضداد جبل واد بحر برّ خصب جدب وهكذا ، وفى الناس (أعمى . بصير . أصم . سميع) وهكذا وهذا قوله ـ ومن كل شئ خلقنا زوجين ـ الخ ثم بيان أن الله يغضب على كل أمة نامت عن علوم الانسان والحيوان والسماء الخ

٤٦ هنا ﴿أربع جواهر * الجوهرة الأولى﴾ فى قوله تعالى ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ ومما اختاره الله انه وضع القلب مقسما أربع تجويفات والدم متى قابل الهواء الجوّى دخل فى الجهة اليسرى من أعلى ثم نزل الى أسفل ثم ينتشر فى البدن ثم يرجع بالكربون فيدخل فى أعلى الناحية اليمنى ثم فى أسفلها ثم يتجه الى الرئتين وهكذا ، ولكن هذه الدورة تكون فى الجنين على غير هذا الأسلوب لأن الدم الذى يدخل اليه يكون شريانيا لا مادّة فحمية فيه لأن رئة أمه تقوم مقام رئته ، انظر وتعجب كيف تكون الدورة مختصرة فيه وعند الوضع يغير نظام الدورة حالا وتصير تامة فان الحاجز الذى بين الأذين الأيمن والأذين الأيسر لا يكون له وجود فى الجنين ولكن عند الولادة يقفل هذا الحاجز حالا لتتم الدورة ولولا هذا الاقفال لاتصل الدم الوريدى بالدم الشريانى وعاش الناس مرضى أمد الحياة ضعاف الأبدان

٤٨ ومما اختاره الله انه خلق الفيل (المصوّر فى صفحة ٤٨) وخلق أباقردان ينقى الدود الذى يؤذيه فهنا اتحد ساكن الأرض وساكن الهواء على نظام الحياة ، فأما نوع الانسان الذى اتحد فى المسكن والخلق فقد عجز عن هذا الاتحاد ، ويؤخذ من هذا ﴿درسان * الدرس الأوّل﴾ دراسة أسماء الله الحسنى على هذه الصورة مثل (القدّوس السلام العزيز الخ) فهو مقدّس عن أن يخلق داء إلا خلق له دواء وهو السلام الذى أعطى الأمان للفيل ولأبى قردان وهو الجبار حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه الخ

﴿الدرس الثانى﴾ خطابى لأهل الشرق والغرب وتذكير الأمم كلها بأن أخلاقهم كأخلاق النمل فهو يأسر ويستخدم أعداءه ولم يقدروا أن يصنعوا ماصنعه أبوقردان والفيل فى الاتحاد على المنافع

٥٠ ﴿الجوهرة الثانية﴾ ـ وهو الله لا إله إلا هو ـ الى قوله ـ واليه ترجعون ـ ومناسبة هذه الآية لمحاورة (طيماوس الحكيم) مع (سقراط) واستعانته بالله فى شروعه فى معرفة مبدأ العالم ثم أثبت أن العالم حادث

وأن المادة كانت مضطربة فثبتها الله بالعقول والنفوس والعالم كله صورة حيوان واحد فهو عقل جعل فى نفس جعلت فى مادّة وهذا الحيوان من العناصر الأربعة فى نظره ، قال وقبل هذا التكوين لم يكن ليل ولانهار ، فهما ماحصلا إلا بعد تكوين الأفلاك ، والليل والنهار كانا بسبب الشمس وبهما كانت الشهور والسنون ، ثم إن الشمس والقمر والكواكب كلها فيها أرواح تديرها وهم الملائكة ، ثم أسكن الله تلك الكواكب أرواحا جزئية وخاطبها قائلا « أنتم من عنصر الملائكة وسأنزلكم الى المادّة واركب فيكم الشهوة فمن اتبعها نزل الى الحضيض بحسب الشهوة التى غلبت عليه ومن استقام أرجعته الى كوكبه وقال للملائكة أنتم دائمون فربوا هذه الأرواح الجزئية » وهنا بيان ماهوموافق للاسلام ومالايوافق ، ثم أبان طيماوس فائدة البصر وانه نار فى العين يلاقى نارا من الشمس يفيدنا معرفة السماء والعالم ، وبهذا نعرف الشهور والأعوام ويحدث فينا عشق الفلسفة ، وهنا دهش مؤلف هذا التفسير من هذا البيان العجيب فى صنع الله تعالى الذى لايفطن فيه كثير من المسلمين

٥٢ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى قوله تعالى - قل أرأيتم - الخ ههنا حديث الحارث بن همام الذى رأى انه مات وارتفعت روحه وجاءت فى نور بهيج وكان الحق يخاطبه وانه قال له « ياعبدى أنا أحبك » وبرهن له على ذلك بأنه شغله مدة حياته فى البحث عنه والتفكر فى أعماله وانه لن يحب أحد الله إلا اذا كان الله أحبه من قبل ، وأفاده أيضا انه خلق العالم كله لأجله فذهل من هذه الجلة وضرب له المثل بالأب والأم وباقى الأسرة فان كل واحد منهم يقول جميع الأسرة مخلوقون لى بدليل أن كل واحد من الأسرة جعل نافعا للجميع . فهكذا الأمم والدول والأرض وماعليها والشمس والقمر والكواكب كلها تخدم الانسان الواحد وليس يعقل هذا إلا من درس أمثال هذا التفسير بل كل الانسان فى الأرض أشبه باليتيم لاحتياجه الى كل العوالم فآواه الله بها . ومن أحسّ من الناس بهذا الحب حقيقة فان روحه قدارتقت وغيرها لاتزال ناقصة وبيان أن هذا الحب يظهر عند مناظر الابداع فى الطير والنبات وغيرهما وبيان أن الناس بالنسبة للجمال على ﴿ قسمين ﴾ قسم يهيم به وقسم بليد لايهيم . ثم أبان أن الأرواح الأرضية لها صلة بأرواح عالية وهذه الأرواح الأرضية لا قدرة لها على استيعاب هذا الجمال فسلط عليها المرض والحسد والذل الخ لئلا تهلك بسبب هذا الجمال

٥٥ ﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار - الخ وبيان أن قواطع الانسان عن الكمال إيذاء الأعداء من الخارج ومطامع النفس من الداخل فلابد من صبر على الأوّل وعن الثانى . ثم إن أمر الله بالتسبيح والتحميد لانقوم به حقا إلا بالعلم . فالحمد على نعمة غير معروفة حمد لفظى والعلم لايتم إلا بعد زوال هذه القواطع . يقول المؤلف ليقف الانسان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويتأمّل هذا الجمال البديع والنفس لما كانت من عوالم عالية لم ترض من العلم إلا باستيعابه فهى أبدا مجدّة فيه ومتى عرفت اطمأنت . وقراءة هذا التفسير كافية وبقراءته هو وأمثاله يعرف سر كون رضوان خازن الجنة ففيه معنى الرضا . وهذا الذى اتصف بما ذكر يعرف أن الموت نقمة مقدمة لنعمة . إذن هو وكل شرّ مقدّمات للنعم . هذه هى الرحمة العلمية . أما الرحمة العملية فان الانسان يرى كل طير وكل حشرة متمتعات بنعم ربها فى الهواء والشمس والانسان هو الذى حكم عليه بالحجاب عنهما فى منازله وضلّ بالتكاثر بالمال والولد والزينة والزخرف واللذات البدنية والاكثار من الملابس وغيرها ولذلك الاشارة بقصة آدم فى سور كثيرة . ولقد عمهم الله بنور الشمس فحرموا منه بما تقدّم وحظى به كل حيوان ولقد علم الناس ذلك اليوم فى ألمانيا وفرنسا فأخذوا يعلمون التلاميذ فى الخلاء

صحيفة

٥٨ الكلام على التعليم فى الهواء الطلق بحيث يتعلم التلميذ فى الخلاء فاذا جاء المطر توارى التلاميذ فى الخيام . وهنا صورة التلاميذ فى المدرسة التى أنشئت أخيرا فى فرسا (شكل ٢) و (شكل ٣) للتلاميذ على الموائد و (شكل ٤) للتلاميذ فى خيامهم فى الخلاء . وهنا ﴿ خمس فصول * الفصل الأوّل ﴾ فى منافع الشمس وانها بها يكون البخار والفحم والرياح والكهرباء وفى المستقبل سيجمع ضوءها بزجاج بلورى ثم يوزع فلانحتاج الى تلك الوسائط (انظر شكل ٥ فى صحيفة ٦١) ففيه صورة استخدام الأشعة فى المستقبل والفحم والرياح والأنهار والشلالات والمحركات الكهربائية

٦٢ ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه (مقصدان * المقصد الأوّل) مايقوله (ابن خلدون) « إن ارهاف الأطفال فى التعليم مضر يورث الذل كاليهود ، وهذا له علاقة بضوء الشمس والهواء لأن التلميذ المحبوس عنهما ضعيف ذليل »

٦٣ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضرّ بصحتهم و يقصر أعمارهم ، و بيان أن نموّ جسم الانسان يحتاج الى (٢٥) سنة والمدة المقدّرة لكل حيوان بقدر مدة نموّه ثمان مرات ، فللانسان إذن (٢٠٠) سنة ولكنه يموت قبل ذلك لشهواته فى المآكل والمشرب والملبس واللذات

﴿ الفصل الرابع ﴾ فى الكلام على الرحة و بيان أن منافع الشمس لاحصرلها

﴿ الفصل الخامس ﴾ آرائى فى التعليم عند المسلمين ، و بيان أن الكتاتيب التى ورثناها عن آبائنا قذرة غير مستضيئة بالشمس لايدخلها الهواء ، وقد كان النبى ﷺ يوحى اليه وهو على ناقته ، ومن عجب أن الحج وأعماله كالسعى ورمى الجمرات و بساطة الملابس هناك .كل هذه تحضّ على الرياضة البدنية لتتم الصحة والقوّة فضلا عن الثواب ، ولقد أخذ الناس يتعرّضون للشمس و يزاولون الرياضة ، وكل هذا مشابه بعض المشابهة لأعمال ديننا

٦٤ ﴿ القسم الرابع ﴾ ــ إن قارون كان من قوم موسى ــ الى آخر السورة

٦٥ تلخيص معانى الآيات فى أربعة مقاصد

٦٦ تفسير ألفاظ هذا القسم

٦٧ بيان أن خروجه على قومه فى زينته كان مشوبا بالكبرياء والغرور والعظمة وهذا من الكبائر وان كان ظاهر هذا الخروج من المباحات

٦٨ ونظير ما فعله قارون من اظهار الزينة كل مايفعله بعض المسلمين من الولائم والمآتم تفاخرا وتباهيا اذا أرادوا التعاظم والفخر والتكبر على الاخوان ، والكلام على الصبر وكيف يضبط المصلى فكره حتى لايفكر إلا فى الصلاة

٦٩ بيان طغيان قارون على موسى (١) عصى أمره فى تعليق الخيوط التى تذكر بالسماء (٢) تذمره من جعل الحبورة لهارون (٣) عصيانه أمر الله بالزكاة (٤) تسليطه البغى على الافتراء على موسى ، لذلك خسف الله به و بداره الأرض

٧٠ ضرب مثل لحال المسرفين فى مالهم بالمسرفين فى مآكلهم إذ يتعاطى الانسان الأغذية القوية كاللحم والبيض وأمثالها فتمتلئ الأوعية فيموت من هو ضعيف القوّة عن تحمل ذلك فجأة وتظهر البثور والقروح والأمراض فى جسم من هو قادر على تحمل ذلك فلايموت ، فالقوىّ ظاهرا هو الضعيف والضعيف ظاهرا هو القوىّ . هذا مثل من عنده مال ومن ليس عنده

٧٢ تفسير بقية الألفاظ من قوله ــ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ــ الى آخر السورة

صحيفة

٧٣ وهنا لطائف فى قوله ـ فخرج على قومه فى زينتـه ـ وفى قوله ـ تلك الدار الآخرة نجعلها ـ الخ وفى الموازنة بين فهم الصحابة و بين فهمنا ، وذكر حكاية الربيع بن زياد و يرفأ مولى عمر وترك عمر الملابس الفاخرة اتباعا للقرآن

٧٤ الكشف الحديث فى قوله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهـه ـ الخ و بيان النظرية القديمة وهى « إن السموات قديمة لاتنحل ولاتفنى » ثم بطلت هذه النظرية وقال لافوازيه « المادّة لاتنعدم ولاتتجدّد » الرأى الحديث للعلامة (جوستاف لوبون) إذ قال « إن الراديوم يخرج ضوؤه فتنحل به العناصر الأخرى و ينقص وزنها » ومعنى هذا أن المادّة تنعدم . إذن كل شئ هالك حتى المادّة تنعدم . ظهور الوحدة فى النبات والحيوان

٧٧ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ؟ وهل العوالم صائرة الى الزوال ؟ يقول قدماء الفلاسفة « إن المادّة وجودها ضعيف » مستدلين بأننا لم نعرف إلا الأوصاف كالثقل والخفة الخ ويقول علماء العصر الحاضر « إن كل مانراه من المخلوقات الأرضية والسماوية ماهو إلا حركات فى الأثير ، وتنوّع هذه الحركات يظهرها لنا شمسا وقمرا وفحما وقطنا وذهبا وفضة

٧٨ بيان أن الأوضاع مقلوبة ، نرى الشمس جارية حول الأرض والحقيقة هو العكس ونرى المادة موجودة والحقيقة أن لا مادّة ، آراء أفلاطون يقول « إن هذه المادّة لاثبات لها ولاتصح مناطا للعلم » وأرجع العلم للمثل الأفلاطونية

٧٩ يسبح المؤلف ربه ويحمده إذ عرّفه أن أهـل الهند يقولون « إن أصـل المادة عقل » وأن علماء اليونان يقولون « إن الكيفيات المحسوسة البالغة (٣٦) مفرّقة على حواسنا فأين المادة ؟ » وهكذا أقوال علماء العصر الحاضر ونظرية (اينشتين) الألمانى . كل هؤلاء يقرّون ـ كل شئ هالك إلاوجهه ـ هل العوالم صائرة للزوال ؟ أما عند العلماء . فهى زائلة الآن فلاشئ إلا الحركات . وأما عند حواسنا جميعا فان هذه المظاهر التى تتأثر بها تلك الحواس ستذهب فى مستقبل الزمان . إذن كل شئ هالك الآن باعتبار وفى المستقبل باعتبار آخر

٨٠ الرأى الحديث « لاشئ يزيد على المادّة ولكن كل شئ صائر الى الزوال » . ضرب مثل لفهم ما تقدّم برجل أصيب بمرض عصبى فظهرت له الأشباح والناس لايرونها فاذا شفى من مرضه أصبح كالناس لايراها فنحن بهذه الحواس كذلك العصبى فاذا تركناها ظهرت لنا الحقائق . فالمادة بالتحقيق العلمى هالكة الآن وفى الظواهر ستهلك

٨١ ذكر سؤالين وردا على المؤلف إذ جعل النوع الانسانى أشبه بالمريض وجوابه على ذلك أن روحه من عالم النور وسقوطه فى الأرض كالمرض ولهذا رمز بقصـة آدم وبهذا يفسر ـ ليغفرلك الله ماتقدّم من ذنبك ـ فلاذنب هنا إلا السجن فى المادّة الطينية . أما السؤال الثانى فهو « كيف كان الكون صائرا للزوال » والجواب عليه بايضاح كلام (جوستاف لوبون) و بيان أن سرعة النور عند انحلال الراديوم (٢٠٠،٠٠٠) كيلومتر فى الثانية ولوانهم قدروا أن يحوّلوا جراما من الحديد الى نور حين يعدم لكان عندنا قوّة (٦٠٠٠) مليون و (٨٠٠) مليون حصان يجر قطارا حديديا حول الأرض أربع مرات

٨٣ خطاب المؤلف للأمّة الاسلامية . يقول لها « هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا » وهذا سرّ قوله تعالى ـ قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب ـ وهكذا

• ﴿ جوهرتان * الجوهرة الأولى ﴾ فى سرّ ـ طسم ـ . طاء طس إشارة للطائفة والسين اشارة لذهابها

صحيفة

واستعبادها والسين فى يستضعف و يستحي والمفسدين وهذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها ولذلك ترى الميم فى قوله ـ ونريد أن نمنّ ـ وفى ـ ونجعلهم أئمة ـ وفى ـ ونمكن ـ إذن ـ طسم ـ ملخص السورة لأن ملخصها ﴿ غرضان ✽ الغرض الأول ﴾ ان الطوائف الضعيفة لابدمن فوزها فالطاء للطائفة والسين لذلها والميم لنصرها ﴿ الغرض الثانى ﴾ أن تحترس الأمم الاسلامية وغير الاسلامية من الغرور واستضعاف الأمم فاذا قويت أمم اسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاداذا ظلمت ، واذا أصبحت فى ذل فالله يقتص من الظالم للظلوم . كل ذلك فى (طسم)

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى الكلام على الصلة بين آخر القصص وأول العنكبوت ، لقد ختمت الأولى بأن قارون ابتلعته الأرض هو وأمواله وأن العوالم هالكة ، لذلك ابتدئت (سورة العنكبوت) بالتحريض على الجهاد لنخلص من المادّة الطينية لنلقى الله

٨٤ نحن الآن ننتقل من سجن الى سجن فاذا خرجنا من سجن الجوع والشبق دخلنا فى سجنين آخرين كحوزالمال والترف وكالذرية التى نسعى لها ، فنحن خلقنا فى كبد . وقد ضرب له المثل بقصة آدم وقصة قارون . وماجيع الذنوب التى فى الشرائع إلا آثار لما كمن فى هذه النفوس من الشهوة والغضب الخ

٨٥ بيان مايشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة وأن دين المسيحيين ماهو إلا صدى صوت ديانات تقدمت كما نقله علماء الألمان من لوحة بالعراق سنة ١٩٠٣ وهكذا

﴿ تذييل ﴾ حكمة ألقاها الله على قلوب بعض الصوفية وأن الشيخ الشعرانى سأل أستاذه الخوّاص عن الذى يقول انى استغنى بالله عن الدنيا فقال هوجاهل لأن الاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله

٨٧ ﴿ سورة العنكبوت ﴾ وهى ﴿ قسمان ✽ القسم الأول ﴾ من أول السورة الى قوله تعالى ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ

٨٩ التفسير اللفظى وأن الجهاديكون للشهوات ويكون للوالدين ببرهما وللأصحاب اذا كفروا فلايطيعهم . و بيان أن أسباب النزول فى هذه الآية مرتبكة

٩٠ تفسير ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ الخ

﴿ جوهرة ﴾ فى قوله تعالى ـ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ـ وأن الجهاد ﴿ نوعان ﴾ جهاد داخلى وجهاد خارجى . ومن الخارجى الذى يذكرنا بسعادة نوع الانسان وفيه صحة البدن واجتماع الأمم وترك المخيط من الثياب وشرح حال هذا الجهاد بما جاء فى « الرحلة الحجازية » من أن لباس الاحرام والتعرض للشمس راجع لأحوال الانسان الأولى كتمثال (كوفرين) من قدماء المصريين وكذلك التماثيل الرومانية . فالأمم القديمة كلها كانت ملابسها كالاحرام الآن وهذا هوالذى ينشده علماء أوروبا الآن إذ يعمد القوم كل سنة الى الجبال والى شواطئ البحار «لايسترون إلا عورتهم و يتلقون برودة الجوّ وحرارة الشمس لتذهب الأمراض جيعا . إذن الحج أنزل ليرجع الناس كلهم الى حال واحدة فيصبحوا أمة واحدة يتحدون فى الملابس والمدارس والتعاليم والأخلاق والاسلام دين الفطرة

٩٥ ﴿ خطابى للسلمين ﴾ بيان أن الجهاد فى هذه الآية يشمل العبادات والأعمال المدنيّة والصناعات و بيان أن الله لم يدع المخلوقات بلا إلهام إذ ألهمهم أن ينقشوا مايزاولون على الأحجار ليقرأه الخلف . فالحشرات ملهمات والديانات أوحى الله بها وديننا فيه كنوزتظهرالآن وهذا التفسيرنعمة وفى الصلاة كنوزالعلم . و بيان أن المؤلف قد عوتب فى النوم على أنه لم يحضرقلبه فى الصلاة فاتعظ بهذا واستفادفوائد فى نفس هذا التفسير

بيان

صحيفة

٩٦ بيان أن الجاهل لاحظ له فى العبادة إلاحظا ضئيلا وأن حظ العابد كحظ شارب الماء وحظ العالم من العبادة كحظ عالم الكيمياء فى تحليل الماء ومعرفة أسراره وهذا سرّ - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء - الخ ومن الجهاد أيضا الصوم ومعلوم انه قربى ولكن أما آن للمسلمين أن يدرسوا فوائده الصحية كأوروبا أولم يروا كيف استفاد زعيم الهندوس الأكبر (مهاتما غاندى) من المعيشة الفطرية والصوم أى الجوع ونبذ البذخ صحة وعافية ، وقد صام (٤٠) يوما ، وقلل الملابس ، وعرّض أكثر جسمه للشمس فنال صحة يحسده عليها الناس أجمعون وهذا بعض أسرار الصيام والحج

٩٧ أولم يروا الى أن المصابين بكثرة الزلال فى الدم و بتصلب الشرايين يشفون بترك أكل اللحم والبيض الخ وهكذا ينصح الأطباء من جاوز الأربعين بترك اللحم والاكتفاء بالنبات وانه يجب عليه أن يصوم يوما كل أسبوع ، و بعضهم ينصح بترك الأكل (٤٠) يوما و يشرب الماء فى تلك المدّة مع قطرات من ماء الليمون وهذا يجعل الانسان يتحمل الصوم (٤٠) الى (٦٠) يوما ، وقد صام المستر (ارفنج الانجليزى) (٥٠) يوما فتخلص من ضعف المعدة والأعصاب ، وقد شرب أوّل يوم ستة أكواب من عصير البرتقال وأخذ يقلل شيأ فشيأ حتى اقتصر على الماء ، و بعد تمام الصيام شرب اللبن قليلا قليلا ، وفقد فى صيامه (٤٦) رطلا فاستعادها وزاد عليها

٩٩ ضرب مثل لحال العابدين بلافكر فى العبادة بحال قراء القرآن بلاتعقل ، و بيان أن الجهاد إما بالغريزة واما بالعقل واما بالوحى والأخير أفضلها . إن الانسان لا يفرح إلا بممنوع عنه كالياقوت والزبرجد وأسرار الوجود ، فالجاهل يجاهد ليملك الأحجار الثمينة وهو يجهل جمال الوجود ، والحكيم يجاهد ليعرف سرّ الوجود كلاهما جاهد لممنوع عنه

١٠٠ ﴿ الفصل الأوّل الجهاد بالغريزة ﴾ وأن من قرأ أكثر هذا الكتاب عرف أكثر غرائز الحيوان وأن للنمل دولة أكبر من أكبر دولة فى الأرض تعدادها (٥٠٠) مليون نملة

﴿ الفصل الثانى الجهاد بالعقل ﴾ ومثاله ما جاء فى كتاب « كليلة ودمنة » ترجمه (برزويه) الطبيب الفارسى الذى ضرب مثلا لاخوان الصفاء بالحمامة المطوّقة مع اخواتها الحمامات ومثلا آخر بالجرذ مع الغراب والسلحفاة والظبى . فالأوّل تعاون الجماعات المتجانسة . والثانى تعاون الجماعات المختلفة من الانسان كما تعاون النمل وتعاون الفيل مع أبى قردان

١٠٢ ﴿ الفصل الثالث الجهاد بالوحى ﴾ كجهاد رسول الله ﷺ . كان اذا ألمت به حاجة دعا الله واستغاث به كقوله ﷺ « إنك تسمع كلامى . وترى مكانى . وتعلم سرّى وعلانيتى » الى أن قال « اللهم اسقنا الغيث الخ » ، وكقوله أيضا « اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن الخ » وهذه يقولها من أصابه غمّ أودين الخ

١٠٣ وكقوله يعظ أصحابه فى خطبة « أيها الناس قدّموا لأنفسكم الخ » فقد أبان فيها أن العبد يسأله ربه ليس بينهما ترجمان عن ماله وعن أعماله » وكقوله « أحبوا الله من كل قلوبكم » وكنفيه أن كسوف الشمس وخسوف القمر لأجل موت أحد وحياته . فهاهوذا ﷺ جاهد بالوحى فدعا الله وأرشد الناس

١٠٤ وحذر من الدنيا فى خطبة ابتدأها بقوله « أما بعد فان الدنيا خضرة حلوة الخ » وأخذ يشرح مسألة الغضب والرضا من أخلاق الناس ويذم الغدر ولم يقتصر على جهاد من هم عنده بل جاهد من هم فى مكان سحيق . وانه كان يريد أن يجعل الناس أمة واحدة فكتب الى (هوذة) صاحب اليمامة وقال له « إن دينى سيظهر على ملكك » وأمره بالاسلام وأرسل الخطاب مع سليط فأكرم وفادته . وكتب

صحيفة

الى ملك عمان فدعاه ودعا أخاه الى الاسلام وأرسل الكتاب مع عمرو بن العاص . وفى هذا المقام محاورة بينهما و بين عمرو بن العاص وانتهى الأمر باسلامهما

١٠٦ و بعث العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم وأسلم أكثر أهل بلاده . والى ملك الحبشة النجاشى فأسلم

١٠٧ والى عظيم الفرس كسرى فدعاه الى الاسلام فمزق الكتاب فمزق الله ملكه فى زمن عمر اجابة لدعائه ﷺ عليه والى المقوقس ملك مصر مع حاطب بن أبى بلتعة . وهنا تعجب أيها الذكى من هؤلاء الصحابة الكرام وكيف يحاورون هؤلاء الملوك والأمراء و يقنعونهم فى الخطاب و يحاجونهم وأكثرهم أميون

١٠٨ والى ملك الروم وقد أمره ﷺ بالاسلام فأطل على قومه فأشار عليهم بالاسلام فغضبوا ثم أرضاهم بأنه كان يختبرهم . وهنا يتعجب العقلاء فى الاسلام من قول حاطب بن أبى بلتعة للمقوقس « لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به »

بيان عام فى أمر الجهاد وذكر أن المصلى يكرر الرحمة والتربية فى الصلاة وأن هذه الرحمة بها تآلفت الطيور والحمامات وتعلم الفلاسفة بها ضرب الأمثال للتآلف العام وهكذا نبينا ﷺ إذ خاطب الملوك للاتحاد العام

١٠٩ زيادة ايضاح و بيان أن المهديين الى الصراط المستقيم المذكورين فى الفاتحة يجب أن يكون لهم السلطان على المغضوب عليهم والضالين ولهذا قال ــ قل يا أهل الكتاب ــ الخ ثم إن هؤلاء الصحابة كانت لهم لذة روحية بها تحملوا هذه المشاق و بها حرم سيدنا عمر أموال الغنائم عليه وعلى ابنته فخلف من بعدهم خلف افتتنوا باللذات بعد الغزوات وجهلوا آية ــ فلا اقتحم العقبة ❋ وما أدراك ما العقبة ❋ فك رقبة ــ الخ

١١٠ وقد شرع العتق ليكون الغالب والمغلوب أمة واحدة فلما ظلم المسلمون خربت بيوتهم وانكمشوا لأنهم أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا . فانظر مايقوله (سديو) الفرنسى فى سبب انحطاط أسلافنا العرب فى اسبانيا فانهم لما طردوا الموحدين تفرقوا هم شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فأخذهم الفرنج مملكة مملكة . وقاتل (فريننـد) مع محمد الحمار أهل أشبيلية المسلمين فخضعت لفريننـد

١١١ ذكر بعض ممالك شرقى الأندلس إذ حاصرها جيش الأردمليش وقصر بن هود فى حاميتها وسد الماء الداخل لها فسلم القوم أنفسهم للفرنجة ومات كثير منهم بالعطش وكثير بالسيف

١١٢ ذكر بهجة ابنة أحد الموسرين إذ أسرها علج من العلوج فى منزل أبيها وعلى فراشه نفسه وهكذا فتاة أخرى كانت تغنى له لأنها كانت مغنية لأبيها وهكذا يفعل المسيحيون فى المسلمين ما فعله المسلمون بالمسيحيين ــ كل يوم هو فى شأن ــ

١١٣ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الاسلام . و بيان أن أمثال (روسو) و (فلتير) انما أيقظوا أوروبا بما قرؤه فى كتب المسلمين المنهوبة من مصر والأندلس كما تقدم وأن القسيسين والرهبان كانوا ظالمين وحركة الاسلام هى التى أوقفتهم عند حدهم

١١٤ بيان أن أهل فرنسا يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٦ م نالوا حقوق الانسان التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحيت امتيازات الأشراف

١١٥ ﴿ قصة نوح عليه السلام وتفسيرها ﴾ و بيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى وأن قارة (ليموريا) كانت تتصل بآسيا وقارة (اتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت قد رافريقيا وآسيا معا ثم غطاها الاوقيانوس فغرقت . وهناك قارة كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى قرب سواحل أمريكا الجنوبية وأغرقها

صحيفة

الماء . وهناك قصة للطوفان فى ﴿ سجلات جلجميس ﴾ فى بابل . وهناك قصة فى الصين ﴿ جغرافية العالم القديم ﴾ و بيان أن حيوانات مداغشقر مغايرة لحيوانات افريقيا مع قربها منها وحل هذه المشكلة أن هناك قارّة اختفت وهى (ليموريا) وانتقل حيوانها أيام وجودها الى مدغشقر

١١٦ وأما قارّة اتلنتس وقارّة الاوقيانوس الباسفيكى فان الأولى ذكرها أفلاطون والثانيـة عرفت بنقوش وجدت على صخور (جزيرة يستر) و بيان قصة التوراة وأوّلها « رأى الرّب أن شرّ الانسان قد كثر فى الأرض الخ »

١١٧ القصة البابلية والصينية والهندية ، فالبابلية فيها أن (جلجميس الجبار) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت فقصّ عليه قصص الطوفان و بناء الفلك وهى القصـة السومرية بعينها ، والقصتان الهندية والصينية تشيران الى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر كالبابلية عن فيضان دجلة والفرات وهناك فى شمالى العراق بعثة انجليزية تبحث فى بلاد (اور) عن قصة الطوفان

١١٨ الأدوار والأكوار فى اخوان الصفاء إذ يقولون إن البحر يصير برا و بالعكس فى مدة (٣٦) ألف سنة وهذه المدّة التى حدّدوها لادليل عليها بل هى أطول جدا . قصة ابراهيم عليه السلام وتفسيرها

١١٩ قصة لوط عليه السلام وقصة شعيب وعاد وثمود وموسى وتفسيرها اللفظى

١٢٠ الكلام على معنى ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيـده ـ الى قوله ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا ـ الخ و بيان أن السير ﴿ قسمان ﴾ جسمى وعقلى والثانى مرتب بعد الأوّل

١٢١ بيان انى كنت أشك فى هـذا الوجود وأنا شاب وأراه مبعثرا لانظام له وانى قلت انى اذا وقفت على الحقائق سعدت ، ولقد عرفت الحقائق بقدر طاقتى وألفت هـذه الكتب كما عاهدت الله على ذلك . و بيان السلسلة المنظمة من الكواكب ثم المواليد فالعناصر وأن الانسان مختص بمعرفة ذلك وأن الصلاة فى أدعيتها هذه المعانى الخ

١٢٢ نظام السموات ووضع الكواكب فيها منظمة بأبعاد على مقتضى المتوالية الهندسية ونظام المواليد ونحوها هكذا (تراب . جص . ذهب . خضراء الدمن . كشوثى) وهكذا ثم (القرد وأدنى الانسان وأعلاه فالملائكة والله فوق الجميع)

١٢٣ النظر فى المعادن مثل الاسفيداج والاسرب والاسفندرى والفيروزج ومثل ان الألماس اذا دقّ بالمطرقة على الحديد لم ينكسر والياقوت لايعمل فيه إلا الماس والسنباذج ولكن الأسرب وهو جنس من الرصاص غيرناضج مسلط على الألماس . إذن الياقوت سيد المعادن و يعلو عليه الألماس و يحكم الألماس الاسرب . و بيان أن المعدن كلما كنا أكثر احتياجا اليه كان أكثر والعكس بالعكس كالنحاس والذهب ، بيان العناصر عند علماء العصر الحاضر وانهم وجدوا أن الله قد رتبها بحسب وزنها الذّرى بحيث يزيد العنصر عما قبله ذرّتين اثنتين تقريبا فى الصف الأفقى و يزيد ١٦ عما تحته فى الصف الرأسى وقد اشتركت الصفوف الأفقية كلها فى الخواص الكيمائية والصفوف الرأسية تشترك فى الخواص الطبيعية كاللون والطعم والرائحة وهذا عجب أن ترتب ترتيبا أفقيا بحسب الذرات ويكون الاشتراك فى الصفوف الأفقية غير الاشتراك فى الصفوف الرأسية . وهنا موازنة بين هذه الصفوف و بين صفوف الأوفاق المعروفة المنظمة عدا وأن هذه الصفوف المعدنية أدق وأعجب و بهذا نعرف بدائع الحكم الإلهية (انظر جدول وفق مخمس فى صفحة ١٢٥)

١٢٦ جدول العناصر

صحيفة

يكاد يجعل القرآن كله فقها كالقرطبي ، وجواب المؤلف بأن هؤلاء أساتذتنا ، ولكن هذا زمان ظهور حقائق القرآن

١٥٣ ضرب مثل بالعنكبوت عرّفنا ﴿ أمرين ﴾ صنع الله بخلق العالم وصنع المخلوق وهى الأصنام و بيان أن كل من وقفت عقولهم مقهورون ، بيان تسجيل المؤلف على المسلمين جهلهم بمصنوعات الله تعالى

١٥٤ بيان أن الأمم التى تقلّ فائدتها أشبه بالذباب والتى تنفع تكون كالعنكبوت ، و بيان ماجاء فى الاتقان أن معجزة نبينا ﷺ بالقرآن لأن فيها معانى تظهر فى كل زمان

١٥٥ الكلام فى آية - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - و بيان أن أدعية الصلاة وأذكارها قسمان قسم يعطى فكرة التسليم لله وذلك كزمان الليل مثل ذكر الرفع والركوع والسجود وقسم يعطى مثال الحركة والعمل وذلك كالنهار مثل طلب الهداية فى الفاتحة والغفران فى الجلوس بين السجدتين ، إذن بين الصلاة و بين الزمان موازنة وموافقة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ انها أشبه بالعالم الذى نعيش فيه

١٥٦ بيان ما قاله طيماوس الحكيم « ان أمراض البدن يتبعها مرض النفس وهذا ثلاثة أقسام ، و يقول إن الشرّ تابع لسوء المزاج » و بيان ماقاله بنتام ﴿ ان النظافة والعمل تقللان الجرائم والعكس بالعكس وهذه النظافة من خواص الاسلام ﴾ و يقول علماء الهند ﴿ إن الانسان يجب عليه أن يكون فى خياله صور جيلة لاتثير شهوة ﴾ ومثل ذلك مافى كتاب الاشارات (لابن سينا) إذ يقول « عشق الشمائل لا الصور يرق النفوس وكذا العبادة مع الفكر ثم إن الصلاة مبدأ الأمرين رياضة البدن ورياضة النفس » و بالصلاة تقلّ الشرور لعدم القذارة والبطالة وتوجيه وجه المصلى للذى فطر السموات والأرض يجعله مفكرا فى تلك العوالم الجيلة كما يقوله أهل الهند وابن سينا . إذن الصلاة مبدأ لصحة البدن وقوّة الروح . الكلام على سبب اسلام عبد الله كويلم الانجليزى وانه كان فى الجزائر ورأى الوضوء والصلاة فدهش من أن ذلك نصف استحمام ودرس الاسلام ثم أسلم

١٥٨ ﴿ الصلاة اليوم فى بلاد الاسلام ﴾ محادثة بينى و بين الطلبة بالمدرسة الخديوية وأنا مدرّس لهم إذ قلت « اننا اليوم قد خلعنا ربقة الروابط القديمة وأصبحنا نقلد أوروبا فى كل شئ وتركنا الصلاة ولكنا أذلاء لكل الأمم ، أما أجدادنا المصلون الصائمون الذين يعتبرهم صغار العقول فى زماننا غير جديرين بأعظم كمال فقد احترمتهم جيع الأمم » وجواب تلميذ بأن التلاميذ هنا لم يتعوّدوا الصلاة من الصغر فهم تاركوها الآن كما يتركها النساء ، و بيان ماكتبه كاتب انجليزى فى إبان النهضة الوطنية إذ يقول ﴿ إن المتعلمين بمصر فى هذا الزمان ليس عندهم مكارم أخلاق كالتى عند الفلاحين الذين ورثوا حبّ الله والفضائل والأهل والأقارب عن آبائهم ودينهم ، أما هؤلاء فقد تركوا ذلك ﴾

١٦٠ ذكر ما قاله والد معلم ولىّ عهد الخديوى السابق (عباس باشا حلمى الثانى) و بيان ما قاله ناظر المدرسة الفرنسى له من تهكمه بالديانات وما أظهره له الفيلسوف البوذى يوم الأحد بالكنيسة وقوله ﴿ هاهوذا يصلى فما قاله يقصد به هو وغيره أن نترك دياناتنا ليأخذوا بلادنا ﴾ ثم ذكر ما قاله أستاذنا الشيخ حسن الطويل ﴿ انه لما كان جنديا عاقبوه على انه كان يدعو الله لأن المتدينين ليسوا ينفعون فى الجندية وذلك بغش أوروبا لهم وقد رفتوه وفرح

١٦١ بيان ماقاله محمد بك عرابى المشهور والده أن أهل سيلان يحافظون على الجماعة ومن أبى قتاوه ، و بيان ماقاله (هنرى) الفرنسى انه لما رأى المسلمين يصلون هاله الأمر وأدهشته الصلاة ، وممن يحافظون على الجماعة والصلاة الوهابية بنجد والحجاز وطالب الأزهر يقرأ ذلك ولكن عمل الناس على خلافه

صحيفة

١٦٢ ذكر ماجاء فى (كتاب الإحياء) من فضائل المكتوبة من الأحاديث والآثار مثل إن الصلوات الخمس كنهر بباب أحدكم الخ ومثل من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد الخ
الكلام على فضيلة اتمام الأركان وعلى فضيلة الجماعة وانها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة

١٦٣ وههنا أقوال عثمان بن عفان وسعيد بن المسيب وأبى عبيدة بن الجراح والحسن وحاتم الأصم وابن عباس وميمون بن مهران والكلام على فضيلة السجود وأن العبد يكون أقرب الى الله وهو ساجد

١٦٤ الفاتحة وعلوم الحكمة و بيان أن علوم الحكمة كلها قد جمعت فى عشر كلمات وهى المقولات المعروفة مثل الجوهر والكم والكيف الخ وهذه الألفاظ شملت العلوم كلها فهكذا هذه الفاتحة شملت العلوم كلها كما تقدم فى تفسيرها مثل (ربّ) ومثل (العالمين) التى شملت العالم العلوى والسفلى كما ان الجوهر فى المقولات يشمل جميع الأفلاك والمواليد وهكذا ، والفاتحة لها مزية وهى أن الجاهل يتعبد بها أما المقولات فلا تصلح للعبادة وتكرارها لا يفيد معنى

١٦٥ (لطيفة) فى قوله تعالى - ولا تجادلوا أهل الكتاب - الخ و بيان أن الواعظ يسيطر على عقل الجاهل والحكيم يسيطر على عقل الخواص والأمراء على أجسام الناس والأنبياء على الجميع

١٦٦ جوهرة فى قوله تعالى - وكذلك أنزلنا اليك الكتاب - وفيها ﴿ ثلاثة فصول * الفصل الأوّل ﴾ فيما قاله اللورد هيدلى صديقنا ، يقول « إن أهل انكلترا يحبون العدل ولكن كان يجب عليهم أن يفهموا ماهو الاسلام» و بيان انه فى صغره درس القرآن واستنتج منه ما وافقه عليه الخواجه (كمال الدين) وذم المتعصبين من المسيحيين

١٦٨ بيان ميل الناس الى الالحاد لما يرون من أن عقائد الدين المسيحى غير صالحة للتعقل ، وهنا أبان تناقض العقائد المسيحية . قال اللورد هيدلى « المسيح لم يكن مشترعا ولا واضع قوانين فكيف اتبعناه فى أوروبا ، إن شريعته توجب ألا نأخذ بالثأر ولكن نحن ملزمون أن نعاقب الجانى زجرا للآخرين وهذا هو قانون الدين الاسلامى ، نحن فى أوروبا عجزنا عن حفظ المرأة وحفظ النسل ونحن أعظم أمة فى فى البحار وقوانيننا جيلة ولكنها لا تنفذ ونحن لانريد التعذيب للمجرمين فلو اعتنقنا الاسلام لسهل حكم مملكة نصف رعاياها من المسلمين ، لو عرفت أمتى الانجليزية أن الدين الاسلامى دين يرقى العقل لسعت الى اتباعه ، الاوروبيون ينظرون الى دين الاسلام كأنه وحشية وذلك بسبب المبشرين ، الاسلام أرفع من أن يكون له قوم مسيطرون غير الله بخلاف الدين المسيحى »

١٧٠ ثم قال أيضا ﴿ رؤساء الدين المسيحى يطلبون السلطة ولاعبادة لهم ولأتباعهم إلا انظام أيام الآحاد المحترمة عندهم لأنها تظهر فيها الملابس الجميلة ولهؤلاء الرؤساء أجرة من الجالسين فى المعبد على مقتضى الدرجات كدور التمثيل سواء بسواء ، إن ديانات أوروبا كلها خرافات القرون الوسطى فلا هى كدين المسيح ولا موسى الحقيقيين وانما البارونات واللوردات فى انكلترا كانوا يستعملون الشجعان للارهاب الجسمى والكتبة والاكليروس للارهاب الروحى ليحفظوا مايملكون باحداث الهلع والفزع فى القلوب . إن شريعة محمد أعظم من شريعتى عيسى وموسى وان عظمتا . مصداق آية - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم - حاصل فى أوروبا حقا وصدقا

١٧١ وقال ﴿ ديانة المسيح غيرها (سانت بولس) ثم ترجمت تلك التعاليم بتراجم مختلفة مغيرة ولكن الاسلام يكفى رغبات العالم ، فيه ان الله واحد قدوس ، أليس من المخجل أن نرى العقول البشرية الراقية تخضع لإفك الكهنوتية وتحجب عن نظر السماء ومعرفة رب الجميع القهار الذى لا يفرق فى رحمته بين

الأولياء والقوم العادين الجهلاء ، إن مفتاح السماء فى كل مكان وأقل المخلوقات يدير هذا المفتاح ، ولعمرى ما دعا رؤساء المسيحية الى التوسط بين الناس وربهم إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسيسين ، الدين مسؤل عن فظائع كثيرة فى العالم ، وهل فى العالم دين يمكن العالم الانسانى من أن يجمع أمره غير الاسلام ؟ لوأن الأمة الانجليزية كانت مسلمة لكانت ادارة الاحكام أسهل ولحلت الجمعيات الكثيرة الكنيسية ولم يبق هناك شقاق حزبى ولا كانت هناك ضرائب ثقيلة لتوصل الناس الى ربهم ، دين المسيح وموسى كان أسهل الأديان ولكن الخلط عقده وجعله سببا فى الحروب الصليبية التى مات فيها عشرات الالوف ، لم هذا ؟ لأجل ضريح ظن الناس أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، إن المتعصبين وهم القسيسون يحكمون على من لم يتبعهم بالهلاك الأبدى * ويقول (غوردون) ﴿ انه لم يجد بين المسيحيين إحسانا كالذى رآه عند المسلمين ، ليس فى الدنيا سلوى كالتى يجدها من يؤمن بالحقائق لا بمجرد الأقوال ﴾

١٧٣ وقال ﴿ الدين المسيحى شرقى وقد بقى فى أوروبا ألفى سنة ولاجرم أن الدين الاسلامى أرقى منه أفلايسوغ أن يحل الثانى محل الأول مع انه شرقى أيضا ، واذا أنارت المسيحية العالم ألفى سنة فلم لايحل الأسهل منها وهو الاسلام محلها إذ ليس هناك مانع ؟ دين الاسلام يؤيد التوراة والانجيل ويوسع تعاليمهما ، أليس من الجور والظلم أن يحكم قومى على الاسلام وهم لم يدرسوه بل هم لم يفهموا معنى كلمة (اسلام) وكأنهم يرون أن إنارة عقولهم ازعاج لهم ، منذ سنين كنت أقول إن الاسلام يحرم الوثنية والقرآن كلام الله وهكذا الانجيل فلم نترك أحدهما مع انا قبلنا الآخر ؟ أنا مدة حياتى شاكر لله ولكن فى السنين الأخيرة زدت انشراحا وأصبحت فى طمأنينة عظيمة لاحد لها وأنا سعيد جد سعيد ، ولكم كنت أقول إن تعاليم الكهنوتية لا فائدة منها ولكن أثق بأن الله هو الفاعل المختار ولكن لما قرأت القرآن اطمأننت جدا ، القرآن يعطى السلوى للمتعبين فى الحياة وللجناة والخاطئين أصحاب الأعمال الشيطانية فهؤلاء أيضا لهم أمل فى الله رب الجميع ، القرآن يعطى رجاء لكل تائب من هؤلاء ، تعصب الكنائس الأعمى وتنافسها دمرها ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ، منذ سنين طلب بعض الحكام العظام فى الشرق أن يبحث عن دين حق فبحثوا ثم قالوا لانترك ديننا ولواننا شكلنا لجنة لتبحث عن أرقى الأديان لم تجد غير الاسلام ، إن من أعظم النعم أن نعتنق دينا خاليا من الكهنوتية موافقا للعقل وهو الاسلام ، فى الشرق وفى الغرب رجال يعرفون أن الاسلام هو الحق ولاأدرى فى أى وقت سينشر الله هذه الفكرة للناس أجمعين ، ولعله يكون قريبا ، الكنائس المسيحية يناقض بعضها بعضا مناقضة عظيمة ومعلمو اللاهوت وضعوا التعاليم معقدة وجعلوها تدهش العقول ، الكنائس الثلاثة الرومية والكاثوليكية والبروتستانية كلها طردتنى منذ صغرى ولا أدرى ما الذى وضع فى نفسى عدم الثقة بها فى تلك الأيام ، كنت ولاأزال أحتقر ذلك الذى يقف على منصة الخطابة ويحكم على الملايين بالاعدام لأنهم لايوافقونه طلبت من الله أربعين سنة ليعرفنى الحقيقة فعلمت بعد ذلك أن هذا الدين من عمل الناس لامن عمل الله ، وأن زيارتى للشرق ملأتنى احتراما واعظاما للدين المحمدى الحنيف ﴾ اهـ

١٧٤ ﴿ الفصل الثانى ﴾ فيما كتبه (الكونت هنرى دى كاسترى) قال ﴿ كنت أجوب فى جوف الصحارى فى ولاية حوران وورائى ثلاثون فارسا وأمامهم واحد يغنى ويمدح فى كاتب هذه السطور وكنت أصغى الى مديحهم الذى يدل على الانحطاط النفسى بالأراجيز المحبوكة وسنى ٢٥ سنة وكان اليوم جيلا و بينما أنا فى تلك الحال الجيلة إذ سمعت المنشد يقول (سيدى الآن وقت العصر) فرأيتهم حالا نزلوا عن

صحيفة

الخيول واصطفوا لصلاة العصر وقالوا بلسان واحد ﴿ الله أكبر ﴾ فرأيت ماحولنا كأنه يقول الله أكبر وداخلني إحساس وشعور جيل جدا وخشية ورأيتني محتقرا عند هؤلاء الذين يرون أن الله خاص بهم أما أنا فكأني هناك فكرت في الاسلام إذ رأيت جاله الفتان ﴾

١٧٥ ﴿ أدهشتني ظواهر الاسلام ولواني كتبت إذ ذاك لعدني الناس غير محقق ولكنني أكتب الآن بتحقيق إن الكاتبين عن الاسلام ﴿فريقان﴾ المستشرقون ومستعر بوالجزائر وكلهم من الافرنج والمستشرقون أغزر علما ، وأنا وان كنت من القسم الثاني أسأل المستشرقين عفوا ، فأنا لست ممن كتبوا من غير إمعان فكر مثل المسيو (لوازون) . أنا لست بهذا الكتاب متعصبا للاسلام ولكن الاسلام صار مسألة من المسائل الكبرى شغلت أذهان الباحثين حتى أسست لها مجلة علمية في باريس نجح بها المسلمون وساعدهم المسيحيون بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه ، فأنا أريد بهذا الكتاب أن أبين كثيرا من الخطأ في الاعتقاد بالنبيّ العربيّ ودينه وهذا الخطأ أملاه التعصب الأعمى من بعض المسيحيين الذين يقولون عن المسلمين انهم يبغضون المسيحيين مع انهم هم يبغضون المسلمين ﴾

﴿ صدق سيدنا محمد ﷺ ، محمد والأغاني المعروفة بأغاني الاشارات ، محمد والتاريخ ، أصل الاعتقاد ، الوحي بالقرآن ، ليس محمد مبتدعا ، هل كان على الدوام صديقا ، وفاته ﴾

كان لي صديق في تلمسان وكلما بحثنا في الدين قال الله يلد عند المسيحيين ومحمد نبيّ المسلمين ساحر فلادين إذن ، هل يعلم المسلمون أقاصيص الأغاني ضد الاسلام في القرون الوسطى وقد كانت سببا في الحروب الصليبية ؟ هل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد فيها دين الاسلام هو عبادة الأصنام وأن لهم ثلاثة آلهة و بعضهم زاد له إلهين والآلهة هم (ماهوم) و (ابلين) و (ترفاجان) و (بافوميد) و (ماهوميد) وهو محمد ، وهل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد تقول ان محمدا جعل نفسه إلها ، أفلا يدهشون أن محمدا عدوّ الأصنام يطلب منهم عبادة نفسه في صورة وثن ، هل يعلمون أن هؤلاء المتعصبين يقولون ﴿ إن الإله (ابلين) كان في مغارة ولما انكسر جيش الاسلام سبوه وداسوه بأقدامهم وهشموه . وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتهينه . ثم تاب المسلمون واستغفروا واصطلحوا مع آلهتهم ولذلك كسر تلك الأصنام الأمبراطور (كارلوس) في سرقسطه ﴾ . كل ذلك في تلك الأشعار . وقال (ريشار) في أناشيده قوموا ونكسوا صنم ماهوميد الخ وذكر أن صورة ماهوم صنعت من أنفس الأحجار والمعادن وهناك وصف بديع جدا لتلك الأصنام يظنّ من سمعها أن الواصف شاهدها عيانا وماهوم هذا كان جوفه خاليا فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار . ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدّة وقد انهزم المسلمون بعث قائدهم فطلب الإله من مكة وحوله الطبل والزمر والغناء والرقص . وقد وضعوا في جوفه عفريتا فكلم الخليفة . وهذا الصنم جعلوه علامة الدين الاسلامي كما ان الصليب علامة الدين المسيحي

١٧٧ وفي تلك الأناشيد أن المسلمين لما انكسروا أخذوا ينادون تلك الأصنام وهم في هرج ومرج . إن هؤلاء المنشدين لايعتقدون صحة تلك الأناشيد وانما هؤلاء هم شعراء القرون الوسطى . فأما المؤرخون بعدهم فقد حشوا كتبهم بالأقاصيص الخرافية وان سموا أنفسهم معتدلين . ومن عجب أن البروتستانت أيضا متعصبون على الاسلام يذمّونه . انظر الى كتاب (ريلان) و (دون ماتينو) صاحب سراج الكنيسة إذ يقول إن كتاب محمد هزؤ والمسلمين جبر وحر وحشية وكسالى وهكذا . و يقول (پروشار) المسلمون فاسقون مفرطون في نسائهم الخ

صحيفة

١٧٨ إن المسلمين لاهمة لهم إلا اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ولم يتغير أسلوب المسيحيين إلا سنة ١٧٣٣ م إذ ألف (بريدو) المسيحي سيرة حياة محمد ذي البدع وقال إن غرض الكتاب خدمة الدين المسيحي وكان سلاحه الوحيد الشتم والذم ، وجعل (داماسين) الاسلام بدعة مسيحية ، إن مسألة صدق النبي متفق عليها بين المستشرقين تقريبا ، وهنا ذكر اسماعيل وديانته وانها تلاشت وحل محلها عبادة الأصنام ثم دخلت اليهودية والنصرانية ، وبيان أن النبي ﷺ لم يكتب ولم يقرأ ، وهنا يعجز الباحث عن معرفة المصادر التي عرّفته ماجاء فى القرآن من الديانات المختلفة ، على انه لو قرأ تلك الكتب لأقرّ بالتثليث مع انه موحد

١٧٩ لما وجد ﷺ الأمم العربية عابدة للأصنام وهناك قوم يعتقدون التثليث وهكذا لزم الخلوة مفكرا فى الكون ولما بلغ الأربعين جاءه صوت من الحق ﴿ الله أحد ﴾ أما الوحى بالقرآن فهو مشكلة لم يحلها أحد من الباحثين ، إن العقل يحار كيف تصدر آيات عن رجل أمى أصغى اليها عقبة بن ربيعة وأقنعت عمر بن الخطاب وأبكت النجاشى . إن فصاحة القرآن لا يعرفها الفرنجى بالترجمة

١٨٠ إن العقل ليدهش كيف تؤثر الفصاحة هذا التأثير وكيف كان يتحدّاهم بسورة و بعشر سور مفتريات . القرآن متمم للكتب قبله فلذلك يذكر بعض مافيها فهذه وظيفته . القرآن للانجيل كالانجيل بالنسبة للتوراة . وهنا ذكر الآيات الدالة على أن دين الله واحد . إن النبي ﷺ فى أوّل حياته معتقد بصحة نبوّته ولاجرم أن نصره فى آخر حياته يثبت هذه العقيدة . لما قهر العرب لم يظهر العظمة ولا اتخذ وزيرا

١٨١ اننا مهما اجتهدنا فنحن به جاهلون . وقول (ريشار) انه كان فى آخر حياته شاكا خطأ محض . وكيف لا يكون كذلك وهو باجماع المؤرخين الصادقين قد بقى بحاله الى الموت فأضلّ المنشدين من النصارى الذين قالوا إن محمدا قدمات تنهشه الخنازير وهو نشوان وليس عنده نصير ولامعين وأن المسلمين حرموا لحم الخنزير لأجل ذلك

١٨٢ وكيف يقولون ذلك وهو ﷺ لما مرض خطب خطبة قرأ فيها آية ـ اليوم أكملت لكم دينكم ـ ثم رجع الى بيت عائشة وأمرها بتفريق ماعنده من المال للمعوزين ثم قال للناس من له علىّ حقّ فليأخذه وقال ـ لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة ـ ومات بمعاودة سم الشاة المسمومة عند اليهودية زينب فى خيبر وصار يقول (يارب أعنى على سكرات الموت)

١٨٣ الاسلام فى زمن الفتح لم يكن له من الأنصار سنة ٦٢٤ هـ فى واقعة بدر إلا ثلثمائة وأربعة عشر فمامضى قرن حتى اجتاز الالب وتوسط البلاد الفرنسية وأسلمت الشام والعجم ومصر و بلاد الغرب من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس بعد اضطراب شديد وانتشار الدين كانتشار السوائل . وأكبر المعاندين للدين كانوا هم العرب لشدة تمسكهم بعوائدهم . والأب (بروغلى) يقول إن أبا بكر وعمر كانا أعقل من القياصرة والحكام فحاربوهم وانتصروا عليهم ولما ذهبت دولة العرب بعد قليل بقى الدين معهم

١٨٤ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فيما ذكره العلامة (توماس كارليل) يقول « إن من أكبر العار والسبة على المتمدينين أن يقولوا ان محمدا خداع مزوّر كذاب . وأنا أعجب كيف يروج الكذب بين الناس الى هذا الحدّ ومن عرف علوم الكائنات دهش من هذه الأكاذيب على نبىّ العرب . وهل يستطيع الرجل الذى يجهل فن البناء أن يبنى بيتا ؟ كلا . فضلا عن انه يدوم (١٢) قرنا ومحمد بيته مضى له (١٢) قرنا يعيش فيه ملة: مليون من الأنفس فلولم يكن هو بناء لانهارت أركانه ! ما أكذب الذين يكذبونه وماأجهلهم وماكذبهم إلا من قبيل الأوراق المالية المزوّرة . هل يكون الرجل العظيم كاذبا ؟ كلا . إن الصدق أساسه أن المخلص

صحيفة

لايتوقف اخلاصه على ارادته هو مبعوث من الأبدية لايعتبر الاصطلاحات وانما يسير الى الحقيقة رأسا

١٨٥ الرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا ، بلاد العرب وعرة فيها بعض الرياض فهكذا العربى صامت كثيرا واذا تكلم كان كلامه قليلا وهومملوء حكمة ، العربى متدين كاليهودى ولكن العربى ذومحامد جمة

١٨٦ مات أبوالنبى ﷺ عقب مولده وتوفيت أمه بعد (٦) أعوام وكفله جده ثم عمه فصحبه فى التجارة تارة وفى الحرب أخرى ولم يقابل (بحيرا) إلا وهوصغير فكيف يتعلم منه . صناعة الخط لم تكن فى بلاد العرب إذ ذاك إلاقليلا ، إن محمدا ﷺ غنى عن المعلم وعن الخط . هوأمين صادق صامت بشوش الوجه

١٨٧ وقد كذب من قال ان محمدا ﷺ يريد الشهرة والمفخرة له وهوالاخلاص كله . يحقر جدليات اليونان وأصنام العرب وروايات اليهود المبهمة وأوثان العرب والعادات والاصطلاحات . ويحقر تيجان كسرى وقيصر وجميع المظاهر

١٨٨ كان يخلو بنفسه فى (غارحراء) لينظرفى هذا الكون فلما ظهرت له الحقيقة أخبر بها السيدة خديجة وأن الله واحد فنتوكل عليه ونسلم الأمر اليه فلم يصادف إلا سخرية من القوم فلم يؤمن به فى ثلاثة أعوام إلا (١٣) رجلا ولم ينصره من أسرته حين خطب فيهم إلا على وجميع القوم يضحكون و يسخرون من رجلين يقومان لاصلاح العالم كله . وفى سنة (١٣) من رسالته تألبوا عليه جميعا إذ اتفق أربعون رجلا من جميع القبائل على قتله فرحل الى المدينة

١٨٩ وهناك لم يجد مناصا من حربهم . ومن زعم أن محمدا نشردينه بالسيف فقد أخطأ وهل أوجد السيف إلا ذلك الرأى الجديد ؟ ولقد فعل (شرلمان) بقبائل السكسون مثل ذلك . إن النصرانية أيام ظهور الاسلام تصدع الرأس لاحياة فيها إلا قليلا

١٩٠ هذا الدين حق . جاء محمد وشيع النصارى فى جدال وتخبط بالحجج العقيمة فأنار الوجود وأزال الظلام . القرآن معجز أعظم اعجاز ولكن الاوروبى لايقدر أن يدرك ذلك الاعجاز لأن الترجمة ذهبت برونق القرآن القرآن كتاب تشريع فى كل زمان ومكان دام (١٢) قرنا . لقد كذب (براديه) وأمثاله إذ يقولون إن القرآن أخاديع وتزاويق . كانت حياته ﷺ كلها خطوبا فى مدة (٢٣) سنة التى بلغ فيها الرسالة ومحاربات ومحاورات ومخاصمات داخلا وخارجا

١٩١ كان ﷺ يكتفى من المعجزات بالكون فيذكر لهم السحاب المسخر يخرج بصيبه النبات والشجر . ويذكر لهم السفن التى تجرى فى البحر والجبال الشامخات و يقول انها ستفنى . ووالله ان العلوم التى يقرؤها الناس فى العصر الحاضر لتذهب برونق الكون انها ميتة وهل يذوق لذة جمال هذه الدنيا إلا العابد ذلك هوالذى انفتحت بصيرته فعشق الوجود أما العلوم العصرية فهى وحدها ميتة فى النفوس . لم يكن محمد ﷺ أخا شهوات وكيف يكون أخا شهوات من كان عفيفا قانعا متقشفا فى كل أطواره . خشن اللباس والطعام ساهر الليل عابد ربه يحقر الملك والمال والصولجان مما يتطلع له أصاغر الرجال . عاشر القوم فخلب ألبابهم بلطفه . بكى على زيد مولاه برقة وعطف . انه كان شفيقا رحيما . انى أحب محمدا لأنه رجل لايتصنع . كان ماضى العزم لم يكن عابثا . أما الرجل الكاذب فهوذلك الذى قد تضاءل شعاع الله المنبعث فى روحه فأصبح ظاهرا لينه ولطفه كامنا لؤمه وخبثه . إن نفس المؤمن ترجح بجميع دول الأرض

١٩٣ صوت محمد ﷺ صوت الانسانية كلها وليست الجنة كلها مادية بل ذكر أن فيها السلام والامن والامن

صحيفة

لاوجود له فى الدنيا وهكذا الصفاء وعدم الغل وما أجله وفى القرآن عظمة العمل الانسانى وأن له أثرا كبيرا بعد الموت وهوحق . كان قلبه ملتهبا يتوقد واخلاصه لانظير له . ما أشرف هذا الدين وأعظمه وقد مضى له (١٢٠٠) سنة وخمس العالم الانسانى يتبعه ولم تعتصم أمم بدينها كاعتصام المسلمين بالاسلام محمد ﷺ أخرج أمة من العدم أحياها بعد موتها ، فهل أحياها بالكذب ؟ كلا . انه حوّل الخمول الى نشاط والتفرّق الى اجتماع ولم يمض على رسالته قرن حتى أصبح للعرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، كل ذلك منبعه الايمان ، أفلاترى ذلك شرارة من السماء تأججت واشتعلت بين غرناطة ودلهى انتهى . الكلام على (توماس كارليل) مؤلف هذا الكتاب وانه من (اسكوتلانده) ولد سنة ١٧٩٥ وهنا ﴿ جوهرتان * الأولى ﴾ فى ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات ﴿ الثانية ﴾ فى ثناء المؤلف على الله وتبيان قول (توماس) أن محمدا ﷺ لا يكتب ولايقرأ وقوله انه لم يتعلم وقوله « إن محمدا ﷺ كان يقول هذا الكون هوالمعجزة » وأن هذه الأقوال هى عين آيات القرآن . و بيان أن هؤلاء الغربيين لم تتقيد عقولهم بقشور الاسلام فأمكنهم الوصول الى الحقائق الأصلية بخلاف صغار العلماء من المسلمين الذين غشت على عقولهم العلوم الجزئية وجهلوا الكليات ثم الكلام على شكوى اللورد هيدلى من أكاذيب القسيسين على نبينا ﷺ وأن هذا هوقوله تعالى ـ اتخذوا أحبارهم ـ الخ وهنا يحمد مؤلف التفسير ربه أن هذا الزمن قد ظهرت فيه معانى القرآن واضحة عملا فى أوروبا وانه قد نال ماكان يتلمسه صغيرا من معرفة نظام العالم ومعرفة وجود خالقه ومعرفة ماتقوله أوروبا فى ذلك ومعرفة مابه يرتقى المسلمون

١٩٦ ويقول مؤلف هذا التفسير أيضا انه دهش جدا من أن أوروبا التى بهرت العالم بصنائعها وعلومها تمشى وراء هؤلاء القسيسين بلاعقل ، وكيف يحرّف الكلم عن مواضعه أولئك القسيسون . وكيف عجزوا عن البراهين واكتفوا بذم سيدنا محمد ﷺ والمسلمين مثل قولهم « المحمديون حير ونبيهم يحب النساء والمسلمون مربوطون بحبال الشيطان ونبيهم مرتكب الخطايا يحتاج الى من يخلصه لأنه كان دنيويا الخ ودين الاسلام يشجع على الزنا والجنة أصبحت كرخانة » وذلك بأقلام كتاب هؤلاء القسيسين فى أمريكا وأوروبا

١٩٩ ثم هنا ذكر (اللورد هيدلى) أن هؤلاء لم يتعلموا مبادئ الدين المسيحى الذى يحقر الكذب فقد كان ﷺ يحتمل الاضطهاد بصبر وثبات وهو فى مكة (١٣) سنة لايخشى أعداءه وهوعفوّ محسن شجاع كريم . ومن العجب انه عفا عن الذين أرادوا قتله . لقد عاب هؤلاء الكاذبون المسيحيون الاسلام لأجل السلب والنهب اللذين أتت بهما القبائل المتوحشة . إذن فلتعب المسيحية على محاكم التفتيش التى يرفضها الدين المسيحى . إن قوّة أخلاق الرجل تظهر فى المحن ومن لم تصادفه المحن فمن أين تظهر أخلاقه ؟ هل يمكنك أن تعلم الصبر إلا اذا أوذيت فصبرت . لا فضائل إلا أثناء المحن . إن محمدا كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى . كان ﷺ شديد الغيرة على دين الله فكسر الأصنام وقاوم عبادتها مع شدّة صلابة العرب وتمسكهم بعبادة آلهتهم

٢٠١ ما أشهر محمد السلاح إلا عند الحاجة القصوى ـ لا اكراه فى الدين ـ

﴿ تذكرة ﴾ يقول المؤلف لابد من الصراحة وقول الحق وتخاطب المسلمين والفرنجة . أما المسلمون فانه يقول لهم « هاهم أولاء كتاب أوروبا نظروا الى الاسلام من حيث جوهره ولم تقنعهم المسائل الجزئية ولاالمذاهب المختلفة كالشيعة وأهل السنة ولذلك قالوا ان جوهره هى علوم الطبيعة والفلك وجميع الموجودات

ان

صحيفة

إن هنرى وكارليل يقولان مايقوله الغزالى وابن رشد بخلاف أكثر المسلمين الذين تعادوا لأجل أمور جزئية كقتل الحسين رضى الله عنه الذى كان سببا فى كره جهلة الشيعة لأهل السنة والعكس وكان لذلك أثر فى السياسة العامة . إن المسلم أشبه بالمحبوس فى مكان فيه نور ضئيل بعد القرون الأولى وفلاسفة أوروبا نظروه فى ضوء الشمس وقد قابلهم قراء هذا التفسير . ولقد حبس الاوروبيون فى دين عتيق أكل الدهر عليه وشرب ودحضه عظماؤهم . إذن أهل الشرق وأهل الغرب قتلهم التقليد . هذا من جهة الدين . أما السياسة فهاهم الى الآن لم يقوموا بما يجب فيها وكتابى (أين الانسان) شاهد بذلك ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى — وكأين من دابة لاتحمل رزقها — الخ

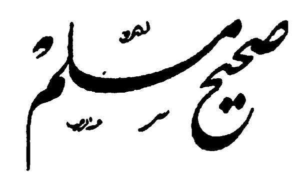
٢٠٣ بيان أن عجائب الحيوان ذكرت فى أمثال (آل عمران) وغيرها ولنبين هنا أن سعادة الانسان موقوفة على العلم . أوليس من المدهش أن يرى الانسان الجرذان قبل هطول الامطار بمدة قريبة تعود من أوكارها على ضفاف النهر الى أوكارها فى القرية فهى أشبه بميزان للطقس . وهكذا الفأر فى البيت قبل أن ينقض عليه بزمن يسير يفر حالا (انظر شكل ٢٢) والجمل فى الصحراء يمرغ رأسه قبيل هبوب العواصف حيث لاعلامة تدل عليه و بعض السمك قبل أن يطغى النهر لايأكل لعلمه أن غذاءه سيحضر مع الفيضان القريب والطيور تعرف حال الطقس قبل تغيره كالوعول والأرانب إذ تكون السماء صافية فتنحدر من الجبال و بعد يوم واحد يظهر السحاب والمطر . وفى (شكل ٢٣) صورة نوع الأوز الذى يرحل من المنطقة قبل اشتداد الشتاء

٢٠٥ (شكل ٢٤) صورة انحدار الوعول من أعلى الجبال . خطاب المؤلف لله يقول انه سكن الأرض وأهلها يتقاتلون و بحث عن الحقيقة فوجد أن أكثر الناس فى شهواتهم مشغولون وهم متقاطعون وفى أثناء ذلك يظهر أناس يعرفون آثار جمالك و يسخرون من الزخرف و يعجبون من لطفك بالجرذان وعطفك على الأرانب البرية والوعول وهذه المزايا لايعرفها الجهلاء . أما المفكرون فى أمثال هذا فلا سعادة إلا لهم بل هم فى جنة العلم والعرفان فى هذه الحياة . ولقد رأى قاضى (صوهاج) الحيات والعقارب تفر مسرعة قبل فتح الترعة الصوهاجية بساعات وأخبره أهل البلدة أن هذه دأبها كل سنة . ولاجرم أن هذه الحشرات والزواحف لاتعلم بالمستقبل إلا ماكان لعمومها أما مايخص أحدها فلا بدليل قتلنا للحيات وصيدنا للطيور . وقد يعلم الانسان مستقبل نفسه فى التنويم المغناطيسى وانما حرم من هذا العلم عادة لأنه يغرى بالكسل فجهل المستقبل يحثنا على العلم والعمل

٢٠٧ (لطيفة) فى قوله تعالى — وان الدار الآخرة لهى الحيوان — الخ وحكاية وزير مصرى قال للمؤلف « إن مذهب النشوء والارتقاء به تمتعنا بالقصور والعظمة والمال أما الآخرة والجنة ونحوها فلا . وحكاية مدرس عظيم اشترى أرضا كان فى فقره يجلس تحت شجرها فلما اشتراها فى كبره فرح بها وغنى وهو مخطئ فى فرحه وهكذا رجلان فلاحان كل منهما فرح بما عنده ملابس أو أنعام اوحبوب

٢٠٨ ﴿ خاتمة السورة ﴾ خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام تقول « إنكم تحرقون الطوب لتبنوا وتزرعوا لتأكلوا وتلبسوا أما أنا فساكنى ومآكلى بسبب هذه الخيوط فنها مراكبى فى البحر ومناطيدى فى الجو وشبكة صيدى فى الأشجار . فهذا مخزن من مخازن الله تعالى وقد طرت فى الجو فقلدنى أهل أوروبا أما أنتم فانكم فى آيات ربكم لاتفكرون »

(تمت)



جمع

إمام الأئمة الحفاظ . وعلم المحدثين الأفذاذ

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى

الكتاب أشهر من أن يوصف . يحتوى على نيف وسبعة آلاف حديث صحيحة فى غاية الثقة والاتقان

وهو الصحيح الوحيد الذى تلقته الحفظة المحدثون بالقبول وأذعنت له العلماء الفحول وعليه مدار الصحاح فى المعقول والمنقول

لذلك تهافت العلماء على شرحه ودرسه لما فيه من الفوائد الجمة . كيف لا وهو كلام سيد الأئمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وقد طبع عدة طبعات مختلفة . وبالنظر لتهافت المسلمين على اقتنائه أصبحت نسخه أثرا بعد عين

وقد طبع أخيرا طبعة مصححة بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف على ورق جيد وحرف جميل بأشهر المطابع المصرية مذكورا بها الأبواب فى صلب الكتاب (لأول مرة) وعليه شرح وجيز حل المشكل من ألفاظه انتخب من شرح الامام النووى والأبى والسنوسى وغيرهم من الشراح المشهورة بمعرفة لجنة من العلماء برآسة العلامة المرحوم الشيخ محمد ذهنى رحمه الله . وهو فى مجلدين